

نهاية الأرب في فنون الأرب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء التاسع والعشرون

معين التار^جح
لأهل التار^جح

مراجعة

د. محمد مصطفى زيادة

تحقيق

د. محمد ضياء الدين الرئيس



1870

1871

1872

1873

1874

1875

1876

1877

1878

أشرف على طبع هذا الجزء وتصحيحه
الأستاذ/ السيد حسن عرب
الباحث بالمركز



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

باسم الله ، والحمد لله ، وبعد :

فقد عهد إلى تحقيق هذا الجزء (التاسع والعشرين) من موسوعة « نهاية الأرب » للثوري (أحمد بن عبد الوهاب - المتوفى سنة ٧٣٣ هـ) : الأديب المؤرخ - إغداداً لنشره .

ولما شرعْتُ في العمل ، لم أجِدْ في أول الأمر غيرَ نسخةٍ مخطوطةٍ واحدةٍ لهذا الجزء ، هي النسخةُ التي أُخِذَتْ بالتصوير الشمسي عن الأصل المخطوط بمكتبة « كُوريلل » بالأستانة ، وهي موجودةٌ بدار الكتب المصرية ، وهي التي نُرْمِزُ إليها بحرف (ك) . فعند المراجعة تبيّن لي أن هذه النسخة (ك) تحتوي على أخطاء عديدة ، كما أن هناك نقصاً في بعض الكلمات أو العبارات . ولم يكن هناك سبيلٌ لمعرفة صواب هذه الأخطاء ، أو إكمال النقص ، إلا بالرجوع إلى المصادر الأخرى التي كتبت عن هذا العصر - ولا سيما كتب المعاصرين للفترة ، أو من تلاهم - فرجعتُ إلى « مرآة الزمان » لسيّط ابن الجوزي وهو « أبو المظفر » ، الذي يشير إليه المؤلف وينقل عنه كثيراً في المتن ، وكان مُعاصِراً للدولة الأيوبية ، كما رجعتُ إلى « الذيل على الرّوضتين » لأبي شامة المؤرخ المعروف ، وكان مُعاصِراً أيضاً - وإن كان يتأخّر في الزمن قليلاً عن ابن الجوزي - وإلى كتاب « الرّوضتين » أيضاً لنفس المؤرخ ، وكذلك كتاب « مُفرّج الكروب » لابن واصل ، وكتاب « السلوك » للمقريزي و « النجوم الزاهرة » لابن قنبري برّدي ، ثم كتب التاريخ والتراجم مثل : « الكامل » لابن الأثير و « وقبات الأعيان » لابن خلكان ، و « حُسن المُحاضرة » للسيوطي وهكذا .

ومع ذلك ، لما كان يُمكن أن نَقْتَر أن التحقيق قد تمّ ، أو بلغ الدرجة التي نشعر فيها بالثقة ، إلا إذا وُجِدَتْ نُسخة أخرى مخطوطة للأصل . وقد تم نقل صورة شمسية عن نسخة محفوظة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية وتبين أن هذه النسخة بخط المؤلف « النويري » نفسه ! فحينئذ وصل التحقيق إلى مرحلته النهائية . وهذه النسخة الثانية نرّمز إليها بحرف (ع) وعراجمتها على النسخة (ك) اكتشفنا أن هذه ناقصة بعض الكلمات والعبارات ، بل ناقصة بضع صفحات كاملة ، وذلك في أحداث سنّ : ٦١٩ و ٦٢٠ هـ . ولما كانت النسخة (ع) هي بخط المؤلف فقد جعلناها الأصل المعتمد للتحقيق : فهي أقدم وأثبت ، وجعلنا النسخة الأخرى (ك) مساعدة لها . ومن ثم أكملنا النقص الذي أشرنا إليه ، ونقلنا الصفحات من النسخة (ع) ، وساعدتنا هذه أيضاً على تصحيح كثير من الألفاظ . لم يكن من اليسير الوصول إلى صوابها بغيرها ، وإن كانت هذه النسخة من وجه آخر ، غير حسنة الخط ، وترك كلمات كثيرة بدون نقط ، فالأولى تلوّنها في حسن الخط وظهوره ، كما وجدنا أن النسخة (ع) بدورها ناقصة بضع صفحات ، فعل العموم كانت كل منها مُكَمَّلَةً للأخرى . وبها ، وبالمصادر السابقة وغيرها ، وصلنا إلى اكمال وتصويب المتن إلى أقصى درجة مُمَكِنَة .

وكان لأبد من تنظيم المتن ، وتقسيمه إلى فقرات ، وتحديد الجمل بالفواصل ، وضبط أسماء الأغلام والأماكن ، وغيرها من الكلمات التي تحتاج إلى الضبط ، حتى تكون قراءة المتن سهّلة ، ويمكن الإفادة منها . وكان من الضروري بعد ذلك - وهذه هي المرحلة الثانية في المهمة - اكمال المتن بشرح ألفاظه ، والتعليق على الأحداث ، والمصطلحات التاريخية ، وتحديد المواضع الجغرافية ، والتعريف بالأغلام الواردة فيه بنبّية موجزة ، حتى تتضح معاني الوقائع ، وتظهر روح العصر الذي حدثت فيه ، وتزيد الفائدة العلمية للكتاب .

وهذه الحِجْبَةُ التي يتناولها هذا الجزء من كتاب «التَّوْرِي» - تمتد من عام ٥٩٦ هـ : من بدء دخول «العاذل» ، أبي بكر بن أيوب القاهرة ، لِيَتِمَّ مُلْكُهُ وَمُلْكُ أُسْرَتِهِ فيها ، ثم في الأقطار المجاورة : فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والجزيرة ، واليمن أيضاً - حتى آخر سنة ٦٥٨ هـ : أي بدء عهد الظاهر بيبرس .

فهى حقة تبلغ أكثر من ستين عاماً وتشمل أحداثاً هامة من تاريخ مصر والشرق العربى ، فهى تَقُصُّ جزءاً من تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ الدولة الأيوبية فى مصر والشام والجزيرة منذ بدء عهد العادل ، ثم نهاية هذه الأسرة وقيام دولة المماليك ، وغزو التتار وموقعة عين جالوت ، وغير ذلك . هذا إلى الجوانب الأدبية والاجتماعية . ونأمل أن نكون قد أدبنا مهمتنا التي عهد إلينا بها على الوجه الذى يحقق أكبر فائدة . والبعضة لله وحده ، وبالله تعالى التوفيق .

القاهرة صفر ١٣٨٣

محمد ضياء الدين الرئيس

يوليه ١٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم
 ذكر أخبار الدولة الأيوبية ٥٢
 اختيار الدائر المعرف
 القم الخاس
 القم الخاس
 القم الخاس

٥٢ ذكر أخبار الدولة الأيوبية ٥٢

ذكر أخبار السلطان الملك العادل
 سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وسلطته

كان دخول السلطان الملك العادل إلى القاهرة في يوم السبت ، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر ، سنة ست وتسعين وخمسمائة - في يوم خروج الملك الأفضل ^(١) منها .

فاستبقى رضاء الأمراء التناصرية ^(٢) ، بإبقاء الخطبة للملك المنصور بن

(١) هو الملك الأفضل (على نور الدين) الإبن الأكبر للسلطان صلاح الدين .
 كان الاتفاق قد تم بينه وبين عمه العادل - بعد هزيمة الأفضل في السابع من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ - على أن يسلم للعادل البلاد ويأخذ منها بعض نواح في المشرق ، ففُت ذلك وخرج الأفضل من القاهرة ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر هذه السنة - كما هو في المتن .

(٢) هم الأمراء الصلاحية ، أي أتباع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكانوا يؤيدون العادل ، واتفقوا معه على أن يتوجه إلى مصر ليكون هو الوصي على المنصور بن العزيز - وكان لم يبلغ العاشرة من عمره بعد - بدلا من الأفضل ، على أن يُسلم إليه الأمر بعدما يكبر ، وحلفوا على ذلك .

الملك العزيز. وأعاد قاضي القضاة : صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درياس^(١) ، إلى القضاء - وكان الأفضل قد عزله واستقضى زين الدين على بن يوسف^(٢) .

واستدعى الملك العادل ابنه الملك الكامل من حران^(٣) إلى الديار المصرية ، لِيَسْتَبِيحَ بِهَا . فسلم تلك الولاية لأخيه الملك الفائز ، ووصل إلى دمشق ، في سادس عشر شعبان من السنة - ومعه شمس الدين ، المعروف بقاضي دارا ، وهو وزيره . وخرج من دمشق في الثالث والعشرين من الشهر ، ووصل إلى القاهرة لثمان بقين من شهر رمضان . فالتقاه والده وأزله بالقصر . ثم ركب إليه بعد يومين ، واستصحبه معه إلى الدار - وكان قد زوجه بابنة عمه الملك الناصر ، فدخل بها .

(١) هو صدر الدين عبد الملك بن درياس الكردي الشافعي . كان قاضي قضاة مصر في عهد السلطان صلاح الدين ، ولأه صلاح الدين المنصب في عام ٥٦٦ هـ بعد أن عزل رئيس قضاة الفاطميين . كان الأفضل قد عزله . فكان من أول أعمال العادل إعادته إلى منصبه .

(مفرج الكرب : ج ١ - ص ١٩٨)

(حسن المحاضرة : ج ٢ - ص ٩٣)

(٢) هو زين الدين على بن يوسف بن عبد الله بن بُندار الدمشقي . تفرقه ببغداد حل والده وصار من كبار علماء الشافعية ، وولّى قضاء الديار المصرية في عهد العزيز ثم الأفضل .

(حسن المحاضرة ج ١ - ص ١٧٧)

(٣) حران من بلاد المشرق ، وهي مدينة مشهورة كانت قصبة ديار مُصر ، تقع في الجزيرة أي شمال العراق .

(معجم البلدان ج ٣ - ص ٢٤٢)

قال : وركب الملك العادل - في يوم الاثنين - بالصَّنَجَق^(١) السلطاني . وأمر الخطباء بالخطبة له ولولده : الملك الكامل بولاية العهد من بعده - بعد الخليفة^(٢) - فخطب لهما في الحادى والعشرين من شوال ، سنة ست وتسعين وخمسمائة . واقطعت خطبة المنصور بن الملك العزيز ، وأولاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، فلم تُعدْ إلى الآن . وانتقل مُلْكُ الديار المصرية إلى البيت العادلى ، فكان فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية .

قال المؤرخ : ولم يقطع الملك العادل خطبة الملك المنصور إلا بعد أن أحضر الفقهاء والقضاة ، واستفتاهم : هل تجوز ولاية الصغير والنيابة عنه ؟ فقالوا : إن الولاية غير صحيحة ، ولا تصح النيابة لاسيما في السلطنة - فإنه لاحق فيها للصغير . فأحضر الأمراء وخطابهم في اليمن له ، فأجابوه إلى ذلك ، وحكفوا له . قال : وركب الملك الكامل في يوم السبت بالصَّنَجَق السلطاني - على عادة الملوك .

قال : ولما وصل للملك العادل ، كان صاحبُ : صفى الدين عبدالله ابن على بن شكر^(٣) في صُحْبَتِهِ ، فاستوزَّه . وكان - على ما حكى - قد استخلف الملك العادل بالبيت المقدس ، أنه متى حصل له مُلْكُ الديار

(١) الصَّنَجَقُ أو السَّنَجَق : لفظ تركى معناه فى الأصل الرمح ، والمراد به هنا الراية التى تربط به . ج سناجق ، وهى رايات صُغُر صفار . وكانت العادة أن السلطان يركب فى المراكب زمن السلم بالسناجق ، أما فى الحرب فيركب بالأعلام .

(القلقشندى : ج ٤ - ص ٨)

(٢) كان الخليفة فى بغداد إذ ذلك هو الخليفة والناصر لدين الله : ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ ، وهو ابن الخليفة المستضىء . الذى خطب له السلطان صلاح الدين فى أول الدولة .

(٣) كان صفى الدين المذكور عالما أدبيا ، ولقب بالثبيرى ، نسبة إلى بلده « ذبير » بالقرب من موقع المنصورة ، وقد وصل إلى منصب الوزارة فى عهد العادل ، وجلس فى دار السلطنة فى حجرة القاضي الفاضل ونظر فى الدواوين . سجد ذكره فى المتن فى سنة ٦٢١ .

المصرية يُمكنه من المصريين ، فحَلَفَ له على ذلك . ظاهراً ولي السلطنة
استوزره ، ومَكَّنَه .

ذِكْرُ الْغَلَاءِ الْكَائِنِ بِالْبَيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَادِلِيَّةِ وَهُوَ الْغَلَاءُ لِلشَّهْرِ

قال المؤرخ : كان ابتداء هذا الغلاء من استقبال شوال - وقيل ذي
القعدة - سنة ست وتسعين وخمسمائة ، إلى ذي القعدة سنة تسع وتسعين ،
فكانت مدته ثلاث سنين وشهراً .

وذلك أن قرار النيل في سنة ست وتسعين كان مقداره ذراعان ^(١) ،
وبلغ غايته إلى اثني عشر ذراعاً ^(٢) وإحدى وعشرين إصباعاً . فصام الناس
ثلاثة أيام ، قبل يوم التَّروِيَةِ ^(٣) ، واستسقوا ثلاثة أيام ، آخرها يوم العيد . ثم
أخذ الماء في النقص ، فاشتد الغلاء وامتد البلاء ، وهلك القوى ، فكيف
الضعيف ! . قال الهادي الأصفهاني : وبلغ سعر القمح عن كل إردب الكيل
المصري خمسة دنانير . واستقر القاع في سنة سبع وتسعين على ذراعين ، وبلغ

(١) للوجود في كل من النسخين (ك) و(ع) : « كان ذراعان » ، فأضفنا كلمة (مقداره) بين قوسين لتضاد
الخطأ النحوي في العبارة . حل أن الأخطاء النحوية ترد غير قليل في المتن ، وبني إليها المحقق كلما وجدت .

(٢) كان يعتبر وفاة النيل إذا بلغ ارتفاع مياهه في المقياس ستة عشر ذراعاً . فإذا حصل ذلك أقيم الاحتفال
بالوفاة وكسر خليج القاهرة ، وهو يوم مشهود . أما إذا نقص عن ذلك حصل الضرر بمقدار النقص وبدأ
الظما أو القحط .

(انظر الفقهني : ج ٣ - ص ٣٠٠)

(٣) يوم التروية هو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة ، سُمِّيَ كذلك لأن الحاج كانوا يتزودون فيه من الماء للقيام
بشعائر الحج .

(انظر القاموس المحيط : مادة روى)

غايته خمسة عشر ذراعاً ونصف ذراع . فعَدِمَ الناسُ القوتَ ، وأكل بعضهم بعضاً ، وأكلوا أولادهم والميتة . وخرج خلقٌ كثير من الديار المصرية إلى الشام والسواحل .

وحكى ابن جَلْب راعب^(١) في تاريخ مصر : أنه نودى على دجاجة ، تُروِيَدَ فيها إلى أن بلغت ألف درهم ورقاً . وبيعت بطيخة بفرس . قال : وكانت الدجاجة تباع بالأوقية . وحكى - أيضاً - أن بعض الناس سمع صياح امرأة ، تفر ثم تعاود الأئين والصراخ ! فتبع الصوت ، حتى انتهى به إلى منزل وفيه امرأة سمينة ملقاة . وشاب يقطع من لحم فخذه . فلما رآتهم قالت : لا تُعَارِضُوهُ فإنه ابنى ، وأنا قلت له يقطع من لحمى ، ويأكل ويطمعنى ، مما آلتنا من الجوع ! ولم يُسْمَعْ بمثل هذا .

ذكر وفاة القاضي الفاضل

وشىء من أخباره

هو القاضي الفاضل الأسعد محي الدين ، أبو على عبد الرحيم ، بن القاضي الأشرف أبي الحسين على بن الحسن ، بن الحسين بن أحمد ، بن الفَرَج^(٢) بن أحمد ، اللُّخْمِي - الكاتب . كانت وفاته فجأة في ليلة الأربعاء ، السابع من شهر ربيع الآخر ، سنة ست وتسعين وخمسمائة . ومولده بعسقلان في خامس عشر جمادى الآخرة ، سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

(١) هو تاج الدين محمد بن على بن يوسف ويعرف « بابن يسر » صاحب « تاريخ مصر » وهو ينسب إلى أحد أجداده وهو « جلب راعب » وكانت وفاة المؤرخ سنة ٦٧٧ هـ . وسيذكر المؤلف في المجلد ترجمة لجده « يوسف » في أحداث عام ٦٢٤ . ويقول إن أجداده كانوا من الأمراء في عهد الدولة الفاطمية .

(٢) هكذا رسمه في كل من النسختين : (ك) و (ع) - على أنه ورد في مراجع أخرى « المفرج » .

وكان أبوه قاضى عسقلان^(١) ، وصاحب ديوانها . ونسبته إلى ييسان نسبة انتقال . وذلك أن قاضى عسقلان كان قاضى البلاد الشمالية من ساحل الشام ، وَيِيْسَانُ^(٢) في ولايته . وكان إذا خرج إليها قاضى لحقه من الوَحْم ما يوجب مرضه ، ومنهم من يموت . فقرر قاضى عسقلان على الشهود أن يخرج كل واحد منهم إلى ييسان ثلاثة أشهر ، ويعود ، ويخرج غيره . فجاءت التَّوْبَةُ لحد القاضى الفاضل^(٣) ، فضى إليها وصح بها جسمه . فاختر الإقامة بها . فأجيب إلى ذلك وعمر بها أملاكاً ، فُهِرِف باليَّسَانِي .

ثم تقلبت بوالد القاضى الأحوال إلى أن ولى القضاء بعسقلان ، والنظر في أموالها . وبقى إلى زمن الظاهر^(٤) ، فدخل إلى مصر لمُحَاقَقَةِ واليها^(٥) بسبب كُتْلٍ كبير^(٦) ، من الفرنج كان الوالى دَا جَى عليه وأطلقه . فانتصر

(١) مدينة مشهورة من أعمال فلسطين ، بين غزة وبيت جبرين

(مجمع البلدان : ج ٦ ص ١٧٤)

(٢) مدينة بوادى الأردن ، القُور ، وهي بين حوران وفلسطين .

(المصدر السابق : ج ٢ - ص ٣٣١)

(٣) في النسخة (ج) : لحد - بالهاء المهملة - كما أتيناها هنا ، وفي النسخة (ك) : لجد - بالميم المعجمة . وفي كلتا النسختين : القاضى الفاضل . وظاهر السياق أن الحديث عن والده « القاضى الأتُرف » .

(٤) هو الخليفة الفاطمى « الظاهر بأمر الله » أبو منصور إسماعيل ، بن الخليفة « المحافظ » صاحب مصر . كانت مدة خلافة الظاهر هي الفترة (٥٤٤ - ٥٤٩) . وقد استولى الصليبيون على مدينة « عسقلان » في عام ٥٤٨ هـ فيلزم أن يكون دخول الفاضل ووالده إلى مصر قبل ذلك الحادث .

(٥) الفُصير يعود إلى عسقلان : أى ولى عسقلان .

(٦) هو نفس لقب « كونت » الفرنسى .

بعض الأمراء للوالى ونصروه ، فخانق الأسعد^(١) . وصور ، فوقع التحامل عليه ، إلى أن لم يبق له شيء .

ونخرج ولده الفاضل إلى ثغر الإسكندرية ، واجتمع لابن حديد - القاضى والناظر بها - وعرفه بوالده فعرفه بالسمعة ، فاستكتبه ابن حديد ، وأطلق له معلوماً . وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل وهى مشحونة بالبلاغة . فكشف عن ذلك ابن الخلال والجليس بن العتياب - وكانا فى ديوان المكاتبات - فحسدها على فضيلته ، وعلموا أنه يتقدم ، فقالا للظافر عنه : انه قصّر فى المكاتبة .

وكان صاحب ديوان المجلس - الأثير بن بتان - يحكى أنه دخل على الظافر ، فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه ، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر ، وهذا سوء أدب ، فقال الأثير للظافر : يا أمير المؤمنين ، تأمر بإحضار الكتب ، فأحضرت . فلما قرأها الأثير عليم فضل الفاضل ، فقال له : هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب ، وإنما حديد على بلاغته ، فعول على أذاه . فقال : اكتب لابن حديد بسيره إلينا ،

(١) كندى فى تل من التسخين : (ع) و (ك) . وهو خطأ ظاهر لأن الوالى إنما خانق الأشراف ، أى والى الفاضل ، فيلزم تصحيح العبارة بوضع كلمة الأشراف بدل الأسعد .

(انظر النزاع بين والى صقلية والظاهرى الأشراف فى وفات الأمان عند ترجمة يوسف الخلال)

لستخذه . فصار من كتاب الذَّجج^(١) ، في أواخر الدولة العبَّيدية^(٢) .
وأما اتصاله بملوك الدولة الأيوبية فحكى عن الأثير بن بنان أنه قال :
لما ولي أسد الدين شيركوه اختصر به ابن الصقيل البلنسى^(٣) . وكنت بالقصر
أنا والفاضل ، فدخل علينا ابن الصقيل وقال : كنت البارحة عند
السلطان ، وذكركما وتوعدكما بالقتل . ثم خرج من عندنا . فلم يكن بأسرع من
أن طلبنا أسد الدين من العاصد ، فأرسلنا إليه .

قال الأثير : فلما دخلنا عليه وجدنا الأمراء عنده . فسلمت سلاماً سمعه
من حضر ، فلم يرد علينا ! فقلقت له : ولم لا ترد السلام ؟ فالتفت إليّ ،
وقال : لستما عندي من أهل السلام ! لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
السلام تحية لِمِلَّتِنَا ، وأمانٌ لِمِثْلِنَا . ولا تحية لكما عندي ! فوقفنا ، فقلت :
لا قدرة لي على القيام ، فقال أجثُ ، فجثت . ثم قلت ولم لا أتربع ؟
ففسح لي في ذلك . قلت : وصاحبي . قال : وصاحبك .

(١) كان كتاب ديوان الإنشاء بمصر يتكون من طيقتين :
(أ) الطبقة الأولى : كتاب الدُست ، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان ، ويقروون
الأوراق على السلطان ويوقعون عليها . وسوا كذلك إضافة إلى دُست السلطان وهو مرتبة جلوسه .
(ب) والطبقة الثانية : كتاب الذَّجج ، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتب الدُست . وسوا
كذلك لكاتبهم في قُورج الورق . والذَّجج هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وكان عادة عشريين
وصلاً .

(صحيح الأعشى : ج ١ - ص ١٣٧ و ١٣٨)

(٢) أي الدولة الفاطمية ، نسبة إلى حيداه المهدى أول خلفائها .

(٣) كنا في النسخة (ع) ، وفي النسخة (ك) : الصقيل البلنسى . ولم يثر المحقق على هذا الاسم في أي مرجع
آخر ، ولم يرد ذكره بين كتاب الدولة . ونرجح أن يكون الصواب : ابن الخلال الموقف ، لأنه كان صاحب
ديوان الإنشاء وكانت وفاته سنة ٥٦٦ هـ . وهذا الحادث وقع في سنة ٥٦٤ هـ في وزارة أسد الدين شيركوه

ثم التفت إليه دونى ، وقال له : تكتب للفرنج على لسان شامير ،
وتقول فى حقنا ما قلت ، وتحشم على قتالنا ! والله لأقتلنك شر قتلة ، ولأسلن
لسانك ، ولأطعن يدك ورجلك ، من خلاف !! فقلت : أدام الله سلطان
مولانا . هذا القاضى إذا عُدِم ، لا يوجد مثله فى جميع البلاد . فالتفت
إلى ، وقال : نُجرب قولك . وقال له : أكتب كتابين : أحدهما للمولى نور
الدين بن زنكى ، يُقرأ على منبر دمشق يهتبه بالفتوح ، وكتاب يُقرأ على منبر
القاهرة . واشتغل فى الحديث . فسارع الفاضل فى نَجَازِ^(١) الكتابين ، وجعل
أسد الدين يُسَارِقُهُ النظر ، والفاضل يكتب كأنه يكتب من حفظه . وفرغ
منها إلى أسرع وقت . فقال أسد الدين : أقرأهما ، فقرأهما . قال الأثير : والله
لو حَسَنَ الرقصُ فى ذلك المكان ، لَرَقَصْتُ ! .

فعند ذلك التفت إلى أسد الدين ، وقال : يا قاضى ، جزاك الله خيراً
فى حقه . عندنا كُتُبٌ بالشام تأمرهم بالشىء ، فيمضون ويقيمون اليوم
واليومين ، ولا يأتون به على الغرض . وهذا قلنا له كلمتين ، كتب هذه
الكتب التى لا نظير لها . وأقمنا عنده إلى صلاة المغرب ، فقام للصلاة . فقال
لى : تقدم . ففت : هذا أفضل منى ، لأنى توليت المُكُوس^(٢) ، وهذا لم
يل شيئاً منها . فتقدم الفاضل وصلى . واتصل به . هذا ما نُقِلَ عن الأثير بن
بنان .

(١) كذا فى النسخة (ع) . وفى القاموس : «نَجَزَ حاجته : قضاها ، كأنجزها» .

(٢) هى الضرائب التى استحدثت فوق الضرائب الشرعية : الخراج والجزية . كان أول من فرضها بمصر أحمد
ابن اللبى الذى كان والى الخراج قبل عهد ابن طولون . وكانت تعتبر دائماً أنها غير شرعية .
(انظر المقرئى : المخطوط ج ١ - ص ١٠٣)

وقيل : إنه لما اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين ، وأن الأثير كان يكتب بين يديه قبله ، فاشتكى من بُطئه في المكاتبات ، فقيل له : إن الأسعد البيسانى لم يكن في الكتاب أرسق منه . فاستدعاه وأمره بكتاب ، فكتب بين يديه وبالع فيه ، وأسرع في نَجَازِهِ وقراءه عليه . فعظم عند الملك الناصر ، ونعته بالقاضى الفاضل . وكان له شعر حسن .

وقيل : إن أول اتصال الفاضل بالدولة العبيدية في أيام العادل بن الصالح ابن رزّيك^(١) . وأنه استخدم في ديوان الجيوش ، فأقام فيه مدة . فلما كانت دولة شاور الثانية ، نقله إلى ديوان المكاتبات شريكاً للموفق بن الخلال . فلم يزل إلى أيام أسد الدين ، فاتفق له ما ذكرناه .

ولما استقرّ الملك الناصر في المُلْك ، علت منزلته عنده ، واختص به وقرب منه ، وتمكن في دولته . قال : ومن سعادة الفاضل أنه مات قبل مُلْك العادل ، لأنه كان بينهما شَحَنَاء باطنة . ولما مات ، صلى عليه الملك الأفضل . ودُفن بسفح المقطم - رحمه الله . وقد ذكرنا من كلامه في باب كتابة الإنشاء ما يدل على تمكنه وفضله .

(١) تول ابن رزّيك الوزارة في أواخر الدولة الفاطمية ، ما بين سنتي : (٥٥٦ - ٥٥٨) أي في عهد الخليفة والعاقد (٥٥٥ - ٥٦٧) .

ذكر هذه الرواية أيضا « عمارة الجني » في كتابه « النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية » ص ٥٣ حيث قال إن الوزير العادل بن الصالح رزّيك هو الذي استدعى القاضى الفاضل من الإسكندرية واستخدمه في ديوان الجيش . وقال المقرئى في ترجمة الفاضل إنه قدم القاهرة وخدم الموفق بن الخلال أولا ، ثم ذهب إلى الإسكندرية واتصل بأبن حديد ، وبقي هناك حتى استدعاه العادل بن رزّيك . واستخدمه في ديوان الجيش .

(المقرئى : المخطوط ج ٤ - ص ١٩٧)

واستهلّت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر الخلف الواقع بين الأمراء الصلاحية^(١)

والسلطان الملك العادل

قال المؤرخ : كان ابتداء فساد الحال بينهم في سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وسبب ذلك أن الملك العادل لما ملك الديار المصرية أقطع الإقطاعات المخلولة عن الأمراء المنصرفين عن الخدمة ، وحاسب المستعمرين حساباً شديداً ، فامت ظنونهم وتغيرت قلوبهم ، وفسدت نياتهم .

وكان فارس الدين ميمون القَصْرِي^(٢) مقيماً ببابلس ، فلما بلغه إسقاط خطبة الملك المنصور بن العزيز ، واستقلال الملك العادل بالملك - عظم ذلك عليه ونفر منه ، وأنكره . وكتب إلى الملك العادل يقول : «إنا إنما دخلنا في طاعتك ، ونصرناك على موالينا : أولاد الملك الناصر، مراعاةً للملك العزيز ، وخوفاً أن يتطرق إلى ولده ضرر ويحول عنه ملكه ، ولا بد أن تعيده إلى حاله . وإن لم ترجع عما فعلت ، كان ذلك سبب فساد قلوب الجند ، ودخول الوهن على الدولة » . فقال له العادل في الجواب .

فراسله ميمون ثانياً يقول إنا كنا حلفنا على قاعدة ، فإن كانت تغيرت فلا يسعنا المقام بعد ذلك بهذه الدار ، وأنا أسأل أن أعطى دُستوراً^(٣) ليقوم

(١) هم الأمراء الناصرية الذين سبقت الإشارة إليهم في المتن .

(٢) كان من زعماء الأمراء الصلاحية .

(٣) أى إذناً ليذهب حيث يشاء .

عند الله وعند الناس عُذْرِي ، فأرسل إليه الملك العادل ، يقول : لم أدخل في هذا الأمر إلا بعد أن رضيت به الجماعة . فإن كرهت مجاورتي فصر إلى أَرْزَن الروم ^(١) ، وتزوج بصاحبته مَآمًا ^(٢) خاتون ، فإنها أرسلت إليّ وطلبت مني من أنفيذه إليها .

وكان «ميمون» قد كاتب الأمراء الصَّلَاحِيَّة ، فأجابوه : «إنا قد اقتضينا بين الناس بأننا نقيم في كل يوم مَلِكًا ، ونعزل آخر . ثم إلى من نسلم هذا الأمر ؟ أما الملك الأفضل فغير أهل ، وغيره من إخوته فغير عظيم في الأنفس . والملك الظاهر بعيد عنا ، ولا يمكنه أن يترك بلاده ويصير إلينا .

قال : وافتق ورود رُسل الملك الظاهر - صاحب حلب - إلى عمه العادل ، في شهر ربيع الآخر من السنة ، وهما : نظام الدين كاتبه ، وعَلَم الدين قَيْصَر الصَّلَاحِي . فلما وصلا إلى بَلْبَيس ، أرسل العادل إليهما أن لا يدخلوا القاهرة . وأن يذكرنا رسالتهما لقاضي بلبيس يبلغها عنهما ، وإن لم يفعلا فيرجما إلى صاحبهما .

فعادا إلى الملك الظاهر ، واجتمعا بميمون القُصْرِي في عودهما ، ورغباه في الخدمة الظاهرية . فمضى إلى صَرْخَد ^(٣) وبها الملك الظاهر أخو الأفضل . ولحق بميمون جماعة من الصلاحية .

(١) بلدة من بلاد أَرْمِينِيَّة ، قال ياقوت عنها في وقته : أهلها أَرْمَن . ولها سلطان مستقل وولاية ونواح كثيرة الحثرات .

(معجم البلدان : ج ١ - ص ١٩٠)

(٢) كُفَا في (ع) . وفي (ك) : ولما .

(٣) بالفتح ثم بالسكون . بلد ملاصق لبلاد حوران ، من أعمال دمشق . وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة .

واعترل عنه فخر الدين جهار كس^(١) في قلاعه - وكان معه بانباس^(٢)
وثنين^(٣) وشقيق أرنون^(٤) ووافقه على الاعتزال زين الدين قرأجا ، وأظهر
الاعتزال عن الفريقين . وباطنها مع الملك العادل .

قال : ولما وصل ميمون إلى صرخند ، كاتب الأفضل والظاهر ودعاهما
إليه . وأنفذ إلى الملك الظاهر فخر الدين الطنبا الجحاف^(٥) فلما وصل إليه ،
قوى عزم الملك الظاهر على الخروج . فراسل ميمون ، وأخذ عليه وعلى من
معه من الأمراء اليهود والأيمان .

(١) كان من زعماء الصلاحية أو الناصرية ، بل كان أبجلهم وأمثلهم في عهد الملك العزيز بمصر ، حيث عين
استادداره . وجهار كس بكسر الجيم ، وقد قرأ بالفتح . وهو لفظ أعجمي معناه : أربعة أنفس .
(انظر وفیات الأعيان : ج ١ - ص ٣٣١)

(٢) مدينة من جند دمشق ، على مرحلة ونصف منها من جهة الغرب ، وهي في لحيث جبل الثلج . وبها قلعة
الضبي ، وهي من أبيل القلاع وأمنها .

(صحيح الأحمى : ج ٤ - ص ١٠٤)

(٣) بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانباس ، بين دمشق وصور .
(معجم البلدان : ج ٢ - ص ٣٦٤)

(٤) قلعة حصينة في كهف من الجبل قرب بانباس . من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل .
والشقيق كالكهف ، أضيف إلى أرنون وهو اسم رجل .

(معجم البلدان : ج ٥ - ص ٢٨٤)

(٥) كلما في كلتا النسخين (ع) و (ك) . ولم يثر الحق على هذا الاسم في أى مرجع آخر ولم نجد له ترميضا .
وتعترض أنه تحريف لكلمة « الميماوى » نسبة إلى أبي الميما ، الذى كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية .

ثم قَدِم عليه أخوه الأفضل في تاسع جادى الأولى ، وسارا إلى أقاميه^(١) ، وبها قَرَأَوْش - مملوك شمس الدين بن المِقْدَم^(٢) - فأغلَق الأبوابَ دونها ، وامتنع من تسليمها . فغضب الظاهرُ ابنَ المِقْدَم^(٣) تحت القلعة ضرباً مُوجعاً ، بحيث يراه مملوكه قَرَأَوْش ، فلم يكثر لذلك . وراسله ابن المِقْدَم في تسليمها ، فامتنع كل الامتناع . فلما أيس الظاهر منه أرسل ابن المقدم إلى حَلَب ، وأمر باعتقاله بها .

وسارا بعد ذلك إلى بعلبك لقصد دمشق ، وسار إليهما ميمون القُصْرَى ومن معه والملك الظاهر ، واجتمعوا بمكان يعرف بالزَّرَاعَة^(٤) . وتشاوروا على قصد دمشق ، وبها يؤمّنذ الملك المعظم عيسى بن العادل وهو صغير ، والقيّم بأمره فلكُ الدين سليمان بن شروة بن جلدك - وهو أخو العادل لأمه - ومن الأمراء الأكابر عز الدين أسامة^(٥) . فساروا بأجمعهم إلى دمشق ، وحاصروها في رابع عشر ذى القعدة ، سنة سبع وتسعين ، واشتد الحصار .

(١) مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكوره من كور حمص . ويسمى بعضهم « قامي » تغير أمزة . (معجم البلدان : ج ١ - ٢٩٨) .

(٢) كان من كبار الأمراء الصلاحية (وهو شمس الدين محمد بن عبد الملك) المعروف بابن المقدم ، وهو الذى تول تربية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، ثم سلم دمشق للسلطان صلاح الدين ، فأعطاه صلاح الدين بعلبك وما حولها ، فظلت بيد أسرته . وقُتل شمس الدين بعرفات بمكة سنة ٥٨٣ هـ . (الكامل لابن الأثير : ج ١١ - ص ٢٢٨ و ٢٢٩)

(٣) الذى شَرِب هو ابن الأمير شمس الدين للمقدم ذكره ، واسمه شمس الدين أيضا « ابن المقدم » .

(٤) اسم لعدة مواضع بالشام ، من فلسطين والأردن . والمقصود هنا زُرَاعَة الضحاك التى تقع شرق جوبر ، وهى قرية بالغوطة من دمشق .

(معجم البلدان : ج ٤ - ٣٨١ و ج ٣ : ١٥٨)

(٥) ورد هذا الاسم في النسخين (ع) و(ك) دائما على أنه « أسامة » . ولكن يلاحظ أن تحقق السلوك ، وكذلك تحقق النجوم الزاهرة اختارا أن يشاء : « أسامة » .

قال : ولا اتصل بالملك العادل خروج الظاهر من حلب ، خرج من القاهرة في شهر رمضان من السنة . وجَدَّ السير إلى أن نزل على نابلس ، وجعل يُغَيِّل الحيل والمكايد بين الظاهر والأفضل ، وإفساد قلوب الأمراء الذين مع الظاهر . وأرغب الملك الظاهر أنه إن فارق أخاه الأفضل يملكه قطعة من بلاد المشرق ، التي بيد العادل .

وكتب الظاهر فخر الدين جَهَارَكْس ، وزير الدين قُرَاجَا ، وأرغبها في الانضمام إليه . فوقع الاتفاق معها - بعد مُراجعة - أن الأفضل يسلم لزين الدين قُرَاجَا صَرْخَدَ وعشرة آلاف دينار ، ولأمير فخر الدين جَهَارَكْس عشرين ألف دينار . واستقرت القاعدة على ذلك . فلما تسلا ذلك وصلا إلى الخدمة الظاهرية ، واجتمعا بالأفضل والظاهر .

ثم شرعا يستوقفان الأمراء عن حصار دمشق ^(١) . فاتصل ذلك بالملكين فهرب جَهَارَكْس وقُرَاجَا وصار إلى بانياس ، فراسلها الظاهر وقبَحَ فِعْلَهَا . فأعادوا الجواب : إنا قد استشرنا الخوف بسبب ما نُسب إلينا . ونحن على الطاعة ومضى فُتِحَت دمشق كما في غلمتكما . وجَدَّ الظاهر في حصار دمشق إلى أن نزل وقاتل بنفسه ، وجرح في رجله بسهم . ثم هرب الطُّنْبَا الهَيَّجَاوِي من عسكر الظاهر ونلاه علاء الدين شَمِير ، ودخلا دمشق . ودخل معها

(١) أي أنها رجعا من الاتفاق الذي عقدها مع الظاهر والأفضل .

جماعة من المفاردة^(١) فأنحلّ لذلك عزم الظاهر ، ورجع عن دمشق إلى بلاده وصحبه الملك الأفضل .

وقيل : بل كان سبب الرجوع عن دمشق أن الاتفاق كان قد حصل بين الأخوين : الأفضل والظاهر ، على أنه إذا فتحت دمشق كانت للأفضل . فإذا استقر بها ، سار هو والظاهر إلى مصر ، وقاتلا العادل ، فإذا حصلت مصر لها تكون حيثنذ للأفضل ، ودمشق للظاهر . فلما قوى الحصار على دمشق ولم يبق إلا فتحها ، حسد الظاهر أخاه الأفضل عليها ، وقال آخذها لنفسى . ففلاطفه الأفضل وسأل أن ينم بها عليه ، فامتنع ، وقال : إن فتحت تكون لى دونك . فلما أيس منه الأفضل ، خرج من بيعته واجتمع بالأمراء ، وقال : إن كنتم خرجتم إلى فقد أذنت لكم فى الرجوع إلى العادل ، وإن كنتم خرجتم إلى أخى الظاهر فشانكم وإياه . وكتب فى الوقت إلى عمه الملك العادل ، وهو يطلب منه سُمِّيَاطَ^(٢) وسُرُوج^(٣) ورأس العين^(٤) ، فأعطاه ذلك ، وحلف عليه . فلما اتصل ذلك بالظاهر كتب أيضاً

(١) المفاردة ، بالفاء : فئة من الجيش ، وهم المالكات الخواص للسلطان أو الملك . سمو كذلك لأنهم يأخذون مرتباتهم من الديوان المُفَرَّد . وهو ديوان خاص كان موجوداً منذ عهد الفاطميين . وهم يقابلون الفئة الأخرى من الجيش ، أى الجنود النظاميين الذين يتناولون مرتباتهم من « ديوان الجيش » والذين كانوا يسمون « المتفقه » .

(٢) انظر تعليق زيادة فى السلوك : ج ١ - ص ١٢٢

والفلقشندى : ج ٤ - ص ١٥ و ج ٣ - ص ٤٥٧

(٣) مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم ، تقع على غربى الفرات . ولها قلعة ، يسكنها الأرمين (معجم البلدان : ج ٥ - ص ١٣٨)

(٤) بلدة قرية من حرّان . من ديار مصر .

(معجم البلدان : ج ٥ - ص ٧٧)

(٤) وهما الأصل : رأس عين . مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة . بين حران ونصيبين ونيسر . وفى رأس عين عين كثيرة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور .

(معجم البلدان : ج ٤ - ص ٢٠٦)

إلى عمه العادل ، يطلب منه مَتَيْج^(١) وأقامية^(٢) وكَفَر طَاب^(٣) ، فأعطاه ذلك . وارتحلا عن دمشق .

فبقى الأفضل بسُيَّط ، إلى أن مات .

وعاد الظاهر إلى حلب . وصحبه ميمون القُصْرِي . فأقطعه الظاهر إقطاعات عظيمة . وهي : أَعَزَّاز^(٤) وقلمتها ، والخُوار^(٥) وبلدها ، ونهر الجُوز^(٦) وبلده ، وجِسر^(٧) الحديد وبلدها ، وأماكن متفرقة ، وأكرمه إكراماً تاماً . وبقي في خدمته ، إلى أن مات في سنة عشر وستائة . وسار معه أيضاً سراً سُنْفَرُ والفارس البَكِّي ، وجماعة الصَّلاحية ، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة .

(١) مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة في فضاء متسع من الأرض ، بينها وبين الفرات يوم واحد ، وبينها وبين حلب يومان (أو عشرة فراسخ) . وكانت مدينة إقليم (العواصم) في عهد الخليفة هارون الرشيد . (معجم البلدان : ج ٨ - ١٦٩)

(٢) سبق ذكرها .

(٣) بلدة بين المرة وحلب . تقع في بركة مغطاة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصحاريج . (معجم البلدان : ج ٧ - ٢٦٥)

(٤) وهي أيضاً (عزاز) بفتح العين : بلدة صغيرة شالي حلب ، بينها يوم (٥ فراسخ) فيها قلعة ، ولها رستاق (ضبعة) . وهي طيبة الهواء عذبة الماء .

(معجم البلدان : ج ٦ - ١٦٨)

(٥) لم نجد هنا الاسم في المعجم . ولكن واضح أنه موضع قريب من عزاز ونهر الجوز . وهذه الأماكن ، فيها مجاور حلب

(٦) ناحية ذات قرى وساتين ومياه ، بين حلب والبيزة التي على الفرات .

(معجم البلدان : ج ٣ - ١٦٨)

(٧) بلدة على نهر حماه (العاصم) في شمال مجراه قريباً من إنطاكية (وحلب) .

(سلوك : ج ١ - ص ١٦٠)

وكان رحيلهم عن دمشق في ذى الحجة ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وسار الملك العادل ودخل دمشق . واصطلى مع الملك المنصور صاحب حماه . وتزوج العادل ابنته .

ذكر اتفاق الملوك الأيوبيين وما استقر لكل منهم من الممالك

قال المؤرخ : ثم استقرت القاعدة بين الملوك ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة على أن يكون للملك العادل الديار المصرية ، ودمشق والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو في يده ويد أولاده ببلاد الشرق .

وأن يكون للملك الظاهر حلب وما معها . وأن يكون للملك المنصور - ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - حماه وأعمالها ، والمعرة وسليمة^(١) وبارين^(٢) .

وأن يكون للملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه

(١) أصل ضبطها أنها : بفتح أولها وثانيها ، ثم سكون الميم وباء بعدها خفيفة (سَكَبَة) ولكن أهل الشام ينطقونها سَكَبَة - بكسر الميم وبالياء المشددة . وهي بلدة في ناحية حميرة من أعمال حماه ، بينها مسيرة يومين . وكانت تعد من أعمال حمص .

(معجم البلدان : ج ٥ - ١١٢ - ١١٣)

(٢) هذا هو نطقها الصحيح . بالأنف وراء مكسورة ، ولكن العامة تقول : بعرين بالعين . وهي مدينة حصينة بين حلب وحماه من جهة الغرب .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٣٤ - ٣٥)

حِمَص ، والرَّحْبَة ^(١) وتُدْمَر ^(٢) . وأن يكون للملك الأجدد ، بن فَرْخِشاه ابن شاهنشاه بن أيوب ، بعلبك وأعمالها .

وأن يكون للملك الأفضل ، بن الملك الناصر ، سَمِيسَاط ^(٣) وبلادها ، لاغير .

وأن يَقْطَعَ الملكُ الظاهر خَبْرَ ^(٤) عماد الدين المَشْطُوب ^(٥) ولا يستخذه . فَيَقْطَعَ خَبْرَهُ ، فصار إلى الملك العادل فلم يستخذه ، وقال له : نخدم بعض أولادى . فقصد الملك الأوحى ، فلم يستخذه . فاستخذه الملك الأشرف ، ونادى لحصار ماردين ، وخلف له على أربعمائة فارس ، إذا فتحت . فصار ابن المشطوب إليها وحاصرها ، فأرسل صاحبها إلى الملك الأشرف خمسة آلاف دينار ، فتركها .

نعود إلى أخبار الملك العادل ، فى أثناء هذه المدة التى قدما ذكرها ، والحوادث التى وقعت فى خلالها .

(١) اسم لعدة أماكن ، ولكن المقصود هنا رحبة (مالك) وهى سميت بذلك نسبة إلى مالك بن طوق. القنطري الذى أحدثها فى عهد الخليفة المأمون ولم يكن لها أثر قديم . وهى تقع على شاطئ الفرات أسفل من (هركيسيا) بيننا وبين حلب خمسة أيام . وبيننا وبين دمشق ثمانية أيام .

(معجم البلدان : ج ٤ - ٧٣٦)

(٢) مدينة قديمة مشهورة فى بركة الشام . بيننا وبين حلب (٥ أيام) .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٣٦٩)

(٣) سبق ذكرها .

(٤) كان يطلق على الإقطاع الذى يُعطى للجند ، أو إيراده . لأن الجندى أو الأميركان يعيش عليه .

(٥) هو عماد الدين ، بن الأمير سيف الدين الحكارى الكردي ، الذى لقب بالمشطوب لشطبة (أى جرحه ظاهرة) كانت فى وجهه ، أصيب بها فى غزاة . وكان سيف الدين من كبار الأمراء فى دولة صلاح الدين ، لأنه كان مقدم الأكراد . وله مواقف مجيدة فى حروبه . وسيأتى ذكر عماد الدين هذا ثانية ، فى أخبار الملك الكامل .

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، في ذي القعدة ، اعتقل الملك
العاذل ، الملك المؤيد والملك العزيز وهما : ابنا أخيه صلاح الدين يوسف .
رحمه الله تعالى .

ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وغيرها

وفي هذه السنة في شعبان ، جاءت زلزلة من الصعيد ، فعمت الدنيا
في ساعة واحدة . وهدمت أماكن كثيرة بالديار المصرية ، ومات تحت الهدم
خلق كثير .

وامتدت إلى الشام والساحل ، فهدمت مدينة نابلس ، فلم يبق بها
جدار قائم إلا حارة السامرة^(١) ، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً . وهدمت
عكا وصور وجميع قلاع الساحل . وامتدت إلى دمشق ، فرمت بعض المنارة
بالجامع ، وأكثر الكلاسة والبيمارستان الثوري ، وعامة دور دمشق
إلا القليل . وهرب الناس إلى الميادين . وسقط من الجامع ستة عشر
شرفة^(٢) ، وتشققت قبة النسر^(٣) .

(١) طائفة من اليهود لهم مذهب خاص . والوجود في النسخة (ك) المسامرة . وهو خطأ . أما النسخة (ج) فساقت
منها بضع صفحات كاملة من هذا الموضع . ولذا اعتمدنا على النسخة الأولى .

(٢) المكتوب في النسخة (ك) : شرافة . واللفظ اللغوي الصحيح هو : شرفة .

(٣) والجملة قبل جامع دمشق ، ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها . ولها ثلاث منائر .
(النجوم الزاهرة : ج ٦ - ص ١٧٤)

وتهدمت بانياس ^(١) وهونين ^(٢) وتينين ^(٣) . وخرج قوم من بعلبك
يجمعون الرياس ^(٤) من جبل لبنان ، فالتقى عليهم الجبلان ، فأتوا بأسرهم .
وتهدمت قلعة بعلبك - مع عظم حجارتها . وامتدت إلى حنص ، وحماء ،
وحلب ، والعواصم .

وقطعت البحر إلى قبرص ، وانفرد البحر فصار أطوذاً ، وقذف
بالمراكب إلى الساحل ، فتكسرت . ثم امتدت إلى خلأط وأزمينة
وأذربيجان والجزيرة .

وأحصى من هلك في هذه السنة ، بسبب هذه الزلزلة ، فكانوا ألف
ألف إنسان ، ومائة ألف . وكانت قوة الزلزلة ، في مبدأ الأمر ، بمقدار ما يقرأ
الإنسان سورة الكهف . ثم دامت بعد ذلك أياماً .

حكى ذلك أبو المظفر يوسف سيوطي بن الجوزي ^(٥) في تاريخه : « مرآة
الزمان » . وقد ذكرت زلزلة أيضاً في شعبان ، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ،

(١) سبق ذكرها .

(٢) الذي ذكره ياقوت عن (هونين) أنها : بلد في جبال عاملة مطل على نواحي مصر (معجم البلدان : ج ٨ -
٤٨٦) . لكن ليس هذا هو المقصود هنا . ولا يتفق مع السياق . وإنما (هونين) الواردة هنا هي التي تقع
عند ملتقى الطريق القادم من صفد بالطرق الموصلة من تينين إلى بانياس . فالحصون الثلاثة متقاربة : بانياس
وهونين وتينين . وهي من أشهر الحصون في أيام الحروب الصليبية .

(٣) سبق التعريف بها .

(٤) في (ك) : الراس . وهو خطأ . وصوابه : الرياس ، وقد صححته من (الذيل على الروضتين) . وجاء في
« القاموس » :

« والرياس بالكسر : نبت ينفع الحصبة وجذري والطاعون ، وعصارته تخذ النظر » . مادة : « ريس » .
(٥) مؤرخ وواعظ كبير . ولقبه : « أبو المظفر » . يعتمد عليه المؤلف كثيراً . فكتابه « مرآة الزمان » مرجع هام .
وجده لأنه هو (ابن الجوزي) العالم الشهير . وقد نسب إليه . وستأتي ترجمة أبي المظفر في المقن في مناسبة
وفاته سنة ٥٥٤ هـ .

وذكر مما حدث بسببها نحو هذا . فإله أعلم : هل هي هذه ، أو هما اثنتان ؟ .

وفي هذه السنة توفى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، الزمام ^(١) ،
في مستهل شهر رجب بالقاهرة ، وله من العمر ثمان وثمانون سنة :

وهو الذي عمّر سور القاهرة ، وقلعة الجبل ^(٢) وقناطر نهبيا ^(٣) من
الجيزة . وعمر بالمقّس ^(٤) رباطاً ، وبظاهر القاهرة - خارج باب الفتوح -
سبيل . والناس ينسبون إليه في ولايته أحكاماً غريبة ، حتى وضع الأسعد
بن مماتى خبراً لطيفاً ، سماه « القاشوش في أحكام قراقوش » ، ذكر فيه
أشياء يبعد وقوعها من مثله ^(٥) ، فإن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ،

(١) كان من الأمراء الأسيديّة أتباع أسد الدين شيركوه ، ثم لما توفى أسد الدين اتفق بهاء الدين هذا مع الفقيه
عيسى المنكاري على ترتيب صلاح الدين في الوزارة . فأصبح من أمراء دولة صلاح الدين ، وجمعه
صلاح الدين زمام القصر ، وناب عنه مدة بالديار المصرية . وقراقوش لقبه : لفظ تركي معناه : العقاب ،
الطائر المعروف .

(ابن خلكان : وفیات الأعيان : ج ٣ - ص ٢٥٤ و ص ١٦٥)

(٢) هي قلعة القاهرة المعروفة : قلعة صلاح الدين .

(٣) نهبيا : بالفتح ثم السكون وياء . بلدة من نواحي الجيزة من مصر .

(باقوت : المعجم : ج ٨ - ص ٣٥٢)

(٤) كان مدخل القاهرة وفرضتها على النيل منذ عصر الفاطميين ، لأن النيل كان عندها ثم انحسر . وكانت هي
قرية (أم دنين) التي كان عندها حصن ، وذكرت في الفتوح عند قدوم عمرو بن العاص . وسُميت المقس ،
لأن العامل على المكس كان يجلس عندها - كما ذكر باقوت . (معجم البلدان : ج ٨ - ص ١٢٥)
ومكانها الآن قرب مسجد عتار باب الحديد .

(٥) قال القاضي ابن خلكان : « والظاهر أنها موضوعة » .

(ج ٣ - ص ٢٥٤)

ونقول : إن قراقوش المراد في هذا الكتاب إما أنه شخصية خرافية ، أو شخص آخر غير الأمير بهاء الدين هذا
الذي له تاريخ مجيد .

مع حسن تديره وسداد رأيه ، كان يعتمد عليه في المهمات الجليلة والمناصب العالية ، وثوقاً بمعرفته وكفائته . والله أعلم . ولأمات ، أقطع الملك العادل إقطاعه لابنه الملك الكامل .

وفيها ، في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان ، توفي بدمشق القاضي عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، الأصفهاني ، الكاتب ، صاحب الخريدة ، والرسائل المشهورة^(١) . ومولده في يوم الاثنين ، ثاني جمادى الآخرة ، سنة تسع عشرة وخمسمائة .

وفيها كانت وفاة الشيخ جمال الدين أبو الفرج : عبد الرحمن ، بن علي ، بن عبيد الله ، بن حماد ، بن أحمد ، بن جعفر ، الجوزي الواعظ ، البكري التيمي ببغداد ، في الليلة المُستَمِرَّة عن يوم الجمعة ، ثالث عشر رمضان . ودفن يوم الجمعة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى .

(١) الكاتب البليغ والمؤرخ المشهور . ولد بأصفيان ، وقدم بغداد مع أبيه ، وبها تفقه ، واشتغل بالأدب وبرع في الإنشاء . ثم قدم دمشق أيام نور الدين واتصل به وخدمه ، وقدم إلى مصر ولازم صلاح الدين . وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب . وله عدة مصنفات ، منها « خريدة القصر في شعراء العصر » . وهي المثار إليها هنا .

واستلقت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون

في هذه السنة ، شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي شيخ المقداسة - رحمه الله تعالى - في بناء المسجد الجامع ، بجبل قاسيون ^(١) . وكان بالجبل رجل قاضي ^(٢) ، يقال له أبوداود ، فوضع أساسه وبلغ قامته ، وأنفق عليه ما كان يملكه . وبلغ مظهر الدين بن زين الدين صاحب إربل ذلك ، فبعث إلى الشيخ أبي عمر ما لا يملكه ، ووقف عليه وقفاً . ثم أرسل ألف دينار . وأراد أن يسوق إليه الماء من بئرته ^(٣) ، فقال الملك المعظم عيسى : طريق الماء كلها مقابر ، فكيف يجوز أن تنبش أموات المسلمين ! وأشار أن يشتري بغل يدور بدولاب ، ويشتري ببقية المال مكان يوقف عليه . ففعلوا ذلك .

ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن

وقيام أخيه نجم الدين أيوب

كانت وفاة الملك المعز : فتح الدين أبي الفدا إسماعيل ، بن الملك العزيز ، ظهير الدين أبي الفوارس : سيف الإسلام طُغْيَكِين ^(٤) بن أيوب ،

(١) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . وقال ياقوت عنه إنه جبل مقدس .

(معجم البلدان : ج ٧ - ص ١١)

(٢) قاضي : نسبة إلى قامية . وقد سبق ذكرها أنها مدينة حصينة على ساحل الشام . وكررة من كور حمص .

(٣) قرية من غوطة دمشق .

(معجم البلدان . ج ٢ - ١٧٤)

(٤) هو أخو السلطان صلاح الدين .

ملك اليمن بالقرو^(١) من أعمال زَيد ، في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وكان قد ادعى أنه من بني أمية ، وتلقب بألقاب الخلفاء ، وهو الإمام الهادي بنور الله ، المعز لدين الله ، أمير المؤمنين . وغير زِيَّه ، فلبس القميصَ الواسع والحامة والطُّلُسان . وكتب إليه عمه العادل ينكر عليه ذلك ، فلم يُجِبْه . وكان سبب ذلك أن الشعراء باليمن سموه في مدائحهم بالخليفة ، وفضلوه على من سواه . ومنهم من امتدحه بقوله :

بنى العباس هاتوا ناظرونا ..

وهي أبيات لم يقع لي منها غير هذا .

ولما مات ، قام بعده بملك اليمن أخوه : نجم الدين أيوب ، وتلقب بالناصر . وكان دون البالغ ، فقام بأمره سيف الدين : مملوك أبيه .

وفيها توفي الرئيس مؤيد الدين ، أبو المعالي : أسعد ، بن عز الدين أبي يعلَى حمزة ، بن القلَائِسي الثُمَيْسي^(٢) بدمشق ، فجأة في رابع عشرين شهر ربيع الأول . ومولده في سابع عشر شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة .

(١) الموجود في (ع) ، القرو ، ولم أجد هذه في المراجع . وإنما ورد في باقوت موضع : القرو . وقال عنه إنه حصن باليمن في الطريق إلى صنعاء . فرجحت أنه هو المقصود .

(٢) هو حمزة بن أسد الغيمي الملقب (أبو بعل) والمشهور (بأبي القلايس) : اللوزج ، صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » ، الذي أكمل به « تاريخ دمشق » لابن عساكر .

وكان رئيس دمشق وكبيرها وصدرها . وسائر أهل البلد تحت حكمه ، وهو المقدم عليهم . وكان العماشقة في الزمن الأول لكل طائفة منهم مقدم ، يركبون ^(١) مع الملوك ويجاهدون ^(٢) الفرنج . ولكل طائفة قطعة من السور يحفظونها ، بغير إقطاع لهم على ذلك ولا جامكية ^(٣) . وما يبرح الحال على ذلك إلى زمن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، فأبطل ذلك وقال : لا قتال بالعوام . وإنما فعل ذلك خوفاً على نفسه منهم ، فإنهم كانوا إذا طلبهم ملك قتلوه . ولا ولي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل دمشق ، شرع في مصادرة أكابر دمشق واستئصال أموالهم . فاشتغلوا بالظلم عما كانوا يصده ، من ركوب الخيل وجمع السلاح ، وغير ذلك .

وكان مؤيد الدين هذا رئيس دمشق في زمانه ، ومقدم الجماعة . بحيث أنه لا يباع من أملاك دمشق ملك ، حتى يأتيه جماعة ويشهدون عنده أنه ملك البائع ، انتقل إليه بالميراث أو الابتاع . فإذا ثبت ذلك عنده كتب بخطه في ذيل الكتاب ليشهد فيه بالتبائع ، فيشهد الشهود بعد ذلك . وخطه موجود في الكتب القديمة بذلك . وكان رحمه الله تعالى من أرباب المروءات لمن قصده ولجأ إليه .

وله نظم حسن ، فمن نظمته :

يارب جُدْ لي إذا ما ضَمِنِي جَدَّتِي بِرَحْمَةٍ مِنْكَ تُنْجِيَنِي مِنَ النَّارِ
أَحْسِنْ إِلَيَّ إِذَا أَصْبَحْتُ جَارَكَ فِي لَحْدِي ، فَإِنَّكَ قَدْ أَوْصَيْتَ بِالْجَارِ

(١) في (ع) (يركبوا) و (يجاهدوا) ، وهذا مثل من الأخطاء النحوية التي ترد في متن الكتاب .

(٢) جامكية : أي راتب معين .

وتوفى والدّه عز الدين ^(١) حمزة يوم الجمعة ، سابع شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة . ودفن بقاسيون . وكان فاضلاً حسن الخط والنظم . وجمع تاريخاً لحوادث سنة أربعائة إلى حين وفاته - رحمها الله تعالى .

وفي يوم عيد النحر من هذه السنة ، ورد إلى قُوه ^(٢) مراكب الروم فنبهوها نبهاً شديداً .

واستلقت سنة تسع وتسعين وخمسمائة :

في هذه السنة أخرج الملكُ العادل الملكُ المنصورَ ، بن العزيز ، من الديار المصرية إلى الرُّها ^(٣) .

وفيهما ملك الفرنج القسطنطينية من الروم .

وخرج الفرنج منها لقصد الساحل . [فجمع الملكُ العادل عساكره وخرج إليهم . فاستقر الصلح بينه وبينهم على أن يكون لهم من بلاد المتباصّفات ^(٤) أنشياء ، مثل الرَّملة والناصرة .

(١) هو القويخ الذي أشرنا إليه .

(٢) بلدة معروفة بمصر والوجه البحري : قال عنها باقوت : « بلدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد ، بينا وبين البحر عسة أو ستة فراسخ . وهي ذات أسواق ونخل كثير .
(معجم البلدان : ج ٦ - ٤٠٦)

(٣) مدينة بالجزيرة ، بين الموصل والشام . وهي مدينة مشهورة كانت مقراً لإحدى الإمارات الصليبية ، وافتتحها حماد الدين زنكي .

(باقوت : ج ٤ - ٣٤٠)

(٤) أى : البلاد التي كان أثيق عليها في الصلح مع صلاح الدين أن تكون متاصفة بين المسلمين والفرنجية ، فتأزل العادل الآن عن بعضها .

وفى بها بعث الخليفة - الناصر لدين الله - الخلع إلى الملك العادل وأولاده ، وسراويلات الفتوة^(١) ، فلبسوها في شهر رمضان^(٢) .

ذكر حصار ماردين^(٣) وما حصل من الاتحاق

وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، جمع السلطان الملك العادل عساكره ، وفرق فيهم السلاح والأموال ، وقدم عليهم ولده : الملك « الأشرف موسى » ، وأمره بالمسير إلى ماردين . فسار إليها وحاصرها ، وشدد الحصار .

فدخل الملك الظاهر غازى ، صاحب حلب ، فى الصلح بين عمه وصاحب ماردين . فأجاب الملك العادل إلى الصلح - على أن يخطب له صاحب ماردين فى جميع بلادهم ، ويضرب السكة باسمه ، ويحمل إليه مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويكون عسكر ماردين فى خدمته ، متى طلبه . فأجاب صاحب ماردين إلى ذلك .

فرحل الملك الأشرف عنها ، وحمل صاحب ماردين إلى الملك الظاهر عشرين ألف دينار ، لتوسطه فى الصلح .

(١) الفتوة : نظام رياضى شبه عسكرى أوجده الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وصرف عليه جهده ، وكان له ملابس خاصة هى سراويلات الفتوة التى يلبسها من يتظم فى هذه الهيئة وكان الناصر يبعث إلى الملوك بها علامة على أنهم أصبحوا أعضاء فيها .

(٢) السطور بين الحاصرتين مفقودة من النسخة (ك) .

(٣) بكسر الراء والدال . قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، مشرفة على دنبرودارا ونصيبين . وقد أمها رضى عظيم . ليس فى الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحسن ولا أحكم .

(معجم البلدان : ج ٧ - ٣٦١)

وحكى أن السبب في حصار ماريدين أن شاعراً ، يقال له الكمال ، قال :

مَتَى تُقْبِلُ الرَايَاتُ مِنْ أَرْضِ جِلَّتْ^(١) وَتُسْتَرْعُ الشُّهَاءُ مِنْ كَفِّ أُرْتُقٍ^(٢) !

فبلغ هذا البيت أرتق صاحب ماريدين ، فاعتقل هذا الشاعر . فانصل خبره بالملك العادل ، فدب هذا الجيش إليها . والله أعلم .

وفي هذه السنة - في أواخرها - حصل الشروع في عمارة سور قلعة دمشق . فابتدىء ببرج الزاوية القبلى منها ، المجاور لباب النصر .

وفيه ماجت النجوم شرقاً وغرباً ، وتطارت كالجراد المنتشر ، يميناً وشمالاً . ولم يُثَقَلْ ذلك إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين . ويقال إن هذه السنة كانت أكثر انتشاراً . والله أعلم .

واستهلت سنة ستائة

في هذه السنة وصلت مراكب الفرنج من ساحل عكا إلى قوه^(٣) ، فنهبوا وغنموا كثيراً من أطرافها . وأقاموا عليها خمسة أيام . وخرج بعض عساكر مصر فقاتلهم .

(١) اسم لمدينة دمشق . ورد في شعر حسان قبل الإسلام .

(٢) هو أرتق بن غازي (الملقب ناصر الدين) كان هو ملك ماريدين في ذلك الوقت . مدة حكمه : (٥٩٧ - ٦٣٧ هـ) وهو السادس من ملوك البيت الأرتقي بماريدين .

(٣) سبق ذكرها ، وأنها بمصر على شاطئ النيل قرب رشيد .

وفيها كانت وفاة الحافظ : عبد الغنى بن عبد الواحد بن علي ،
ابن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر ، المَقْدِسِي الحنبلي ، الجَمَاعِي . ولد
بجَمَاعِيل^(١) - وهي قرية من أعمال نابلس ، في سنة إحدى وأربعين
وخمسمائة .

وفيها ، في العاشر من جمادى الأولى ، كانت وفاة القاضي السعيد
أبوالقاسم : هبة الله بن أبي الرُّدَاد^(٢) - متولى المقياس بجزيرة مصر - وكان
خطيب الجامع .

واستهلّت سنة إحدى وستائة :

في هذه السنة رخصت أسعار الديار المصرية . وبلغ سعر القمح ستة
أرادب بدينار .

وفيها قدم الملك العادل من الشام في ثالث جمادى الآخرة ونوجه إلى
الإسكندرية ، وحَصِّلَ منها أموالاً جَمَّة .

(١) عرفها المؤلف في المتن . وماورد عنها في ياقوت هو : « قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين » .
(ج ٣ - ص ١٣٤)

(٢) هذا لقب جده الأعلى ، وهو أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام التوّذن (كان يؤذن في الجامع للتحقيق ويعلم
القرآن) . تولى مقياس النيل الجديد ، بجزيرة مصر في سنة ٢٤٦ في عهد المتوكل العباسي ، وتوفي سنة
٢٦٦ . واستمرت ولاية للمقياس في ولده إلى هذا العهد - كما قال ابن خلكان : (وفيات الأعيان : ج ٢ -

وفيهما ، أخرج الملك الكامل أولاد الخليفة العاضد لدين^(١) الله ،
وهم : داود والمظفر ، إلى الإيوان بالقصر ، وقبدهم ، وأخذ جميع ما كان
عندهم من الأقمشة والأواني وغير ذلك .

وفيهما ابتداءً صاحب صفي الدين بن شكر بمصادرة أصحاب
الدواوين ، ومستخدمى الدولة والمتعينين ، وأهانهم ، لما كان في باطنه منهم .

وفيهما توفى القاضي كمال الدين أبو السعادات : أحمد بن القاضي جلال
الدين أبي المعالي شكر ، بن محمود بن يعقوب اللّحمي . وكان ناظر الدواوين
في الأيام الناصرية والعزيزية . وكانت وفاته بغير الإسكندرية . وهو الذي ثوّه
بذكر صاحب صفي الدين ورياه ، وصفي^١ الدين ربيّه . كان جلال الدين
شكر والمخلص أبو الحسن - والد صاحب صفي الدين - إخوة^٢ لأم .

واستهلت سنة اثنتين وستائة :

في هذه السنة هُدمت قنطرة الباب الشرقى بدمشق ، وبلط بحجارتها
صحن الجامع ، وفرغ منها في شهر رمضان سنة أربع وستائة ، وفيها في شوال
غير قبة التّسرّ بجامع دمشق ، عدة أضلاع من شمالها . والله أعلم .

(١) هو آخر الخلفاء الفاطميين .

واستهلّت سنة ثلاث وستائة :

ذكر قصد العادل بلاد الفرنج

في هذه السنة في جمادى الأولى ، وقيل في شعبان ، خرج الملك العادل بعساكره وقصد عكا . فصالحه أهلها . فعاد إلى دمشق .

وخرج الفرنج من طرابلس ، وأغاروا على حمص . فخرج الملك العادل من دمشق ، ونزل على بحيرة قدس^(١) بظاهر حمص ، وحضرت إليه عساكر البلاد . فأقام إلى آخر شهر رمضان . وتوجه يوم العيد إلى حصن الأكراد^(٢) ، وقاتل أشد قتال ، وفتح برجا بالقرب من الحصن ، وأخذ منه خمسمائة رجل وسلاحاً . ثم سار إلى القلعات^(٣) ، فأخذها بعد حصار . وتقدم إلى طرابلس ، وقاتل قتالاً شديداً ، وأقطع ثمارها . ثم أنس من عسكره فشلاً ، فعاد إلى حمص . فأنفذ إليه صاحب طرابلس وطلب الصلح ، وأرسل مالا وأسرى .

وفيها توفي الطواشي جمال الدين إقبال ، الخادم الصّالحي ، من خدام

(١) يفتح القاف والداد المهملة وسين مهملة - كما ضبطه ياقوت . بحيرة قرب حمص . طولها اثنا عشر ميلا في عرض أربعة أميال . وهي بين حمص وجبل لبنان . ينبع منها نهر العاصي الذي يذهب إلى حاء .

(معيجم البلدان : ج ٢ - ٨٠ - ٨١)

(٢) هو حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص ، من جهة الغرب . وسمى كذلك لأن بعض أمراء الشام كان قد أسكن في موضعه قوما من الأكراد ليكونوا طليعة بينه وبين الفرنج .

(معيجم البلدان : ج ٣ - ٢٨٤)

(٣) قلعة حصينة بالقرب من طرابلس .

(سلوك زيادة ج ١ . في ٢ . ص ٥٤٥)

الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكانت وفاته بالبيت المقدس ، بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين : إحداهما على الطائفة الشافعية ، والأخرى على طائفة الحنفية ، ووقف عليهما أوقافاً : جعل ثلثيها للشافعية وثلثها للحنفية . وذلك في رابع عشر ذى القعدة .

واستهلّت سنة أربع وستائة :

ذكر انتقال السلطة

من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل

وأول من سكن قلعة الجبل من الملوك الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن السلطان الملك العادل . وذلك في سنة أربع وستائة - وهو إذ ذاك ينوب عن والده بالديار المصرية .

وأول من بدأ بعمارته الملك الناصر صلاح الدين يوسف . فعمر بها برجاً ، وهو المطل على مشهد السيدة نفيسة . ثم كملت في أيام الملك العادل . ونقل أولاد العاضد من القصر إلى قلعة الجبل ، وبني لهم بها مكان اعتقلوا فيه . فكانوا فيه إلى سنة إحدى وسبعين وستائة . وتوفي الأمير داود في هذه السنة .

ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخلع

للملك العادل وأولاده ووزيره

كان السلطان الملك العادل قد جهز القاضي نجم الدين خليل الخنق - قاضى عسكر الشام - رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله ، فوصل إلى بغداد

في هذه السنة فجهز الخليفة إلى السلطان رسولين ، وهما : الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي^(١) ونور الدين سُنُقُرُ الرُّكْنِي الخَلْفَتِي . وأصحابها الخلع للسلطان ، ولولديه : الأشرف والمعظم ، ولوزيره صفى الدين بن شكر ، ولأستاذ داره شمس الدين إِيْدُنْزَر العادِلِي .

وكانت خلعة السلطان جبة أطلس وسبعة الكُم بطراز ذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب مجوهر ، وسيف جميعه من الذهب ، وملبس بالذهب ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، وقصبة ذهب عليها علم أسود ، مكتوب عليه بالياض .

فتلقاها السلطان الملك العادل إلى القسوة^(٢) بجميع عساكره ، وعاد . ولبسوا الخلع من القصر إلى القلعة بدمشق . وحمل الأمير بدر الدين دُلْدُرْمُ التقليد على رأسه بين يدي السلطان ، ودخلوا جميعهم من باب الحديد وقت أذان الظهر . وقرأ الوزير التقليد قائماً ، بمحضر من القضاة وبياض البلد ، ببايوان القلعة ، والسلطان وأولاده وسائر من حضر قِياماً إلى أن تكاملت قراءته .

وتضمن التقليد نفويض البلاد إلى السلطان ، وهي ديار مصر والساحل ودمشق ، وبلاد الشرق وخِلَاط . وحضرت رسل الملوك : الظاهر صاحب

(١) نسبة إلى «سُهْرَوَرْد» - بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الراء والواو . وهي بلدة قرية من زنجان بالجبال . خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء .

(باقوت : ج ٥ - ١٨٥)

(٢) القسوة : من قرى دمشق . وهي - أيضاً - منزل للقوافل فيه خان ، على يوم من حمص ، بين حمص وقارا .

والموضع الأول هو المقصود هنا .

(معجم البلدان : ج ٦ - ٢٩٣)

حلب ، والمنصور صاحب حِماة ، وصاحب حمص ، ومع كل منهم ألف دينار ، ينثرها على السلطان . فرسم السلطان بتوفير ذلك لرسول الخليفة . وسار الشيخ شهاب الدين ورفيقه إلى القاهرة ، بخلة الملك الكامل . فتلقاهما الملك الكامل ، وزينت القاهرة ومصر لدخول الرسل . ولبس الكامل الخلة الخليفة .

ثم عاد الشيخ شهاب الدين السهروردي ورفيقه إلى بغداد . وأصحابها السلطان أستاذ داره شمس الدين ، وصحبته النحف والألطاف . فوصل إلى بغداد في سنة خمس وستائة . فتلق بالموكب . ونقم الخليفة على الشيخ شهاب الدين السهروردي كونه مد يده إلى الأموال وقبلها ، وحضر دعوات الأمراء بالشام ، منهم الأمير عز الدين سامه وغيره . وكان قبل ذلك قد اشتهر بالزهد . فاعتذر أنه إنما قبل الأموال ليفرقها في الفقراء فلم يقبل عذره . ومنع من الوعظ ، وأخذ منه الربط التي كانت بيده . وفرق الشيخ ما كان قد حصل له من الأموال - وكانت جملة طائلة - فاعتنى بها جماعة من الفقراء . وقبل الخليفة ما كان مع شمس الدين إلدنكر من الهدايا ، وشره وأعاده إلى مرسله .

ذكر استيلاء الملك الأوحـد بن

السلطان الملك العادل على خلّاط^(١)

وفي سنة أربع وستائة ، استولى الملك الأوحـد : نجم الدين أيوب ، بن الملك العادل على مدينة خلّاط ، بمكاتب أهلها .

(١) بكسر أوله : قال عنه ياقوت (المعجم : ج ٣ - ص ٤٥٣) :-

«البلدة العامرة المشهورة ، ذات الخيرات الواسعة والثمار الباتية . وهي قصبة أرمينية الوسطى . فيها القواكه الكثيرة والمياه الغزيرة .

وكان سبب ذلك أن الهزار دينارى قتل صاحبها ابن بكتمر - وكان شاباً لم يبلغ عشرين سنة - وقيل انه غرقه في بحر خلّاط . وكانت أخته بنت بكتمر زوجة صاحب أرزن الروم^(١) ، قالت : لا أرضى إلا بقتل قاتل أخى . فسار صاحب أرزن إلى خلّاط فخرج إليه الهزار دينارى وتبارزا ، فقتله صاحب أرزن الروم . وعاد إلى أرزن . وبقيت خلّاط بغير ملك . وكان الملك الأوحّد - صاحب ميافارقين^(٢) - يكاّبه أعيان خلّاط . فجاء إليهم واستولى على المدينة . واشترط عليه مقدموها شروطاً ، وكانوا جبابرة ، فقبل الشروط . ثم أبادهم - قتلًا وتغريقاً - وبدد شملهم .

ومن عجيب ما اتفق أن الملك العادل ، سيف الدين ، كان له عدة أولاد ، ليس فيهم أقبح صورة من الملك الأوحّد هذا ، فإنه كان قصيراً ألغى زري المنظر .

فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد . فأرسل والده بازياً على طائر ، فسقط البازي على رأس الأوحّد ، فضحك السلطان والده ، وقال : قد صاد بازينا اليوم بومة ! فانكسر خاطر الأوحّد لذلك ، وتألّم وأسرّها في نفسه . فلما قدر الله تعالى له بفتح خلّاط ، وخطب له بشاه أرمن على قاعدة ملوك خلّاط ، كتب إلى أبيه الملك العادل ، يشره بالفتح ، ويقول له : إن البومة - التي صاهاها بازى مولانا السلطان في اليوم القلاني - قد اصطادت مدينة خلّاط ، وصارت شاه أرمن ! وكان بين الواقعتين عشر سنين .

(١) سبق ذكرها . وأنها مدينة مشهورة لها قلعة حصينة كانت من أعبر نواحي أرمينية .

(٢) أشهر مئة بديار بكر .

وفي هذه السنة ، في شهر رجب ، وضعت الساعات بالمتذنة الشمالية
بجامع دمشق . وفيها حصل الشروع في عمارة البرج الذي يقابل المدرسة
القَمَازِيَّة^(١) من قلعة دمشق . وفيها حدثت زلازل ورياح شديدة يبلاد
خِلَاطٌ ، ونخسف بمكان الملك الأوحى بن الملك العادل قد نزل به ثم رحل
عنه ، قبل الخسف بليلة .

وفيها كانت وفاة الأمير داود ، بن الخليفة العاضد لدين الله ، في محبسه
بقلعة الجبل . وكان دُعَاةُ الإسماعيلية يقولون إن العاضد نصَّ عليه بالإمامة ،
وأنه صاحب الأمر بعده . وكان عظيماً عند العامة . فلما توفى انقطعت دعوة
الإسماعيلية^(٢) وزال أمرهم .

وأشهرُ العادلُ وفاته ، فعظمَ موته على من هو يتوالى فيهم . فاستأذن
الناس الملكَ الكامل في النياحة عليه ونَدْبِهِ ، فَأَذِنَ لهم . فبرز النساءُ
حاسرات ، والرجال في ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا في نديه والبكاء
عليه . واشتهر من كان مستتراً من الإسماعيلية . فلما اجتمعوا وكمّلوا ، أرسل
الملك الكامل جماعة من عسكره ، فنهبوا ذلك الجمع ، وقبض على المعروفين
منهم ، وملأ بهم الحبوس ، واستصنى أموال ذوي اليسار منهم ، وهرب
جماعة آخرون . وزال أمر الإسماعيلية من الديار المصرية . ولم يتجأهر بعد
ذلك أحدٌ بمذهبهم .

(١) من مدارس الحنفية بدمشق ، أنشأها صارم الدين قباذ النجوى ، الذى كان استاد دار السلطان
صلاح الدين ، والذى توفى سنة ٥٩٦ هـ .

(النجوم الزاهرة : ج ٧ - ٢٨٣ - حاشية ٢)

(٢) أى : المذهب الشيعى الذى كانت عليه الدولة الفاطمية . نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

واستلقت سنة خمسة وستائة :

في هذه السنة في يوم الجمعة ، خامس شهر رمضان ، ولي قاضي القضاة عماد الدين عبدالرحمن ، بن عبد العلي ، بن علي ، الشُّكْرِي - القضاة بالديار المصرية .

وذلك أن الملك العادل كان قد خرج إلى الشام في شعبان ، فلما وصل إلى العَبَّاسَةِ ^(١) ، بلغه وفاة قاضي القضاة : صدر الدين عبد الملك بن دَرْيَاس . وكانت وفاته في ليلة الأربعاء ، الخامس من شهر رجب ، من هذه السنة . ومولده في أواخر سنة ست عشرة ، أو أوائل سنة سبع عشرة وخمسمائة . ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

ولما اتصلت وفاته بالسلطان ، استدعى الفقيه عماد الدين ، فسار إلى العَبَّاسَةِ . فولاه الحكم ، وعاد ^(٢) إلى القاهرة . فدخلها في يوم الاثنين ، ثامن الشهر . ولما وصل إلى مسجد التَّيْنِ ، دخل إليه - ومسجد التين بظاهر القاهرة - ولبس الطَّرْجَة وألقى الطَّلُوسَان ^(٣) . وكانت العادة جارية أن لا يطرَح إلا من عُلِمَ فضله واشتهر .

وفيها كانت وفاة الملك الأُمجد : مجد الدين حسن ، بن السلطان الملك

(١) قرية بين بلييس والصالحية .

(مجمع البلدان : ج ٦ - ١٠٦)

(٢) الضمير يعود إلى الفقيه عماد الدين .

(٣) ذكر صاحب «صبح الأعشى» ما يأتي :
« ويميز قضاة القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تنزعاهم وتسدل على ظهره وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي » . ذكر ذلك وهو يصف زى كبار القضاة والعلماء .

(القول في : ج ٤ - ص ٤١ - ٤٢)

العادل سيف الدين أبي بكر محمد ، بالقدس - وهو شقيق الملك المعظم
والملك العزيز - رحمهم الله تعالى .

واستهلّت سنة ست وسبعمائة :

في هذه السنة - وقيل في سنة سبع - نزلت الكُرْجُ^(١) على خِلَاط ،
وبها الملك الأوحّد ، بن الملك العادل . وملك الكُرْجُ اسمه إِيْرَانِي^(٢) .

واتفق في أمر هذا الحصار واقعة غريبة ، ذكرها الشيخ شمس الدين
محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الجَزْرِي في تاريخه : « حوادث
الزمان » عَمَّن حكى لوالده ، قال :

كنت في خِلَاط ، وقد أشرف الكُرْجُ على فتحها ، ولم يبق إلا دخولهم
إليها . فبلغ الملك الأوحّد أن منجم إيراّني قد حكم لصاحبه أنه متى زحف
يوم السبت أول النهار ، دخل خِلَاط ، وجلس على ثُحّت الملك ، ولا يبيت
ليلة الأحد إلا في قلعتها . فأحضر الملك الأوحّد منجمه ، وذكر له ما بلغه ،
فقال له : لا تخف ، فإن خِلَاط لا تخرج عن ملكك ، وأنت مستظهر على
الكُرْج .

(١) الكُرْج : أمة من المسيحيين ، ساكنها بجنال القوقاز (القوق) ثم خرجوا واستولوا على تفلّيس (سنة
٥١٥ هـ) ولم يزالوا متملكين لها حتى أخرجهم منها جلال الدين خوارزم شاه (سنة ٦٢١ هـ) .
(معجم البلدان : ج ٧ - ٢٣٠ - ٢٣١)

(السلوك : زيادة : ج ١ - ١٦٩)

(٢) هكذا رُسِّمَتْ في أكثر وروده في الأصلين . ولكن قرئ في النجوم الزاهرة : (ج ٦ - ٢٥٩) : « إيراّني » .
وفي ابن الأثير : إيراّني .

واتفق أن إيراني شرب الخمر، وركب في جيوشه وقصد باب أرْجِيش^(١)، وحمل ليدخل البلد قبل أخيه، فكبا به فرسه في حفيرة، فسقط إلى الأرض. واتفق خروج جماعة من القَيْمَرِيَّةِ^(٢) من ذلك الباب، ليدفعوا الكرُج من البلد، فرأوا إيراني قد سقط، فحملوا على أصحابه وكشفوهم عنه، وأسروه. ودخلوا باب المدينة، وقد تجهز الملك الأوحده للهزيمة، فجلس في القلعة أمام تحت المملكة على كرسي. وكان بقلعة خلاط تحت عظيم، لا يجلس عليه الملك إلا في يوم ملكه، ثم لا يعود يجلس عليه. فلما أحضر ملك الكرج إليه، تلقاه وأكرمه، وأجلسه على تحت الملك وجلس بين يديه على كرسي، وقال له: البلاد لك. فكتب إيراني إلى أخيه، وإلى الكرج، بالانصراف عن البلد، فرحلوا.

وتحالف الملك الأوحده وملك الكرج على الموافقة والمعاضدة. وتزوج الملك الأوحده ابنة إيراني، وجهزه إلى مدينته تفليس، بعد أن استأذن والده على ذلك، فأذن له. ويقال كان إطلاقه في ثاني عشر جادى الأولى، سنة سبع وستائة. والله أعلم. وزُفَّت البنت إلى الملك الأوحده بعد ذلك، وهى على دينها، وبني لها بيعة بقلعة خلاط. وأطلق الكرج القلاع التى كانت أخذت - وهى احدى وعشرون قلعة - ومائة ألف دينار. ووافق قول كل من النجمين: جلس الكرجى على تحت الملك، وبات بالقلعة، وانتصر الأوحده.

(١) مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط. وأكثر أهلها أرمن نصارى.

(ياقوت: ج ١ - ١٨١)

(٢) نسبة إلى قيسر. وهى قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، ينسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط، وهم أكراد.

(معجم البلدان: ج ٧ - ١٩٩)

وفيهما جهز الملك العادل جبال الدين المصرى ^(١) رسولاً إلى الخليفة .
فأدى ، وأعيد . وصحبه من الديوان العزيز ابن الضحاك وأقباش ^(٢)
الناصرى . فاجتمعوا بالسلطان الملك العادل على رأس العين .

ذكر حصار الملك العادل منجّار ورجوعه عنها وأخذ نصيبين والحائور

وفى سنة ست وستائة ، سار الملك العادل إلى منجّار ^(٣) - وصاحبها ،
يوم ذاك ، قطب الدين بن عماد الدين زنكى .

فلما خيم بظاهرها ، أخرج صاحبها نساءه وخدمه ، يسألن العادل إبقاء
المدينة عليه . فلما حصلن عنده ، أمر باعتقالهن . وأرسل إلى قطب الدين ،
يقول : انه لا يطلقهن إلا بعد تسليم البلد . فاضطر إلى موافقته . وتقررت
الحال بينهما : أن يعوض قطب الدين الرقة وسروج وضياع فى بلاد حرّان .
فأطلق العادل النسوة ، وأرسل أعلامه إلى البلد ، فلما دخلن البلد ،
ودخلت الأعلام العادلية ، أمر قطب الدين بغلاق الأبواب وتكسير الأعلام .
وأرسل إلى العادل ، يقول : غَدْرَةٌ بِغَدْرَةٍ ، والبادى أظلم .

(١) هو المعروف بالجبال المصرى : يونس بن بدران بن فريز . ولد بمصر سنة خمس وخمسين وخمسمائة . سمع
من السلق وغيره . وكان يشارك فى علوم كثيرة . ودرس التفسير بالعادلية بنحشق وولى قضاء الشام . كانت
وفاته سنة ٦٢٣ هـ .

(السيوطى : حسن المحاضرة : ج ١ - ص ١٧٢)

(٢) هو خادم الخليفة الناصر لدين الله .

(٣) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، تقع فى لطف جبل عال ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وبينها وبين
نصيبين ثلاثة أيام أيضاً . وهى مدينة طيبة فى وسطها نهر جار ، وعامرة جداً .

(معجم البلدان : ج ٥ - ١٤٤)

فحاصرها العادل ، وقطع أشجارها وهدم جَوَاسِقَهَا . فانتصر صاحب الموصل لصاحب سنجار ، خوفاً على بلاده . وراسل مظفر الدين صاحب إربل ، وكان بينهما وحشة . وكان من جملة رسالة صاحب الموصل له : أن الأحقاد تذهبها الشدائد . فراسل مظفر الدين العادل ، يشفع عنده في صاحب سنجار . فرد رسوله أقبح رد . ففضى إلى صاحب الموصل ، واتفق معه ، وراسلا صاحب الجزيرة .

وأرسل مظفر الدين إلى صاحب سنجار ، يشير عليه بمراسلة الخليفة . فأرسل إليه ، فضى الرسول إلى بغداد . فأرسل الخليفة إلى العادل ، يشفع عنده في صاحب سنجار . فلم يجب العادل لذلك . فغضب رسول الخليفة ، وعاد إلى الموصل ، وقال لمن بها من الملوك : قد أذن لكم أمير المؤمنين في قتال العادل .

فكتبوا إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، وأغروه بعمه . فأرسل أخاه الملك المؤيد : نجم الدين مسعود إلى عمه ، يشفع في صاحب سنجار . فردّه أقبح رد . فبرز الظاهر من حلب ، في ثامن شعبان ، لقصد العادل . ففترقت عساكره ، والتحق بعضها بالعادل .

ثم رأى أهل سنجار أن من خرج منهم غضبه عسكر العادل ، وفسقوا بمن خرج من النساء ، فقاتلوا قتال الحرم . فاضطر العادل إلى الصلح مع صاحب سنجار . فقرر أن يسلموا إلى العادل : نصيبين والخابور ، ويحملوا إليه مالا . ففعل ، وفارق سنجار .

وفيها كانت وفاة الملك المؤيد : نجم الدين مسعود بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، برأس عتين ، عند منصرفه من عند عمه الملك

العاذل ، برسالة أخيه بسبب سنجار . وكان قد نام في بيت مع ثلاثة نفر ،
وعندهم منقل فيه نار ، والبيت بغير منفذ ، فانعكس البخار فأخذ على
أنفاسهم ، فماتوا جميعاً فحمل المؤيد في محفة إلى حلب ، فدفن بها

وفيه توفي الشيخ الإمام العلامة : فخر الدين أبو عبد الله ، محمد بن
عمر بن الحسين بن علي بن محمد ، التَّيْمِي البَكْرِي الطَّبْرِسْتَانِي الأصل ،
الرَّازِي - المعروف بابن خطيب الرِّي ، الفقيه الشافعي ، صاحب التصانيف
المشهورة ^(١) . وكانت وفاته بهراء ^(٢) في يوم الاثنين - وهو يوم عيد الفطر -
سنة ست وستائة . ومولده في خامس عشر شهر رمضان ، سنة ثلاث وأربعين
 وخمسمائة .

وفيه كانت وفاة القاضي الأسعد : أبي المكارم أسعد بن الخطير أبي
سعيد ، مُهَذَّب بن مينا بن زكريا بن أبي قُدَّامة ، بن أبي مَلِيح مَنَّاى ،
المِصْرِي الكاتب الشاعر .

كان يتولى نظر الدواوين بالديار المصرية . وكان نصرانياً فأسلم في ابتداء
الدولة الناصرية الصلاحية ، هو وجماعته . وله مصنفات عديدة : نظم سيرة
الملك الناصر صلاح الدين . ونظم كتاب كَلِيلَة ودُمْنَة . وله ديوان شعر .
وباشر ديوان الجيش الصَّلَاحِي ، ثم ولي نظر الدواوين . وخاف الصاحب
صفي الدين بن شكر فهرب إلى حلب ، والتحق بالملك الظاهر صاحبها .

(١) هو فخر الدين الرازي ، الإمام المشهور ، صاحب التفسير الكبير : « مفاتيح الغيب » وه « المحصل » في الحكمة
وعلم الكلام ، وه « الأربعين » في أصول الدين ، وغيرها من الكتب .

(٢) كانت من مدن خراسان الكبرى قديماً ، وهى الآن في مملكة أفغانستان .

وكانت وفاته بحلب في سلخ جمادى الأولى سنة ست وستائة ، وعمره اثنان وستون سنة . ودفن بالمقبرة المعروفة بالمقام ، على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهَرَوِي . ومَمَاتِي لقب أبي المليح جده الأعلى . وسبب تلقيه بهذا اللقب أنه وقع بمصر غلاء عظيم ، وكان كثير الصدقة والإطعام ، خصوصاً لأطفال المسلمين ، وكان الأطفال إذا رأوه نادوه : مَمَاتِي ، فغلب عليه . حكى ذلك ابن خَلِّكَان عن الحافظ زَكِيَّ الدين عبد العظيم - رحمه الله تعالى .

واستهل سنة سبع وستائة :

في هذه السنة - في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شعبان - قدم الملك العادل إلى القاهرة ، وصحبته صاحب صنى الدين عبد الله بن شكر . ثم توجه إلى الطُّور^(١) لعمارة .

وفي هذه السنة ، في سابع شوال ، حصل الشروع في عمارة مُصَلَّى ظاهر دمشق ، وهي المجاورة لمسجد التارنج ، فعمرت لصلاة العيدين ، ثم عمل بالمصلى رواقات في سنة ثلاث عشرة وستائة ، وعملت حيطانه ورتب فيه خطيب لإقامة صلاة الجمعة في سابع عشر من شهر رمضان . وفيها ، في حادى عشر من شهر شوال جددت أبواب جامع دمشق من جهة باب البريد ، وعملت بالنحاس الأصفر وركبت . وفي سادس عشر من شوال حصل الشروع في إصلاح الفؤارة بجيرون^(٢) . وعمل الشاذروان والبركة

(١) جبل مظل على طيرة الأردن .

(٢) ياقوت : ج ٦ - ٦٧

(٣) عند باب دمشق ، وهي سقيفة حولها مدينة . وبه سمى باب جيرون . والمعروف أن باباً من أبواب الجامع بدمشق ، وهو باب الشرق ، يقال له : باب جيرون . وقيل إن جيرون هى دمشق نفسها .
(معجم البلدان : ج ٣ - ١٩١)

بساحتها ، واتخذ فيها مسجد بإمام راتب . وأول من رتب فيه - بأمر صاحب صفى الدين بن شكر - الشيخ نفيس الدين الميصرى ، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته ، وكان حسن الصوت .

وفى فيها فى سابع عشر من ذى القعدة ، وصلت مراكب الفرنج إلى ثغر دمياط ، على غيرة من أهله . فنهروا أطراف الثغر ، وأسروا جماعة من المسلمين .

وامتلت ستة ثمان وستائة :

والسلطان الملك العادل ، وابنه الملك المعظم ، نازلان بالمُحجيم على الطور^(١) ، ومعهما العساكر ، لهارة حصنه . وهما مجتهدان فى إدارته حوشاً .

ذكر بناء القبة على ضريح الإمام الشافعى

- رحمه الله تعالى - وعهارة السوق

كان ابتداء عهارة هذه القبة فى سنة ثمان وستائة وكانت أرض هذا المكان مقبرة عتيقة . فاتفق أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف أنشأ المدرسة المجاورة للضريح . فلما كان فى هذه السنة ، فى خامس عشر من صفر ، توفيت والدة الملك الكامل ، وكان الملك الكامل ، قبل وفاتها بأيام ، ركب وطوف القرافة على مكان يبينه عليها ، ويجعل فيه سوقاً . فوقع الاختيار على دفنها بالضريح . فلما توفيت ، دفنها وعمر عليها هذه القبة الموجودة الآن .

(١) سبقت الإشارة إليه ، وأنه جبل مطل على طبرية الأردن .

وغرم عليها أموالاً جلييلة المقدار ، أجرى إليها الماء الحلو من بركة الحبش^(١) وانتقل البناء من القرافة الكبرى إلى هذا الموضع . ثم تغالى الناس بعد ذلك فى العماثر بالقرافة وزخرفوها ، حتى صارت على ماهى عليه الآن .

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الأمير فخر الدين أبى المنصور ، أباز جهار كس ، الناصرى الصلاحى ، بدمشق فى صفر ، ودفن بقاسيون .

وكان الملك العادل قد أقطعه بانياس ونبشين والشقيف وهونين^(٢) وتلك البلاد ، لأجل انحرافه عن الملك الأفضل ، ابن أخيه الملك الناصر . ولما مات جهار كس ، أقر السلطان ما كان يده على ابنه . وقام بالأمر والتدبير الأمير صارم الدين خطيب التبيين أحسن قيام ، وسد تلك الثغور . واشترى صارم الدين ضيعة بوادى بردى^(٣) تسمى الكفر ، ووقفها على تربة جهار كس ، وعمر له قبة .

وفىها توفى الأمير صارم الدين برغش العادلى ، بدمشق ، فى ثالث وعشرين صفر ، ودفن بقاسيون غربى بالجامع المظفرى .

(١) كانت من أكبر منزهات مصر ، وموقعها بظاهر (أى خارج) مدينة القسطنطينية من قسطنطينية ، فبا بين الجبل والنيل . وكانت من قبل تسمى بركة المعاز أو بركة حبيب ، وماء النيل يدخل إليها . (السلوك : ج ١ - ١٧٤) نقلا عن الخطط للمفريزى ج ١ - ٤٨٦ .

(٢) سبق التعريف بهذه المواضع كلها ، وكلها حصون وبلاد بين صفد ودمشق .

(٣) أكبر أنهار دمشق . يمر بالغوطة ثم بمدينة دمشق ، حتى يصب شرقها فى بحيرة المرج .

(المعجم : ج ٢ - ١١٨)

واستهلّت سنة تسع وستائة :

ذكر عزل صاحب صنى الدين عبدالله بن على بن شكر
وولاية صاحب الأعز بن شكر

وفى يوم الاثنين ، لسبع مضين من شهر ربيع الأول ، سنة تسع
وستائة ، صُرف صاحب صنى الدين من الوزارة والّزم داره .

ونحن الآن نذكر فى هذا الموضع سبب اتصاله بخدمة السلطان
العاقل ، وموجب انفصاله .

كان قد اتصل بالخدمة العادلة فى أواخر الأيام الناصرية . فلما مات
ابن الثَّحال النصارى - كاتب الملك العادل - تقدم صنى الدين ، فراه شهماً
مقدماً فقدمه ، وتمكن من دولته . فلما كانت حادثة الأفضل ، ورجوعه عن
دمشق بعد حصارها ، وخرج العادل فى طلبه اجتاز بالبيت المقدس ، ومعه
صنى الدين ، فتحلف معه أنه إن قدَّر الله تعالى له بملك الديار المصرية ،
ممكته من المصريين ، وحلفه على ذلك فحلف له .

فلما ملك العادل الديار المصرية ، لم يتمكن صنى الدين من مصادرات
المصريين ، لأمرين : أحدهما ما حل بالناس من القلاء المشهور ، والثانى
ملازمة العادل ببلاد الشام . فلم يزل كذلك إلى سنة اثنين وستائة عند قدوم
العادل من الشام ، فأمسك صاحب جماعة من رؤساء المصريين ،
وأصحاب الدواوين والمستخدمين وغيرهم ، وعاقبهم أشد عقوبة ونكّل
بهم ، وفعل بهم ما أوجب حِقْدَ الناس عليه . وكثُر بطشه بالناس ، وأقام
لنفسه حرمة عظيمة زادت على حرمة السلطان وعظُم أمره ، حتى كان أولاد

الملك العادل يأتون إلى داره فيجلسون على بابه ، حتى يؤذن لهم ، فنُقِلَ ذلك على أمراء الدولة وخاطبوا السلطان في أمره ، وهو لا يَسْمَعُ فيه كلامَ منكم . فلما كان في سنة ست وستائة - والسلطان على سِجَّار - اتفق أن صاحب تَحَدَّثَ معه في شيء ، لم يوافق رأى السلطان ، فتوقف عن إجابته . فقام صاحب من مجلس السلطان ، وقد غضب ، وجرح جرحاً مُفْرِطاً في المجلس ، حتى خجل العادل ممن حضره ، ووجدوا للكلام بجلاً فتكلموا فيه . وكان العادل من أَثَبِّتِ الناس ، وَأَحْلَمِهِم وأقلهم بطشاً ، وصفى الدين بخلاف ذلك . فبقيت هذه الحادثة في نفس السلطان كامة . وكان القاضي الأعز بن شكر في هذه السفارة نائب الوزارة بالديار المصرية ، وهو ناظر الدواوين بها في خدمة الملك الكامل ، فحصل بينهما مودة . فحسده من كان ينوب عن صاحب في الوزارة قبله . وكانوا يكتبون^(١) صاحب ويقولون له إِنَّ الأعز قد توثب عليك ، واتصل بالكامل وتمكن منه .

فلما كان في ذى الحجة ، سنة سبع وستائة ، اجتمع بنو شكر عند صاحب على طعامه . فأشار أن توضع زَبْدِيَّةٌ^(٢) طعام مخصوص بين يدي الموقف - وهو أحد من كان ينوب عن الوزارة - فقال أحد الحاضرين : يده طويلة ! - يريد أنها تطول لمكان الزبدية . فقال آخر : طَوَّلَهَا الذي صرفه من نيابة الوزارة - يعرض به أنه كان يتبرطل ! فضحك الأعز ضحكاً مفراطاً ،

(١) في (ع) : وكانوا يكتبون .

(٢) وعاء للطعام .

بمعنى أنه أمين ، ليس فيه ما يقال كما قيل في غيره ! فغضب الصاحب لذلك وانتهره ، لإساءته في مجلسه بالضحك .

فأسرع الأعز في القيام إلى داره . فلما قام ، قال بعض من حضر للصاحب : لا تأمنه من سوء يكيدك به . وأغروه به ، فأمرًا بإحضاره . فلما جاءه الرسول ، علم أنه إن وقع في يده لا يأمنه على نفسه . فتسوّر من مكان في داره ، وطلع إلى القلعة ، واحتتمى بالكامل . فلما سمع الصاحب بذلك طلبه من الكامل ، فدافعه به . فغضب واجتمع بالملك العادل ، وقال : ان الأعز لزمه حساب ، وقد أحماه الكامل علينا . وكرر عليه القول . فتحدث العادل مع ابنه الكامل في ذلك ، فقال : يُصلَحَ بينهما . وقصد الكامل بذلك مدافعة الأيام ، ليقع سفر العادل إلى الشام معه ، فيسكن ما عند الصاحب منه ، فلم يزد ذلك إلا حنقًا .

فلما كان في آخر ذى الحجة - سنة ثمان وستمائة - ركب الكامل إلى دار الوزارة ، وحضر مجلس الوزير ، والأعز معه ، وأصلح بينهما . فاصطلحا ظاهراً ، واليوطن بخلاف ذلك . وقصد الصاحب أن الأعز إذا انصرف إلى داره ، قبض عليه ، فلم يفارق الأعز الخدمة الكاملية بالقلعة . فازداد الصاحب حنقاً عليه ، وتحدث مع العادل أن يعزله عن نظر الدواوين . فتوقف السلطان في ذلك .

وتمادى الأمر ، إلى آخر صفر . فامتنع الصاحب من الكتابة على المَناشير والتَّوقييع ، وحلف أنه لا يباشر والأعزُّ يكتبُ معه أيداً . فتعطلت أحوال الناس ، وشكوا ذلك إلى السلطان . فأرسل إلى الصاحب بروضه ،

ويقول : لا بد أن أُمَكِّنَكَ من الأعز ، وهو لا يزداد إلا غضباً وإساءة في الجواب . فإذا عاد رسول السلطان إليه ، لا يمكنه مخاطبته بما قاله صاحب ، ويغالط في الجواب . فأرسل السلطان بعض الأمراء إلى صاحب برسالة ، ومعه أحد مماليكه ، وقال له احفظ ما يقوله صاحب ، وأَعِذْهُ عَلَى . فكان من جملة قول صاحب : والله لا كُتِبْتُ والأعز يكتب معي أبداً . فعند ذلك ، خرج السلطان على ابنه الكامل وانتهره ، وأغلظ في القول ، وقال : يُسَلِّمُ الأعز إلى صاحب في هذه الساعة ! .

فلما عاد الكامل إلى القلعة ، تلقاه الأعز على عادته . فقال : قد أمر السلطان بتسليمك للصاحب ، وخرج على سببك ، وعجزت عن حمايتك . فقال له الأعز : يا مولانا ، والله عداوتي للصاحب بسببك ! وهو أنه كاتبني في حقت أنه لا بد أن يعمل على صرفك من مملكة الديار المصرية ، وأن يجعل عوضاً عنك الأشرف موسى . وهذه كُتِبَ إلى . فلما وقف الكامل على الكتب كان من جملة ما تضمنته : « وأما هذا المجنون - يشير إلى الكامل - فلا بد من صرفه ، وإحضار الأشرف إلى الديار المصرية » . وتضمنت من سبه وشتمه كثيراً .

فعاد الكامل للعادل ، والكتب معه ، وجاء في غير الوقت المعتاد . فقال له العادل : ما جاء بك الآن ؟ فقال : هذا صاحب يريد أن يوقع بين السلطان وأولاده ، وبين الإخوة . هذه كتبه للأعز ، وعداوته بسببها . فلما وقف العادل عليها . عظم عليه سبه لابنه - وكان العادل يدارى جميع أولاده ، خوفاً أن يقوم أحدهم عليه ، فَتَنَحَّرَ حَرَمَتُهُ - فقال نَزَلُهُ ، ولا يُسَلِّمُ إليه الأعز . ويكتب الأعز وحده .

فخرج الكامل لوقته ، واستدعى الأعز فخر الدين أبا الفوارس
مقدام ، بن القاضي جمال الدين أحمد بن شكر . وأمر أمير جانداره ^(١) بجمع
الدواوين وتسليمهم للأعز . فسلمهم إليه . وجلس صاحب الأعز ،
وتحدث في الوزارة لوقته . وقام صاحب صفى الدين من مجلس الوزارة
ولازم داره . ثم كان من خبر مصادرتة ، وإخراجه من الديار المصرية ما
نذكره - إن شاء الله تعالى .

ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعتقاله والامتيلاء على قلاعه

كان الأمير عز الدين أسامة الجبلى من أكابر الأمراء ، وصهر الملك
العاقل . وهو الذى بنى الجسر الذى على نهر الأردن ، المعروف بجسر أسامة .
وقيل أنه هو الذى بنى قلعة عجلون ^(٢) . وكانت داره بدمشق ، التى هى الآن

(١) وصف « القلقشندى » ، « وظيفة » ، « أمير جاندار » بقوله :

« إمرة جاندار : وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان .
ويقدم البريد مع كاتب السر . وصاحبها كالنسيم للباب . وإذا أراد أحد تزيير أحد أو قتله كان ذلك على يد
صاحب هذه الوظيفة .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ص ٢٠)

وهذه الكلمة مكونة من جزئين : جان بالفارسية ومعناها روح ، ودار ومعناها صاحب .
فهذه الوظيفة تشبه وظيفة الخاجب أو الأمين الأول .

(٢) قلعة من جند (إقليم) الأردن . مبنية على جبل يعرف بجبل حوف ، تشرف على القور . وهى مُحَدَّثة البناء ،
بناها أسامة بن منقذ من أمراء السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٨٠ هـ ، وكان مكانها دير به راهب اسمه
عجلون ، فسميت به . وهى حصن - على صفوه - جليل منيع .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ص ١٠٥ - ١٠٦)

نقول : وماورد هنا فى صبح الأعشى يخالف ما ذكره للولف (التورى) فى المتن من أن أسامة الجبلى هو
الذى بنى قلعة عجلون . وظاهر أن حقيقة الاسم هو أسامة الجبلى هنا ، وأما رواية القلقشندى فهىا تناس
بين أسامة هذا وأسامة بن منقذ ، الذى كان فى شهر ولم يكن هنا .

المدرسة الباذرائية^(١) بدمشق .

فاتهمه السلطان بمباطنة الملك الظاهر صاحب حلب ، واستوحش هو أيضاً من السلطان الملك العادل وأولاده ، فقصدا الانحياز إلى قلاعه - وكان له عَجَلُون وقلعة كَوَكَب^(٢) . واتفق أن السلطان توجه في هذه السنة إلى ثغر دمياط ، وصحبته أولاده الملك الكامل والملك المعظم والملك الفائز ، فاغتنم عز الدين أسامة غيبتهم ، وركب من القاهرة في يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة ، وخرج وأظهر أنه يريد الصيد .

فلما مر بَيْلَيس ، بَطَقَ^(٣) متولياً إلى السلطان يخبره . فقال الملك العادل : من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه . فانتدب الملك المعظم لذلك . وركب من ثغر دمياط ليلة الثلاثاء ، غرة شهر رجب . وساق في ثمانية ممن يعتمد عليهم ، وعلى يده حصان جَنِيب^(٤) فوصل إلى غزة صباح الجمعة ،

(١) نسبة إلى نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة إلى الشام ومصر - الذي ساق ذكره - لأنه هو الذي بناها بدمشق . وهو منسوب إلى (باذرائيا) وهي بلدة صغيرة بالقرب من موقع واسط بالعراق ، مشهورة بنهرها الطاية / في المجردة .

(مجم البلدان : ج ٢ - ٢٨)

وهذا الاسم يطلق على موضع آخر بالنهران . - كما ذكر ياقوت - ولكنه ليس المقصود هنا .

(٢) أما عجلون فقد تقدم ذكرها . وأما قلعة كوكب فهي أيضاً من القلاع التي كان لها شأن في عهد الحروب الصليبية . ويقول عنها ياقوت (ج ٧ - ٣٠١) : « اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، حصينة حصينة ، تشرف على الأردن . انتصها صلاح الدين فبا افتحه من البلاد » . أهـ .

(٣) بطق : أي أرسل بطاقة كتب فيها ما يريد .

(٤) أي حصان يأخذه المسافر معه للحيلة ، ليبادل الركوب عليه ويريح الحصان الأول .

وسبق أسامة إليها ، وأمسك عليه الطرق . وأما أسامة فإنه تقطعت عنه ممالكه ومن كان معه ، وبقى وحده ، وبه مرض الثَّقرس . ووصل إلى الدَّارُوم^(١) فعرفه بعض الصيادين ، فأعطاه أسامة ألف دينار ، وقال : خُذْ هذه وأوصلني إلى الشام . فأخذه وجاء إلى رفاقه فعرفوه ، وتوجهوا به على طريق الخليل ، ليتوجهوا به إلى عَجَلون . فوصلوا به إلى القدس ، في يوم الأحد سادس من شهر رجب . ونزل بصيهيَّون - وهي ضيعة بالقدس .

وعلم به الملك المعظم ، فأرسل إليه بثياب وطعام ، ولطفه ، وقال له أنت شيخ كبير ما يصلح لك الحصون ، فسَلَّم إلى كوكب وعجلون . وقال أنا أحلف لك على مالك وملكتك وجميع أسبابك ، وتعيش بيننا مثل الوالد . فامتنع من ذلك ، وسب المعظم أقبح سب . فلما يشن منه ، بعث به إلى الكرك^(٢) واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره . فكان قيمة ما أخذ له ألف ألف دينار .

وأما السلطان الملك العادل فإنه كان توجه في العشرين من جمادى الأولى إلى نهر دمياط ، وتوجه منه إلى نهر الاسكندرية ، ثم عاد وتوجه إلى الشام ، في ثانی شوال من هذه السنة . وحاصر كوكب أشد حصار ، واستولى عليها . وأخذ منها أموالا عظيمة وهدمها وعَمَّى أثرها . وذلك في العشر الأوسط من ذی القعدة

(١) قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. فيها يرى البحر ، ألا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ .

(المعجم : ج ٤ - ١٣)

(٢) بفتح أوله وثانيه . قلعة حصينة جدا وفي طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها ، بين أيلة وبحر القلزم (البحر الأحمر) والبيت المقدس . وهي على سن جبل عال ، تحيط بها أودية - إلا من جهة الرض (أى قريتها) .

(بأقوت : ج ٧ - ٢٤٠)

ذكر وفاة الملك الأوحـد صاحب خلـاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها

وفي هذه السنة ، كانت وفاة الملك الأوحـد نجم الدين أيوب ، بن
السلطان الملك العادل ، وهو صاحب خلـاط . وكانت وفاته بـمَلازَ كِرْد^(١)
في ثامن شهر ربيع الأول ، ودُفِن بها .

وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف من حُرَّان ، فأقام عنده أياماً .
واشتد مرضه ، فقصـد الأشرف الرجوع إلى حُرَّان لكـلِّا بـتَحَيُّل^(٢) منه
الأوحـد . فقال له الأوحـد : يا أخى كم تلح ؟ والله ، إني ميت ، وأنت
تأخذ البلاد ! ثم مات . فدفنه الملك الأشرف . وجاء إلى خلـاط ، واستولى
عليها ، وعلى ما بها من الأموال .

فتوجه الملك العادل إليه ، وقد غضب لكونه^(٣) فعل بغير أمره . فلما
وصل إليها ، اعتذر الملك الأشرف أنه إنما فعل ذلك خوفاً أن يسبقه غيره من
ملوك الأطراف إليها ، قبل عذره ، واستمر به فيها^(٤) . وأنعم السلطان على
ولده الملك المظفر شهاب الدين غازى بميافارقين وأعمالها .

(١) من بلاد أرمينية . كانت عندها الموقعة التاريخية الشهيرة التى حَرَم فيها السلطان ألب أرسلان الأُمَراطُورَ
البيزنطى وجيشه .

(٢) يتوهم أنه يدبر له أمراً .

(٣) فى (ع) : كونه . ويتكرر هذا فى مواضع مختلفة .

(٤) هذا تعبير تقابله فى المتن فى عدة مواضع . ومعناه أنه أقر استمراره فيها ، وإثباتاً عليها .

واسنهلت ستة عشر وستائة :

ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل ، ورجمه

وفي جمادى الأولى سنة عشر وستائة ، شَقَبَ العوامُ بمصر على الملك الكامل ورجموه ، وسبب ذلك أن أبا شاعر النصراني الطيب كان الملك الكامل يميل إليه ، وكان إلى جانب الكنيسة المعلقة بمصر مسجد قد عفى أثره ، فقصده العوام تجديدده . فامتنع الكامل من إيجابتهم إلى ذلك ، بسبب أبي شاعر . فثار العوام ، وقالوا لأبد من عمارته . فركب الملك الكامل من القلعة ، وجاء إلى الكنيسة المعلقة ^(١) ، وكشف المكان بنفسه . فلما شاهده ، قال : ما كان هذا مسجداً قط . فاستغاث العوام ، وشغبوا ورموه بالحجارة ، فهرب منهم إلى القلعة .

وفيها توجه الملك الظاهر الخضر ، بن السلطان الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب ، من حلب لقصد الحج . فترل بالقابون ^(٢) في يوم الأحد رابع شوال ، ثم انتقل إلى مسجد القَدَم ^(٣) في خامس الشهر . وكان الملك المعظم بحوران ، فوصل إلى دمشق ، وأدخله إليها وعمل له ضيافة . ثم توجه

(١) ذكر المقرئ عنها في « المخطوط » أنها « بمدينة مصر » ، في خط نصر الشمع ، على اسم السيدة . وهي جيلة القلعة عندهم .

(ج ٤ - ص ٤٢٤)

(٢) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، في طريق القاصد إلى العراق ، وسط البساتين . (ياقوت : ج ٧ - ٤)

(٣) مسجد بدمشق . وأصله « مشهد القدم » . وهو من الآثار التي في مدينة دمشق ووطنها ، يقال إن هناك قبر موسى بن عمران .

(النجوم الزاهرة : ج ٦ - ١٢٦ . حاشية ١)

إلى الحجاز ، صحبة الركب الشامي ، فلما وصل إلى المدينة زار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأحرم بالحج من ذى الحليفة^(١) ، فلما انتهى إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر ، خوفاً منه أن يتوجه إلى اليمن . فقالوا له : ترجع . فلم مرادهم . فقال إنه قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ، وإني قد أحرمت . ووالله ما قصدى اليمن ولا أقصد غير الحج ، قهيدوني ، واحتاطوا بي ، حتى أفضى المناسك وأعود . فلم يوافقوه على ذلك ، وأعادوه إلى الشام فصنع كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم حين صده المشركون عن البيت : قَصَّرَ وذَبَحَ ما تيسر ، وعاد إلى الشام .

وفيها توفي الأمير فارس الدين ميمون القَصْرِي بحلب في رابع^(٢) عشر من شهر رمضان . وكان من أكابر الأمراء الناصرية . وكانت أَعَزَّازَ إقطاعه . وخلف أموالاً جَمَّةً . وهذه النسبة إلى القَصْرِ الذي بالقاهرة ، كان تَرَبُّي^(٣) فيه - رحمه الله .

(١) قرية بيننا وبين المدينة ستة أميال أو سبعة . ومنها ميقات أهل المدينة .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٣٢٩)

(٢) سبق أن عرفنا بها ، وهي بلدة وقلعة شمال حلب .

(٣) كان آخر الأمراء الصلاحية ، الذين لعبوا دوراً هاماً في الأحداث السابقة . وبعد وفاته انتهت دولتهم .

واستهلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة :

ذكر استيلاء الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن

وفي هذه السنة جهز الملك الكامل ابنه الملك المسعود ، صلاح الدين أنسيز - وهو أقسيس ^(١) - إلى الحجاز ، ويتوجه من هناك إلى اليمن .

وكان سبب إرساله إلى اليمن أن الناصر أيوب ، بن سيف الإسلام بن أيوب ، قد توفي ، واستولى على اليمن سليمان بن شاهنشاه ، بن تقى الدين عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب - باتفاق من أجنادها - وتزوج بأم الناصر . ووصل الخبر إلى الملك الكامل بذلك ، فجهز ابنه الملك المسعود . فرحل من بركة الجب ^(٢) في يوم الاثنين ، سابع عشر من شهر رمضان ، ومعه ألف فارس ، ومن الجاندارية ^(٣) والرماة خمسمائة و [كان] ذلك بعد أن سيره إلى خدمة السلطان الملك العادل بدمشق ، ولقبه بالملك المسعود ، وأعادته إلى القاهرة .

(١) هذا لقب الملك المسعود بن الملك الكامل . وقد شرحه ابن خلكان فقال : « وأطسيس بفتح الهزة وسكون الطاء وكسر السين - هي كلمة تركية معناها بالبرية : ما له اسم . ويقال : إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد ، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأمراء : في بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه : أطسيس ، فهاء أطسيس . والناس يقولون : أقسيس بالقاف . وصوابه بالطاء .

(وفيات الأعيان : ج ٤ - ص ١٧٠)

وهي المذكورة هنا في المتن بالياء . وهو تخفيف من الطاء .

(٢) يقع موضعها في الجهة البحرية من القاهرة ، على نحو يريد منها . عرفت أولاً بجب صغيرة ، ثم قيل لما أرضع الجب ، ثم عرفت ببركة الحاج لزول الحاج بها في مسيرهم من القاهرة وإليها . وكانت إحدى المحترقات بظاهر القاهرة يميز إليها الملوك للصيد .

(المقريزي : الخطوط ج ١ - ٤٨٩)

(٣) سبق أن شرحنا وتلفظه (الجاندار) . والجاندارية : فئة من المالكات السلطانية كانوا من خواص السلطان الملازمين له من حرسه أو حاشية قصره . وواحد منهم «جاندار» .

فتوجه إلى مكة - شرفها الله تعالى ، فلما قضى مناسك الحج توجه إلى بلاد اليمن . فكان وصوله إلى زَبيد في يوم السبت مستهل المحرم ، سنة ثنى عشرة وستمائة . فللكها من غير قتال ، وتسلم ثمانية حصون من يَهامة . وندب قطعة من العسكر لحصار تَعِزٍّ^(١) وكان سليمان قد تحصن بها - ففتح الحصن في ثالث صفر ، ودخله العسكر المسعودي ، ومُسيك سليمان واعتُقل . ثم جهزه إلى الديار المصرية هو زوجته .

وكانت صنعاء في يد عبدالله بن حمزة - المدعى الخلافة - فجرد الملك المسعود إليه عسكرا ، فوصل العسكر إلى صنعاء في مستهل جمادى الأولى . فهرب عبدالله لما سمع بقرب العسكر ، وجعل لا يخرج من مدينة إلا بعد تخريب أسوارها ، وتعفية ما يستطيع من أثرها ، وهدم منار المساجد ، ولحق بالجبال وتعلق بها . وملك الملك المسعود البلاد . وكان جَبَّاراً فأنكا ، فيقال إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف ، وخلقاً كثيراً من الأكابر .

وفيه استولى الملك المُعَظَّم - شرف الدين عيسى - على قلعة صَرْخَدَ^(٢) ، وأخذها من ابن قَرَاجا ، وعوضه عنها مالاً وإقطاعاً ، وأعطاها لمملوكه ، لتستاد داره عز الدين أَيْتُك المعظمي . فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، في سنة أربع وأربعين وستمائة .

(١) بالفتح ثم الكسر والزاي المشددة - كما ضبطها ياقوت - : قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات (المعجم : ج ٢ - ٣٩٣)

(٢) سبق ذكرها . وهي قلعة حصينة وولاية حسنة ملاصقة لبلاد حوران .

وفيهما أحدثت المعاملة بالقرطيس السود العادلية بدمشق ، كما يتعامل الناس بالورق بالديار المصرية . فبقيت زماناً ، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس ، إلى أن توفي الملك العادل .

وفيهما توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل ، من دمشق إلى الحجاز . وجدد في الطريق البرك والمصانع والمناهل ، وأحسن إلى الناس ، وتصدق ، وحجج قارئاً - وكان حنفي المذهب - وعاد إلى الشام .

وفيهما اهتم السلطان - الملك العادل - بعمل الميدان الذي بسوق الخيل ، بظاهر القاهرة ، والفساق المجاورة لها .

وفيهما ، في ثالث شهر ربيع الأول ، فوض تدريس الحنفية ، بالمدرسة الثورية بدمشق ، للشيخ جمال الدين محمد بن الحصري^(١) العجسي . وحضر الملك المعظم درسه مع الفقهاء .

واستهل سنة ثنى عشرة وسبائة :

في هذه السنة ، وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى من الحجاز ، وصحبته الأمير السيد الشريف : سيالم بن قاسم^(٢) ، أمير المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وكان قد شكى من فتادة : أمير مكة ، فوعده بالمساعدة عليه . فلما وصل الآن معه ، اجتمع بالسلطان الملك

(١) نسبة إلى حصيرة - وهي إحدى قرى بخارى - فيها وراء النهر . كما سيرد ذكره في المتن .

(٢) هو سالم بن قاسم بن مهنا من الأشراف ، من بني الحسن ، الذين كانوا أمراء المدينة . وكان الشريف سالم هذا مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في فتوحاته ، يترك به ويؤمن بصحبته ويرجع إلى قوله . ويق إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من فتادة فمات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة .

(القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٤ - ص ٣٠٠)

العادل - وكان بحريّة اللّصوص^(١) - وقَدَّمَ الشريف إلى السلطان ما أحضره - على سبيل الهدية - من ثُحف الحجاز ، وعشرين فرساً من خيل الحجاز ، فأكرمه السلطان . واستخدم معه جماعة من أمراء التركمان والرجال ، فتوجه بهم في ثالث عشر شعبان .

واتفقت وفاته قبل وصوله إلى المدينة ، فقام ولد أخيه الأمير جَمَاز بن شيبَعَه بالأمر بعد عمه ، واجتمع أهله على طاعته . ففضى من كان مع عمه لقصد قَتادة أمير مكة . فجمع قَتادة^(٢) عسكره وأصحابه والتفوا بوادي الصُّفراء^(٣) . وكان الظفر لجَمَاز ومن معه ، واستولوا على عسكر قَتادة ، قتلوا ونهبوا وأصروا . وانهمز قَتادة إلى اليثبَع^(٤) وتحصن بقلعته ، فنبهوه وحصلوه .

(١) واقعة حل الطريق بين بيسان ودمشق .

(عن السلوك - زيادة : ج ١ - ٢٨١)

(٢) هو « قَتادة » بن إدريس ، من الأشراف من ذرية الحسن بن علي . وهو أول أمراء مكة من فرعه ، أخذها من الموالي وهم فرع آخر من بني الحسن (سنة ٥٩٩) وخطب للناصر العباسي الخليفة ببغداد ، وتعاظم أمره حتى ملك مع مكة والينبع أطراف اليمن وبعض أعمال المدينة ونجد . وكانت وفاته سنة ٦١٧ . وأسرتهم « بنو قَتادة » ، وقد بقيت مكة في أيديهم حتى عهد الوهايين .

(القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٤ - ص ٢٧٢)

(٣) واد من ناحية المدينة ، كثير النخل والزروع والخير ، في طريق الحاج . وبينه وبين بدر مرحلة . والصفراف قرية كبيرة النخل والزروع وماؤها عيون كلها ، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة .

(بالقوت : المعجم : ج ٥ - ٣٦٧)

(٤) هي من بين رضوى لمن كان متجراً من المدينة إلى البحر على سبع مراحل من المدينة وهي قرية غناء وقيل : ينبع حصن به نخيل وماء وزرع .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٢٥١)

ثم عاد من كان مع الأمير سالم من التركان وغيرهم ، صحبة الناهض ابن الجرجي ، وفي صحبتهم كثير مما غنموه ، من أموال قتادة ومن النساء والصبيان . وظهر منهم جماعة من الأشراف ، فسلموا إلى أكابر أشراف دمشق ، ليكفلوهم ويشركوهم في وقف الأشراف

وفي هذه السنة حصل الشروع في عمارة المدرسة العادلية ^(١) بدمشق وحضر السلطان الملك العادل لترتيب وضعها .

وفيهما في سابع من شهر ربيع الأول . عزل قاضي القضاة : زكي الدين أبو العباس الطاهر ، بن محيي الدين ، [عن] الحكم بدمشق وأعمالها . وولى من الغد الشيخ جمال الدين الحرستاني ^(٢) ، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وشهور .

وفيهما أبطل السلطان الملك العادل ضمان الخمر والقيان بدمشق ، في رابع عشرين جمادى الآخرة . وبقي الأمر على ذلك ، إلى أن توفي الملك العادل في سنة خمس عشرة وستائة .

(١) نسبة إلى السلطان الملك العادل ، لأنه هو الذي بدأ بناءها ، وإن كان الذي أتمها هو ابنه المعظم عيسى . وصارت من المدارس الكبيرة . درس بها الجبال لعصرى - على ما سبقت الإشارة إليه .

(٢) نسبة إلى حرستا : وهي قرية كبيرة عامرة في وسط بساتين دمشق ، على طريق حمص ، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ .

وفيها وصل رسول الخليفة من بغداد ، وهو الشيخ شهاب الدين السهروردى^(١) ونزل بجوسق^(٢) العادل . وتوجه إلى السلطان فلققه بالقدس الشريف ، فأدى الرسالة وعاد ، في خامس عشر شوال .

وفيها - في منتصف شعبان ، توفى الشيخ الصالح العارف : أبو الحسن على بن حميد ، المعروف بابن الصباغ قدس الله روحه . وكانت وفاته بقنا - من الأعمال القوصية من الصعيد الأعلى . ودفن بجانبها عند قبر شيخه : الشيخ السيد القطب عبد الرحيم^(٣) . وضرى بها من المزارات المشهورة - نفع الله تعالى بهما .

(١) كنيته (أبو حفص) واسمه : « عمر بن محمد بن عبد الله » ولقبه شهاب الدين ، ونسبه ينصل بأبي بكر الصديق . كان قهياً شافعي المذهب ، شيخاً صالحاً ورعاً ، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة ، وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية . وقرأ الأدب وعقد مجالس الوعظ سنين . وأشهر مؤلفاته « حوار المعارف » . كان شيخ الشيوخ ببغداد . كان مولده بهرورد سنة ٥٣٩ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٢ هـ .
(ابن خلكان . وفیات الأعيان : ج ٣ - ١١٩)

(٢) الجوسق : القصر . « القاموس » .

هامش ص ٤٠

(٣) هو السيد الإمام عبد الرحيم بن أحمد بن حجوة القتال الشريف الحسني . قدم من سبته بالمغرب فأقام بمكة سبع سنين ثم قدم قنا فأقام بها سنين كثيرة ، إلى أن مات وعمره ثمانون سنة . كان أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين ، تخرج به جماعة من الصالحين . وكراماته كثيرة . توفى سنة ٥٩٢ هـ . (٩ من صفر) .
(السيوطي : حسن المحاضرة : ج ١ - ص ٢٢٠)

وأخذ عنه الشيخ أبو الحسن علي بن الصباغ القوصي ، صوفي كبير هدى الله به خلقاً كثيراً وصحبه جماعة من العلماء . وله كرامات كثيرة . كانت وفاته بقنا في منتصف شعبان سنة ٦١٢ .

(المصدر السابق)

واستلقت سنة ثلاث عشرة وسنة :

في هذه السنة كانت الحادثة بين أهل الشَّاعُور^(١) والعُقَيْبَة^(٢) بدمشق . وحملت كل طائفة منهم السلاح ، واقتتلوا . فركب العسكر للفُضْل بينهم^(٣) . وحضر الملك المعظم من جَوْسَقِ الرِّيس لتسكين الفتنة - وكان مقيماً به . وقبض على جماعة من مقدمى الحارات واعتقلوا ، بسبب ذلك .

ذكر القبض على الصاحب الأعز

وفي يوم الاثنين ، سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة ثلاث عشرة وسنة . قبض الملك العادل على وزيره الصاحب فخر الدين الأعز ، وضربه وقيده ، وحمله إلى قلعة بُصْرَى^(٤) فاعتقله بها .

وكان لذلك أسباب : منها أنه صرف ما غرم على القبة بالشافعى من مال الديوان - وكان وتقرر صرفه من مال الديوان الكامل . ومنها أنه كشف على الأموال التى أنفقت في تجهيز الملك المسعود إلى اليمن ، وكانت جملة عظيمة ، فأنكر عليه ذلك ، وفعل به ما فعل .

(١) حلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة ، وهى فى ظاهر المدينة .

(مجمع البلدان : ج ٥ - ٢١٥)

(٢) هى قرية من ضواحي دمشق .

(المجمع : ج ٢ - ص ١١٨ - ١١٩)

(٣) فى النسخين (ع) ، (ك) : « فركب العسكر لابساً بسبهم » . والمعنى لا يفهم . فصححناه من « مرآة الزمان » لبط ابن الجوزى ، فصار : « للفصل بينهم » كما أثبتاه فى المتن .

(٤) هى قصبة كورة « حوران » - وهى من أعمال دمشق ، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً .

(باقوت : ج ٢ - ٢٠٨)

وعرضت الوزارة على القاضي الأشرف : أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم ، فتوقف عنها . ثم خطب فقال : كان والدى فى الأيام الناصرية لا يكتب فى الدولة . فأجيب إلى ذلك ، واستقرت القاعدة أنه يتحدث فى الأموال بلسانه ، دون قلمه . ورتب القاضي عماد الدين بن جبريل صاحب ديوان الدولة ، ورتب شمس الدين أبو القاسم بن التنبى وزير الصُخبة . وفيها فى شهر المحرم ، صرف قاضى القضاة عماد الدين عبد الرحمن ، ابن عبد العلى بن على الشُّكْرِى^(١) - عن القضاء بالديار المصرية .

وكان سبب ذلك أن السلطان عقد مجلساً بحضوره بسبب وقف المدرسة - التى أوقفها إبراهيم بن شرويه^(٢) ، وولى القطب ، قاضى قُوص ، النظر عليها - فلم يضر القاضي عماد الدين الوقف . فقال السلطان : هذه القضية أنا أعرفها وأشهد بها . فامتنع من إثباتها . فغضب السلطان ، وأشهد على نفسه بعزله فى المجلس . ثم صرف عن الخطابة بالجامع الحاكمى ، وولاه الشيخ بهاء الدين بن الجُمَيْرِى^(٣) لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة .

(١) ذكره السيوطى ، بين كبار فقهاء الشافعية ، وقال عنه أنه ولد بمصر ، سنة ٥٥٣ . وتفق على الشهاب الطوسى . وله مصنف كبير فى الفقه وحواش على الوسيط ، ونقل عنه ابن الرقعة . ولى قضاء الديار المصرية . ومات فى شوال سنة ٦٢٤ .

(حسن المحاضرة : ج ١ - ١٧٢)

(٢) آخر ملهات (فك الدين) بن شرويه . وهو أخو العادل لأمه .

(٣) سائق ترجمته فى كتاب عبد الله وقته (٦٤٩) .

ولما عزله السلطان عن القضاء ، استشار شيخ الشيوخ : صدر الدين أبى الحسن بن حمويه^(١) ، فيمن يوليه القضاء . فأشار أن يقسم العمل شطرين : قِبَلًا وبحريًا ، وأن يولى ابن عين الدولة القاهرة والوجه البحرى ، وابن الحرَّاط مصر والوجه القبلى . فعمل برأيه .

وفوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحرى للقاضى شرف الدين بن عين الدولة ، فى يوم السبت ثانى صفر منها - وقيل فى المحرم - وفوض قضاء مصر والوجه القبلى للقاضى تاج الدين : أبى محمد عبد السلام بن على بن الحرَّاط - وكان قاضى دمياط - وذلك فى يوم الاثنين سابع عشر صفر - وقيل فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم .

هذا هو السبب الظاهر [للتناس^(٢)] فى عزل القاضى عماد الدين بن السكرى] وأما السبب الباطن - وهو مما أخبرنى به والدى رحمه الله تعالى عن جده زكى الدين عبد الدايم ، وغيره - أن الفقيه الشيخ الصالح الشهيد الناطق : رضى الدين : عبد الرحمن العقيلى ، المعروف بالثَّوْرَى (وهى نسبة انتقال ، وإنما هو قدم من بلاد المغرب مع أبيه وسكنوا الثَّوْرَة ، واستوطنوا

(١) الموجود فى النسخين : « صدر الدين حسن بن حمويه » . وصوابه : أبى الحسن محمد . وقد صوبناه فى المتن . وهو « صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجوينى » . قال عنه « ابن الأثير » : « كان فقيهاً فاضلاً وصيفاً صالحاً ، من بيت كبير من خراسان » .

(الكامل ج ١٢ - ص ١٦٥) .

وذكر السيوطى : « السلطان صلاح الدين ولى صدر الدين بن حمويه التدريس بالمدرسة الصلاحية التى كانت « تاج المدرس » بعد وفاة الشيخ نجم الدين الجبرشافى فى عام ٥٨٧ هـ . وكان ولاء قبل ذلك مشيخة « خانقاه سعيد نغماء » وهى أول خانقاه (أى دار للصوفية) عملت بديار مصر .

(حسن المحاضرة : ج ٢ - ص ١٤٠ - ١٤١)

(٢) هذه الجملة بين قوسين زيادة من نسخة (ع) وليست موجودة فى النسخة (ك) .

الشيخ عبد الرحمن وخدمه أهلها ، وكانوا يفتخرون بالانتساب إلى خدمته ، واختص بخدمته جد والدي زكي الدين عبد الدايم ، فكان أخص الناس به ، وأعلام منزلة عنده) - كان مع ما هو عليه من العبادة والصلاح المشهور ، ينوب عن القاضي عماد الدين في الحكم بالتؤيرة ، وما معها . فاتفق أن رجلين ^(١) تَدَاْعِيَا في بقرة ، فكذب أحدهما محضراً أن البقرة ملكه وشهد فيه جماعة من الشهود ، وأدوا شهادتهم بذلك عند الفقيه ، ولم يبق إلا تسليمها لصاحب المحضر .

فتأمل الفقيه البقرة ، ونظر إليها . وسأله الذي شهد له الحكم بما ثبت عنده ، وتسليمها إليه . فقال : كيف أسلمها إليك ، وهي تقول أنها لخصمك ، وتخبرني أن المحضر زور - أو ما هذا مغناه ؟ ! . وسلمها لخصمه . فاعترف الخصم الذي أثبت بصحة ما أخبر به الشيخ الفقيه رضى الدين عن البقرة ، وأظهر التوبة والإنابة . فلما اتصلت هذه الواقعة بالقاضي عماد الدين ، كتب إلى الشيخ رضى الدين يقول : كان ينبغي أن تعمل في هذه القضية بظاهر الشرع ، وتسلم البقرة لمن أثبت . وعزله عن نيابته .

فلما اتصل العزل به ، قال لمن حضر عنده : اشهدوا على أني قد عزلته ، وعزلت ذريته من بعده . فعزل في تلك الساعة . ولم يعد إلى القضاء بعدها ، ولأولى القضاء بعده أحد من ذريته . وأعرف أن القاضي عماد

(١) الموجود في كتبا النسخين : « أن رجلا » . فصحناه . وهذا مثل من الأخطاء النحوية .

الدين ، ولدُ ولده فُوهُ له بالقضاء غير مرة ، [وَعَيْنُ] ^(١) وربما فُصِّلَتْ له خِلْعَةُ الولاية ، ورُسِمَ بكتابة تقليده ، ثم يُعَدَّل عنه إلى غيره ، ولا يتم أمره . ومات - رحمه الله تعالى - ولم يل القضاء . ولم يبق من ذريته في وقتنا هذا من فيه أهلية لذلك . وهذه الحكاية التي ذكرتها لا أشك فيها ولا أرتاب ، وهي مشهورة يعرفها كثير من الناس .

وفي سنة ثلاث عشرة وستائة - في العشرين من جمادى الآخرة - توفي الملك الظاهر : غياث الدين غازي ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، صاحب حلب - رحمه الله تعالى بحلب .

وكان مولده بالقاهرة ، في منتصف شهر رمضان ، سنة ثمان وستين وخمسمائة . وملك بعده ولده : الملك العزيز غياث الدين محمد . وكان صغير السن ، يقال كان عمره ثلاث سنين ، فقامت ضَيْفَةٌ ^(٢) خائون - ابنة الملك العادل - بتدبير الدولة . ونصبت شهاب الدين طُغرل الخادم في أتابكِيَّة ^(٣) الدولة .

(١) زيادة من النسخة (ع) غير موجودة في النسخة (ك) .

(٢) روى أبو الفداء أنها سميت بذلك لأنه « كان عند أبيها الملك العادل يوم مولدها بحلب ضيف ، فأسماعها ضيفه » . وكان العادل واليا على حلب إذ ذاك .

(المختصر في أخبار البشر : ص ١٢١)

(٣) كلمة تركية مركبة من لفظين : « أنا » ومعناها أب ، و « بك » ومعناها أمير . لمعناها بالحرية : « الأمير الأب أو الوالد » . وكانت تطلق على مرتبى أولاد الملك ، ثم صارت بمعنى الوصي والنايب على المملكة أو كبير العسكر .

ذكر مصادرة صاحب صنى الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل ، لما قدم من الشام ، ظن
الصاحب صنى الدين أنه يعيده إلى الوزارة . فصار يركب في المواكب ،
ويستعرض للقاء السلطان . ثم فتح بابه وصار الناس يدخلون إليه ، والأعز
وغيره يذكرون ذلك للملك الكامل . فاتفق أن الملك الكامل مرّ بدار
الصاحب فوجد الخيل على بابه ، فقال لمن معه من الأمراء : ما هذا إلا
أحمق ! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السّاط ، والسلطان غير
راضٍ عنه . فبلغ العادل ما قاله الكامل . فقال في مجلسه : ما يكفى ابن شكر
أنه أخذ مالى ، حتى أطرح جانبي بفتح بابه .

فاتصل ذلك بالصاحب ، فركب إلى القلعة ، وأراد الاجتماع بالملك
الكامل . وكان الملك الكامل على الشراب . فسير إليه ، وقال ما حاجتك ؟
فإن لنا الآن شغلاً ! فقال : القصد أن يستخدمنى السلطان ، أو يتركنى أخرج
من بلاده . وسأل أن يكون الكامل سفيره عند أبيه الملك العادل . فعزّز كلامه
عليه ، وقال للرسول قل له : هذا ما لا أدخل فيه .

فماد نخجلاً ، ومضى إلى دار والدته الملك المعز مجبر الدين يعقوب ، بن
السلطان الملك العادل ، وتعلق بذيل ستر الباب . ووافق أن العادل كان
عندها في ذلك الوقت . فعظم ذلك عليه . لكونه قصد زوجته ، وأراد
قتله ، ثم سكن ، وأرسل إلى الملك الكامل يقول : إن ابن شكر أخذ منى
وأنا على سنجار ستمائة ألف دينار ، فطالبه بها .

فأحضره الملك الكامل في مجلس شرايه ، ووبخه ، وأمر بأخذ أملاكه وحسبها له ، بستائة ألف دينار . ثم حضر جماعة بعد ذلك إلى الملك الكامل ، فقالوا : هذا كان في ابتداء أمره قَطَّاناً ، فمن أين له هذا المال ؟ فقال ابن التنبى : أنا صانعه عن نفسى بماتى ألف دينار ، وصانعه شهاب الدين بن الفاضل بثلاثمائة ألف دينار . فنقل المجلس إلى الملك العادل ، وذكر له من أخذ منه المصانع ، فأمر بنفيه .

فاستمهل إلى أن يبيع موجوده ، فأذن له . فشرع في بيع موجوده إلى أن كمل ثم أرسل إليه السلطان يقول : أخرج من بلادى إلى بلد ، لا تنقام لى فيه خطبة . فخرج من القاهرة في يوم الخميس ، لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة . فلما وصل إلى بلييس أمر السلطان الملك العادل بتحقيقه ، وأخذ منه مالا ووكل به أياماً بلييس ثم أطلقه فوجه إلى آميد^(١) .

وفيها صادر السلطان الملك العادل حكام الدين يونس ، متولى الإسكندرية ، على ثلاثمائة ألف دينار .

وفيها في سابع شوال ، توجه العادل إلى نهر الإسكندرية . وذلك أنه اجتمع بها من تجار الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل ، فخاف أهل الشرجان بهم .

(١) أعظم مدن ديار بكر (الجزيرة) على نهر دجلة .

فخرج السلطان بعساكره إلى الثغر ، وبه مَلِكَان^(١) من ملوك الفرنج . فأحضرهما ، فذَكَرَا أن التجار صمموا على الوثوب بأهل الثغر وقتلهم ، وأخذهم . فقبَضَ حيثُذ على تجار الفرنج واستغنى أموالهم ، واعتقلهم ، واعتقل المَلِكَيْن . وعاد إلى القاهرة ، في سابع ذى الحجة من السنة .

واستلقت سنة أربع عشرة وسبعمائة :

ذكر سير السلطان إلى الشام

وفي يوم الأحد ، التاسع من شهر ربيع الآخر ، من هذه السنة - توجه السلطان الملك العادل إلى الشام ، لما بلغه قصد الفرنج بلاد الشام .

وكان رحيله من البركة^(٢) يوم السبت لثمان بقين من الشهر ، وتوجه إلى البيت المقدس . وقال الشيخ شهاب الدين أبوشامة ، في كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» أنه توجه إلى قلعة الكرك بذخائره وأمواله ، وأقام بها مدة ، وترك الأموال والذخائر بها .

وقال غيره : إنه بقى بالقدس إلى أن وصلت أمداد الفرنج في البحر ، من رومية الكبرى ومن الغرب الشامي - وكان المقدم عليهم صاحب رومية - فتركوا على عكا . وسار الملك العادل على أنه يسبقهم إلى الماء بحربة اللصوص^(٣) ، فسبقوه إليها . فلما قاربهم ، حشد عنهم إلى جهة دمشق . فأغاروا

(١) في (ع) : وبه ملكين . فلم تصححه .

(٢) هي بركة الحب التي صارت تعرف ببركة الحاج . وقد سبقت الإشارة إليها . وهي تقع شمال شرق القاهرة ، أول منزلة منها في الطريق إلى الشام .

(٣) سبق أن بينا موقعها ، وهي على الطريق بين بيسان ودمشق (في الأردن) .

على بيسان فهبوها وما حولها ، وعادوا إلى مرج حكا بالسبي والغنائم .
 وجهازوا آلات الحصار ، وقصدوا الطور^(١) . وكان العادل قد بناه في
 سنة تسع وستائة - فحاصروه سبعة عشر يوماً . فقتل بعض ملوكهم بسهم ،
 ففارقوا الحصن . واستشهد على حصار الطور من أبطال المسلمين : الأمير بدر
 الدين محمد بن أبي القاسم ، وسيف الدين بن المرزبان - وكان من الصالحين
 الأجواد .

وكتب الملك المعظم إلى الخليفة كتاباً أوله :

قل للخليفة - لازالت عزائمه لها على الكفر إتراق وإزعاج
 إن الفرنج بأرض القدس قد نزلت لا تغفلن ، فأرض القدس بغداد

وفي نسخة :

إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا تغفلن ، فحصن الطور بغداد

(١) بناية من قبل . وهو جبل على مقربة من طبرية . كان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد بنى عليه قلعة
 حصينة أنفق عليها أموالاً جمّة . ولكن لما هاجمها الفرنج بعد ذلك أمر الملك العادل بهدمها - على
 ما سيجيء في المتن .

ذكر قصد الفرنج جيزين^(١) وقتلهم

قال : ولما انفصل الفرنج ، قصد ابنُ أخت الهنكر^(٢) جبل صيدا وقال : لا يُدلى من أهل هذا الجبل . فنهاه صاحب صيدا ، وقال إن أهله رُماة ، وبلده وعمر . فلم يقبل قوله . وصعد في خمسمائة من أبطال الفرنج إلى مدين - وهي ضيعة الميادين^(٣) بالقرب من مشقرا^(٤) - فأخلاها أهلها . ونزلها الفرنج وترجلوا عن خيولهم للراحة . فتحدت عليهم الميادنة من الجبال ، فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم . وأسروا ابن أخت الهنكر . وهرب من بقى منهم نحو صيدا .

وكان معهم رجل^(٥) يقال له الجاموس ، كانوا أسروه من المسلمين ، فقال لهم أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها . فقالوا : إن فعلت أغنيك . فسلك بهم أودية وعرة ، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون ،

(١) هذا اللفظ لم يكن واضحاً في (ع) . والخط هنا حسب ما يوجد في « Gronsset . Histoire des »

Croissnde III ; P . 206 .

(٢) أى ابن أخت ملك « الهنكر » وهذه هي الصيغة العربية لكلمة (Hangary) وهي المجر ، أى بلاد أو أهل المجر .

وذكر « زيادة » في السلوك أن ملك الهنكر هذا كان هو Andre II ; Roi de Hongrie (السلوك : ج ١ - ص ١٨٧)

(٣) سكان أو أهل « مدين » مع تحريف في النطق .

(٤) قرية من قرى دمشق ، من ناحية البقاع .

وقرية على سفح جبل لبنان - (بالفتح ثم السكون وغين معجمة وراء)
(نقول : والأخيرة هي المقصودة هنا)

(معجم البلدان : ج ٨ - ٦٤)

وقد ضبطناها كما ذكر ياقوت . أما في (ك) فقد ذكرت : مسعرا أو مسفرا .

(٥) في النسخين : (وكان معهم رجلاً) !

وهذا مثل من الأخطاء التي أشرنا إليها .

ففهّموا أن الجاموس قصد ذلك ، فقتلوه . ولم يُفْلِت منهم إلى صيدا غير ثلاثة ، وكانوا خَمْسَمِائَةٍ . وجاءوا بالأسرى إلى دمشق ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي هذه السنة ، احترق مسجد الحسين بالقاهرة .

وفيها ، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم : عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل ، الأنصاري الحرّستاني^(١) وكانت وفاته بدمشق في رابع ذي الحجة ، ودفن بقاسيون . ومولده في سنة عشرين وخمسمائة . وأعيد القاضي زكيّ الدين إلى القضاء ، بعد وفاته .

واستهلّت سنة خمس عشرة وستائة :

ذكر تخريب حصن الطُور^(٢)

في هذه السنة استدعى السلطان للملك العادل ولده للملك المعظم ، وقال له : إنك قد بَنَيْتَ هذا الطُور ، وهو يكون سبب خراب الشام ، وقد سلّم الله تعالى من كان فيه من أبطال المسلمين ، والسلاح والذخائر . وأرى من المصلحة خرابه ، ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط ، وأنا أعرضك عنه . وكانت دمياط قد حُوصِرَتْ - على ما نذكره . فتوقف الملك المعظم ، وبقي أياماً لا يدخل على أبيه العادل . فبعث إليه وأرضاه بجمال ، ووعدّه بيّاد بالديار المصرية . فأجاب ، وبعث فقل ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون والكرك ، ودمشق ، وهدمه .

(١) سبق شرح هذه النسبة ، وأنها إلى (حرستا) بغوطة دمشق .

(٢) هذا هو الطور بقرب طبرية بالأردن ، الذي تحدّثنا عنه .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر: محمد بن أيوب وشىء من أخباره

كانت وفاته - رحمه الله تعالى - فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ،
سنة خمس عشرة وستائة ، بعلقين^(١) .

وذلك أنه لما عرج عن الفرنج وقصد دمشق ، أقام بظاهرها مدة وهو
مريض . فلما بلغه أخذ برّج السلسلة بغير دمياط ، ضرب بيده على صدره ،
وانزعج ، وحصل له من الغم ما أفضى به إلى الوفاة - رحمه الله تعالى .
ومات ، وله ست وسبعون سنة تقريباً . وذلك أنه سئل عن مولده ، قال :
ولدت سنة فتح الزها . وذلك فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وقبل كان
مولده يعلبك ، لما كان والده فى خدمة الملك العادل : نور الدين الشهيد .

ومدة ملكه تسع عشرة سنة^(٢) ، وأربعين يوماً . ولما مات لم يشعر
بوفاته غير كرم الدين الخلاطى . وكان ولده الملك المعظم عيسى بن أبلّس .
وكان قد التقى مع الفرنج على القيمون^(٣) فى هذا الشهر ، فأنصر عليهم ،

(١) قرية بظاهر دمشق .

(زيادة : السلوك : ج ١ - ص - ١٩)

(٢) فى النسخين (ك) و (ع) تسعة عشر سنة .

(٣) حصن قرب الرملة ، من أعمال فلسطين .

(معجم البلدان : ج ٧ - ١٩٩)

وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر من الدَّوِيَّة^(١) مائة فارس ، وأدخلهم القدس مُنَكَّمَةً أعلامهم . وأقام بنابلس . فكتب إليه على جناح طائر يعلمه بالخبر ، فجاء يوم السبت إلى عالقين . فاحتاط على الخزانين ، وصبر أباه العادل وكنم موته ، وجعله في مِحَقَّة^(٢) ، وعنده خادِم يروح عليه ، ورفع طرف سِجَاف المِحَقَّة وأظهر أنه مريض . ودخلوا به إلى دمشق في يوم الأحد ، والناس يشيرون إلى من بالمِحَقَّة بالخدمة والسلام ، والخادِم يومئذ إلى جهة السلطان ، كأنه يخبره بمن يسلم عليه ، ودخلوا به إلى قلعة دمشق .

قال الشيخ شهابُ الدين أبو شامة ، وشمس الدين أبو المظفر سيوط ابن الجوزي ، في تاريخهما : ومن العجائب أنهم طلبوا له كَفَنًا فلم يقدروا عليه ، فأخذوا عمامة التَّجِيبِ الفقيه ابن فارس فكفَنوه بها ، وأخرجوا قُطْنًا من مَحْدَّة فلفوه به ، ولم يقدروا على ما يحفرون به ، فسرق كريمٌ قَاسًا من الخُنْدَق فحفروا له به . ودفن بقلعة دمشق ، إلى أن بُنِيَ له القبة المجاورة لمدرسته ، فنقل إليها في سنة تسع عشرة وستائة . وحصل لابنه الملك المعظم وَهْمٌ ، فلما دفن السلطان قام قائمًا ، وشق ثيابه ولطم على رأسه ووجهه .

(١) الدَّوِيَّة ، أو الديورية . سبرد ذكرهم أيضا في المتن فيما بعد . ويردون في مراجع تاريخ الحروب الصليبية . وهذا الاسم الذي أطلقه المسلمون على الطائفة التي عرفت في أوروبا باسم « فرسان المعبد »

(The Templars) وهي طائفة دينية من متزهبين تخصصوا لحرب المسلمين في الحروب الصليبية

فأصبحت فرقة حربية ، كانوا أشد المارين تعصبا وأكثرهم قوة وضراوة . ومعهم طائفة أخرى ، سبرد ذكرها فيما بعد ، سميت (الإبتارية) .

(٢) المِخَقَّة : بالكسر : مركب للنساء كالمهروج ، إلا أنها ليست لها قبة .

واشتهرت وفاته بعد دفنه . وعُمل عزاءه ثلاثة أيام ، وصُلى عليه في غالب مدن الإسلام . ونودى ببغداد : من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي ، المجاهد في سبيل الله ، فليحضر إلى جامع القصر . فحضر الناس وصلُّوا عليه صلاة الغائب . ولم يتأخر غير الخليفة . وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم ، فصلوا عليه بعد صلاة الجمعة .

وكان - رحمه الله - قد امتد ملكه واتسعت مملكه . وكان يُكنى حازماً ، حسن التدبير صفوحاً ، يدبّر الملك والممالك على الوجه المرضي ، متمسكاً بأوامر الشرع الشريف ونواحيه ، منفذاً للأحكام الشرعية ، عادلاً مجاهداً عفيفاً ، كثير الصدقة ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . طهر جميع مملكه من الخمر والفواحش بأسرها ، وأسقط كثيراً من المكوس والمظالم . وكان الذي يُتَحَصَّل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار ، فأبطل ذلك . وشدّد في أمر الخمر ، ومنع من دخوله إلى دمشق - رحمه الله تعالى .

ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل

وما استقر لهم من الممالك والإقطاعات

كان له رحمه الله تعالى من الأولاد الذكور سبعة عشر ، وهم :
الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، ملك الديار المصرية . والملك
المعظم : شرف الدين عيسى ، صاحب دمشق والبيت المقدس ، والكرّك^(١)

(١) قلعة كانت شهيرة في الحروب الصليبية ، وهي تقع في طرف الشام إلى الجنوب من البحر الميت ، في الجبال ، بين أيلة والبحر الأحمر (خليج العقبة) والبيت المقدس . وهي حصينة جداً على من جبل عال ، تحيط بها الأودية العميقة من كل الجهات ، ما عدا جهة واحدة هي التصلة بقرية صغيرة بجوارها .
(معجم البلدان بتصرف)

والشَّوَيْك^(١) ، والسواحل . والملك الأشرف : مظفر الدين موسى ، صاحب خِلَاط وما والاها وحرَّان والرَّها ، وما مع ذلك .

والملك المظفر شهاب الدين غازي ، صاحب مِيفَارِيقِينَ وما والاها والملك الْمُظْفَرُ شهاب الدين الحافظ أَرْسَلَانَ صاحب قلعة جَعْبَر^(٢) وأعمالها . والملك العزيز : عثمان له بانياس وبتين وأعمال ذلك ، وعدة أماكن من بلد دمشق ، مثل نَوَى وغيرها . والملك الصالح : عماد الدين اسماعيل ، له قلعة بُصْرَى وأعمالها ، والسواد جميعه - وهو والعزيز في خدمة أخيها الملك المعظم .

والملك الفاتر : إبراهيم ، كان السلطان قد أقطعه الأعمال القُوصِيَّة والملك المفضل : قطب الدين ، أقطعه السلطان أيضاً الأعمال القُيُومِيَّة ، فأقر الملك الكامل ذلك بأيديهما . والملك المزم : مُجِير الدين يعقوب . والملك الأُمجد : تقي الدين أبو الفضائل عباس - عند أخيها الملك الأشرف صاحب خِلَاط . وله أيضاً غير هؤلاء : الملك القاهر : إسحاق ، وخليل - وهو أصغرهم .

(١) الشَّوَيْك : (بالفتح ثم السكون . كما ضبطه باقوت) : قلعة حصينة في أطراف الشام بين حان وأيلة والقلازم ، قرب الكرك .

(٢) مئ على القراة ، بين باليس والرقة . قرب صيفين .

(معجم البلدان : ج ٣ - ١٠٨)

(٣) بلدة صغيرة من إقليم حوران ، قرية من دمشق .

(معجم البلدان : ج ٨ - ٣١٨)

ومات له من الأولاد - في حياته - أربعة ، وهم : شمس الدين مودود ، والد الملك الجواد يونس . والملك الأوحـد : نجم الدين أيوب ، الذي افتتح خلاط ، كما تقدم . والملك المغيث : محمود . والملك الأجد حسن - وهو شقيق الملك المعظم ، والملك العزيز .

وكان له عدة بنات ، أجلهن ضَيْفَةُ خُثَّانٍ ، والدة الملك العزيز ، ابن الملك الظاهر صاحب حلب .

ولما مات السلطان الملك العادل ، أقر ولده - الملك المعظم - أحوال دمشق ، على ما هي عليه في أيام والده ، بقية جهادى الآخرة . فلما استهل شهر رجب ، أعاد المكوس وأطلق الخمور والمنكرات ، وما كان والده السلطان قد أبطله . فقيل له في ذلك ، فاعتذر بقله الأموال وقتال الفرنج .

ثم سار إلى بانياس ، وراسل الأمير صارم الدين التتيني في تسليم الحصون التي بيده ، فأجاب إلى ذلك ، وسلمها ، فأخرب الملك المعظم بانياس وتينين . وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جهار كس لأخيه الملك العزيز عثمان ، وزوجه ابنة^(١) جهار كس . ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون ، فأكرمهم الملك المعظم وأحسن إليهم ، وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتينين ، إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليها .

(١) في النسخة (ك) : وزوجة أبيه . وهو خطأ . فصححه من النسخة (ع) ، وبذلك استقام المعنى

ذكر أخبار السلطان الملك [الكامل] ^(١) ناصر الدين
ابن السلطان الملك العادل سيف الدين ، أنى بكر محمد بن أيوب

وهو السادس من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية . ^(٢)
ملك الديار المصرية بعد وفاة والده الملك العادل ، فى جادى الآخرة
سنة خمس عشرة وستائة . وكان قبل ذلك ينوب عن والده بها كما تقدم .
ونحن نذكر أخبار الملك الكامل ، وما اتفق من الحوادث والوقائع فى
أيامه ، بالديار المصرية : فى كل سنة نبدأ بذلك ، ثم نذكر فى بقية السنة
أخبار ملوك الشام من إخوته وغيرهم ، ومن توفى فيها من المشهورين ، ونأتى
بالسنة التى بعدها ، على ما تقف عليه - إن شاء الله .

ذكر نزول الفرنج على ثغر دِمياط ^(٣)

كان نزول الفرنج على ثغر دِمياط فى يوم الثلاثاء ، ثلاث خلون من
شهر ربيع الأول ، سنة خمس عشرة وستائة - وذلك قبل وفاة الملك
العادل ، وهو إذ ذاك بمرج الصُفر ^(٤) .

ونزلوا بالبر الغربى ^(٥) . فخرج إليهم الملك الكامل بعساكره ، وكتب
إلى السلطان بالخبر . فأرسل إليه عساكر الديار المصرية التى كانت فى
صحبه . وأقام الملك الكامل بثغر دِمياط بظاهرها ، واتصل القتال بين
الفرقيقتين .

(١) لم يوجد فى النسخة (ك) ، ولكنه ثبت فى النسخة (ع) . فهو أصح .

(٢) بالقرب من دمشق .

(٣) ياقوت : ج ٨ - ١٦)

(٤) أى القابل لمدينة دِمياط .

فلما كان في جمادى الأولى ، ملك الفرنج بَرَحَ السِّلْسِلَةِ - وهو بين دِمياط والبر الغربي ، في وسط بحر النيل - وذلك أنهم عملوا برجاً من الخشب على بَطْسَةٍ^(١) كبيرة ، وأسدوه إلى البرج . وحصل القتال بين المسلمين المقيمين به وبين الفرنج ، إلى أن ملكوه في يوم السبت ، ثامن الشهر .

ثم كانت وَقْعَةٌ كبيرة بين المسلمين والفرنج . فلما كان في شهر رمضان ، عمل الفرنج مَرْمَةً عظيمة^(٢) ، وزحفوا بها في بَطْسَةٍ ، وقصدوا سور دِمياط . فأحرقها المسلمون . وغرق للفرنج^(٣) في هذا الشهر مراكب كثيرة ، في البحر الملح .

ذكر حوادث وقعت في مدة حصار ثغر دِمياط

كان مما اتفق في مدة الحصار جباية التبرج من التجار ، من أرباب الأموال وذلك في ذى القعدة ، سنة خمس عشرة .

(١) نوع من السفن . عُرِفَتْها في (محيط المحيط) بأنها : « مركب للحرب أو التجارة » وقال إنها مخرقة من الأسبانية . ج . بطس .

(السلوك ج ١ - ص ٧٧)

(٢) المرمة : نوع من المراكب الخفيفة الكبيرة التي كانت مستعملة في المصور الوسطى .
(مفرج الكروب ج ٢ - ٢٦٠) (والسلوك ج ١ - ١٨٩)

(٣) في النسخة (ك) العبارة : « وغرق الفرنج مراكب كثيرة » ولكن في النسخة (ع) : « وغرق للفرنج مراكب كثيرة » . وهذا هو الصحيح .

وفى يوم الثلاثاء ، سابع عشر من الشهر ، رحل السلطان الملك الكامل عن ثغر دمياط ، وتأخر إلى أَشْمُوم^(١) .

وسبب ذلك أن الملك الفائز كان عند أخيه الملك الكامل بثغر دمياط ، وكان الأمير عماد الدين بن المَشْطُوب يكره الملك الكامل ، فأراد القبض عليه ، وإقامة الملك الفائز . فاتصل ذلك بالكامل ، فارتحل عن دمياط ليلاً ، وترك خيامه وخزائنه . فشعر المسلمون برحيله ، فارتحلوا بأجمعهم ، وتركوا أثقالهم وأموالهم . وأصبح الفرنج فلم يروا أحداً في البر الشرق . فظنوا أن ذلك مكيدة ، فارتابوا . ثم حققوا الأمر ، فلما انضح لهم عَدُوُّوا بجملتهم ، وكسبوا المَتَرْلَةَ^(٢) ونهبوا ما كان بها ، واحتاطوا بدمياط براً وبحراً .

وكان السلطان قصد أن يتوجه إلى مصر ، لخوفه من ابن المشطوب . فأشار عليه بعض الأمراء بالإقامة على المنصورة ، فاستقر بها . واثارت الفتن بالديار من القربان ، فكانوا على المسلمين أشد من الفرنج .

(١) المقصود بها مدينة (أشعوم طناح) وكانت عاصمة الدقهلية قبل المنصورة . وهي بقرب مدينة « ذكرنس » الحالية ، شمال شرق المنصورة .

(٢) المقصود بها « المنزلة » أى الهلة أو المكان ، الذى نزل به السلطان الكامل قرب دمياط . وهى التى سميت المنزلة العادلية ، نسبة إلى العادل ، وهى على مسافة من دمياط . فليست هى المنزلة المعروفة اليوم المنسوبة إليها بحيرة المنزلة .

ذكر وصول الملك المعظم عيسى - صاحب دمشق واخراج عماد الدين بن المشطوب وما اُتفق له بعد خروجه

كان وصول الملك المُعظَّم شرف الدين عيسى إلى المنصورة في يوم الخميس ، ليلة بقيت من ذى القعدة ، من السنة . فاشتد به عَصْدُ أخيه الملك الكامل .

ولما وصل ، شكى له ما يحذره من أمر عماد الدين بن المشطوب ^(١) . فركب الملك المعظم وجاء إلى خيمة عماد الدين . فلما أخبر بذلك ، قال لظلماته قولوا له هو تائم ! فذكروا ذلك للملك المعظم ، فقال : ننتظره إلى أن يستيقظ ، وثنى رجله إلى عتق فرسه . فلما طال ذلك على عماد الدين ، خشى عاقبة هذا الأمر . فخرج إليه وهو بغير خُفٍّ ، وقبّل يده . فقال له المعظم : ليركب الأمير ، حتى يحصل الاتفاق معه على نَصَب المَجَانِيق على أطراف البحر .

(١) هو الأمير أحمد ، الملقب بعماد الدين ، بن الأمير علي سيف الدين الهكاري . وعرف الأب هذا باسم المشطوب ، بسبب شطبة : أي أثر جرح كان في وجهه ، أصيب به في بعض الغزوات . وسيف الدين هذا كان من كبار الأمراء في دولة السلطان صلاح الدين ، لأنه كان زعيم الأكراد الهكارية (من جبل هكار) . وكان بطلا شجاعاً . اشترك مع صلاح الدين في حروبه ، وكان قائد هككا في أثناء الحصار . وأُصلحه السلطان نابلس . وكانت وفاته في سنة ٥٨٨ . فخلفه ابنه (أحمد) هذا الذي عرف بابن المشطوب . والذي لعب هذا الدور المشؤم في التاريخ . الذي يتحدث عنه المتن .

فلما ركب ، سايره الملك المعظم وشغله بالحديث حتى أحاط به عسكر المعظم . ثم نظر إليه نظرة مُعَصَّب ، وقال له : لما مات السلطان الملك العادل كان من أولاده من اسمه : عماد الدين بن المشطوب ؟! قال : الله الله ، يا مولانا ! فأمر بإزاله عن فرسه فأُنزل . وحمل على بغلة إلى أشموم .

ولما أمر الملك المعظم بسفره ، اعتذر أن لا نفقة معه ، وسأل الرجوع إلى خيمته ليلبس خُفَّهُ ، ويأخذ نفقة . فأعطاه الملك المعظم خمسمائة دينار ، وقال له : جميع ما تُحَلِّف من أموالك وأثقالك ودوابك يصل إليك . ثم رجع المعظم إلى خيمة ابن المشطوب ، فجهز إليه خيله وأثقاله وغلانته ، وجميع ما يتعلق به ، فلحقوه إلى الشام .

ووصل ابن المشطوب إلى دمشق ، ثم إلى حمّاه وأقام بها . فبعث إليه الملك الأشرف منشوراً ، بأرغيش^(١) ييلاد خلّاط ، وزيادة . وبعث إليه بالخلع . فتوجه إلى خدمته ، فأكرمه وأحسن إليه . فصار يركب بالشَّابَّة^(٢) ، ويمشي مشى الملوك .

ثم خرج عن طاعة الملك الأشرف ، في سنة سبع عشرة . وعاث في أرض سينجار ، وساعده صاحب ماردين . فسار إليه الملك الأشرف ، ونزل على دُنَيْسِر^(٣) . وجاء الملك الصالح ، فأصلح بين الأشرف صاحب

(١) مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى ، قرب خلّاط . وأكثَر أهلها أرمن تشاري .

(المعجم : ج ١ - ١٨١)

(٢) آلة كاللوق ، يُفَعَّع فيها أمام السلطان أو الأمير في المواكب ، كما يفهم من عبارة للمعري في وصف مركب السلطنة .

(المخطوط : ج ٢ - ٢٠٩)

(٣) بلدة عظيمة مشهورة ، من نواحي الجزيرة ، قرب ماردين . بينها فرسخان . ولها اسم آخر ، يقال لها : فوج حصار . وليس بها نهر جار ، إنما شربهم من آبار عذبة طيبة ، وأرضها حرة ومراؤها صحيح (معجم البلدان : ج ٤ - ٩٤)

ماردين . ودخل ابن المشطوب إلى تل أعقر^(١) . فسار إليه فارس الدين بن صيبره من نصيبين ، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل ، وحصره بها . فاستنزله الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بالأمان ، وحمله معه إلى الموصل ، ثم قيده وبعث به إلى الملك الأشرف . فاعتقله بالجُب فمات بالجوع والقمل . وكانت وفاته في سنة تسع عشرة وستائة . على ما ذكره .

ذكر وصول صاحب صلي الدين بن شكر ووزارته

وفي مستهل ذى الحجة ، سنة خمس عشرة وستائة ، قدم صاحب صلي الدين بن شكر من آمد ، وكان السلطان قد استدعاه . فلما قدم ، ركب إليه وتلقاه وأكرمه وذكر له السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والكُلف ، فالتزم له بتحصيل ذلك . وشرع في مصادرات أرباب الأموال والتجار والأكابر . وقرر التبرع على الأملاك ، وأحدث حوادث كثيرة . وجبى الأموال ، حتى من الساسة والصوانع والمغانى ومعلمى المكاتب ، وغيرهم .

واسنلت سنة ست عشرة وستائة :

في مستهل المحرم منها ، أمر السلطان بخروج أهل مصر والقاهرة ، لقتال الفرنج . فخرج الناس . وأقام صاحب بالقاهرة إلى سابع عشرين من شهر

(١) هذا هو الشائع . أما الخواص فيقولون : بن يعفر . اسم قلعة وريش . بين سنجار والموصل . في وسط واد

فيه نهر جبار . وهي على حل منفرد حصينة محكمة . وبها نخل كثير يُجلب رطبه إلى الموصل

(المعجم . ج ٢ - ٤٠٢)

رمضان ، سنة ست عشرة . فاستدعاه السلطان واستوزره ، وصرفه . واحتجب الملك الكامل من الناس بعد ذلك . وكان قبل ذلك يركب بنفسه ، ويستحث العوام على جهاد الفرنج .

ذكر خراب القدس

كان ابتداء الخراب بالقدس في بكرة يوم الأحد سابع المحرم ، سنة ست عشرة وسثمائة .

وسبب ذلك أن الملك المعظم لما توجه إلى أخيه الملك العادل ، بلغه أن طائفة من الفرنج قد عزموا على قصد القدس . فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخراجه . وقال : قد خلا الشام من العساكر ، فلو أخذته الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام . فأمر بإخراجه . وكان بالقدس الملك العزيز عثمان ، وعز الدين أيبك أستاذ الدار .

ووقع في البلد ضجة عظيمة . وخرج الناس أجمع ، حتى البنات المُخَدَّرَات والعجائز والشيخوخ وغيرهم ، إلى الصخرة والأقصى ، قفطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم . وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم . وامتلات بهم الطرقات ، فنهضوا من توجه إلى الديار المصرية ، ومنهم من توجه إلى الكرك ، وبعضهم إلى دمشق . وصار البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ، ويلففنهن على أرجلهن ، من الحفا . ومات خلق كثير من الجوع والعطش . ونهب ما كان لهم بالقدس ، حتى بيع القنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم ، ورطل النحاس بنصف درهم .

وأكثر الشعراء القول في ذلك ، فقال بعض أهل العلم - يشير إلى الملك المعظم - من أبيات :

فِي رَجَبٍ حَلَّلَ الْحُمَيَّا وَأَخْرَبَ الْقُدْسَ فِي الْمُحَرَّمِ !

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

كان استيلاء الفرنج على ثغر دمياط في يوم الثلاثاء ، لخمس بقين من شعبان سنة ست عشرة - وقيل لثلاث بقين منه .

وذلك أنهم كانوا قد أحاطوا بها براً وبحراً ، ومنعوا الميرة عن أهلها ، حتى هلكوا من الجوع ، ومات أكثرهم . وعُدَّت الأتوات ، وغلت الأسعار حتى بيع السكر بربته ذهباً ، والدجاجة بثلاثين ديناراً ، والبيضة بدينار ، وبيعت بقرة بألف وستمئة دينار ، واشترط البائع أن يكون له بطنها ورأسها ، فباع ذلك بمائة دينار وأربعة عشر ديناراً مصرية - على ما حكاه ابن جلب راغب في تاريخه .

قال : فلما اشتد بهم ذلك ، بذل لهم الفرنج الأمان على أنهم يخرجون منها ويتسلمها الفرنج ، فأجابوه إلى ذلك ، وخرج الناس منها . وبقي من عجز عن الحركة ، فأسرهم الفرنج ، وحملوا في المراكب إلى عكا . فكانت مدة الحصار على ثغر دمياط ستة عشر شهراً ، واثنين وعشرين يوماً . وكان السلطان إذا أراد أن يرسل إلى دمياط أرسل العوامين ، فيحملون الكتب ويغطسون في الماء ، ويطلعون من تحت سور دمياط . فلما أحس الفرنج بذلك ، عملوا شيئاً كآ وخطاً طيف من دمياط إلى البر الغربي ، وثبتوا ذلك في

المراكب . فصار العوام إذا غطس في الماء وقع في الشباك أو الخطاطيف ،
فيأخذونه فلا يكاد يفوتهم عوام ، ويقتلون من يحدونه . فامتنع الدخول
إليها .

ولما استولى الفرنج على ثغر دمياط ، أشار السلطان الملك الكامل على
أخيه الملك المعظم بالعود إلى الشام ، وغزو الفرج من تلك الجهة ،
واستجلاب العساكر من بلاد الشرق .

ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده

قال الشيخ أبوالمظفر : يوسف ، سبط بن الجوزي في تاريخه :
لما استولى الفرنج على ثغر دمياط ، كتب إلى الملك المعظم كتاباً بخطه ،
يخبرني بما جرى على أهل دمياط من الكفر ، ويقول : إني كشفت ضياع
الشام فوجدتها ألقى ضيعة : ألف وستائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة
سلطانية ^(١) . وكم مقدار ما تقوم هذه الأربعمائة من العساكر ؟ وأريد أن
يخرج الدماشقة ، ليزبوا عن أملاكهم - الأصاغر منهم والأكابر - ويكون
لقاؤنا وهم في صحبتك إلى نابلس ، في وقت سمّاه .

(١) أي من أملاك السلطان .

قال : فجلستُ في جامع دمشق ، وقرأتُ كتابه عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة فلما حلَّ ركابُهُ بالساحل وقع التقاعد من الأماثل ، فأوجبَ ذلك أخذَ الثَّمنِ والخُمسِ من أموالهم ، مؤاخِذةً لهم . قال : وخرجتُ أنا إليه بالساحل وهو نازل على قيسارية^(١) ، فأقام بها حتى فتحها عتوةً ، وفتح غيرها . وعاد إلى دمشق .

ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب
وابقافها أملاكها ، ونفقة أموالها ، وما فعله الملك المعظم
مع قاضي الشام ، بسبب ذلك

وفي هذه السنة في ذي القعدة ، كانت وفاة ست الشام بنت أيوب : أخت السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، والملك العادل . وهي شقيقة الملك المعظم : شمس الدولة ثورانشاه ، وسيف الاسلام^(٢) : ابني أيوب .

وكانت سيدة الخواتين . وهي التي يُنسب إليها المدرستان ، بدمشق وظاهرهما ، أحدهما قبلى البيمارستان الثورى ، والأخرى ظاهر دمشق بالعونية . وتعرف أيضاً بالحسامية ، نسبة إلى ابنها حسام الدين بن

(١) بلد على ساحل بحر الشام . تعد في أعمال فلسطين . بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . وهناك قيسارية أخرى في بلاد الروم .

(معجم البلدان : ج ٧ - ١٩٥)

والعنى الأول هو المقصود هنا .

(٢) أى : طغتكين .

لاجين^(١) - وكانت دفنته بها . ودُفنت هي معه في قبره . وهو القبر الذي يلي الباب القبو من القبور الثلاثة . والقبلى قبرُ تورانشاه بن أيوب ، والأوسط قبرُ ابن عمها : ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى - وكان قد تزوجها بعد لاجين .

وكانت - رحمها الله - كثيرة الصدقة والبر . وكانت تصنع الأشرية والأدوية والمعاجين والعقاقير ، في كل سنة بألوف دنانير ، وتفرقها على الناس . وكانت ست الشام ، وأختها ربعة خاتون ، محرماً على نيف وثلاثين ملكاً وسلطاناً .

وكان الملك المعظم يتهمها أن عندها من الجواهر مالا يحصى قيمته . وأن ذلك اتصل إليها مما كان بالقصور بالقاهرة . وكان كثير الإحسان إليها والبر بها ، ويمنعها من الخروج من دمشق . ويظهر أن ذلك برأيها . ويرجو وفاتها عنده ، ليستولى على أموالها وأملاكها ، فاتفقت وفاتها وهو بالصيد .

ولما مرضت ، جاء وكيلها ابن الشيرجى إلى قاضى القضاة : زكى الدين ، وطلبه إليها بدارها . فأخذ معه أربعين عدلاً من أعيان دمشق ، فشهدوا عليها أنها أوقفت أملاكها على مدرستها ، ووجوه البر وأنواع القربات ، وجعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً ، وأبرأت جواربها وخدمها ووكلاءها . وماتت بعد ذلك . وأسندت وصيتها إلى القاضى . فماد

(١) هو محمد بن عمر بن لاجين . وهو ابن أخت صلاح الدين . كان في القاطنة العائدة من الحج التي كان يخشى أن يتعرض لها صاحب الكرك (أرناط) . مما دفع صلاح الدين للخروج إلى هذه الجهة قبل موقعة حطين الفاصلة . وتوفى حسام الدين في عام ٥٨٧ .

السلطان من الصيد ، فوجد الأمر قد مضى على ذلك . فتألم لوقوعه ، وأنكر على القاضي ، وقال : يحضر إلى دار عمى من غير إذنى ، ويسمع كلامها ، هو والشهود ! .

ثم اتفق بعد ذلك أن القاضي طلب جابى أوقاف المدرسة العزيرية^(١) - وهو سالم بن عبدالرازق ، خطيب عقرباً^(٢) - أخو المؤيد العقربانى - وطلب منه حسابها ، فأغلق له فى القول . فأمر القاضي بضربه ، فضرب بين يديه ، كما تفعل الولاة .

فوجد الملك المعظم سيلا إلى إظهار ما عنده ، فأرسل إلى القاضي بقمجة ، وهو فى مجلس حكمه ، وفى مجلسه الجمال المضرى وكيل بيت المال ، وجاعة كثيرة من العدول والمتحاكمين ، فجاءه الرسول ، وقال للقاضى : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة - سلم الله عليه - إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملايسه ، ونحن نسلك طريقه ! . وقد أرسل إليك من ملايسه ، وأمر أن تلبسها فى مجلسك هذا ،

(١) من أشهر مدارس دمشق فى ذلك الوقت . أسسها الأفضل بن صلاح الدين ، ولكن أنعمها أخوه العزيز عثمان ووقف عليها أوقافاً كثيرة . فنسبت إليه . وفتوس فيها عدد من العلماء الكبار .

(٢) اسم أيضاً لمدينة الجولان . وهى كورة من كور دمشق . كان ينزلها ملوك غسان .

(ياقوت : ج ٦ - ١٩٤)

وأنت تحكم بين الناس . وكان الملك المعظم أكثر ما يلبس قَبَاءً^(١) أبيض ،
وَكَلُوتَةً صفراء^(٢) . وفتح الرسول البُقْجَة . فلما نظر القاضي إلى ما فيها
وَجَسَم ! .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه
الخلعة والرسالة بذلك ، قال : وكان السلطان قد أمرني أن ألبسه إياها
بيدي ، إن امتنع أو توقف . فأشرت عليه بلبسها ، وأعدت عليه الرسالة .
فأخذ القَبَاءَ ووضعه على كتفه ، ووضع عمامته بالأرض ولبس الكَلُوتَة
الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته إثر هذه الحادثة ، ورمى كبده
ومات . ويقال أن ذلك كان في يوم الأربعاء ، سابع عشرين شهر ربيع
الأول سنة سبع عشرة وستائة .

وَفَرَّضَ السلطان قضاء الشام بعده للجمال المصري^(٣) وكيل بيت
المال ، وذلك في شهر رجب سنة ثمان عشرة وستائة .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : وكانت حركة قبيحة وواقعة شنيعة ،
لم يجر في الإسلام أقيحُ منها . وكانت من غلطات الملك المعظم . قال ولقد
قلت له : ما فعلتَ إلا بصاحب الشرع ، ولقد وَجَبَتْ عليك دِيَةُ القاضي .
فقال : هو أَخَوَجَنِي إلى هنا . ولقد نَدِمْتُ .

(١) ثوب يلبس فوق الثياب ، أو المطف .

(٢) الكلوتة - بلام مشددة - (لفظة فارسية) وهي غطاء للرأس مثل الطاقية ، من الصوف المضرب بالقطن أو
من الجوخ ، كان يلبسه السلاطين والأمراء الأيوبيون ثم المماليك . وردت إلى مصر مع الأيوبيين .
(أنظر صبح الأعشى ج ٤ - ٥ و ٦ والسلوك - زيادة ج ٢ - ٤٩٣)

(٣) سبقت ترجمته . ومذكوره المؤلف أيضا في الفن عند (سنة ٦٢٣) .

واتفق أن الملك المعظم بعث إلى شرف الدين بن عَتِين الشاعر^(١) -
حين تَزْهَد - خَمْرًا وَزَدًا ، وقال : سَبِّحْ بهذا - إشارة إلى أن زهده ليس
حقيقة ! فكَتَبَ إليه ابن عَتِين :

يا أيها الملك المعظم ، سُنَّةٌ أَخَذْتُهَا ، بَقِيَ على الآباد
تَجْرِي الملوكة على طريقك بعدها : خَلَعَ القضاة وَتُخَفَّ الزُّهَاد

وفي هذه السنة ، توفي الشيخ جلال الدين أبو محمد : عبد الله بن نجم
ابن شَاسَ بن نِزَار ، بن هشائر بن عبد الله بن محمد بن شَاسَ ، الجُذَامِي
السُّعْدِي : الفقيه المالكي . وكان عالمَ مذهب مالك في زمانه . وَصِفَ في
مذهب مالك كتاباً نفيساً ، سماه : « الجواهر الثمينة في علم صاحب
المدينة » . فانتفع به المالكية انتفاعاً كثيراً . وكان مُدْرِّساً بمدرسة المالكية
بمصر ، المجاورة للجامع . ثم توجه إلى ثغر دِمَاط بِنِيَّة الجهاد ، فتوفي هناك في
جمادى الآخرة ، أو رجب ، سنة ست عشرة وستمائة - رحمه الله تعالى .

وفيهما ، توفي بالقاهرة القاضي : جمال الدين أبو الحسن على ،
ابن القاضي شرف الدين أبو المعالي شُكْر ، بن القاضي كمال الدين
أبو السَّعَادَات : أحمد بن شُكْر ، الشافعي - رحمه الله تعالى .

(١) هو أبو المحاسن « محمد بن نصر الدين » الشاعر المشهور . انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٤ - ص ١٠٦ وما بعدها) .

واسنلت سنة سبع عشرة وسمائة : مَعِينُ التَّارِخِ لأهل التَّارِخِ

في هذه السنة ، كانت وقعة البرُّس^(١) : بين السلطان الملك الكامل والفرنج . وكانت من الوقعات العظيمة ، المشهورة . قتل من الفرنج فيها عشرة آلاف . وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم . فرجعوا إلى دِمياط . وفيها أخذ ابن حَسُون - مُقَدَّم الشَّوَانِي^(٢) الإسلامية - للفرنج إحدى عشرة حَرَّاقَة^(٣)

(١) ضبطها ياقوت « بفتحين وضم اللام المشددة » . وهي « بلدة على شاطئ - نيل مصر ، قرب البحر من جهة الإسكندرية .

(معجم البلدان : ج ٢ - ١٥٢)

كانت البرلس من الثغور المصرية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط بين دمياط ورشيد ، وإليها نسبت بحيرة البرلس الواقعة شمال الغربية . ويطلق اسم البرلس أيضا على المنطقة الساحلية المعروفة بإقليم البرلس . لكن الدولة الأيوبية بنت قلعة بقرية البرلس على شاطئ البحر ، فبعد ذلك عرفت قرية البرلس باسم « البرج » واشتق اسمها الأصل . إلا أن البرلس لا تزال علما على إقليم البرلس ولا تزال للبحيرة تحمل اسمها . (النجوم الزاهرة : ج ٦ - ٢٤٨)

(٢) جمع « شينى » ، أو « شينة » ، وهي نوع من السفن الحربية في مصر . ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربية في مصر وأكثرها استعمالا

(السلوك - زيادة : ج ٢ - ٣١٦ - حاشية ٢)

راجع (المخطوط للمقرئى : ج ٧ - ١٩٤ - ١٩٥)

(٣) نوع من السفن الحربية التي كانت تستعمل في ذلك العصر ، وكانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو .

(السلوك : ج ٦ - ٣٠٦ - حاشية ٣)

وهناك نوع آخر من الحراقات كان يستعمل في الأغراض المحلية كالتنزه أو حمل الأمراء - كما يفهم من للمقرئى (ج ٧ - ١٩٤ - ١٩٥) . لكن ليس هو المقصود هنا

وفيهما في يوم الاثنين ، السابع عشر من جمادى الآخرة ، احترق بمدينة قوص ، بظاهرها - خان الأمير مجد الدين مكرم بن اللطفي . وعُدم للتجار فيه ما يقارب قيمته خمسمائة ألف دينار .

وكان متولى الأعمال القوصية ، يومئذ ، الأمير سيف الدين : سُقْر الدوّادار العادلي . فكتب الأديبُ الفاضل : نجم الدين عبدالرحمن ابن وهيب القوصي^(١) ، عن المتولى ، كتاباً إلى السلطان الملك الكامل ، يخبره بهذه الحادثة ، وهو :

« المملوكُ يُقْبَلُ الأرضَ بالمقام العالي ، المَوْلَى السلطاني ، الملكيّ الكاملِ الناصري : غياثِ الاسلام ، سلطانِ الأنام ، وليّ النعمة ، كاشفِ غيَابِ العُمة ، جامع فضيلَتَي السيف والقلم ، ورافع زِينَتَي العلم والعلم - لازالت آيات مُلكِه باهرة ، ونجوم خُرُصَانِه^(٢) في سماء العَجَاج^(٣) زاهرة ، ووجوه أوليائه ناضرة ، إلى ربها ناظرة ووجوه أعدائه ساهية ساهرة ، تُظُنُّ أن يُفَعِّلَ بها قَاقِرَةً^(٤) .

(١) سبذكر المؤلف نبذة عنه سنة وفاته (سنة ٦٣٢) ، ويصفه بأنه « كان أديباً فاضلاً » .

(٢) جمع خرص - بضم الخاء . وهو القناة والستان أو خرص ، بالفتح ، وهو الرمح . والمعنى الأول هو الأنسب ، لأن الأسماء هي التي تلعب .

« القاموس المحيط »

(٣) العجّاج : الغبار والدخان - كما جاء في القاموس .
والمراد به هنا : غبار المعارك في الحرب ، أي الحرب .

(٤) القاقرة : الذاهية .

« القاموس المحيط »

وَيُنْهَى وَقَعَ الكائنة التي عَظُمَ مصائبها وأصاب عَظِيمُها ، وآلمَ موجِعُها وأوجع أَلِيمُها ، وَسَقِمَ بها من القلوب صحيحُها ، وصَحَّ بها من الخطوب سقيمُها . وأحالت الأفكار في ميدان الفِكْرَةِ ، وأطلق من الألسن والأعين عَيَانَ العَبْرَةِ والعِبْرَةَ . وهى حلول النار بالخان ، الذى أنشأه الأمير مجد الدين مكرم بن اللَّطْطَى بظاهر مدينة قُوص

وهذا الخان المذكور ، قد كان عَطَاً للرفيق ومَجْتَمَعاً للسُّفَّار ، يأتون إليه من كل فَجٍّ وطريق ، خصوصاً الكَارِمَ ^(١) الإسكندري - عَوْضَهُمَ الله أموالهم ، ويلبثهم آمالهم - فلا يتزلون بغيره منزلاً ، ولا يختارون سواه حِصْناً وَمَوْثِلاً . وإذا حل به أحدُهم فكأنه ما فارق وطنه . يتخيرون منازلهم وعُرفه ، ويهرعون إليه كما يهرعون ليوم عَرَفة .

فاتفق لقضاء الله السابق وقَدَرَه اللاحق ، وإظهار ما كان من مُعَيَّبه مستورا ، وتلاوتهم كان ذلك في الكتاب مسطوراً - فاتفق يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الآخرة ، أن خَطَبَتْ على أعاليه ألسنُ الثيران ، واستودَّ الفضاء المشرق لتتابع الدُّخان . وعَايَنَ أهله الهلاك ، وجاءهم الموت من كل مكان . فلم يلبثوا إلا ساعةً من نهار ، وقد أَخَذَتْ بهم النار إخداقَ الأَجْفَانِ بالأخداق واستدار عليهم اللهبُ استدارةَ الأطواق بالأعناق . وتلاهم لسانُ القدر : مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَاعِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ .

(١) يقصد نجار الكارم من أهل الإسكندرية الذين كانوا ينزلون بقوص .

وقد ذكر القلقشندي ، بين الوظائف الديوانية : وظيفة نظر البهار والكارمي . قال : وموضوعها التحدث على واصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر . وهى وظيفة جليلة . فهؤلاء كانوا هم التجار في الوابل والأفاوية والعنبر ، وما إلى ذلك . وكان لتجارهم شأن كبير . وكانت هذه التجارة تعمل من اليمن وعدن والهند .

وَزَحَقَّتِ الْخُطُوبُ إِلَيْهِ زَحْفًا ، وصار للوقت دَسْكَاً دَسْكَاً . والناسُ حوله صفًّا صفًّا . هذا ، ولسانُ النار يقول : هل من مَرِيدٍ ؟ ومدامعُ الخلق تُهْمِي وتَرِيدُ ، فَكَلَّتِ الْأَصْوَاتُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْدَّعَاءِ ، وكاد اللهبُ يَحْمَدُ من جَرَيَانِ ماءِ الْبُكَاءِ ، وشَهِدَ النَّاسُ مِنْهُ الْيَوْمَ الْمَشْهُودَ . وَهَبَتْ الْأَرْيَاحُ فَلَمْ تُحْمِدْ لِلْأَرْوَاحِ ضِرَامًا ، وَخَالَفَتْ هَذِهِ النَّارُ نَارَ الْحَلِيلِ ^(١) ، فَلَمْ تُغَقِّبْ بَرْدًا وَسَلَامًا !

فَكُلُّ مَالِكٍ لِمَوْضِعٍ صَارَ فِيهِ « مَالِكًا » ^(٢) . وكلُّ ذِي حَالٍ حَسَنَةٍ حَالُهُ حَالِكًا . فَمِنْ فَائِزٍ بِنَفْسِهِ دُونَ نَفَاتِيهِ ، وَمِنْ رَاغِبٍ فِي هَرَبِهِ لَشِدَّةِ رَهَبِهِ ، وَمِنْ آبِيٍّ ^(٣) بُعْرَدِهِ ^(٤) دُونَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ . قَدْ لَزِمَ كُلُّ مِنْهُمْ مَا يُغْنِيهِ ، وَعَمِلَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : « يَوْمَ يَفْقَرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » . فَإِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَأَمْرُهُ طَائِعُونَ . لَأَصَادِفُ لِمُصَادِفِ قَضَائِهِ ، وَلَأَصَارِفُ لَصَرْفِ بَلَائِهِ .

لَمْ يَبْقَ هَذَا الْمَصَابُ لِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ جَلْدًا ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ عَنْهُ حَزْنًا وَلَا كَمَدًا . وكلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ : أَهْلَكْتُ مَالًا كَثِيرًا ^(٥) . فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ كَانَ يُجْزَلُ الْهَبَاتِ فَصَارَ جَدِيرًا بِأَنْ يُتَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْهِ . وَكَمْ مِنْ مُمَوَّلٍ كَانَ يُودَى الزَّكَاةُ فَصَارَ مُسْتَحِقًّا بِأَنْ تُصَرَّفَ إِلَيْهِ . كَانُوا أُعِزَّاءَ فِي الْغُرْبَةِ بِأَمْوَالِهِمْ ، فَصَارُوا

(١) إبراهيم - عليه السلام .

(٢) يَفْصِدُ ، مَالِكًا ، خَازِنَ النَّارِ .

(٣) آبِيٍّ : هَارِبٍ .

(٤) غِلَانِهِ .

(٥) « مَالًا كَثِيرًا » : أَيْ كَثِيرًا .

وَالْهَبَاتُ الشَّجَرَةُ : كَثُرَتْ أَوْرَاقُهَا .

أَذِلَّاءٌ فِي الْمَوَاطِنِ لِإِقْلَافِهِمْ . لَمْ يَخْلُصْ لَهُمْ إِلَّا التَّرُّ الِيسِيرُ ، وَالشَّيْءُ الْحَقِيرُ ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْكَثِيرِ مَقْدَارُ أَزْوَادِهِمْ إِلَى مَوَاطِنِهِمْ ، وَكَفَافِهِمْ إِلَى وَصُولِ مَسَاكِينِهِمْ .

هَذَا ، وَلَمْ يُعْلَمْ السَّبَبُ فِي وَقْعِ النَّارِ . فَقَالَ قَوْمٌ : صَاعِقَةٌ سَمَائِيَّةٌ ، وَقَالَ قَوْمٌ : آفَةٌ أَرْضِيَّةٌ . وَتَرَاخَمَتْ فِي ذَلِكَ الظُّنُونِ ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِلْمِهِ السِّرُّ الْكَنُونُ . إِلَّا أَنَّ الْمَلُوكَ أَرْسَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ طُوفَانًا ، وَأَجْرَى إِلَيْهِ بِحَارًا - وَلَا أَقُولُ غُذْرَانًا - إِلَى أَنْ عَادَ غَرِيبًا بَعْدَ مَا كَانَ حَرِيبًا ، وَصَارَ مُورِدًا بَعْدَ مَا كَانَ مُوقِدًا . وَأَصْبَحَ مَاءٌ تُجَاجًا ^(١) بَعْدَ مَا كَانَ سِرَاجًا وَهَاجًا . وَعَلِمُوا أَنَّ الْمُدْفُوعَ مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ أَعْظَمَ ، وَقَرَأُوا : « وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ » .

أَنْهَى الْمَلُوكَ ذَلِكَ ، لِيُطَالِحَ بِخَفَى الْأَحْوَالِ وَجَلَّتْهَا ، حَتَّى لَا يَخْفَى عَنْ عِلْمِهِ السَّامِيُّ خَافِيَةٌ - لَازَلَتْ أَنْوَارُ الْمَلُوكِ بِذَلِكَ الْمَقَامِ مُتَوَالِيَةً مُتَلَالِيَةً - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَفِيهَا ، فِي الْعِشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَعْبَانَ ، صُرِفَ قَاضِي الْقَضَاةِ تَاجُ الدِّينِ ابْنُ الْخُرَّاطِ ^(٢) عَنِ الْقَضَاءِ ، بِمَصْرِ وَالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ .

وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ مَرْزُوقِ الْعَلَّامِيِّ تَزَوَّجَتْ بِإِنْسَانٍ عَلَافٍ اسْمُهُ دَاوُدَ ، وَهُوَ غَيْرُ كُفٍّ لَهَا . فَاسْتَدْعَاهُ السُّلْطَانُ إِلَى الْمَنْصُورَةِ ، وَعَقَدَ لَهُ

(١) تُجَاجًا : سَيَّالًا ، أَوْ مِنْهَبًا .

(٢) هُوَ : عَبْدُ السَّلَامِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَنصُورِ الدِّمِيَّاطِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْخُرَّاطِ . وَلَدَ بِدَمِيَّاطَ ، وَرَحَلَ إِلَى بَنَدَادِ خُفِّهِ بِهَا ، وَتَمَيَّزَ فِي الْفِقْهِ وَالْخُلَافِ . وَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ فَأَقَامَ بِهَا قَاضِيًا مَدْرَسًا ، ثُمَّ وَلِيَ قَضَاءَ مَصْرِ وَالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ . وَلَدَ سَنَةَ ٥٧١ هـ . وَمَاتَ سَنَةَ ٦١٩ هـ .

مجلسا وسلم المرأة لزوجها . وصَرَفَ القاضي عن الحكم ، وصك الشهود .
وأضاف قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة : شرف الدين
بن عَين الدولة الصَّفْرَاوِي ^(١) .

ثم ولي القاضي تاجُ الدين المذكور ، بعد ذلك ، قضاء دمياط وكان
بها ، إلى أن مات - رحمه الله .

وفيها خَرَبَتْ صَفْد ^(٢) . ثم عَمَّرَهَا الْفَرَنْجُ بعد ذلك ، عندما تسلموها
من الملك الصالح إسماعيل - في سنة ثمان وثلاثين .

وفيها قَتَلَ صاحبُ سِنْجَار ^(٣) أَخَاهُ . فسار الملك الأشرف إليها ،
فأخذها وعوض صاحب سِنْجَار الرِّقَّة ^(٤) .

وفيها قصد مُظَفَّرُ الدين بن زين الدين - صاحب إِرْبِل ^(٥) - الموصل .
فخرج إليه بدرُ الدين لؤلؤ ، فهزمه زين الدين ، فأُفْلِتَ لؤلؤ وحده . فانتصر
الملك الأشرف له ، ونازل إِرْبِل . فبعث الخليفة إليه ، فَرَدَّه عنها ، وأصلح
بين الملوك .

(١) سيذكر المؤلف ترجمة له في سنة وفاته (٦٣٩ هـ) ومنها يُعلم أنه كان من كبار القضاة .

(٢) مدينة في جبال عاملة المطلة على حصص بالشام ، وهي من جبال لبنان .
(معجم البلدان : ج ٢ - ١٥٣)

(٣) مدينة كبيرة بالجزيرة ، في قاعدة جبل ، تبعد عن الموصل بمسيرة ثلاثة أيام . وهي مدينة طيبة عامرة .
(ياقوت : ج ٥ - ١٤٤)

(٤) مدينة مشهورة على الفرات . معنودة من بلاد الجزيرة لأنها على جانب الفرات الشرق ، بينها وبين حران
ثلاثة أيام .
(المرجع السابق : ج ٤ - ٢٧٢)

(٥) قلعة حصينة ومدينة كبيرة في قضاء منبسط من الأرض ، تعد من أعمال الموصل ، وأكثر أهلها أكراد .
(ياقوت : معجم البلدان : ج ١ - ١٧٢ - ١٧٣)

وفي هذه السنة ، كانت وفاة الملك الفاتر : إبراهيم ، بن الملك العادل .

وكان قد وافق الأمير عماد الدين بن المشطوب ، وحلف له جاعة من الأمراء بالديار المصرية على الملك الكامل . وكاد أمره يتم . فاتفق من إخراج ابن المشطوب ما قدّمناه . وبقي الملك الكامل في ضيق منه .

فيقال انه استشار صاحب - صفي الدين بن شكر الوزير - في أمره ، فأشار بإرساله إلى الملوك ببلاد الشرق ، يستحثهم على الحضور . فلما كانت واقعة البرلس ، قال السلطان الملك الكامل للملك الفاتر : إن الملك المعظم قد أبطأ علينا والملك الأشرف ، وليس لهذا المهم سؤال ، فتوجه إلى أخيك الملك الأشرف ، وعرفه ما نحن فيه من الضائقة . فتوجه .

وكان الملك الأشرف على الموصل . فمرّض الفاتر بين سنجار والموصل . فمات - وقيل انه سُم - فردّه من معه إلى سنجار . فدُفن عند تربة عماد الدين زنكي - رحمهما الله تعالى .

وحكى ابن جَلَب راجب ، في وفاته ، أن السلطان جهّزه إلى الملك الأشرف ، باتفاق من الملك المعظم ، وبراى صاحب صفي الدين ، وأنه جهز معه شيخ الشيخ ، فسقاه سُمًا في طريقه . فلما شعر الفاتر به ، قال له : يا شيخ السوء فعَلْتَهَا بِي ! كُلْ من هذا الذي أخضرتَه . فأكل منه ، فمات جميعاً ^(١) .

(١) هذه الرواية تبدو أنها غير قابلة للتصديق .

وحكى غير ابن جَلْب راجب - وهو أقعدُ منه بهذه الحادثة - في وفاة شيخ الشيخ ، فقال مامعناه : كانت وفاة شيخ الشيخ : صدر الدين ^(١) أبي الحسن محمد ، بن الإمام شيخ الشيخ عماد الدين أبي الفتح عمر ^(٢) ، ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحسن علي ، بن الإمام الزاهد : أبي عبدالله محمد ، بن حمويه ^(٣) ، الحموي الخراساني النيسابوري الجويني ، البُحَيْرَابَازِي ^(٤) الشافعي - في منتصف جمادى الآخرة - وقيل في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر بالموصل ، بعلّة الدَّرَب ^(٥) . وكان الملك الكامل قد أرسله إلى الخليفة ، يستجده على الفرنج ، فرض بين حرّان والموصل ، فوصل إلى الموصل ومات بها . وقيل كانت وفاته في جمادى الأولى .

(١) سبق التعريف به . وتزيد على ذلك أنه كان من كبار فقهاء الشافعية . وتولى التدريس بالمدارس (الصالحية ، والشافعية ، والمشهد الحسيني) وولى مشيخة سعيد السعداء (دار الصوفية) وكان كبير القدر عند صلاح الدين ، مبعثا من العادل والكامل . وبعثه الملك الكامل رسولا إلى الخليفة يستجده به على الفرنج لما أنفقوا دمياط ، فأدركه الموت بالموصل سنة سبع عشرة وستائة ، عن ثلاث وسبعين سنة .
(حسن المحاضرة : ج ١ - ١٧٢) و (١٤٠ - ١٤١)

وهو والد فخر الدين بن الشيخ ، وإخوته .

(٢) هو والد صدر الدين . قدم إلى الشام في الأيام النورية ، ففوض إليه الشهيد نور الدين - رحمه الله - مشيخة الصوفية . ولما مات صار ذلك بعده لولده صدر الدين .

(ابن واصل : ج ٣ - ٢٥٧)

(٣) جدهم هذا هو حمويه بن علي ، الذي كان حاكما على خراسان أيام الدولة السامانية .

(النجوم الزاهرة : ج ٦ - ص ٩٠)

(٤) نسبة إلى « بُحَيْرَا بَازِء » - بالضم ثم الفتح - وهي من قرى جُوَيْن من قرى نيسابور . وقال ياقوت في هذه المادة :

منها أبو الحسن علي بن حمويه الجويني (وهذا هو جد صدر الدين) ومات سنة ٥٣٠ في نيسابور ، وحمل إلى جوين فدفن بها . وهم أهل بيت فضل وتصف ، ولم يقب بمصر كالمملوك ، يعرف أبوهم بشيخ الشيخ .

(ياقوت : معجم البلدان : ج ٢ - ٧٧)

(٥) بفتحين - مرض يصيب الأمعاء : إسهال أو دوستظاريا .

ومولده بجوئين في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وجوئين هذه ، التي
نُسب إليها ، ناحية كبيرة من نواحي نيسابور ، وإليها يُنسب إمام الحرمين
أبوالمعالى : عبد الملك الجوينى . وأما أبوالمعالى الجوينى : محمد بن الحسن
ابن عبد الله - فهو منسوب إلى جوئين : قرية من قرى سرخس . وهو إمام
فاضل . وأما وقاد بن قيس الجوينى الشاعر فنسب إلى جوئين : بطن من
سبب (١) .

وفي هذه السنة كانت وفاة السيد الشريف : قتادة بن إدريس ،
الزبدي الحسنى (٢) العلوى ، أمير مكة . وكنيته أبو عريز . كان رحمه الله -
عادلاً منصفاً . واطمأن الحاج في أيامه . وما وطىء بساط خليفة قط . وكان
يُحْمَلُ إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب . وكان يقول : أنا أحقُّ
بالخلافة من غيرى .

ويعت إليه الخليفة الناصر يستدعيه ، ويقول له : أنت ابن العم
والصاحب ، وقد بلغنى شهادتك وحفظك للحاج ، وعدلك وشرف
نفسك ، وقد أحبيت أن أراك وأشاهدك ، وأحسن إليك . فكتب إليه :

(١) إحدى قبائل العرب .

(٢) سبق ذكره . وهو مؤسس أسرة قتادة ، من أمراء مكة ، منذ سنة ٥٩٩ هـ . وهم الذين ظلوا يحكمون مكة
إلى مجيء الوهابيين . وهو من عقب الحسن بن علي . وذكر المؤلف وفاته سنة ٦١٧ هـ .

وَلِي كَفْتُ خَيْرَ غَامٍ أَدْلُ يَسْطِطُهَا وَأَشْرَى بِهَا بَيْنَ الْوَرَى وَأَبِيعُ
تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثُمُ ظَهْرَهَا وَفِي وَسْطِهَا لِلْمُجْدِبِينَ^(١) رَيْعُ
أَجْعَلُهَا تَحْتَ الرِّجَا ، ثُمَّ أَتْبَنِي خَلَاصًا لَهَا ، إِنْ إِذَا لَوْضِيعُ
وَمَا أَنَا إِلَّا الْمِسْكُ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ يَضُوعُ^(٢) ، وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَيَضِيعُ
وَكَانَتْ وَفَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِحْدَى الْجَمَادَيْنِ ، بِمَكَّةَ - شَرَفَهَا اللَّهُ
تَعَالَى - وَلَهُ سَبْعُونَ سَنَةً .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْحَسَنُ - وَقِيلَ أَنَّ ابْنَ الْحَسَنِ سَمَّاهُ - وَكَانَ لَهُ وَلَدٌ آخَرُ
اسْمُهُ : رَاجِحٌ . وَكَانَ فَكَّادَةً قَدْ اتَّسَعَتْ وَلَايَتُهُ مِنْ حُدُودِ الْيَمَنِ إِلَى الْمَدِينَةِ : وَلَهُ
قَلْعَةٌ يَتَّبِعُ وَاسْتَكْتَرَّ مِنَ الْمَالِيكَ . وَذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ وَفَاتِهِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ عَشْرَةٍ .
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِيهَا ، كَانَتْ وَفَاةُ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ شَاهِنْشَاهِ
ابْنِ أَيُّوبَ - صَاحِبِ حَمَاهُ .

وَكَانَ شَجَاعًا مُجِيًّا لِلْعُلَمَاءِ . وَصَنَفَ كِتَابًا سَمَّاهُ : « الْبُزْمَارُ » جَمَعَ
فِيهِ جُمْلَةً مِنَ التَّوَارِيخِ ، وَأَسْمَاءَ مِنْ وَرْدٍ عَلَيْهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ ، فِي عَشْرَةِ
مَجْلَدَاتٍ . وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ ، حَافِظًا لِرَعِيَّتِهِ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِحَمَاهُ فِي شَوَالٍ ،
وَدُفِنَ عِنْدَ أَبِيهِ .

وَقَامَ بَعْدَهُ بِمُلْكِ حَمَاهُ وَلَدُهُ الْأَكْبَرُ : الْمَلِكُ النَّاصِرُ قَلِيحُ أَرْسَلَانِ .

(١) الَّذِينَ أَصَابَهُمُ الْجَدْبُ ، وَهُوَ غَدُ الْخَصْبِ .

(٢) يَفْرَحُ شَدَاهُ .

ثم أخذ منه الملك الكامل حمّاه ، وأعطاهما لأخيه الملك المظفر ، واعتقل قليج أرسلان في الجُبّ بقلعة الجبل ، بظاهر القاهرة المعزّية . وفيها كانت وفاة الملك الصالح : نجم الدين محمود بن محمد بن قرّا أرسلان بن أرشق ، صاحب آيد . وكان شجاعاً عاقلاً جواداً ، مُحِبّاً للعلماء . وكان الملك الأشرف يُحِبُّه ، وحضر إلى خدمة الأشرف غير مرة إلى دُنَيْسِر ، وغيرها . ومات بآيد في صفر .

وقام بعده ولده الملك المسعود . وكان ضد اسمه : بخيلاً فاسيقاً . حَصَرَه الملك الكامل بعد ذلك في آيد ، ووجد في قصره خمسمائة امرأة من الحرائر يَقْتَرِسُهُنَّ ، من بنات الناس . فأخذه الكامل إلى مصر ، وأحسن إليه . وكتب الروم وسعى في هلاك الكامل . فقبض عليه واعتقله في الجُبّ . ثم أطلقه ، فتوجه إلى التار . وكان معه جواهر كثيرة ، وأخت جميلة ، فقتله التار ، وأخذوا ماله .

وفيها ، في العشر الأول من ذى الحجة ، توفي الشيخ القدوة العارف : أسد الشام عبدالله اليوناني ^(١) صاحب الكرامات المشهورة والرياضات والمجاهدات . وكان - رحمه الله ورضى عنه - لا يقوم لأحد من الملوك ولا لغيرهم ، تعظيماً لله تعالى ، ويقول : لا ينبغي القيام لغير الله تعالى . وكان لا يمس يده دِرْهَمٌ ولا ديناراً ، ولا يلبس غير الثوب الخام ، وقلنسوة

(١) سنة إلى يونان . قرية من قرى بعلبك

من جلد الماعز . ويبعث إليه بعض أصحابه في الشتاء بفروة قَرَطَ ^(١) ،
يلبسها ، ثم يُؤثَرُ بها إذا اشتد البرد . وكان إذا لبس ثوبًا قال : هذا لفلان
وهذا لفلانة ، يُوعِد به ويُعطيهِ إذا أتاه غيره .

وكان من خَيْر وفاته أنه دخل الحمام في يوم الجمعة واغتسل ، ولبس
ثوبيته ، وكان قد سَمَّاهما لامرأتين ، وصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو
صحيح . وجاءه داود المؤدّن وكان يغسل الموتى ، فقال له : وَيَحْك
يا داود ، انظر كيف تكونُ غداً ! فلم يفهم . ثم صعد الشيخ المَعَارَة ،
وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا الصخرة التي عند اللّوْزة ، التي كان ينام تحتها
ويجلس عندها ، وعندها قبره . فَتَجَزَّتْ في نهار الجمعة ، وبقي منها مقدار
نصف ذراع . فقال لهم : لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها .

وبات في ليلة السبت ، وهو يذكر أصحابه ومعارفَه ، ويدعو لهم حتى
طلع الفجر . فصلى بهم الصبح ، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها ،
فجلس ويده سُبَّحة . وقام الفقراء ليكملوا حفر الصخرة ، فطلعت الشمس
وقد فرغوا منها ، والشيخ قاعد ويده السُبَّحة . وجاء خادم من القلعة إليه في
شغل ، فرآه نائما ، فأتجاسر أن يوقظه . فجلس ساعة ، فلما طال مجلسه قال
لخادم الشيخ : يا عبد الصمد ، ما أستطيع أن أقعد أكثر من هذا . قال
عبد الصمد : فتقدمتُ إليه ، وناديتُه : سَيِّدِي سَيِّدِي ! فأتكلم
فحركته ، فإذا هو ميت ! فارتفع الصباح .

(١) جاء في القاموس ، القَرَط - محركة - . اديمٌ مقروط ذئب
فلما أن يكون المعنى بفروة من جلد مدبوغ ، أو بفروة كبش

وكَبَش قَرَطِي - بمعنى

وكان الملك الأبعد - صاحب بعلبك - في الصيد ، فأرسلوا إليه .
فجاء ، فرآه على تلك الحال : لم يقع : ولا وقعت السُّبْحَة من يده ، وهو
كأنه نائم ! فقال : نبى عليه نبياً وهو على حاله ، ليكون أعجوبة ! فقال
أتباع الشيخ : السُّنَّةُ أُولَى . وغسله داود ، ودفع الثوبين للمرأتين .
ولما أَلَحَدُوهُ ، قال له الحَقَّار : يا شيخ عبد الله ، اذكر ما فارَقْتَنَا ، أو اذكرنا
عند ربك . قال : ففتح عينيه ، ونظر إلى شَرْراً^(١) . ودُفِنَ رحمه الله في يوم
السبت ، وقد جاوز ثمانين سنة . والأخبار عنه في الكرامات كثيرة ، قد
اقتصرنا على هذه النبذة .

واستهلت سنة ثمانى عشرة وسمائة :

ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانتهزام الفرنج واستعادة نهر دمياط ، وتقرير الهدنة

في هذه السنة ، توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن السلطان
الملك العادل ، إلى أخيه الملك الأشرف ، واجتمعا على حَرَّان^(٢) .
وكان الملك المعظم من أحرص الناس على إعانة أخيه الملك الكامل ،
على استعادة نَهْر دمياط من الفرنج . وكان الملك الأشرف قد بَايَنَ الملكَ
الكامل ، وتقاعد عنه في هذه الحادثة : فتلطف الملك المعظم بالملك

(١) شزرة ، وإليه - يشزره : نظر منه في أحد شِقَيْهِ . أو هو نظر فيه إعراض أو نظر التفضيلان بمؤثر العين . ونظر بعضهم إلى بعض شَرْراً . وعين شَرْراً - حمره .

ه القاموس المحيط ،

(٢) سبق ذكر موضعها . وهى قصبة ديار مصر - الجزيرة

الأشرف ، ولم يزل به حتى قطع الفُرَات بالعساكر ، والمعظم يُقَدِّمُهُ ، إلى أن نزل الملك المعظم على حِمص ، والأشرف على سَلَمِيَّة ^(١) .

قال أبو المُظَفَّر يوسف ، في تاريخه : وكنتُ قد توجهتُ إلى حِمص لطلب الفَرَاة ، وكان الغَزْمُ قد وقع على دخول العساكر إلى طرَابُلُس . فاجتمعتُ بالملك المعظم على حِمص في شهر ربيع الآخر . فقال لي : قد سَحَبْتُ الأشرفَ إلى ههنا بأَسْأَنِي وهو كَارِه ، وكل يوم أُعْيِيهِ في تأخره وهو يُكَاشِر ^(٢) ، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر . وهو صديقك ، فتوجهْ إليه ، فإنه قد سألني عنك مرارا .

قال : ثم كتب كتابا إلى أخيه يَحْطِئُه نحو ثمانين سَطْرًا ، فأخذته وتوجهتُ إليه إلى سَلَمِيَّة ؟ فطلقاني وأكرمني ، قلت له : المسلمون في ضائقة ، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ، ملكوا حضرموت وعفوا آثار مكة ، وأنت تلعب ؟ قم الساعة وارجل . فأمر برمي الخيام والدُّهْلِيْز ^(٣) لوقته . وقتت فركبت ، وسبقته إلى حِمص . فركب المعظم وأتقني ، وقال : والله ما نمتُ البارحة ، ولا أأكلتُ في يومى هذا ! فأخبرته أن الملك

(١) سبق بيان موضعها ، وهي بلدة من أعمال حماه أو حِمص ، في ناحية البرية .

(٢) في « القاموس » : كثر عن أسنائه يكثير كثيرا : أبدى - يكون في الضحك وغيره ، وقد كاشره فكان المعنى هنا . وهو يكثير عن أسنائه ، كناية عن المفاضة أو العناد . وقد مثَّلَ تَمَقُّزُ (النجوم الزاهرة) وهو يكاسر - بالسين - ونعب في نصيره ، فأُتِفِدَ

(٣) السرادق . أو الخيمة الكبيرة المنصوبة للملك

الأشرف يصل إليه بُكْرَةَ القَدِّ . فسُرَّ بذلك ، ودعا لى . وأقبلت الأطلاب^(١) من القَدِّ . وجاء الأشرف فما رأيت أجمل من طَلْبِهِ^(٢) ، ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة .

قال : وبات الأخوان المملكان فى تلك الليلة يتشاوران . فاتفقا على الدخول فى السحر إلى طرابلس ، وكانوا على أحسن حال . فأنطقَ الله الملك الأشرف - من غير قصد - وقال للمعظم : ياخُونَدُ^(٣) ، مَ عِيَوْضْ دخولنا إلى الساحل ونُضْعِفُ عساكرنا وخيلنا ، ونُضْهِجَ الزمان ، ما نتوجه إلى دِمِياط ونَسْتَرِيعُ ! فحلَّفه المعظم بقول رُمَاءِ البَنْدُقِ^(٤) ، فَحَلَفَ ، وقَبَلَ المعظم قدمه .

ونام الأشرف ، فخرج المعظم من الخيمة ونادى فى الناس : الرحيل إلى دِمِياط ، وما كان يَظُنُّ أن الأشرف يسمعُ بذلك . وساق المعظم إلى دِمِشق ، وتبعته العساكر . ونام الأشرف فى خيمته إلى وقت الظهر ، وانتبه فدخل الحَمَامَ فلم يَرِ حول خيمته خِيمة ! فسأل عن العساكر ، فَأَخْبَرَ بالخبر . فسكت وركب إلى دِمِشق . ونزل القصر فى رابع عشر جمادى الأولى ، فأقام بها إلى سَلْخِ الشهر .

(١) الأطلاب : جمع طَلَب . وهذا لفظ كردى ، معناه : الكنية . ورد هذا اللفظ مع جيش الدولة الأيوبية ، واستعمل فى دولتي الأيوبيين والمماليك .
فالأطلاب : يعنى : كتاب الجند .

(انظر السلوك - زيادة : ج ١ - ٢٤٨)

(٢) : أى من جُنْدِهِ ، أو كنيته .

(٣) لفظ تركى أو فارسى . وأصله « شَاخُونَد » . ومعناه : السيد ، أو الأمير .
(المصدر السابق ج ١ - ٢٢٤)

(٤) رُمَاءُ البندق هم أهل « الفتوة » الأعضاء فى ذلك النظام ، الذى كان شائعا فى عهد الخليفة الناصر - كما أشرنا إليه من قبل . لعمري العبارة إذن أنه حلَّفه بقسم الشرف الذى كان يقسم به أعضاء نظام « الفتوة » ، وكان نظاما شبيها بالفروسية .

وَعَرَضَ العساكر ، وتوجه إلى مصر ، هو والملك المعظم - في غرة جمادى الآخرة . ووصلوا إلى المنصورة ، في ثالث شهر رجب من السنة . ووصل أيضاً الملك المظفر بن الملك المنصور ، صاحب حماه ، وغيره من الملوك . هذا ما كان من خبر هؤلاء .

وأما الملك الكامل ، فإنه في هذه السنة اجتهد في قتال الفرنج .. واستمر القتال بينهم وبينه في البر والبحر . وطلع النيل وعم البلاد ، وجرى في بحر المَحَلَّة ، قُرْبَ السلطانُ مراكب الأسطول في بحر المَحَلَّة ، ومنع الميرة (١) عن الفرنج . فاشتد ضررهم لذلك ، وَعَدِمُوا الْقُوَّة . وعزموا على الرجوع إلى دمياط ، فأحرقوا أَثْقَالَهُمْ وهربوا ليلاً . فأمر السلطان بقطع جسر البرمُون (٢) ، وغيره من الجسور ، قَطَعَتْ . فأحاط بهم النيل من كل جانب . وكان فيهم مائة كُفْد (٣) ، وثمانمائة من الحَيَّالة المعروفين ، وَمِلِك عكا ، والدُّوك (٤) واللُّوكان (٥) نائب الباب (٦) ، ومن الرِّجَالَة ما لَا يُحصى كَثْرَة .

فلما عَانُوا الهلاك ، راسلوا السلطان ، وبذلوا له أن يتزلوا على ثَغْرِ دمياط ، وَيُؤْمِنَهُمْ على أنفسهم وأموالهم . فأجابهم إلى ذلك . ووصل

(١) الثون والأهوات .

(٢) بلد في محافظة الدقهية . بالقرب من المنصورة .

(٣) من أرفع ألقاب الشرف عند الفرنجة ، وهذا تعريب لقب « Comte » ، الفرنسى « كونت » .

(٤) أى : الدوق .

(٥) هكذا في (ع) ومعناه غير ظاهر . وزجج أنه تحريف للقب « الكاردينال » .

(٦) البابا ، كما كان يُنظر في تلك العصور في الشرق .

المَلِكُ : الأشرف والمُعَظَمُ في هذه الأيام . وتقررت الهدنة ثمانى سنين ،
وأنه يُطَلَقُ جميعُ الأسرى من الجهتين .

وجلس الملكُ الكاملُ مَجْلِساً عظيماً . ووقف الملكُ الأشرفُ والملكُ
المعظمُ وسائر الملوك في خِدْمَتِهِ . ولم يجلس معه إلا الملكُ المعظمُ محمد [بن]
سُجْرَشَاهُ ، بن أتابك ، صاحب جزيرة ابن ^(١) عمر - وكان قد وصل إلى
الملك الكامل في أوائل هذه السنة ، قبل وصول الأشرف والمعظم - وعَظَّمَهُ
الملكُ الكاملُ تعظيماً كثيراً . وكان في مدة مقامه عنده ، إذا حضر رسلُ
الفرنج يقول لهم الملك الكامل : إنه الآن لاحتكم لى ، وحديثكم مع ملك
الشرق ، والأثر له . وحضر رسولُ الفرنج مرة ، فوقف الملك الكامل بين
يدى الملك المُعَظَّمِ هذا ، وكذلك من كان بحضرته من الملوك الأيوبيين . وكان
الملك المعظمُ محمد شكلاً مهيباً ، جَهْورِيَّ الصوت ، هَيُولَ الخَلْقَةِ ففَرَّقَ
رسلُ الفرنج منه . ولما جلس السلطان في هذا اليوم ، أراد الملك المعظمُ
الوقوف بين يديه مع الملوك الأيوبيين ، فلم يُمَكِّنْهُ من ذلك ، وأجلسه إلى
جانبه .

وحضر الملكُ يوحنا - صاحب عكا - إلى السلطان بظاهر البرَمُون ، بعد
أن أعطاه السلطان رهاين : وَلَدَهُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخاه
الملك المفضل قطب الدين ، وجماعة من أولاد الأمراء . فحلف يوحنا

(١) هي بلدة فوق الموصل . بينها ثلاثة أيام (١٥ فرسخاً) ولها رُستاق (مجمع قرى) مخصب . وتحيط بها وجلة
إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ، ثم عُيِّلَ خندق أُجْرِى فيه الماء في هذه الناحية ، فصارت جزيرة فعلاً .
(معجم البلدان : ج ٣ - ١٠٢)

للسلطان ، ولأخويته : الأشرف والمعظم ، وحلفوا له . وذلك في يوم الأربعاء ، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب ، من السنة .

وتسلم نغر دمياط في تاسع عشر شعبان من السنة . فكانت مدة استيلاء الفرنج على الثغريتين ، إلا ستة أيام . ومدة مقامهم بالديار المصرية ثلاث سنين ، وأربعة أشهر ، وستة عشر يوماً . وتوجه الفرنج إلى عكا : بعضهم في البر ، وبعضهم في البحر .

وعاد الملك المعظم ، صاحب الجزيرة ، والملك المعظم ، صاحب دمشق ، إلى ممالكهما . وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل ، وتصافيا ، وزال ما عند كل منهما من الآخر . واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام .

ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام

قال : ولما تسلم السلطان نغر دمياط ، وعاد الفرنج إلى بلادهم ، رجع السلطان إلى القاهرة . واستقر بقلعة الجبل .

ثم ركب في ذى القعدة ، وجاء إلى منطرة صاحب صنى الدين بن شكر ، لزيارته . فزاره ، واستشاره في أمر الأمراء ، الذين كانوا مع عماد الدين بن المشطوب ، لما قصد إقامة الفائر . فأشار بإخراجهم من البلاد . وكانوا في الجزيرة ، مقابل نغر دمياط ، لعمارتها . فكذب السلطان إليهم بالانصراف ، إلى حيث اختاروا . فتوجهوا إلى الشام . ولم يتعرض لشيء من

موجودهم ، وأقطع أَخْبَارَهُمْ^(١) لمالكيه .

في هذه السنة - أعني سنة ثمانى عشرة وستائة - كانت وفاة أمين الدين أبو الدر : ياقوت بن عبد الله الموصلى ، الكاتب المعروف بالمالكي - نسبة إلى السلطان مَلِكُشَاه السُلجُقى . إليه انتهى حسنُ الخطِّ وجوده الكتابة في زمانه ، وما أَدَّى أحدُ طريقَة ابن البواب^(٢) في زمانه مثله . وكتب كثيراً من الكتب . وانتشر خطه . وكان مُعَرِّى بنقل صِحاح الجوهرى ، كتب منها نسخاً كثيرة : كل نسخة فى مجلدة واحدة . قال ابن خَلِّكَان : ورأيت منها نسخاً عدة ، وكل نسخة تباع بمائة دينار . وكتب عليه خلقٌ كثير ، وانتفعوا به . وقصده الناس من البلاد إلى الموصل . وبها مات ، وقد أُسنَّ وتغير خطُه - رحمه الله .

واسنَهلت سنة تسع عشرة وستائة :

في هذه السنة - فى أولها - وصل الملك الأشرف إلى القاهرة إلى أخيه الملك الكامل ، وأمر بعمارة تربة لوالدته بالقرافة . وعاد فى شعبان من السنة . وفيها ظهر بالشام جرادٌ كثير ، لم يعهد مثله . فأكل الزَّرْعَ والشجر . فأظهر الملك المعظم أن يبلاد العجم طائراً ، يقال له : السَّمَرَمَر يَأْكُلُ الجراد . فأرسل الصدرَ البَكْرِى مُحْتَسِب^(٣) دمشق ، ورُئِبَ معه صُوفِيَّة ، وقال :

(١) أى إقطاعيتهم من الأراضى ، أو إيرادتهم منها . جمع خُبْر . وهو الإقطاع للجنود أو إيراده ، كما كان يفعلهم فى ذلك الزمان .

(٢) هو : أبو الحسن على بن هلال ، المعروف بابن البواب ، الكاتب المشهور . المتوفى سنة ٤٢٣ هـ بغداد . (انظر ترجمة فى وفيات الأعيان ج ٣ - ص ٢٨)

(٣) محسب هو الذى يقوم بوظيفة العجبة ، وهى وظيفة شرعية . من واجبات صاحبها أن يراقب الآداب العامة وتنفيذ الأحكام الدينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

تمضى إلى العجم . فهناك عينٌ يجتمع فيها السمرمر ، فتأخذ من ماثها قوارير ، وتعلقه على رموس الرماح ، فكلما رآه السمرمر يتبعك !

وكان قصدُ الملك المعظم في إرسال البكرى أن يتوجه إلى السلطان : جلال الدين خوارزم شاه ويتفق معه ، لما بلغه إتفاق الملك الكامل والأشرف عليه . فتوجه البكرى ، واجتمع بالسلطان جلال الدين ، وقرر معه الأمور ، وجعله سدياً للملك المعظم . وكان الجراد قد قلَّ ، فلما عاد البكرى كثر وولاه الملك المعظم مَشِيحَةَ الشيوخ ^(١) مضافة إلى الحِسْبَةِ ^(٢) .

وفيها نُقِلَ الملك العادل في تابوته من قلعة دمشق إلى مدرسته ^(٣) ، التي أنشأها عند دار العقيقى ^(٤) . وأُخرجت جنازته من القلعة ، وعليها مرقعته ، وأرباب الدولة حوله . ودخلوا من باب البريد إلى الجامع ، ووضع في صحن الجامع ، قبالة حائط التَّسْرِ . وصلى عليه الخطيب الدُّوْلَعِي ^(٥) . ثم حملوا جنازته وخرجوا من باب البَطَّاقِينَ ، خوفاً من ازدحام الناس في الطريق . فلم يصل إلى تربته إلا بعد جهد ، لضيق المسلك . وتردَّدَ القراء والفقهاء مُدَّةً إلى التربة ، غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً . ولم تكن كملت عمارتها .

(١) يراد بها الإشراف على دور الصوفية (الخانقاهات) . . . قد صار متولياً بلقب بشيخ الشيوخ .

(٢) سبق تعريفها منذ قليل .

(٣) هي المدرسة التي سميت «العادية» نسبة إليه ، لأنه هو الذى وضع أساسها وبدأ بناءها ، وإن كان الذى أنشأها ابنه الملك المعظم .

(٤) العقيقى هو : أحمد بن الحسين بن أحمد العلوى الدمشقى . ويعرف بالعقيق ، توفي سنة ٣٧٧ هـ ونسبت الدار إليه .

(عن النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ١٧١ حاشية ٣)

(٥) نسبة إلى «الدُّوْلَعِيَّة» : قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم واحد .

(معجم البلدان : ج ٤ - ١٠٥)

ثم درس فيها قاضى القضاة جمال الدين المِصرى ، قبل كمال عمارتها .
وحضر السلطان الملك المُعقَّم ، وتكلم فى الدرس مع الجماعة .

وكان الإجتماع بالإيوان الشمالى بالمدرسة . وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه - الشيخ جمال الدين الحَصِيرى شيخ الحَنَفِيَّة ، و يليه شيخ الشافعية :
الشيخ فخر الدين بن عَسَاكِر ، ثم القاضى شمس الدين الشُّيرَازى ، ثم
القاضى محبى الدين بن الزُّكَمَى . وجلس عن يسار السلطان ، إلى جانبه ،
مُدْرَس المدرسة قاضى القضاة^(١) ، وإلى جانبه سيف الدين على الآمدى ،
ثم القاضى شمس الدين يحبى بن سَنَى الدولة ، ثم القاضى نجم الدين
خليل قاضى العسكر . ودارت حَلَقَةٌ صغيرة ، والناس وراءهم متصلون مِلء
الإيوان . وكان فى تلك الحلقة أعيانُ المدرسين والفقهاء . وقبالة السلطان
الشيخ تَقِى الدين بن الصَّلَاح وغيره . وكان مجلساً جليلاً ، لم يقع مثله إلا فى
سنة ثلاث وعشرين وستائة .

ذكر توجه الملك المسعود بن الملك الكامل

من اليمن إلى الحجاز ، وما اعتمده

فى هذه السنة ، حج الملكُ المَسْعُودُ بن السلطان الملك الكامل بالناس
من اليمن ، فى عسكر عظيم .

(١) أى جمال الدين المِصرى .

وجاء إلى الجبل وقد لبسَ هو وأصحابه السلاح ، ومنع عَلمَ الخليفة^(١) . أن يصعد إلى الجبل . وأُضْعِدَ عَلمَ أبيه : الملك الكامل ، وعَلمَه . وقال لأصحابه : إن طلع البَعاذَةُ بعَلمَ الخليفة فاكسروه ، وانبهؤهم . ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس ، يضربون الكُوسَات^(٢) ويتعرضون إلى الحَاجِّ العراقي ، وينادون : يَا ثَارَاتِ ابْنِ الْمُقَدَّم^(٣)

فأرسل^(٤) إليه حسامُ الدين بن أبي فِرَاس - أميرُ الحَاجِّ العراقي - أباه ، وكان شيخاً كبيراً ، فَعَرَفَه ما يجب من طاعة الخليفة ، وما يلزمه من ذلك من الشَّاعَةِ . فيقال إنه أذَنَ في صعود العَلمِ قبيل الغروب . وقيل لم يَأْذَن . وبدا من الملك المسعود أَقْسِيس^(٥) في هذه الواقعة جنونٌ عظيم ، وأفعالٌ شنيعة . قال أبو المُطَفَّر^(٦) : حَكَى لِي شَيْخُنَا جمال الدين

(١) كان لازال هو الخليفة (الناصر لدين الله) ، فإنه لم يتوقف إلا في سنة (٦٢٢) ، وهذه أحداث سنة (٦١٩)

(٢) عَرَفَهَا القلشندى بأنها : «صنوجات من نحاس شبه الفرس الصغير ، يُدَقُّ بأحدها على الآخر بإيقاع محصوص . ومع ذلك طبلون وشبابة . يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة ... وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه . وقد عد ذلك من رسوم الملك وآلانه .

(صح الأعرشى : ج ٤ - ص ٩)

(٣) المقصود به هو «شمس الدين بن المقدم» أحد كبار الأئمة في دولة صلاح الدين . ومناذاتهم يثار المقدم تشير إلى الحادث الذي وقع سنة ٥٨٣ هـ بمكة . بعرفات ، ونقل فيه ابن المقدم هذا . (انظر تفصيل الحادث في ابن الأثير : الكامل ج ١١ - ص ٢٢٨ - ٢٢٩) .

(٤) من هنا ، أى قوله : «ثارات ابن المقدم» ... إلى قوله : «وفيا أنشأ الملك الكامل دار الحديث الكاملية» - أى بضع صفحات كاملة - مفقودة كلها من النسخة (ك) - فاعتمدنا على النسخة الأخرى : (ع) فقط

(٥) سبق تفسير هذا الاسم . وهو كلمة تركية . أصلها : أَطِيرُ أو أَثِيرُ .

(٦) أى سبط ابن الجوزى ، الموزج .

الحَصِيرِي^(١)، قال : رَأَيْتُ أَقْسَيْسَ قَدْ صَعَدَ عَلَى قُبَّةِ زَمْرَمَ ، وَهُوَ يرمى حَمَامَ
مَكَّةَ بِالْبُنْدُقِ ! قال : وَرَأَيْتُ غِلْمَانَهُ فِي الْمَسْعَى يَضْرِبُونَ النَّاسَ بِالسُّيُوفِ فِي
أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُونَ : اسْعُوا قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ نَائِمٌ سَكْرَانٌ فِي دَارِ
السُّلْطَانَةِ الَّتِي بِالْمَسْعَى . وَالِدَمُّ يَجْرِي مِنْ سَاقَاتِ النَّاسِ ! .

وفيها ، فِي الْعَشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، ظَهَرَ كَوْكَبٌ كَبِيرٌ فِي الشَّرْقِ ، لَهُ
ذَوَابَةٌ طَوِيلَةٌ غَلِيظَةٌ . وَكَانَ طُلُوعُهُ وَقْتُ السَّحَرِ ، فَبَقِيَ كَذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ .
ثُمَّ ظَهَرَ أَوَّلَ اللَّيْلِ فِي الْمَغْرِبِ مِمَّا يَلِي الشَّمَالَ . فَبَقِيَ كَذَلِكَ إِلَى آخِرِ شَهْرِ
رَمَضَانَ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، تَوَفَّى الْمَلِكُ الْمُفَضَّلُ قُطْبُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الْمَلِكِ
الْعَادِلِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَيُّوبَ ، بِالْفَيُومِ . وَنُقِلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ
فَدُفِنَ بِالْقَرَّافَةِ الصَّغْرَى .

وَالِى قُطْبُ الدِّينِ هَذَا ، تُسَبِّ الدَّارُ الْقُطَيْبَةُ الَّتِي بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ
بِالْقَاهِرَةِ الْمُعْرِزِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ الْآنَ الْيَمَارِسْتَانُ الْمُتَّصُورَى . وَكَانَ قَدْ جَمَعَ
أَخْوَاتَهُ بَنَاتِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ ، بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ ، وَسَكَنَهَا ، وَهُنَّ تَحْتَ كَنَفِهِ ،
فَسُمِّيَتْ الدَّارُ الْقُطَيْبِيَّةُ بِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) وهو شيخ الحنفية . وقد تقدم ذكره في المتن .

وفيهما تُوفى الأمير عماد الدين : أبو العباس أحمد ، بن الأمير الكبير سيف الدين أبي الحسن علي ، بن أحمد ، بن أبي الهيثج ، بن عبد الله ، بن أبي الخليل بن مورتان ، الهكاري^(١) ، المعروف بابن المشطوب^(٢) .
والمشطوب لقب والده ، لُقِبَ به لِشَطْبِهِ كانت بوجهه .

وكان أميراً كبيراً ، وافر الحرمة عند الملوك ، يَعُدُّونَه بينهم كواحد منهم . وكان عاليَ الهمة غزير الجود ، واسع الكرم ، شجاعاً أبى النفس . وكان من أمراء الدولة الصلاحية . فإن والده لما توفى^(٣) ، كانت نابلس إقطاعاً له ، أَرَصَدَ منها السلطانُ الملك الناصر صلاح الدين الثُلثَ لمصالح بيت المقدس ، وأقطع ولده عماد الدين هذا بَقِيَّتَها . ولم يزل قائم الجاه والحرمة نافذ الكلمة ، إلى أن صدر منه على ثغر دمياط ما قدمنا ذكره . وكان من خبره واعتقاله ما قدمناه . ثم كانت وفاته بحرّان . وبِتَتْ له ابنته قُبّة على باب مدينة رأس عين ، ونقلته من حرّان إليها ، ودفنته بها .

وأما والده - رحمه الله تعالى - فكان من أكابر الأمراء الصلاحية . وكان الملك الناصر^(٤) قد رَجَّبه بعكا ، هو وبهاء الدين قراقوش الأسدي . ولما خلص منها ، وصل إلى السلطان وهو بالقدس . قال ابن شدّاد : إنه دخل عليه بَعْتَةً ، وعنده الملك العادل ، فنهض إليه واعتقه ، وسر به سروراً عظيماً . وأخلى له المكان ، وتحدث معه طويلاً .

(١) نسبة إلى الهكارية : وهي بلدة وقرى فوق الموصل ، في بلد جزيرة ابن عمر ، يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية .

(٢) ياقوت : ج ٨ - ٤٦٩

(٣) سبق ذكره غير مرة في أيام العادل والكمال .

(٣) وذلك سنة ٥٨٨ هـ .

(٤) أي السلطان صلاح الدين بن أيوب .

ولم يكن في الدولة الناصرية من يُضاهيه في الرتبة وعلو المنزلة . وكانوا يسمونه : الأمير الكبير . وكان ذلك علماً عليه عندهم ، لا يشاركه فيه غيره . وكان إقطاعه - نابلس وغيرها - بعد خلاصه من الأسر - ثلاثمائة ألف دينار . وكانت وفاته - أعنى والدّه - بالقدس ، في يوم الخميس سادس عشر شوال ، سنة ثمان وثمانين ^(١) وخمسمائة ، بعد خلاصه من الأسر بمكة بمائة يوم . ودُفن بداره ، بعد أن صَلَّى عليه في المسجد الأقصى - رحمه الله تعالى .

وفيهما توفي جلال الدين أبوبكر ، بن القاضي كمال الدين أبي السعادات : أحمد بن شكر . واستهلت سنة عشرين وسبعمائة :

ذكر مُلك الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل

مكة - شرفها الله تعالى

وفي هذه السنة ، ملك الملك المسعود أقيس بن السلطان الملك الكامل - صاحب اليمن - مكة - شرفها الله تعالى . وكان صاحبها يومئذ : الأمير حسن بن قتادة ^(٢) ، وكان قد أساء السيرة . فسار إليه الملك المسعود وقاتله بالمستقْبَى بِطْنِ مكة ، في رابع شهر ربيع الآخر . فتغير الخليفة الناصر لدين الله على الملك الكامل ، بسبب ذلك .

(١) الموجود في (ج) : سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وهو خطأ . والصواب كما أثبتناه هو : سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

(٢) هو الأمير حسن بن قتادة بن إدريس الحنْصِي . وقد تقدم ذكرهما .

ذكر عصيان الملك الْمُظَفَّر شهاب الدين غازي
على أخيه الملك الأشرف
وقتاله ، وانتصار الملك الأشرف

وفي هذه السنة ، عاد الملك الأشرف موسى من الديار المصرية ، من عند أخيه الملك الكامل . فلما وصل إلى دمشق ، تلقاه أخوه الملك المعظم عيسى ، وعرض عليه النزول بالقلعة . فامتنع ، ونزل بجوّسق أبيه . وبدأت الوحشة بين الإخوة : الكامل والمعظم والأشرف .

وركب الأشرف من الجوّسق في وقت السحر ، فسار ونزل ضُمَيْر^(١) . ولم يعلم المعظم برحيله . وسار بَطْوَى البلاد إلى حَرَّان . وكان الأشرف قد استتاب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ، صاحب مِثَافَرِقِينَ ، بِخِلَاطٍ ، لما توجه إلى مصر ، وجعله وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَمَكْنَهُ في جميع بلاده . فسَوَّكَتْ له نفسه العِصْيَان ، وحسَّنه له أخوه الملك المعظم ، وغيره ، ووعدوه المساعدة والإنجَادَ على أخيه الأشرف .

فسار الأشرف من حَرَّان إلى سِنْجَار . وكتب إلى أخيه غازي أن يحضر إليه ، فامتنع . فكُتِبَ إليه ثانياً ، يُحَذِّرُهُ عاقبةَ العِصْيَان ، ويلاطفه ويقول له : أنت وليُّ عهدي ، والبلاد والخزائن بِحُكْمِكَ ، فلا تُخَرِّبْ بيدك وتسمع كلامَ أعدائك . فَأَصْرَّ على العِصْيَان .

(١) ضُمَيْر : موضع قرب دمشق - قبل موقرية وحصن ، في آخر حدود دمشق مما يلي السهارة (أي على حدود البيرة : الصبراء) .

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب ، ونجهز وسار إليه . وجمع غازي جنماً ، وخرج إليه . والتفوا ، واقتلوا ، في سنة إحدى وعشرين وستائة . وقاتل غازي قتالاً شديداً . وكان أهل خلاط يحبون الملك الأشرف . فبينما غازي يقاتل من باب فتح أهل خلاط باباً آخر . وأصعدوا صناديق الأشرف منه ، ونادوا بشعاره . فهرب غازي إلى القلعة ، وتحصن بها يومين . ثم نزل إلى أخيه الملك الأشرف ، واعتذر . فقيل عُذْره ، وأعادته إلى ميافارقين وديار بكر . فوجه إلى ميافارقين ، مريضاً من جراحات أصابته . وأقام الملك الأشرف بخلاط ثلاثة أيام ، وسلمها لمملوكه أيك والحاجب علي ، ورجع إلى رأس عين .

وكان الملك المعظم قد خرج من دمشق ، ونزل بالقنطرة ^(١) ، لإنجاد أخيه غازي على أخيه الأشرف . وبعث إليه عيسى الدباهي سيراً . فوصل ، وقد فات الأمر . ورجع المعظم إلى دمشق ، وذلك في سنة إحدى وعشرين وستائة .

وفيهما كانت وفاة مبارز الدين سنقر الحلبي - الصلاحى - والد الظهير .

وكان قبل ذلك مقيماً بحلب ، ثم انتقل إلى ماردين فخاف الملك الأشرف عاقبة قرّبه ، فبعث إلى أخيه الملك المعظم يقول : ما دام المبارز في الشرق لا آمن على نفسي ! فبعث إليه الملك المعظم ولده الظهير غازي ، يلتمس منه وصوله إليه ، ويعرفه رغبته فيه ، ووعدته أن يقطع له نابلس ، وما اختار من بلاد الشام .

(١) موضع قريب من دمشق .

فوجه إليه ولده الظَّهير ، وأبلغه رسالة الملك المعظم إليه . وعرفه رغبته فيه . فأشار عليه صاحبُ ماردِين أن يقيم ، ولا يتوجه ، وقال : هذه خديعة . ومكَّته من مملكته وخزائنه . فأبى إلا الانحياز إلى الملك المعظم . وتوجه إلى الشام ، في سنة ثمانى عشرة ^(١) وستائة .

فخرج المعظم إليه وتلقاه ، ولم يُتَصِفْهُ . ونزل بدار شبيل الدولة الحُسامى ^(٢) بقاسيون . وأعرض المعظم عنه ، إلى أن تفرق عنه مَنْ كان حوله ، وأنفق ما كان في حاصِله ، واحتاج إلى بيع دوابه وقماشه . ولم يزل كذلك إلى أن مات غَمًّا ، في هذه السنة . وكان قد وصل إلى الشام ، ودائرته بمائة ألف دينار ، فمات وليس له ما يُكفَّن فيه ! فقام بتجهيزه شبيل الدولة كافر الحُسامى ، وابتاع له ثُربةً بألف درهم ، ودفنه بها .

وكانت للمُبَارِزِ المواقِفُ المشهودة ، حتى يقال إنه لم يكن في زمانه أشجع ولا أكرم منه . ويقال إنه كان مملوك شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ^(٣) - رحمها الله تعالى .

واستهلَّت سنة إحدى وعشرين وستائة :

ذكر وصول الملك المسعود من اليمن

وفي هذه السنة ، قدم الملك المسعود أقيس - بن الملك الكامل - من اليمن إلى القاهرة ، من جهة الحجاز . وإنما جاء طَمَعاً في أخذ دمشق والشام .

(١) د (ع) : وفي سنة ثمانية عشر .

(٢) نسبة إلى حسام الدين لاجين ، ابن أخت صلاح الدين .

(٣) أى أعمى صلاح الدين .

وكان معه من الهدايا والتحف أشياء كثيرة : من جملة ذلك ثلاثة أفيلة ، الكبير منها يدعى بالملك ، وعليه مَحْفَة بدرّازين ، يجلس فيها على ظهره عشرة أنفس ، وقِيَالُهُ راكبٌ على رقبته ، ويده كُلابٌ يضربه به ، ويسوقه كيف أراد ! وركب السلطان الملك الكامل للقاءه . فلما دنت الفيئة منه ، وضعت رؤوسها إلى الأرض ، خدعة للسلطان ! وكان في جملة الهدية مائتا ^(١) خادم ، وأحمال من العود والمسك والعنبر ، وتُحَفٍ اليمن .

وقيل إن قَدَمَتَهُ هذه كانت في سنة ثلاث وعشرين . والله أعلم .

وفيا ، أنشأ الملك الكاملُ دارَ الحديثِ الكامِلِيَّةِ ^(٢) التي بالقاهرة المُعَرَّية بين القَصْرَيْنِ وهي تقابل باب القصر ، المعروف بباب البحر .

وفي سنة إحدى وعشرين أيضاً - في سَلْخِ شعبان - توفي الوزير الأعز فخر الدين أبو الفوارس مِقْدَام بن القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شُكْر ومولده في سنة إحدى وستين وخمسمائة .

(١) الموجود في (ج) : « وكان في جملة الهدايا مائتي » - وهذا مثل آخر من الأخطاء النحوية في المتن .

(٢) وهي دار الحديث ، وليس بمصردار حديث غيرها ، وغير دار الحديث بالشيخونية . قال القرطبي : وهي ثاني دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، ثم بنى الكامل هذه الدار . بناها الملك الكامل وكملت عمارتها في سنة إحدى وعشرين وستة . وجعل شيخها أبا الخطاب عمر بن دحية ثم وليها بعده أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية ، ثم وليها الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنفري الخ .

وتوفى صاحب صنى الدين أبو محمد عبد الله ، بن المخلص أبي الحسن على ، بن الحسين بن عبد الخالق ، بن الحسين بن الحسن بن منصور - الشَّيْبِي الْقُرَشِي المَالِكِي ، المعروف بابن شُكْر . ولم يكن من بني شُكْر ، إنما هو ابن عم كمال الدين أحمد بن شكر لأُمِّه ، فعُرِفَ به .

ومولده بالدَّيْمِرَة : بلدة من الأعمال القَرْيَّة بالديار المصرية - في تاسع صفر ، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وقد تقدم ذكر وزارته وعزله وإعادته ، وغير ذلك من أحواله . وكانت وفاته في يوم الجمعة ثامن شعبان ، ودفن ببرباطه الذي أنشأه بالقاهرة ، بالقرب من مدرسته ^(١) .

وكان شديد البَطْش ، عظيم الهبة سريع البادرة ، جَسُوراً مقداماً . وقاسى الناس منه شدائد كبيرة . وانتزع جماعة من الأكابر عن أوطانهم بسببه . وكان كريماً ، إلا أنه لم يُسَمَّعَ بوزير من الْمُتَعَمِّمِينَ ^(٢) كان أظلم منه .

ولما مات ، استوزر السلطان المالك الكامل بعده ولده : صاحب تاج الدين يوسف ، نحو شهرين . ثم قبض عليه واعتقله . وانتصب السلطان الملكُ الكامل للأموار بنفسه ، وقَرَّرَ مصالح دولته ، ونظر في وجوه الأموال ومصارفها ، واستصنى أموال صاحب صنى الدين ، وذخائره وأملاكه .

وفيا ، في سلخ شوال ، توفى القاضي الأسعد : أبو البركات عبد القوى ، بن القاضي الجَلِيس : مَكِين الدولة أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين ، بن عبد الله بن الحَبَّاب - رحمه الله تعالى .

(١) وهي المدرسة الصاحبية . عُرِفَ بهذا الأسم نسبة إليه . أى صاحب بن شكر . وكانت هذه المدرسة لدراسة المذهب المالكى ، وهو مذهب مؤسساها .

(٢) أى من الفقهاء أو العلماء ، مقابل الوزراء من أمراء الجند أو غيرهم .

واستهل سنة ثنتين وعشرين وستائة :

ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس

بالديار المصرية

في هذه السنة في ذى القعدة ، ضربت الفلوس ^(١) بالقاهرة ومصر ، وصارت من جُمْلَةِ النقود . وتقررت القيمة عن كل درهم ورق ^(٢) ، من معاملة الديار المصرية ، ستة عشر فلماً . ثم أُبْطِلَت للمعاملة بها ، في سنة ثلاثين وستائة . ثم عادت .

وفيها ضُرِبَت دراهم مستديرة ، وأمر السلطان أن لا يُتَعامَل بالدرهم المصرية العُتُق ^(٣) ، وحصل للناس ضررٌ عظيم بسبب ذلك ^(٤) ، وصار كل ما يُتَحَصَّل منها يُسَبَّك ويضرب من الجديد ، وبلغ ضرب العتيق ستين درهماً بدينار .

(١) هي أقل وحدات النقود . وهي التي تصنع من نحاس . وصارت قيمة « الفلّس » - كما ذكر في المتن - إذ ذاك ١٦/١ من الدرهم الفضة .

(٢) الدرهم الورق : هو الدرهم الخالص أي من الفضة . إلا بنسبة قليلة مما يخلط به . فهو غير الدرهم الثَقَرَة ، الذي كانت تكثر فيه نسبة النحاس ، من نحو الثلث فأكثر .

(٣) الدراهم العُتُق : أي القديمة المطبوعة من الأزمنة السابقة ، وكانت قد تَلَفَّت وكسرت بمرور الزمن . وحصل للناس ضرر : لأنه أبطل التعامل بها ، وكان الناس يتعاملون بها كأنها دراهم صحيحة .

(راجع القافشندي : صبح الأعشى ج ٣ - ص ٤٤٣ وما بعدها)

(ورسالة المقرئى : إغاثة الأمة ، عن النقود)

وفيها ، في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان ، استخدم السلطانُ الملكُ الكامل القاضي سديد الدين : أبا عبد الله محمد بن سليم ، صاحب ديوان الجيوش . ثم صُرف بعد ذلك بمدة يسيرة . وهو والد صاحب بهاء الدين على ، المعروف بابن حنا : وزير الدولة الظاهرية الركنية^(١) - وسيأتي ذكره - إن شاء الله تعالى .

وفيها صَلَبَ الملكُ المعظم عيسى رجلاً ، يُقال له : ابن الكعكي ، ورفيقاً له .

وكان ابن الكعكي رأسَ حرب^(٢) ، وله جماعةُ أتباع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين ، ويقتلون وينهبون . والمعظم يوم ذاك بالكرك ، وبلغه أن ابن الكعكي قال لأخيه الملك الصالح إسماعيل : أنا آخذ لك دمشق ، وكان إسماعيل يبْصُرَى . فكتب الملك المعظم إلى مُتَوَلَّى دمشق أن يصلب ابن الكعكي ، ورفيقه ، مُنْكَسِينَ . فضلياً ، في العشر الآخر من شهر رمضان . فأقاما أياماً لا يحسر أحد أن يطعمهما ولا يسقيهما ، فأتا . وقدم الملك المعظم دمشق بعد وفاتها ، فرض مرضاً أَشْفَى منه ، ثم أَبْلَى . ولم يزل يَنْقُصُ عليه ، حتى مات . وكان رفيقُ ابن الكعكي خيَّاطاً ، شهد له أهل دمشق بالصلاح ، والبراءة مما رُمِيَ به .

(١) أي دولة الظاهر ركن الدين بيبرس .

(٢) أي رأس عمالة مسلحة .

وفيه كانت وفاة الملك الأفضل ، نور الدين على بن السلطان الملك الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب - فجأة - في صفر ، سنة ثنتين وعشرين وستائة ، بِسْمِيسَاط . ونُقل إلى حَلَب ، فدفن بها بظاهرها بترتبه . وكان مولده بالقاهرة في سنة خمس وستين وخمسمائة ، يوم عيد الفطر . وكان فاضلاً شاعراً حسن الخط قليل الخطأ ، تقلبت به الأحوال . وقد تقدم ذكر ملكه دمشق ومصر ، وغير ذلك . ثم استقر آخرها بِسْمِيسَاط . وما يُعزى إليه من الشعر أنه كتب إلى الخليفة الناصر - لما أُخرج من دمشق^(١) ، وافق عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبوبكر :

مولاي ، إن ابا بكر^(٢) ، وصاحبه
عثمان^(٣) ، قد غضبا بالسيف حقاً على^(٤)
فانظر إلى حظ هذا الاسم ، كيف لقي من الأواخر ، ما لاقى من الأول

فأناه الجواب من الإمام الناصر ، وفي أول الكتاب :

وَأَفَى كِتَابُكَ يَا ابْنَ يَوْسُفَ مُعَلِّناً بِالْوُدِّ ، يُخَبِّرُ أَنْ أَصْلَكَ طَاهِراً
غَضَبُوا عَلَيَّ حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ يَتَرَبَّ نَاصِراً
فَابْتِشِرْ ، فَإِنَّ غَدَا عَلَيْهِ حَسَابُهُمْ وَاصْبِرْ ، فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ

(١) كان ذلك سنة (٥٩٢) ، أي بعد وفاة والده السلطان صلاح الدين بثلاث سنوات .

(٢) و(٣) يقصد بأبي بكر : العادل ، عمه . وبعثان : العزيز ، أخاه . ودعلج : هو نفسه : الأفضل .

وقيل أن الخليفة جرّده لثصرته سبعين ألف فارس ، فبلغه قوّاتُ الأمر
فأعاد العسكر إلى بغداد .

وفيها ، في يوم الخميس سادس عشر ذى الحجة - وقيل سابع عشر
ذى القعدة - توفى الإمام فخر الدين أبو عبد الله : محمد بن إبراهيم بن أحمد
ابن طاهر ، بن أبي الفوارس الخبيري الفارسي الشيرازي الفيروزبادي ،
الشافعي الصوفي ، من أجَلٍ مشايخ الطريقة ، كبير الشأن . وكانت وفاته
بمعبده : معبد ذى الثون بالقرافة الصغرى ، على شفير الخندق من غربيّه .
ودفن بقرنته ، وقبره من المزارات المباركة المشهورة . وكان من علماء مشايخ
وقته ، شديد الهيبة في قلوب الناس . وله تصانيف كثيرة في الطريق ، وشعر .

قدم دمشق في شهر رجب ، سنة ست وستين وخمسمائة ، ودخل مصر
في نصف شعبان من السنة : ورحل إلى الإسكندرية ، وسمع بها من الحفاظ
السلفي^(١) ، وحَدَّثَ بالكثير عنه . وتوفى ، وله من العمر ثلاث وتسعون
سنة . وجاور بمكة ، وحَدَّثَ بها . وقال : نحن من خَيْرِ سرُوشين ، وهو إقليم
من عمل شيراز ، مشربهم من جبل الدينار . ولهم خَيْرٌ آخر يقال له : خَيْرُ
سَمَكَنان ، من عمل شيراز أيضاً . وخَيْرٌ ثالث ، يقال له : خَيْرُ فيروز آباد -
خَيْرُ بإسكان الباء الموحدة .

(١) هو الحفاظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم سيلقه ، الأصبهاني الإسكندري . قدم إلى الإسكندرية
سنة ٥١١ هـ فأقام بها ، وبني له ابن السلار وزير الظاهر مدرسة فوضها إليه ، ويق حقه وقته سنة ٥٧٦ هـ .
قال السيوطي : « كان إماماً حافظاً متقناً ناقلاً وكان أَوْحد زمانه في علم الحديث » .

(وفيات الأعيان : ج ١ - ٨٧)

(وحسن المحاضرة : ج ١ - ١٤٨ - ١٤٩)

وامتلت سنة ثلاث وعشرين وستائة :

ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل ، وطلب الصلح بينهم والاتفاق

في هذه السنة ، قدم الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجوزي^(١) ، رسولاً من الخليفة الظاهر بأمر الله^(٢) - إلى السلطان الملك الكامل وإخوته ، وصحبته الخلع للملك الكامل ، والتقليد بالولاية والخلع لولديه : الملك المسعود ، والملك الصالح . وخلعة لوزيرة صاحب صفى الدين - وكان قد مات - فأمر السلطان الفخر سليمان ، كاتب الإنشاء ، أن يلبس خلعة صاحب ، فلبسها .

ولبس السلطان وولده الخلع ، وعبروا من باب النصر ، وخرجوا من باب زويلة^(٣) بالقاهرة ، وطلعوا إلى القلعة . وكان يوماً مشهوداً .

ووصل أيضاً - صحبته - الخلع للملك المعظم شرف الدين عيسى ، وللملك الأشرف : مظفر الدين موسى .

(١) هو أبو الحسن يوسف ، بن أبي الفرج (ابن الجوزي) البغدادى الحنبلى . ولد سنة ٥٨٠ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ . وُزِّرَ للظاهر ، وصار أستاذ دار المستعصم آخر خلفاء بغداد .

(النجوم الزاهرة : ج ٦ - ٢٦٣ - ٢٦٤)

(٢) هو الخليفة الظاهر بأمر الله ، بن الناصر . تولى الخلافة عقب وفاة والده . (سنة ٦٢٢) . لكن خلافة الظاهر لم تكمل السنة . فقد توفى سنة ٦٢٣ .

(٣) نسبة إلى (زويلة) - بالضم ثم الفتح ثم السكون - : قبيلة من قبائل البربر ، الواصلين مع جوامع (الصقل) من المغرب .

(صبح الأعشى : ج ٣ - ٣٥٢ - ٣٥٣)

وتضمنت رسالته إلى الملك المعظم رجوعه عن السلطان جلال الدين خوارزم شاه^(١) ، والصلح مع إخوته : الملك الكامل والملك الأشرف . وكان الملك المعظم قد راسل السلطان جلال الدين - كما تقدم . ثم بعث إليه مملوكه الركين ، فرحله من نعليس ، وأنزله على خلاط . والأشرف يومئذ بخران .

فقال الملك المعظم للشيخ جمال الدين : الرسول : « إذا رجعتُ عن السلطان جلال الدين ، وقصّدتني ، إخواني ينجدونني ؟ » قال : نعم . فقال : ليس لكم عادة تنجدون أحدا ! هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط ، ونحن نكتب إليه نستصرخ به ، ونقول انجدونا . فيجيبنيء الجواب : إنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ، ولم يفعلوا . ثم ضرب له مثلاً وحكى عليه حكاية . وقال : إن إخواني قد اتفقوا علىّ ، وقد أنزلتُ السلطان جلال الدين خوارزم شاه على خلاط . فإن قصصني الأشرف متّع ، وإن قصصني الكامل قدّرتُ على ملاقاته ودفعه .

وفي هذه السنة ، عاد الملك المسعود إلى اليمن . وكان عودُه في ذي القعدة . وقد تقدم ذكر وصوله إلى خدمة أبيه بالهدايا ، في سنة إحدى وعشرين وستائة . وذكر ابن جلب راغب : أن قدومه وعوده كان في هذه السنة . والله أعلم .

(١) لأنه كان هناك عداء بين الخلفاء العباسيين وشاهات الدولة الخوارزمية .

وفيهما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم بدمشق ، وأعطاه رسالة ، وتضرع إليه واعترف له بسابق فضله وسالف إحسانه ، وسأله أن يرسل إلى السلطان جلال الدين خوارزم شاه يرحله عن خلاط . فبعث إليه فرحله عنها ، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً . وسقط عليه وعلى أصحابه بها تلج عظيم .

وأقام الملك الأشرف عند أخيه الملك المعظم بدمشق . وكان المعظم يلبس خلعة خوارزم شاه ، ويركب فرسه ، وإذا جلسوا على الشراب يحلف برأس خوارزم شاه ، والأشرف يتألم لذلك أشد الألم ، ولا يستطيع أن يتكلم . ثم توجه الملك الأشرف إلى ضيافة أخيه الملك الكامل بالديار المصرية .

وفيهما ، عقد السلطان الملك الكامل نكاح ابنته على ابن صاحب الروم ^(١) .

وفيهما توفي شبل الدولة : كافور بن عبدالله الحكّامى ^(٢) ، خادم ست الشام .

وكان عاقلاً أديباً فاضلاً ، له حرمة وافرة في الدولة ، ومنزلة عالية عند الملوك .

وبنى مدرسة على نهر كورا ^(٣) وثربة ، ووقف عليها الأوقاف ، ونقل إليها الكتب الكثيرة . وبنى الخانقاه للصوفية ، إلى جانب مدرسته . وفتح

(١) أى صاحب دولة الروم السلجوقية ، وكان هو في ذلك الوقت السلطان علاء الدين كيقباد .

(٢) نسبة إلى حسام الدين ، محمد بن عمر بن لاجين بن ست الشام ، أى ابن أخت صلاح الدين .

(٣) من أنهار دمشق ، ويتصل بنهر بردى من الجهة الشمالية .

طريقاً للناس من الجبل إلى دمشق ، قرية عند الففارات ، على طريق عين الكرش . وبنى المصنع الذى على رأس الرقاق ، ومصنعاً آخر عند المدرسة . وكان كثير الإحسان إلى الفقراء ، وصدقائه دارة إلى الآن . وسمع الحديث ورواه . وكانت وفاته فى شهر رجب الفرد ، ودفن بترته إلى جانب مدرسته ^(١) - رحمه الله تعالى .

وفىها فى نصف شهر رجب ، توفى قاضى القضاة جبال الدين : أبو محمد وأبو الفضل وأبو الوليد وأبو الفرج : يونس بن بدران بن فيروز ، بن صاعد بن على بن محمد بن على ، القرشى الشيبى ، الحجازى الأصل ، المليحى المولود ^(٢) الميصرى الدار ، الدمشقى الوفاة ، المعروف بالميصرى . مولده تقريباً سنة خمسين وخمسمائة . وبلده التى ولد بها مليح : من الأعمال المثوية ، بالديار المصرية . تفقه بمصر ، وسمع بالإسكندرية والقاهرة . وترسل لبغداد . وتولى وكالة بيت المال بدمشق ، ثم ولى القضاء بها - كما تقدم - فى سنة ثمان عشرة وستائة . رحمه الله تعالى

وفىها كانت وفاة الشريف حسن بن قتادة ، بن إدريس الحسنى : أمير مكة - شرفها الله تعالى .

وكان قد ولى الإمارة بعد أبيه كما تقدم - معالمة - وكان سبب السيرة ، ظلوماً مقداماً . وقتل أقباش أمير ^(٣) الحاج العراقى ، فى سنة سبع عشرة . وأحدث بمكة أموراً منكراً . ولما وصل الملك المسعود إلى مكة ،

(١) التى عرفت باسم (المدرسة الحسامية)

(٢) هو الحلال المصرى ، الذى تقدم كثير من أخباره .

(٣) هو أقباش ، بن عبد الله الناصرى : مملوك للخليفة الناصر ، اشتراه ورباه وقربه إليه . ورفاه حتى ولاه إمارة الحج . وكان سبب مقتله أنه تدخل فى نزاع بين حسن بن قتادة أمير مكة وأخيه راجع ، فقتله جند حسن . (ابن الأثير : ج ١٢ - ١٦٥)

وأخذها منه ، هَرَب . فتوجه إلى بغداد مريضاً ، فأت بالجناب الغربي على دِكة . فلما عَلِمَ به ، غَسَلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عليه وَحُمِلَ إلى مشهد موسى ، ودُفِنَ هناك .

واستهلت سنة أربع وعشرين وستائة :

في هذه السنة ، عاد الملك الأشرف موسى إلى بلاده .

وفيهما قدم رسول الأتُتُرُور^(١) إلى الملك الكامل ، بطلب الفُتُوح^(٢) . وتوجه إلى الملك المعظم بدمشق ، فأَغْلَظَ له . وقال : قُلْ لصاحبك ما أنا مثلُ القَئِر ، ليس عندي إلا السيف !

وفيهما كان خِتان الملك العادل بن الملك الكامل ، وعُمِلَ سياط^(٣) عظيم بالميدان الأسود ، تحت قلعة الجبل .

ذكر هدم مدينة تُنيس^(٤)

وفي شوال ، سنة أربع وعشرين وستائة ، أمر السلطان الملك الكامل

(١) أى الإمبراطور فردريك الثانى : امبراطور ألمانيا .

(٢) يقصد بها فتوح صلاح الدين : أى البلاد التى فتحها صلاح الدين فى فلسطين .

(٣) المائدة الملكية .

(٤) تُنيس : ضابطها يا قوت (بكسرتين وتشديد النون وسين مهملة) - وقال القلقشندى : والجارى على الأكمة فتح التاء . (ج ٣ - ٣٨٧) - : جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ، ما بين القَرَمَا ودمياط .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٤١٩)

وهى أيضا : -

بلدة تلك الجزيرة ، وكانت ثغراً من الثغور المصرية . وموقع مكانها الآن شمال شرق بحيرة المنزلة قرب بورسعيد .

يهدم مدينة تَنْبُيس . وسير إليها التَّقَابِين والحَجَّارِين ، فهُدِّمَتْ بِكَالِهَا فِي هَذَا الشَّهْرِ ، وَأُخْلِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ بِهَا سَاكِنٌ . وَكَانَتْ مِنَ الْمَدَنِ الْجَلِيلَةِ : كَدِيمِيَاطَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .

ذِكْرُ الْوَحْشَةِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ السُّلْطَانِ

الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْمَعْظَمِ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، تَأَكَّدَتْ الْوَحْشَةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْمَعْظَمِ : صَاحِبِ دِمَشْقَ . فَكَبَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ إِلَى الْأَنْبُرُورِ - مَلِكِ الْأَكْمَانِ - أَنْ يَحْضُرَ إِلَى الشَّامِ وَالسَّاحِلِ ، وَيُعْطِيَهُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ ، وَجَمِيعَ الْفَتْوحَاتِ الصَّلَاحِيَّةِ بِالسَّاحِلِ .

وَكَتَبَ الْمَلِكُ الْمَعْظَمُ إِلَى السُّلْطَانِ : جَلَالُ الدِّينِ خُورَازْمِ شَاهُ ، يَسْأَلُهُ أَنْ يُنَجِّدَهُ وَيُعِينَهُ عَلَى أَخِيهِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ . وَيَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَمِّينِ إِلَيْهِ ، وَيَخْطُبُ لَهُ عَلَى مَنَابِرِ بِلَادِهِ ، وَيَضْرِبُ بِاسْمِهِ الدِّينَارَ وَالدَّرْهَمَ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ . وَسَيَّرَ إِلَيْهِ خِلْعَةً فَلَبِسَهَا ، وَشَقَّ بِهَا مَدِينَةَ دِمَشْقَ . وَغَرِمَ عَلَى رُسُلِ السُّلْطَانِ جَلَالِ الدِّينِ ، فِي مَدَّةِ تِسْعَةِ أَشْهُرَ ، تِسْعِمِائَةَ أَلْفِ دَرْهَمٍ . وَقَطَعَ خُطْبَةَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ .

فتجهز الملك الكامل وخرج لقصد دمشق . فكتب إليه الملك المعظم يقول : إني قد نذرتُ لله تعالى أن كل مَرَحَلَةٍ رَحَلْتُ منها لقصدى أتصدق بألف دينار ، فإن جميع عسكرى معى وكتبهم عندى ، وأنا آخذك بعسكرى . هذا ما كتب له فى الباطن . وكتب إليه فى الظاهر يقول : أنا مملوكك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وأنا أول من حضر لخدمتك قبل ملوك جميع الشام والشرق . فأظهر السلطان هذا الكتاب للأمرء ، وعاد إلى القاهرة ، وقبض على جماعة من الأمرء الذين تَوَهَّمَ فيهم أنهم كاتبوا الملك المعظم : من جملتهم الأمير فخر الدين الطُّنْبَا الحَيْشَى^(١) ، وفخر الدين الطُّنْبَا الفيومى أمير جَاندَر ، وعشرة من الأمرء البحرية العادلية ، وأخذ جميع أموالهم .

وفىها ، فى يوم الأربعاء ، سابع عشر شهر ربيع الأول ، توفى القاضى ناصر الدولة أبو الحجاج يوسف ، بن الأمير فخر الدين شاهان شاه ، بن الأمير عز الدين أبى الفضل غَسَّان ، بن الأمير العظم جلال الدين أبى عبدالله : محمد بن جَلَب رَاغِب الأَمِيرى^(٢) ، وقد تجاوز سبعين سنة .

وهو من أولاد الأمرء المصريين ، لم يزلوا أمرء من الدولة الأَمِيرِيَّة إلى أيام شاور الوزير ، فأبادهم وقتل بعضهم . ولما جاء أسدُ الدين شيركوه إلى الديار المصرية تَرَبَّيًّا القاضى ناصر الدولة بَزَى القضاة ، وخدم فى الخِدم الديوانية ، وعند الأمرء . وناصرُ الدولة هذا هو جد تاج الدين محمد بن

(١) كذا رسمها فى (ج) وأثبتنا حق السلوك كذلك أما فى (ك) فرسخت : الحيشى .

(٢) نسبة إلى الخليفة الفاطمى « الأمرء » : (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) .

على ، المعروف بابن مُيسر^(١) ، صاحب التاريخ - رحمه الله تعالى .

وفى في يوم الأحد تاسع عشر شوال ، كانت وفاة قاضي القضاة :
 عماد الدين عبد الرحمن ، بن عفيف الدين أبي محمد عبد العلي بن علي ،
 السُّكْرِي . تَفَقَّه على الفقيه شهاب الدين الطُّوسِي^(٢) ، وعلى الفقيه
 أبو المنصور ظافر بن الحسين^(٣) . وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَحَدَّثَ بِهِ . وَوَلَّى الْقِضَاءَ -
 كما تقدم . وولى الخطابة بالجامع الحاكمي بالقاهرة ، والتدريس بمدرسة
 منازل العزِّ بمصر^(٤) . ثم صُرف عن القضاة والخطابة كما تقدم . وكان هَيَّوْباً .
 وَصَحِبَ جَمَاعَةً مِنَ الْمَشَائِخِ ، وله معهم أحوال ومكاشفات . ومولده بمصر في
 سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . رحمه الله تعالى .

(١) هو الذي أشار إليه المؤلف (النوري) كثيراً بقوله : ابن جب راغب ، وكتب من غير مرة .

(٢) الشهاب الطوسي : أبو الفتح محمد . قال النوري في طبقاته : كان صدر العلماء في عصره . وعليه مدار
 الفتوى في المذهب الشافعي . ولد سنة ٥٢٢ . وتوفي بمصر سنة ٥٩٦ هـ .

(حسن المحاضرة : ج ١ - ١٧٠ - ١٧١)

(٣) ذكره السيوطي بين الفقهاء المالكية ، وقال عنه أنه « ظافر بن الحسين ، أبو منصور الأزدى المصري ، شيخ
 المالكية . انتفع به بشر كثير . مات بمصر سنة ٥٩٧ هـ .

(المصدر السابق : ج ١ - ص ١٩٣)

(٤) بنتها السيدة «تغريد» أم العزيز بالله الخليفة الفاطمي ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وما زال الخلفاء
 يتداولونها ، حتى كانت سنة ٥٦٦ فاشتراها الملك للظفر تقى الدين عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخي
 صلاح الدين) وجعلها مدرسة للشافعية ووقف عليها وقفاً جليلاً .

(المقريزي : الخطط : ج ٤ - ١٩٤)

(واين واصل : مفرج الكروب ج ١ - ١٩٩)

ذكر وفاة الملك المعظم عيسى

وشىء من أخباره وسيرته ، وقيام ولده الملك الناصر داود

وفى هذه السنة ، فى يوم الجمعة مستهلّ ذى الحجة ، كانت وفاة الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن السلطان الملك العادل : سيف الدين أبى بكر محمد ، بن أبوب بن شادى - صاحب دمشق ، وكانت مدة ملكه ، بعد وفاة والده الملك العادل ، تسع سنين وستة أشهر ، إلا ثمانية أيام . ومولده بالقاهرة فى سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان - رحمه الله - قد جَهَّزَ العساكر إلى نابلس ، خوفاً من اتفاق أخيه الملك الكامل مع الأتُتُرُور ، فرض فى منتصف شوال واشتد به مرضه ، وأصابه ذَرَبٌ مُفْرِطٌ حتى رَمَى قطعةً من كبده . وقيل أنه سُمِّ ، ومات وغسَّله كرم الدين الخِلاطى ، والتَّجْمُ يَصَبُ عليه الماء . وكان قد أوصى أن لا يُدفن بقلعة دمشق ، وأن يُخرَجَ إلى الميدان فيُصَلَّى عليه ويحمل إلى قاسيون ، فيدفن على تربة والدته تحت الشجرة . فلم تُنفَّذْ وصيته ، ودفن بالقلعة . ثم أخرج منها بعد مدة . لما ملك الملك الأشرف ، على حالةٍ غير مناسبة لمثله ، وبين يديه نصفُ شَمْعَةٍ ومعه العزيز خليل ، ودُفِنَ مع والدته فى القُبَّة - وفيها أخوه الملك المغيب .

وكان الملك المعظم - رحمه الله تعالى - قهياً قاضياً ، نَحْوِيّاً ، قرأ القرآن وتفقه على مذهب أبي حنيفة على الشيخ فخر الدين الرَّازِي ، وحَفِظَ المَسْعُودِي ، واعتنى بالجامع الكبير . واشتغل بالأدب على تاج الدين الكِنْدِي^(١) ، فأخذ عنه كتابَ مِيتُوبِهِ ، وشرحَه للسَّيرافي ، والحُجَّة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والحماسة . وقرأ الإيضاح لأبي علي ، حِفْظاً . وَسَمِعَ مُسْتَدَ أحمد بن حنبل بدمشق على ابن طَبْرَزْد^(٢) ، وأشياء من مسموعاته . وسمع السَّيْرَةَ لابن هشام ، وغير ذلك . وله ديوان شعر . وصُفِّ في العروض ، وكان مع ذلك لا يقيم وزنَ الشعر في بعض الأوقات .

وكان شجاعاً مقداماً كبير الحياء متواضعاً ، حَسَنَ الصُّلُوحِ ضَحُوكاً غَيُوراً ، جواداً حسن المِشْرَةِ ، محافظاً على الصُّحْبَةِ والمودة وكان إذا خرج إلى القَرَّة لا ينام إلا على جبل طريح ، وَزَرْدِيَّتِهِ مَحْدَثِهِ . ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير ومِيتُوبِهِ . وكان يركب في كل يوم غالباً ، فإذا نزل مَدَّ السَّطَّاط ، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر .

(١) هو زيد بن الحسن .. الكِنْدِي ، الملقب تاج الدين . البغدادى المولد والنشأ ، الدمشقى الدار والوفاء . المرقى النحوى الأديب . كان أواحد عصره في فنون الآداب ، وعلو السماع (في الحديث والقراءات) . رحل عن بغداد إلى حلب ، ثم انتقل إلى دمشق ، وسافر إلى مصر واقضى من كتب خزائنها كل نفيس ، وعاد إلى دمشق واستوطنها ، وقصدته الناس وأعطفوا عنه . كان مولده سنة ٥٢٠ هـ ، وتوفى سنة ٦١٣ هـ بدمشق . (وفيات الأعيان : ج ٢ - ٨٧)

(٢) هو أبو حفص ، عمر بن أبي بكر - المعروف بابن طبرزد - : المحدث المشهور . البغدادى الملقب : مرقى الدين . كان عالماً بالإسناد في سماع الحديث ، طاف البلاد ، وأفاد أهلها . وكان فيه صلاح وخير . ولد سنة ٥١٦ هـ . وتوفى سنة ٦٠٧ هـ ببغداد . وطبرزد : اسم لنوع من السكر .

(وفيات الأعيان : ج ٣ - ١٢٤)

وكان في أيام الفتح مع الفرنج يرتب النيران على الجبال ، من باب نابلس إلى عكا . وله جماعة على جبل الكرمل - المقابل لمكا - عليه المتورون ، وبينهم وبين الجواسيس علامات . وله في عكا أصحاب أخبار - وأكثرهم نساء الحثالة - وكانت طاقات بيوتهم مقابلة الكرمل - فإذا عزم الفرنج على الإغارة فتحت المرأة طاقها . فإن كان يخرج مائة فارس ، أوقدت

شمعة واحدة . وإن كانوا مائتين ، أوقدت شمعتين . وتشير بالنار إلى الجهة التي يقصد الفرنج الإغارة عليها . وكان الفرنج لا يقصدون جهة ، إلا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم إليها . وكان يُعطى النساء الجواسيس في كل فتح جملة كثيرة .

قال الشيخ أبو المظفر ، يوسف سبط ابن الجوزي : قلت للملك المعظم في بعض الأيام : هذا إسراف في بيوت الأموال . فقال : أنا أمتنبتك :

لما أن عزم الأتبرور على الخروج إلى الشام ، أراد أن يخرج من عكا بعتة ، ويسير إلى باب دمشق ، فبعث فارساً عظيماً ، وقال له : أخفأ أمرنا وجميعنا إلى البلاد لتغير بعتة . وكان بعكا امرأة مستحسنة ، فكتبت إلى تخبرني الخبر . فبعثت إليها ثياباً مملوئة ، ومقاييع وعنبراً ، فلبست ذلك ، واجتمعت بذلك الفارس . فدُهِش ، وقال : من أين لك هذا ؟ قالت : من عند

(١) (ج) مَفْعٌ لَوْ مَفْعَةٌ : قال في القاموس : واليَفْعُ واليَفْعَةُ : ما تَفَعَّ به المرأة رأسها .

صديق لي من المسلمين . فقال : من هو ؟ قالت : الكريدي . فَصَلَّبَ^(١) على وجهه ، وقام فخرج من عندها . فمازالت تلك المرأة تتلطف به ، حتى تَسَحَّبَ المودة بيني وبينه . فصِرْتُ أهاديه ، حتى كان يبعث إليَّ كُتُبَ الأبرور التي يبعثها إليه ، مَحْثُومَةً . وأُرْسِلُ إليه ، فيكتب ما أقول . فأنا أَدَارِي عن المسلمين بهذا القَدْرِ اليسير ، وأفدِي به الحَظِيرَ ، فإن الأبرور لو جاء بَعَثَةً ، أَسَرَ من أهل الشام ، وساق من مواشيهم وأموالهم ما لا يحصى قيمته .

وكان الملك المعظم - رحمه الله - قد أمر الفقهاء أن يُجَرِّدُوا له مَذْهَبَ^(٢) أبي حنيفة ، دون صاحبيته . فَجَرَّدُوا له المذهب في عشر مُجَلَّدَات ، وسماه التَّذَكِيرَةَ . فكان لا يفارقه سَقَرًا ولا حَضَرًا ، ويُدِيمُ مطالعته . ويكتب على كل مُجَلَّد : أَنْتَاهُ - حِفْظًا - عيسى بن أبي بكر بن أيوب . قال أبو المظفر : فقلت له : ربما تَوَخَّذَ عليك ، لأن أكبرَ مدرس في الشام يَحْفَظُ القُدُورِي^(٣) مع تَفَرُّغِهِ ، وأنت مشغول بتدبير المُلْك . فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ ، وإنما الاعتبار بالمعاني . باسم الله ، سَلُونِي عن جميع مسائلها .

(١) أي رسم على وجهه إشارة الصليب .

(٢) أي يجردوا آراء أبي حنيفة وحده . دون آراء صاحبيه : محمد وأبي يوسف ، وغيرها . أي يجمعوها وحدها في مؤلف .

(٣) اسم كتاب مشهور من موجزات الفقه . على المذهب الحنفي .

وكان رحمه الله تعالى - حسن التدبير للملك . وكان وزيره شرف الدين بن عتّين ، الشاعر الهجاء المشهور . واستغفَى من الوزارة ، وكتب إلى الملك المعظم :

أَقْلَبِي عِثَارِي ، وَأَتَّخِذْهَا وَسِيلَةً تَكُونُ بُرْخَانًا إِلَى اللَّهِ رَاقِيَا
كَفَى حَزَنِي أَنْ لَسْتُ نَرْضَى ، وَلَا أَرَى فَتَى رَاضِيًا عَنِّي ، وَلَا اللَّهُ رَاضِيَا
أُخَوِّضُ الْأَفَاعِي طَوْلَ دَهْرِي دَائِبًا وَكَمْ يَتَوَفَّى مِنْ يَخْوَضُ الْأَفَاعِيَا

فأعفاه . ولابن عتّين أخبار نذكرها ، إن شاء الله تعالى - عند وفاته .

ولما مات الملك المعظم ، ملك بعده دمشق ولده : الملك الناصر صلاح الدين داود . فأساء السيرة ، واشتغل عن مصالح دولته بالشرب واللهو والطرب . فافتضى ذلك ما نذكره ، من إخراجِه من دمشق .

واستهلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

في هذه السنة ، وصل إلى دمشق الأمير عماد الدين بن الشيخ ^(١) ، من جهة السلطان الملك الكامل ، إلى ابن أخيه الملك الناصر ، ومعه جَلْدُكَ بالخَلْع والتغيير للملك الناصر . وأقام عماد الدين بدمشق .

(١) هو أحد أبناء صدر الدين شيخ الشيوخ ، الذي تقدمت ترجمته وأخباره ، فكل من أبنائه صار يدعى : ابن الشيخ . وكانوا إخوة الملك الكامل من الرضاع ، لأن أمهم - وهي بنت الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الفقيه الكبير - أرضعته .

وفيهما عزم الملك الكامل على المسير إلى الشام ، وَبَرَزَ بجيأه ظاهر القاهرة . ولما عزم على ذلك سَلَطَنَ ^(١) ولده نجم الدين أيوب ، وَنَعَتَهُ بالملك الصالح ، وركب بشعار السُلْطَنَةِ ^(٢) في سَلَخَ شعبان ، ووالده الملك الكامل مُبَرِّزٌ بظاهر القاهرة .

ورعَّب السلطانُ مع الملك الصالح - في النيابة - الأميرَ فخر الدين : يوسف بن الشيخ ^(٣) . فأساء الملك الصالح السيرة بعد توجه والده ، واشترى بُسْتَانَ الحَشَّابِ ^(٤) ، وَعَمَّرَ فيه مناظر . فقارقه الأمير فخر الدين بن الشيخ ، في العشرين من شوال ، ولحق بالسلطان الملك الكامل .

وفيهما في سادس عشر شعبان ، أفرج السلطان الملك الكامل عن تاج الدين : يوسف ، بن الصاحب صَفِيِّ الدين بن سُكْرٍ - وكان قد استَوَزَرَهُ بعد وفاة والده ، ثم اعتقله بعد شهرين - كما تقدم . فأفرج عنه الآن ، وأنعم عليه بمائة وخمسين ديناراً ، واستخدمه مَوْقِعاً ^(٥) .

(١) أى لَقَبَهُ وأُعلِنه : سلطاناً .

(٢) هو كل رسوم الملك وأدواته ومظاهره ، التى كان يسير بها السلطان في الموكب في مناسبة توليه وغيرها . انظر : (صحيح الأعشى : ج ٤ - ص ٦ وما بعدها)

(٣) هو أخو عماد الدين بن الشيخ الذى تقدم ذكره ، وابن آخر لصدر الدين شيخ الشيخ . وسيكون لصدر الدين هذا شأن في عهد الملك الصالح وموقعة المنصورة .

(٤) كان موقع هذا البستان في المنطقة التى يحددها - اليوم - شارع اللبديان من الشمال ، وقصر العيني في الجنوب ، ونهر النيل في الغرب ، والخليج المصري من الشرق .

(ملحق النجوم الزاهرة : ج ٧ - ص ٣٨٨)

(٥) يطلق لفظ التَّوَقُّين على كتاب الدُّسْتُ : أى الذين يكونون عن السلطان أو نائبه ، مباشرة .

(انظر القلقشندي : ج ١ - ص ١٣٧)

وفيها كانت الوقعة على صور^(١) . وذلك أن الملك العزيز عثمان ، وصارم الدين الثميني ، كمنّا للفرنج قريباً من صور . فلما تَعَالَى التَّهَار . خرج أهل صور^(٢) : فارسهم وراجلهم بمواشيهم ، فحَرَجَا عليهم فيمن معها من الكمين ، قتلوا وأسروا سبعين فارساً ، واستأقوا الأغنام والجواميس . ولم يسلم ممن خرج من الفرنج ، غير ثلاثة .

وفيها توفي شرف الدين أبو المعالي : شُكْر بن القاضي كمال الدين أبي السعادات ، أحمد بن شكر . وهو أخو الوزير الأعز فخر الدين مقدم . وكان قد ولي نظر ثغر الإسكندرية وغيرها - رحمه الله تعالى .

وفيها توفي أبو الفتح : نَصْر بن صَغِير بن دَاغِر ، أبو خالد القيسراني الحلبي كان شيخاً أديباً ، له نظم حسن . رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة ست وعشرين وصفاة :

ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج

كان تسليمُ البيت المُقدَّس وما جاوره للفرنج في العشر الآخر ، من شهر ربيع الأول ، من هذه السنة .

(١) مدينة كبيرة معروفة على ساحل الشام . احتلها الفرنج مدة طويلة أيام الحروب الصليبية .

(٢) المفرد بهم الفرنج ، فقد كانوا محتلياً في ذلك الوقت .

وسبب ذلك أن السلطان الملك الكامل ، لما اتصلت به أفعال ابن أخيه الملك الناصر داود ، خرج من القاهرة في الثالث والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين ، واستتاب ولده الملك الصالح كما تقدم ، وبقى إلى العشر الأوسط من شهر رمضان ، وسار إلى البيت المقدس . ثم عاد ونزل بِتَلَّ الْعُجُول^(١) . فأرسل الملك الناصر داود الفخر بن بُصَاقَةَ^(٢) إلى عمه الملك الأشرف ليستنجدّه ، ويعرفه قصد الملك الكامل بلاده . فجاء الأشرف إلى دمشق ، ونزل بيستانه بالثَّيْرَب^(٣) . ولما شاهد حركات ابن أخيه المذمومة ، أطمعته نفسه في أخذ دمشق لنفسه .

ووصل الملك الكامل إلى نابلس ، ورَبَّبَ الْوَلَاةَ وَالنُّوَابَ في البلاد الساحلية . فبلغه أن الْأَنْبُرُورَ فَرَدِيكَ^(٤) قد وصل إلى يافا في ميّعاده . فعاد إلى تل العجول ، وتردّدت الرسائل بينه وبين الْأَنْبُرُورَ . وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ ، وَالصَّلَاحَ الْإِزْبِيلِيَّ . فتقرر الصلح على : أن السلطان يعطى الْأَنْبُرُورَ البيت المقدس ، وَالْقَرَائِيَا التي على طريقه من يافا إلى

(١) موضع بالقرب من غزة .

(مفرج الكروب : ج ٣ - ٧٤)

(٢) هو كاتب الإنشاء لفر القضاة ، نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الْيَفَّارِي . كان أكب أهل زمانه بلا مدافعة ، وأطولهم باعاً في الأدب . وله ديوان شعر . ولد بقوص سنة ٥٧٧ . ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(حسن المحاضرة : ج ١ - ٢٤٣)

(٣) قرية مشهورة بدمشق ، على نصف فرسخ منها . في وسط البساتين . قال عنها ياقوت : أنزه موقع رأيته . (معجم البلدان : ج ٨ - ٣٥٥)

(٤) أي الأميرطور فَرْدِيكَ .

القدس . ومدينة لُد^(١) وتينين^(٢) وأعماها . ووُقِّعت الهدنة مدةً عشر سنين . وتسلم الأنبرور البيت المقدس . وهذه الأماكن . فحضر الأئمة والمؤذنون . الذين كانوا بالصخرة والمسجد الأقصى . إلى باب الدَّهْلِيزِ الكاملِ . وأذَّنوا في غير وقت الأذان . فأمر الملك الكامل أن يُؤخَذَ منهم ما معهم من السُّتُور والقناديل والآلات ، وأن يتوجهوا إلى حال سبيلهم .

قال : ولما وصلت الأخبارُ بتسليم بيت المقدس للفرننج ، عُمِلَت الأَعْرِيَّةُ في جميع بلاد الإسلام ، بسبب ذلك . وأشار الملك الناصر داود - صاحب دمشق - إلى الشيخ شمس الدين أبي المُظَفَّر : يوسف سِنِيط ابن الجُوزَى . أن يذكُرَ ما جرى على القُدُس في مجلس وعظه بجامع دمشق ، ليكون ذلك زيادةً في الشناعة على عمه الملك الكامل .

فجلس ووعظ . وقال : انقَطَعَتْ عن بيت المقدس وفودُ الزائرين ! يا وحشة للمجاورين ! كم كانت لهم في تلك الأماكن رَكْعَةٌ ! كم جرت لهم في تلك المساكن من دَمْعَةٍ . بالله لو صارت عيونهم عُيُونًا لما وَقَفَتْ . ولو انقطعت قلوبهم أَمَقًا لما اشْتَقَّتْ . أَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَ المسلمين . يا مَحِلَّةَ مُلُوكِ المسلمين . لهذه الحادثة تُسَكَّبُ العِبرات : ولئليها تَنْقَطِعُ القلوبُ من الزفريات ، لئليها تعظم الحسرات .

(١) قرية صغيرة معروفة قرب بيت المقدس .

(٢) هذه الكلمة غير ظاهرة في (ع) ، وبغير نقط . ولكنها تبدو في صورة (تينين) . وتينين الشهيرة ، التي مر ذكرها ، هي بالقرب من بانياس ودمشق . ويظهر أن هناك تينين أخرى صغيرة في هذا الموضع . فقد ورد ذكرها في (ابن الأثير : ج ١١ - ص ٢٢٢) قرية من بيت لحم والخليل .

ثم أنشد قوله :

أَعْيَنِي لَا تُرَقِّي^(١) مِنْ الْعَبْرَاتِ صِلِي بِالْبُكَاءِ الْآصَالَ بِالْبُكْرَاتِ

وهي أبيات ذكر فيها البيت المقدس وفضله ، وزواره ، وما حل به من هذه الحادثة - تركنا ذكرها اختصاراً .

وكان الملك الأشرف قد قال للملك الناصر داود : أَنَا أَتَوَجَّهُ إِلَى عَمِكَ الملك الكامل ، وَأُصْلِحُ حَالَكَ مَعَهُ . وتوجه إلى السلطان فوجده قد سَلَّمَ البيت المقدس للفرنج ، فشق ذلك عليه ولأَمَهُ . فقال الملك الكامل : مَا أَحْوَجَنِي إِلَى هَذَا إِلَّا الْمُعْظَمُ - يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْظَمَ أَعْطَى الْأَبْرُورَ مِنَ الْأَرْدُنِّ إِلَى الْبَحْرِ ، وَأَعْطَاهُ الضِّيَاعَ الَّتِي مِنْ بَابِ الْقُدْسِ إِلَى يَافَا ، وَغَيْرَهَا .

ولما اجتمع الملك الأشرف بالملك الكامل اتفقا على حصار دمشق . وقَبَضَ الملك الناصر على فخر الدين بن بُصَاقَة^(٢) ، وابن عمه المُكْرَمِ . واعتقلهما فِي الْجُبِّ^(٣) ، واستأصل أموالهما . وكان قد اتهم الفخر أنه حَسَنَ لِلْأَشْرَفِ الْإِسْتِيلَاءَ عَلَى دِمَشْقَ .

(١) رَقَّى الدمع ، كَجَبَل : جَفَّ . (القاموس) .

فَعْنَى (لَا تُرَقِّي) فِي الْبَيْتِ : لَا تَجْعَلِي مِنَ الْعَبْرَاتِ : الدَّمْعِ .

(٢) سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ .

(٣) أَيْ فِي الْجُبِّ بِالْقَلْعَةِ .

وفي هذه السنة في آخر صفر ، فُوض الملكُ الناصر داود القضاء بدمشق للقاضي : يحيى الدين أبي الفضائل ، يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى ، القرشي : المعروف بابن الزكي - شريكاً لقاضي القضاة : شمس الدين أحمد الخوئي^(١) . وعزل القاضي نجم الدين : أحمد بن محمد بن خلف المقدسي - وكان ينوب عن القاضي شمس الدين الخوئي في القضاء . وصار الخوئي وابن الزكي في القضاء جميعاً .

ذكر توجه السلطان إلى دمشق

وحصارها ، وأخذها من ابن أخيه : الملك الناصر داود ، واستقرار الملك الناصر بالكرك وما معها

قال : لما سلم السلطان الملك الكامل البيت المقدس وما جاوره إلى الأتبرور ، سار إلى دمشق ، وصحبه الملك الأشرف . ووصل إليه الملك العزيز عثمان ، صاحب بانياس ، ومعه ولده الملك الظاهر ، فأعطاه خمسين ألف دينار ، وأعطى ولده عشرة آلاف ، وأنعم عليهما بقماش وخلع ، وذلك بمنزلة سكاك^(٢) .

(١) هذا ضبطها . فهي نسبة إلى (خوي) - بضم الحاء وفتح الواو ثم الياء المشددة . وهي : بلد مشهور من أعمال أذربيجان ، كثير الخير والفواكه .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٤٩٤)

(٢) كانت مكتوبة في الأصل ، في النسخين : منزلة سكرير (هكذا) ولم نجد في المعاجم هذا الاسم . وإنما وجدنا «سكاك» - بفتح أوله وتشديد ثانيه ولده - : اسم قرية بينها وبين دمشق أربعة أيام ، في القوطة . (معجم البلدان : ج ٥ - ٩٦)

ثم قَدِمَ عليه الأمير عز الدين أَيْدُمَرُ الْمُعْظَمِيُّ - وكان الملك الناصر بن سيده قد أساء إليه - فأنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار من الخزانة ، وكتب له توقيعاً بعشرين أردب غلة ، على الأعمال القُوصِيَّةِ ، وأعطاه أملاك صاحب صنى الدين بن شُكْر . وكان قد عزم على العود إلى الديار المصرية ، فلما جاءه الأمير عز الدين قال : قد جاءني مِفْتَاحُ الشام ، وسار إلى أن وصل إلى دمشق وحاصرها . وكان نزوله عليها في شهر ربيع الآخر .

وشدد الحصار ، وَضَبَّقَ على مَنْ بِالْبَلَدِ . فخرج إليه الملك الناصر داود سيراً ، ووقف على باب الدَّهْلِيزِ^(١) وأرسل مملوكه خلف أحد الحُجَّابِ ، فلما جاء إليه الحاجب ، قال له : قُلْ لمولانا السلطان : مملوكك داود ابن أخيك بالباب ، فأعلم الحاجبُ السلطانَ فخرج إليه وتلقاه واعتنقه ، فَقَبَّلَ الناصرُ رِجْلَهُ وقال : يا عم قد جَشْتُكَ بِذُنُوبٍ وهؤلاء حَرَمُ أَخِيكَ . فبكى الملكُ الكامل ، وقال : والله يا وَلَدِي ، لو كان وصولك إليّ قبل إستنجادك بعمك الأشرف ، وحضوره من بلاده - أبقيت دمشق عليك . ولكن إذ جاء الملك الأشرف إلى عندي ، أنا أعطيتك الكَرَكَ^(٢) والشَّوْبَكَ^(٣) والسَّاحِلَ^(٤) والعُورَ^(٥) . وإذا سَيرْتُ إليك فلا توافق حتى يكمل لك ألف وخمسمائة فارس . عُدْ إلى مكانك . فعاد الناصر ، وهو طيب النفس .

(١) خيمة الملك أو السلطان . أو الخيمة الكبيرة .

(٢) سيق التعريف بهذه المواضع . فالعُور : وادي بالأردن ، والساحل ساحل فلسطين . والكرك والشوبك قلعتان شهيرتان . في جنوب البحر الميت ، بين الجبال .

وبلغ الملك الأشرف خروج الملك الناصر إلى السلطان ، فركب وأسرع ليدركه ويقبض عليه ، فلم يدركه . فوبخ الأشرف الكامل على إطلاعه وتمكينه من دمشق . فقال له الملك الكامل : إنه جاءني وبكى ، وقال هؤلاء حرّم أخيك . ثم قال الملك الكامل : هؤلاء أولادنا ، لا بد لهم من مكان يأوون إليه . فقال الأشرف : يكون لهم الشؤبك . فقال الكامل : ما يفهم إلا أن تكون الكرك معها . فسير إلى الناصر في إعطائه الكرك والشؤبك ، فلم يرض بذلك . ولم يزل إلى أن يقرر له الكرك والشؤبك والعورين والبلقاء ، فأجاب إلى ذلك .

وخرج الناصر عن دمشق ، وتسلمها الملك الكامل في غرة شعبان . فكان مدة المقام عليها أربعة أشهر . ومضى إلى الكرك ، وتسلم ما أقطع باسمه . وقيل إن السلطان لم يعطه الشؤبك ، وسأله إياها ، فقال له : يا ابن أخي أنا ليس لي حصنٌ يحمي رأسي ، وافرض أن هذا الحصن لك وقد وهبني إياه . وإنه أعطاه الكرك وعجلون ونابلس وبلاد القدس . والله أعلم .

ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف

قال : لما تسلم الملك الكامل دمشق ، سأله أخوه : الملك الأشرف موسى ، أن يهبه دمشق ، ويؤوضه عنها حران وأعمالها ، والرّها وسروج ، ورأس عين والرقة ، وجملين . فرضى كل منها بذلك . وتسلم الملك الأشرف دمشق . ووجه الملك الكامل الأمير فخر الدين بن الشيخ ، فتسلم ذلك . وتسلم الملك الأشرف دمشق . وتوجه الملك الكامل إلى هذه الجهات ، فرتب أخوالها .

قال : ولما أقام الملك الأشرف بدمشق ، دخل عليه شرف الدين بن عتّين الشاعر ، فلم ير منه ما كان يَعهده من الملك المعظم ، من الإنبساط ، وما كان يقع في مجلسه من سماع أهاجي ابن عتّين ، فيما كان يفعله . فنهاه الملك الأشرف ، وقال : ليس مجلسي كما عهدت . يكفيني ما أنا فيه ، حتى أضيف إليه ثَلَبَ المسلمين . فخرج من عنده ، وقال :

وَكُنَّا نَرْجَى بَعْدَ عَيْسَى ^(١) مُحَمَّدًا ^(٢) لِنُثَقِّدَنَا مِنْ شِدَّةِ الضَّرِّ وَالْبَلْوَى
فَأَوْقَعَنَا فِي تَيْبِ مُوسَى ^(٣) كَمَا تَرَى حَيَارَى ، بَلَا مَنْ لَدَيْهِ وَلَا سَلْوَى !

فبلغ الأشرف ذلك ، فأمر بقطع لسانه . فدخل عل جماعة من الأكابر ، وحلف أن الشعر ليس له . ثم هرب إلى بلاده بزرع ^(٤) وحوّران . فكف الملك الأشرف عن طلبه .

ذكر أخذ مدنية حماه

وتسليمها للملك المظفر

قال : لما توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق ، اجتاز بمدينة حماه ، فأخذها من صاحبها : قُليج أرسلان بن الملك المنصور ^(٥) . وكان قد

(١) يقصد بعيسى : الملك المعظم الذي كان صاحب دمشق .

(٢) محمدا : يقصد به الملك الكامل .

(٣) يقصد به الملك موسى الأشرف .

(٤) هي بلدة من بلاد حوران . وضبطها صاحب الأغنى بضم الزاي وفتح الراء المهملة وعين مهملة . (صحيح الأغنى : ج ٤ - ١٠٨)

(٥) أي الملك المنصور محمد ، بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . والمظفر هذا هو ابن أخي صلاح الدين .

استولى عليها لما قدم الملك المظفر^(١) إلى الملك الكامل بالمنصورة . فلما استقر الملك الكامل بمصر ، أرسل إلى قليج أرسلان يُفَبِّحُ عليه فعله ، ويلتمس منه الخروج عن حِمَاهُ ، وإعادتها إلى أخيه . فلم يُجِبْ إلى ذلك . فأقطع الملك الكامل المظفر إقطاعاً بمصر .

فلما اجتاز الملك الكامل الآن بحِمَاهُ ، خرج إليه قليج أرسلان فقبضَ عليه ، وسلَّم حِمَاهُ للملك المظفر ، وهو أخو قليج أرسلان ، فتسلمها . وفي هذه السنة في شهر رجب ، وصل القاضي بهاء الدين بن شدَّاد ، قاضي حلب ، في خطبة ابنة السلطان الملك الكامل للملك العزيز بن الملك الظاهر ، صاحب حلب . فزوجه السلطان بابنته .

وفيها قبض السلطان الملك الكامل على ورثة ولد القاضي الفاضل ، وسائر أملاكه . وأخذت الكتب من داره وحُمِلَت إلى القلعة ، فكانت عِدَّتُهَا أحد عشر ألف مُجَلَّدًا .

ذكر وفاة الملك المسعود ، صاحب اليمن

كانت وفاة الملك المسعود صلاح الدين أقيس بن السلطان الملك الكامل ، صاحب الحجاز واليمن - في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستائة . ومولده في شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

(١) هو للمظفر ، بن الملك المنصور محمد ، بن المظفر تقى الدين عمر المذكور .

(٢) سبق تفسير هذا الاسم . وهو لفظ تركى أصله : أَطِيرُ ، أو أَتِيرُ .

وكان بلغه وفاة عمه الملك المعظم بدمشق ، فقطع في الشام . وتجهز
جهازاً لم يسبقه أحد من الملوك إليه . وذلك أنه نادى في التجار ببلاد
اليمن : من أراد السفر صُحْبَةَ السلطان إلى الديار المصرية والشام فليتجهز .

فتجهز معه سائر التجار الذين وصلوا من الهند ، بالأموال والأقشة
والجواهر . فلما تكاملت المراكب ، قال اكتبوا لي [ما] معكم من البضائع ،
لأُخَيِّمَها من الزكاة . فكتبوها له . فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله على
بعض بلاد اليمن ، واستولى على البضائع . فاجتمعوا واستغاثوا ، فلم يَسْمَعْ
شكواهم . فيقال إن نقله كان في خَمْسَمِائَةِ مركب ، ومعه ألف خادم ، ومائة
قنطار من العنبر والعود والمسك ، ومائة ألف ثوب ، ومائة صندوق فيها
الأموال والجواهر .

وركب إلى مكة ، فرض في طريقه . فما دخل مكة إلا وقد قُلِّجَ
وَيَسَّتْ يده ورجلاه ، ورأى في نفسه العير . فلما احتضر بعث إلى رجل
مغرَّبِي بمكة وقال : والله ما أرضى لنفسى ، من جميع ما معى ، كَفَنًا أَكْفَنُ
فيه ، فَصَدَّقْ على بكفَن ! فبعث إليه نصف ثوب بَعْدَادِي ، ومائتي
درهم ، فكفَنوه بها . ودفن بالمُعَلَّى . ويقال إن الهواء ضرب المراكب
فرجعت إلى زَبِيد ، فأخذها أصحابها .

وحكى أن الملك الكامل - والده - سر بوفاته . ولما جاء خزننداره ^(١) إليه ، لم يسأله كيف مات ، بل قال : كم معك من المال والتحف ! وكان الملك المسعود قد استأب باليمن أستأذ داره ^(٢) : عمر بن علي ابن رسول . فتزوج زوجته : ابنة صاحب جورا ^(٣) وملك البلاد . وكتب إلى السلطان الملك الكامل ، وجهز إليه الأموال والتحف . واستقر على حكم النيابة .

ثم استقل بعد ذلك بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور . وأرسل رسولا إلى الديوان العزيز في سنة اثنتين وثلاثين وستائة ، فوصل في سابع عشر صفر منها ، فتلقاء بعض الأمراء ودخل ، وقبل العتبة بالباب الثوبى . وحضر في اليوم الثالث من وصوله إلى دار الوزير وأدى رسالته ، وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مرسيله على جميع بلاد اليمن ، وأنه مخلص في طاعة الديوان .

(١) أى صاحب الخزنة ، وهو متولى الشؤون المالية .

« داره » لفظ فارسي ، بمعنى صاحب ، أو المشرف على ...

قال صاحب صبح الأعشى : « الخازندارية موضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية ... » .

(ج ٤ - ص ٢١)

(٢) وظيفة « الاستاذارية » كانت من الوظائف الرئيسية للسلطان أو نوابه أو الأمراء وقد عرفها « الخليلي » بما يلي : « وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها ... وهو الذى يمشى يطلب السلطان ويحكم في غلانه وباب داره .. وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى بجرى ذلك للمالك وغيرهم » .

فهو المتولى شؤون دار السلطان أو النائب أو الأمير . وهو أشبه « بناظر الحلاصة » الذى كان موجودا بمصر .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ص ٢٠)

(٣) هكذا في (ع) . وفي (ك) : جورا .

ولم أجد أيا منها في معجم البلدان . ولكن وجدت فيه :

« جززان : قرية من محلات بغداد باليمن » .

وهو يسأل قَبُولَ ما سَيَرَهُ من التحف والهدايا . حكاة ابن السامى فى تاريخه .

واستمر المُلْكُ بالديار الجمانية فيه وفى أولاده من بعده ، إلى وقتنا هذا .

وفىها فى جمادى الأولى ، توفى ناصر الدين مَنكُورس بن بدر الدين
خُمارَتِكِين عتيق مجاهد الدين بُزَّانَ صاحب صَرْخُد . وكان ناصر الدين
المذكور صاحب صَهْيُون^(١) . وتولى مملكة صَهْيُون بعده ولده مُظفَّر الدين
عثمان .

واستهلت سنة سبع وعشرين وسَمائة :

فى هذه السنة ، فى ثانى عشر شهر رجب منها ، قدم السلطان الملك
الكامل إلى الديار المصرية .

وكان سبب عَوْدِهِ أنه بلغه أن ابْنَهُ الملك الصالح - نجم الدين أيوب -
قد ترتب على المُلْكِ بالديار المصرية ، وأنه اشترى ألفَ مملوك ، فعاد .
وأخرج ابْنَهُ الملك الصالح إلى بلاد الشرق ، ولم يُعْطِهِ شيئاً .

(١) ذكرها النويرى فى المتن من قبل ، وقال إن « صهيون ضيعة بالقدس » .

وقال ياقوت : « صهيون » تطلق على عدة أماكن . فهى موضع معروف بالبيت المقدس ، محلة فيها كنيسة
صهيون . وصهيون - أيضاً - حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام ، وهى قلعة حصينة مكيئة فى طرف
جبل ، خنادقها أودية واسعة عميقة ولها ثلاثة أسوار . وكانت بيد الإفرنج حتى استرجعها الملك الناصر
صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ .

(معجم البلدان : ج ٧ - ٢٤٠)

(انظر أيضاً صبح الأعشى : ج ٤ - ١١٥)

ولما وصل الملك الكامل إلى قلعة الجبل ، عيّل له صلاح الدين الإزبلي دعوةً في داره ، فحضرها السلطان . فأنشده الصلاح :

لو تعلمُ دارُنا بمن قد جُمِعتْ مالت طرباً وصَفَقَتْ واستَمَعَتْ
والخمرة لو تعلم من يَشْرِبُهَا كانت شَكَرَتْ لعاصِريها ، ودَعَتْ

وفيها قَصَرَ النيلُ فلم يُوفِ ، وانتهى إلى ثلاثة عشر ذراعاً وثلاثة وعشرين أصبعاً وقيل أنه انتهى إلى أربعة عشر ذراعاً ، وأصابع ، وقيل بل بلغ ستة عشر ذراعاً وعشرة أصابع . فارتفع سعرُ القلّة . فسعرَ الملكُ الكامل القمحَ بعشرين درهماً وورقاً^(١) الإزْدَبَ . وأمرَ مستخدمي^(٢) الأهراء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهماً وورقاً . ومنع الناس من شراء الكثير منه ، إلا المَثُونَة . واستمر السعر كذلك بقية السنة .

ثم أطلقَ السلطانُ سِعرَ القلّة ، في ثالث المحرم سنة ثمان وعشرين ، وأمر أن يباع بالسعر الواقع . فأبيع القمحُ في هذا الوقت بخمسين درهماً وورقاً الإزْدَب ، والخبزُ أربعة أرطال بدينهم وورق . فقال الناس من ذلك شِدَّةٌ عظيمة .

هكذا نقل مؤرخو^(٣) ذلك العصر . فكيف لو شاهدوا ما شاهدناه في سنة خمس وتسعين وسبعمائة ، على ما تذكره - إن شاء الله تعالى .

(١) الورق : الدرهم الفضة . والمقصود به هنا الدرهم الأصل المطبوع ، الذي كانت نسبة الفضة فيه عالية ، قبل أن يظهر الدرهم النقرة الذي زادت فيه نسبة النحاس . وقيمة الدرهم الأول أعلى .

(٢) في (ك) و (ع) : « وأمر مستخدمين الأهراء » !

(٣) في (ك) و (ع) : « وهكذا نقل مؤرخي ذلك العصر » . وهو مثل آخر من الأخطاء النحوية .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة ، بعث الملك الأشرف - صاحب دمشق - أخاه الملك الصالح إسماعيل إلى بعلبك . فحصرها ونصب عليها الممجانيق ^(١) ، ورمأها بأحجارها .

ثم توجه إليها الملك الأشرف . ودخل صاحب صنى الدين - إبراهيم ابن مرزوق - بين الملك الأشرف والملك الأجدد صاحب بعلبك ، وحصل الاتفاق . فتسلمها الملك الأشرف ، وانتقل الأجدد منها إلى دمشق . وأقام بداره بها ، وهى الدار المعروفة بدار السعادة ، التى يترأها كُوابُ السلطنة فى وقتنا هذا . ولم تطل مدة حياته ، فإنه قُتل فى سنة ثمان وعشرين وستائة .

وفىها استولى السلطان : جلال الدين خوارزم شاه ^(٢) على مدينة خلّاط ، بعد أن حاصرها مدة عشرة أشهر . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار جلال الدين . ولما ملكها ، أخذ منها مُجِير الدين يعقوب ونفى الدين عباس : ابنى ^(٣) الملك العادل ، وأخذ الكُرْجِيَّة : زوجة الملك الأشرف ، ودخل بها من ليلته . وقُتل عز الدين أَيْتُك الأشرفى .

(١) جمع : منجنيق . آلة من آلات الحرب التى كانت تستخدم فى تلك العصور ، ولاسيما فى الحصار . وهى أشبه بالمقلاع تقذف منها الحجارة الكبيرة ، لتدك مواقع العدو .

(٢) هو جلال الدين ، منكبري بن محمد بن نكش . وكان هذا السلطان - وجلال الدين - آثر سلاطين الدولة الخوارزمية (شاهات خوارزم) وكانت مدة حكمه هى : (٦١٧ - ٦٢٨ هـ) وفى هذه السنة الأخيرة قضى النار على دولته ، وقُتل هو فى أثناء فراره . وكان ظالماً ، قهر الملوك والناس من حوله .

(٣) فى (ع) : وابتاء للملك العادل .

وبلغ الملك الأشرف ذلك ، وهو بدمشق ، والملك الكامل بالرقّة ^(١) فتوجه من دمشق إلى الرقة . وأتته رسل السلطان علاء الدين كيّقباد - صاحب الروم ^(٢) - في الإجماع على حرب جلال الدين . فاستشار الملك الأشرف أخاه الملك الكامل في ذلك ، فأشار به . وقطع الملك الكامل الفُرات في سبعة آلاف فارس ، وتوجه إلى الديار المصرية - للسبب الذي ذكرناه .

وسار الملك الأشرف إلى حرّان في سبعمائة فارس ، فأقام بها . وكتب إلى حلب والموصل والجزيرة فجاءته العساكر ، وتوجه إلى صاحب الروم واجتمعوا . والتقوا بالسلطان جلال الدين خوارزم شاه ، فكسروه .

وقد ذكرنا خبر استيلاء جلال الدين على خلاط ، في أخباره . وذكرنا خبر هذه الكسرة في أخبار السلطان علاء الدين كيّقباد صاحب الروم ، في أخبار الدولة السلجوقية . فلنذكر الآن ما يتعلق بالملك الأشرف .

ولما انهزم جلال الدين ، قال الملك الأشرف للسلطان علاء الدين كيّقباد : لا بد لي من خلاط . فأعطاه علاء الدين . وأنعم على أصحابه : من الأموال والخلع والثياب والثحف والخيول ، ما قيمته ألفا ألف دينار .

(١) مدينة مشهورة على الشاطئ الشرق للفرات . من بلاد الجزيرة . وبينها وبين حران ثلاثة أيام .

(ياقوت : ج ٤ - ٢٧٧)

(٢) هو علاء الدين كيّقباد بن كيخسرو بن قلیچ أرسلان . وكانت مدة حكمه ما بين سنتي : (٦١٦ - ٦٣٤ هـ) . وهو صاحب الروم : أي دولة الروم السلجوقية بآسيا الصغرى .

وتوجه كَيْقُبَاز إلى بلاده ، وجَرَّدَ في خدمة الملك الأشرف جماعة ، فتوجه بهم إلى خلّاط . فوجد جلال الدين قد أخذ مُجِيرَ الدين وَتَقَى الدين والكُرْجِيَّةَ معه . فساق الأشرفُ خَلْفَهُ . ثم تراسلا ، واصطلحا . فأطلق جلال الدين مُجِيرَ الدين وَتَقَى الدين ، وبعث بهما إلى الخليفة ببغداد . فأنعم الخليفةُ على كل منهما بمئة خمسة آلاف دينار . وعاد الملك الأشرف إلى دمشق ، في سنة ثمان وعشرين وستائة . فأقام بها شهراً ، وتوجه إلى أخيه الملك الكامل بالديار المصرية .

وفي هذه السنة ، استخدم الملك الْمُظَفَّرُ : شهاب الدين غَازِي - صاحب مِيَّافَارِقِينَ - العِزُّ بن الجَامُوس على ديوانه . وأمره وأعطاه الكُوسَات^(١) والأعلام ، وقَدَّمَهُ على جماعة ومَكَّنَهُ . ودُعي بالصاحب الأمير عز الدين . فظلم الناس وعَسَفَهُمْ ، وأخذ أموالهم . فلم تُمهَلْهُ المقَادِيرُ ، ومات في بقية سنة سبع وعشرين بمِيَّافَارِقِينَ . واستول الملك المظفر على تَرْكِيَّتِهِ ، وظهر له سوء فعله ، فصار يُصْرِّحُ بِلَعْنِهِ . وجاء عمه من دمشق يطلب ميراثه ، فسيبه المظفر ، ثم أعطاه ألف درهم وعاد إلى دمشق .

(١) عرفها القلقشندي بأنها : «صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص . ومع ذلك طُول وشكابة . وهي من علامات السلطان أو الإمارة .

(صح الأعشى : ج ٤ - ص ٩)

وفيه ، في ثامن جمادى الآخرة ، توفى بمصر الفقيه الإمام : شرف الدين أبو عبد الله محمد ، بن الشيخ أبي حفص عمر ، بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمرو بن جعفر ، الأزدي القسائي ، المالكي - المعروف بابن اللهب . ومولده في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . وتولى التدريس بالمدرسة الصاحبية^(١) بالقاهرة ، إلى حين وفاته . وهو من بيت الخير والصلاح والفقه .

واستهلّت سنة ثمان وعشرين وسمالة :

في يوم الاثنين ، عاشر جمادى الآخرة ، قدّم الملك الأشرف إلى القاهرة ، لخدمة السلطان الملك الكامل - ومعه صاحب الجزيرة . وفيها ، في منتصف شعبان ، ابتدأ السلطان الملك الكامل بحفر البحر ، من دار الوكالة إلى صناعة التمر الفاضلية . واستعمل فيه الملوك والأمراء ، وعمل بنفسه .

وكان هذا البحر في أوان احتراق النيل يكون طريقاً سالكاً إلى المقياس . وتم المراكب ما بين الروضة والجيزة . ثم صار على العكس من ذلك في سنة ثلاث عشرة وسبعائة^(٢) ، فصار في احتراق النيل ليس بين الروضة وبين برج الجيزة غير ماء قليل يخاض ، فلا يُعطى أكثر من خلخال . ثم أخذ في الزيادة بعد ذلك . إلى أن صار ، في سنة عشرين وسبعائة^(٣)

(١) نسبة إلى الصاحب « صفى الدين بن شكر » وزير العادل والكامل ، لأنه هو الذي أسسها . وكان ابن شكر مالكي المذهب .

(٢) هكذا في النسختين .

وما بعدها تسافر فيه المراكب صيفاً وشتاءً . والبَحْرَانِ الآن على ذلك . ولكن البحر فيما بين الروضة ومصر أكثر ، وهو البحرُ الذى تسافر فيه السفن فى الاحتراق .

نَعُوذُ إلى سِياقَةِ أخبارِ سنة ثمان وعشرين وستمائة . وفيها بنى أسد الدين شيركوه - صاحب حِمص والرَّحْبَة - قلعة بالقرب من سَلَكِيَّة وسماها شُمَيْمِسَ ، وهى على تَلٍّ عالٍ .

وفيها كان مَقْتُلُ الملك الأُمجد : بَهْرَام شاه ، بن قَرْخَشَاه ، بن شاهنشاه ابن أيوب - صاحب بَعْلَبَك . كان وكانت بعلبك بيده ، منذ أعطاه إياها السلطان الملك الناصر صلاح الدين عند وفاة أبيه ، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . فلم تزل بيده ، إلى أن انتزعها الملك الأشرف منه - كما تقدم - فى السنة التى قبلها . وأعانه على ذلك صاحب حِمص : أسدُ الدين شيركوه .

وكان سبب مقتله أن بعض مماليكه سرق له حِياصَةً ^(١) ودَوَاةً - قيمة ذلك مائتا دينار - وخَبَأَ هُمًا عند مملوك آخر ، فلما ظهر له ذلك حَبَسَ السارق فى خِزانة داره - والخِزانة خلف المكان الذى يجلس فيه الملك الأُمجد - وتَوَعَّدَ ذلك المملوك - بقطع اليد . فلما كانت ليلة الأربعاء ، ثانى عشر شوال ، جلس على عادته أمام الخِزانة - وعنده عباس بن أخى الشريف البهاء وهما يلعبان بالترُّد ، وعنده فَهَيْدُ المَسْجَمِ وبيده الاسْطِزْلَابُ ليأخذ له طَالِغَ الوقت .

(٢) سبق ذكرها . وهى بلدة من عمل حمص ، على طرف البرية . وشُمَيْمِسَ اسم تل بجوارها .

(٣) هى المنطقة أو الحزام ، كانت تُشد فوق القَبَاء ، وهو الكساء الخارجى . وكانت الحياصة تصنع فى الغالب من الفضة المطلية بالذهب ، وربما نُجِلَتْ من الذهب .

(الفلقشندى : ج ٤ - ص ٤٠)

فقال له فهيد : يا مولانا انظر إلى ، فهذه ساعة سعيدة ، لو أردت أخذ دمشق لأخذتها . فقال له : لا تكلمنى ، فقد تعين لى القلب ! وكان مع المملوك الذى فى الخزانة سيكّين ، فعالج رزة الخزانة برفق فقلعها ، وفتح الباب . فهجم على الملك الأجد وأخذ سيفه فجذبه وضربه به . فصاح ، فحلت الضربة كيفه ، ونزل السيف إلى ثذبه . ثم ضربه أخرى ، فقطع يده وقطعته فى خاصيرته . وهرب يصعد إلى السطح ، فتبعوه . فألقى نفسه إلى الدار . فلما جميعاً . وجهز الملك الأجد ودفن فى تربة أبيه ، التى على الميدان على الشرف الشمالى .

وكان فاضلاً شاعراً ، وله ديوان شعر بأيدي الناس - رحمه الله تعالى . قال أبو المظفر : وراه بعض أصحابه فى المنام بعد موته ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال :

كنتُ من ذنبي على وجلي زال عني ذلك الوجـلُ
أمنتُ نفسي بوائقها^(١) عشتُ لما متُ يا رجـلُ

قال أبو المظفر : وكان الأجد قد قتل ابناً له جميلاً ، كان واطاً عليه الملك العزيز عثمان^(٢) ، وكتب إليه يقول : قد يئستُ باب السر^(٣) فسر إلينا

(١) البراق : السهيلات .

(٢) كان هو صاحب قلعة باناس . وهو ابن الملك العادل .

(٣) هو الباب ، فى القلعة أو القصر ، الذى يختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة . ويكون هذا الباب عادة مغلقاً .

(صح الأعتى : ج ٣ - ٣٧٤)

وقت السَّحَر . وكان الملك العزيز بالصُّبْيَةِ ^(١) ، فسار منها في أول الليل -
والمسافة بعيدة - فوصل إلى بعلبك وقد طلعت الشمس ففاته العَرَض . واطلع
الأجَدُّ على ما فعله ابنه فقتله . وقيل بَنَى عليه بيتاً ، فمات .

وفيهما تُوفى المَهْدَبُ الدُّخْوَار ، الطبيب ^(٢) : رئيس الأطباء بدمشق .
وكان طبيباً حاذقاً ، وما كان يُرى أن في الدنيا مثله . وكان يُقرأ عليه الطَّب .
وكانت له دار بدمشق وبستان . فوقف الدار مدرسة يُقرأ فيها الطب ، ووقفَ
بُستانه عليها . والمدرسة باقية بدمشق ، تعرف بالدُّخْوَارِيَّة ، رأيتها في سنة
ثلاث وسبعماية .

وفيهما ، في ثامن عشر شعبان . توفى الأمير شجاع الدين أبو المنصور :
جلَّدك بن عبد الله المُظَفَّرِي التَّقْوَى ^(٣) ، بالقاهرة . سَمِعَ من الحافظ
السُّلَمَى . وكان مُكْرَماً لأهل العلم والفضلاء ، مساعداً لهم بماله وجاهه .
وحضر مواقف كثيرة في قتال العدو بالساحل . وتولى تَعَرَّ دِمياط
والإسكندرية ، وقوص ، وشَدَّ الدواوين ^(٤) ، وغير ذلك . وكان يكتب في

(١) اسم لقلعة بانياس . وقد سبق الكلام عن هذه القلعة ، وهي بالقرب من دمشق ، من جهة الغرب بميل إلى الجنوب .

(٢) هو عبد الرحيم بن علي الدُّخْوَار . ولد بدمشق ونشأ بها . كان فاضلاً حاذقاً بعلم الطب ، أستاذ عصره .
ووقف داره وكتبه على الأطباء .

(النجوم الزاهرة : ج ٦ - ٢٧٧)

(٣) نسبة إلى المظفر تق الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب : ابن أخى صلاح الدين .

(٤) عد صاحب «صح الأعشى» هذه الوظيفة من بين الوظائف السلطانية الخاصة بأرباب السيوف (أمرء
الجنود) وقال عنها : «وموضوعها : أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير ، متحدثاً في استخلاص الأموال وما في
معنى ذلك» .

(ج ٤ - ص ٢٢)

كل بلد يتولاه ختمة . فحكي عنه أنه قال : كتبت بخطي أربعاً وعشرين ختمة . وكان قد قارب ثمانين سنة - وقيل مات في عشر التسعين . والله أعلم .

واستهلت سنة تسع وعشرين وسنة :

في هذه السنة توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق ، بسبب فتح آمد . وسنذكر ذلك .

وفيها - في جمادى - عزل قاضي القضاة : شمس الدين بن سني الدولة الحوئي ، وقاضي القضاة شمس الدين بن سني الدولة - جميعاً - عن قضاء القضاة بدمشق ، وفوض ذلك إلى قاضي القضاة : عهاد الدين عبد الكريم ، بن قاضي القضاة جبال الدين الحرستاني .

وفيها توفي الأمير فخر الدين عثمان بن قرل الكاملي بخران ، في الثامن والعشرين من ذي الحجة ، ودفن بظاهرها . ومولده بجلب في سنة إحدى وستين وخمسائة .

وكان أحد الأمراء الأكابر في الدولة الكاملية . وكان راغباً في فعل الخير ، مبسوط اليد بالصدقة والإسعاف ، يتقصد أرباب البيوت وغيرهم . وأنشأ المدرسة المعروفة بالقاهرة المعزّية ، والمسجد المقابل لها ، وكتاب السبيل والرباط بالقرافة بسفح المقطم . وأوصى بوصية ذكر فيها كثيراً من أنواع البر - رحمه الله تعالى .

واستهلّت سنة ثلاثين وستائة :

ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمِد وحصن كَيْفَا^(١)

كان الاستيلاء على ذلك في سنة ثلاثين وستائة . وكان السلطان قد تَوَجَّهَ في سنة تسع وعشرين وستائة ، واستَقْلَ رِكَابَهُ من مَقَرِّ مُلْكِهِ ، بَقْلَعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بظاهر القاهرة المُعَزَّيَّةِ ، في ثامن جادى الآخرة ، واستصحب عساكرَ الديار المصرية . ووصل إلى دمشق واستصحب أخاه الملك الأشرف ، وولده الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان سبب قصده هذه الجهة أن أخاه الملك الأشرف ، بما حضر إلى الديار المصرية ، عَرَفَ السلطانَ أن الملك المسعود مودود بن الملك الصالح بن أَرْتُقٍ ، صاحب آمِد وبلادها وحصن كَيْفَا - قد اشتغل عن مملكته باللهو والشرب والطرب ، وأنها خاليةٌ من العساكر . فتجهَّزَ إليها .

ولما بلغ الملك المسعود أن السلطان قصد بلاده ، بادر بإرسال وزيره شرف العلّا إلى السلطان يستعطفه ، ويسأل مَرَاجِمَهُ في إبقاء ما بيده والكفِّ عن طلبه . فوصل إلى السلطان ، وكان إِلْيَا^(٢) على صاحبه ، وعَرَفَ السلطانَ إقبالَهُ على اللهو والطرب ، وأن مملكته خالية من العساكر ، فأطمعه في أخذ البلاد .

(١) هي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمِد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر . وقد يقال لها : كَيْفَا . وهي لصاحب آمِد .

(مجمع البلدان : ج ٢ - ص ٢٨٦)

(٢) أى مُؤَلَّبًا على صاحبه : أَلْبَ عليه : أى خَرَضَ عليه العدو .

فسار إليها ، ونازلها في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي الحجة ونَصَبَ عليها المَجَانِيقَ . وأُنذِرَ صاحبها الملك المسعود ووعدته بالإقطاعات الكبيرة ، فلم يُضغِ إلى ذلك . ثم شاهد القلعة ، فخرج إلى السلطان وفي عنقه منديل . فَوَكَّلَ به ، وَتَسَلَّمَ آمِدَ في مستهل المحرم ، سنة ثلاثين وستمائة . واستولى على أمواله وذخائره ، وطلب منه تسليم القلاع فسلمها بجملتها .

ودخل الملك الكامل إلى آمِد . فَرَجَّلَ في خدمته جميعُ الملوك الأيوبية ، وسائر ملوك الشرق - إلا صاحب الروم السلطان : علاء الدين كَيْقُبَازَ السَّلْجُقى ، وصاحب الجزيرة^(١) الملك المُعْظَمُ : محمد بن سَتَّارَ شاه . فإنهما أرادا أن يَترَجَّلَا فلم يُمكنْهُما الملكُ الكاملُ من ذلك ، ودخلا راكِبَيْنِ لركوب السلطان ، ونزلوا جميعاً في القلعة .

وبقى حصن كَيْفَا بيد نائبه ، لم يُسَلِّمْهُ . فكتب الملك المسعودُ إلى نائبه أن يسلمه ، فامتنع من ذلك . فبعث السلطان الملك الكاملُ أخاه الملك الأشرف إلى الحصن ، ومعه الملك المسعود ، فتوجه به وعاقبه تحت الحصن ، وكان يَتَعَقُّضُهُ ، فأصر النائبُ على الامتناع من تسليمه . وكان بينها إشارة ، فلما آلتاه العقوبة جاء إلى تحت الحصن ، وقَبِضَ على شعر نفسه وقَطَعَهُ بِمِقَصٍّ ، فعند ذلك سَلَّمَ النائبُ الحصنَ - وكانت هذه إشارةً بينها . وكان تسليمُ الحصن في صفر من السنة .

(١) المقصود بها « جزيرة ابن عمر » ، وهي بلدة فوق الموصل قريبة منها .

وكان الملك المسعود ، لما حاصر السلطان آمِد ، قد كتب إلى نائبه بحصن كَيْفَا يقول له : من مرَّ عليك من أهل الجَزِيرَةِ فاعْتَقِلْهُ ، لأنَّ صاحب الجزيرة كان قد توجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل . وكان المتولى يَرْصُدُ القُفُولَ إذا مرَّت بالحصن ، فمن كان منهم من أهل الجزيرة قبض عليه واعتَقَلَهُ . واجتمع في حبسه خَلْقٌ كثير منهم . فلما فُتِحَ الحصن أفرَجَ السلطان عنهم .

وأنعم الملك الكامل على ولده ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بحصن كَيْفَا وأعماله - وكان ، منذ أخرجه من الديار المصرية ، بغير ولاية . وجَعَلَ شهابَ الدين غازى - بنَ شمس الملوك - نائبَ السلطنة بآمِد . ومُعِينَ الدين بن الشيخ الوزير ، والطَّوَّاشى شمس الدين صَوَّابَ العادِلِ متولى تدبير تلك الممالك . قال أبو المظفر : قال لى الملك الأشرف : وَجَدْنَا فى قصر الملك المسعود خَمْسَمِائَةِ حَرَّةٍ من بنات الناس للفراش .

وعاد السلطان إلى الديار المصرية فى سنة ثلاثين وستائة ، واستصحب أكابر أهل آمِد وأعيانها ، صُحْبَتَهُ ، إلى الديار المصرية - وكان منهم بدر الدين ، وموفق الدين ، وابن أخيها شمس الدين ، وجماعة كبيرة . فأما هؤلاء الثلاثة فإنهم باسروا وترقوا فى المناصب بالديار المصرية ، والشام . ومن عداهم من أهل آمِد نالَهم فاقةٌ شديدة وضَّرورة ، حتى استَعَطَوْا بالأوراق . وأما الملك المسعود فإن السلطان أنعم عليه بالإقطاعات بالديار المصرية .

ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل

إلى بغداد ، وَعَوْدَهُ هُوَ وَرَسُولُ الْخَلِيفَةِ بِالْتَقْلِيدِ^(١)

في هذه السنة تَوَجَّهَ الْقَاضِي الْأَشْرَفُ : بهاء الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضي محيي الدين عبد الرحيم البَيْسَانِي - رسولاً من جهة السلطان الملك الكامل إلى الديوان الْعَزِيزِ . فعاد في صحبة رسول الخليفة^(٢) ، وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوَزِي ، ومعها جماعة من الأجناد . وأُعْطِيَ ابنُ الجوزي مَحِيفَةً تَمِيِيزاً لَهُ .

وَنُقِّدَ مَعَهَا تَقْلِيدٌ ، من إنشاء الوزير أبي الأزهر : أحمد بن النَّاقِدِ^(٣) ، بِحُطِّ الْعَدَلِ نَاصِرِ بْنِ رَشِيدِ الْحَرَوِيِّ^(٤) . وَفِي أَعْلَاهُ بِحُطِّ الْوَزِيرِ مَا مِثَالُهُ : لِلآرَاءِ الْمَقْدُوسَةِ - زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى جَلَالاً وَتَعْظِماً - مُزِيدٌ فِي شَرَفِهَا فِي تَوْبِيحِهِ . وَالْعَلَامَةُ الْمُسْتَصْصِرِيَّةُ عَلَيْهِ ، تَحْتَ الْبَسْمَلَةِ : « اللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » .

(١) مما ينبغي التنبيه إليه أن هذا التقليد الذي سيورد المؤلف نصه فيما يلي نشره محقق « مفرج الكروب » بين ملاحق هذا الكتاب (ج ٣ - ٣٦١ - رقم ٢٨) على أنه « العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد إلى السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب » . وصحته كما هو ثابت في المتن وكما تدل عليه نصوص الوثيقة أن العهد هو للسلطان الكامل بن السلطان العادل .

(٢) الخليفة المقصود هو « المستنصر بالله » بن الخليفة « الظاهر » . وكان مدة خلافة المستنصر من ٦٢٣ إلى ٦٤٠ هـ .

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن محمد .. بن النقذ . نشأ وتقلد في المناصب حتى ولي الوزارة للخليفة « المستنصر » (٦٢٣ - ٦٤٠) . وكان رجلاً فاضلاً ذنباً . سار في وزارته أحسن سيرة . وكانت وفاته في سنة ٦٤٢ . (النجوم الزاهرة - ص ٣٥٠)

(٤) في النسخة (ك) هكذا : الحروي ، وفي النسخة (ع) : الحرزوي .

ونسخة التقليد

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أطمأنت القلوبُ بِذِكْرِهِ ،
وَوَجَّبَ عَلَى الخَلَائِقِ جَزِيلُ حَمْدِهِ وشُكْرِهِ ، وَوَسَّعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ ،
وَضَهَرَتْ فِي كُلِّ أَمْرٍ حِكْمَتُهُ . وَذَلِكَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بِعَجَائِبِ مَا أَحْكَمَهُ صُنْعاً
وَتَذَكُّيراً ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا - مُعِدُّ الشَّاكِرِينَ بِتَعَمُّاتِهِ الَّتِي
لَا تُحْصَى عَدَدًا . وَعَالِمُ الْقَيْبِ الَّذِي لَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . لَا مُعْتَبَرٍ
لِحُكْمِهِ فِي الْإِبْرَامِ وَالنَّفْضِ ، وَلَا يُثَوِّدُهُ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . تَعَالَى أَنْ
يُحِيطَ بِهِ الْفُسُيْرُ ، وَجَلَّ أَنْ يَتَلَوَّعَ وَصْفُهُ الْبَيَانُ وَالتَّفْسِيرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وَأَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَقِّ ، بَشِيرًا
وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَابْتَعَثَهُ هَادِيًا لِلْخَلْقِ ، وَأَوْضَحَ
بِهِ مَتَاهِجَ الرُّشْدِ وَسُبُلَ الْحَقِّ . وَاصْطَفَاهُ مِنْ أَشْرَفِ الْأَنْسَابِ وَأَعَزِّ الْقَبَائِلِ .
وَاجْتَبَاهُ لِإِبْصَاحِ الْبَرَاهِينِ وَالِدَلَالِ ، وَجَعَلَهُ لَدَيْهِ أَعْظَمَ الشُّفَعَاءِ وَأَقْرَبَ
الْوَسَائِلِ . فَهَدَفَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ . وَحَمَلَ النَّاسَ
بِشَرِيعَتِهِ الْهَادِيَةِ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيضاءِ وَالسَّنَنِ الْعَادِلِ ، حَتَّى اسْتَقَامَ إِعْوَجَاجُ
كُلِّ زَانِعٍ ، وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ كُلُّ حَائِدٍ عَنْهُ وَمَائِلٍ . وَسَجَدَ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ تَتَقَبُّلُ
ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْكَرَامِ

الأفاضل ، صلاة مستمرة بالقدوات والأصائل - خصوصاً على عمه
وصنو^(١) أبيه : العباس بن عبد المطلب ، الذي اشتهرت مناقبه في الجامع
والمحافل . ودرت بركة الاستشفاء به أخلاف^(٢) السحب الهواطل ، وفاز من
تخصيص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عقبه ، في الخلافة المعظمة ،
بما لم يقر به أحد من الأوائل .

والحمد لله الذي حاز شريف موارث النبوة والإمامة ، ووفر جليل
الأقسام من الفضل والكرامة ، لعبده وخليفته ، ووارث نبيه ومُخْبِي
شريعته : الذي أحله الله عز وجل من معارج^(٣) الشرف والجلال في أرفع
ذروة ، وأغلقه من حُسْن التوفيق الإلهي بأمن عِصْمة وأوثق عروة ،
واستخرجته من أشرف نجار^(٤) وعُتْصِر ، واختصه بأزكى منحة وأعظم
مَفْخَر . ونَصَبَه للمؤمنين علماً ، واختاره للمسلمين إماماً وحكماً ، وناط به أمر
دينه الحنيف ، وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القوى والضعيف : إمام
المسلمين ، وخليفة رب العالمين : أبي جعفر المنصور ، المُسْتَنْصِر بالله ، أمير
المؤمنين ، ابن الإمام السعيد التقى أبي نصر محمد : الظاهر بأمر الله ، [ابن
الإمام السعيد الوفي أبي العباس أحمد : الناصر لدين الله] ، ابن الإمام
السعيد الزكي : أبي محمد الحسن المُسْتَقْبَى بأمر الله ، أمير المؤمنين -

(١) الشُّو. بالكسر : الأخ الشقيق . وميثوآن : التخلتان لما زاد في الأصل الواحد : كل واحد منها ميثو-
أو عام في جميع الشجر . وما ميثوآن .

(٢) جمع : خُلف - بالكسر : الضرع ، أو هو للناقة كالضرع للشاة .

(٣) مَرَجَ عُرُوجاً : ارتقى . والبيراج والمترج : السلم والسطع .
فالمترج : المراق .

(٤) النجار : الأصل .

(٥) ما بين الحاصرتين مفقود من النسخة (ك) . وموجود في النسخة الأخرى ، وفي بقية المراجع .

صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى آبائهم الطاهرين ، الأئمة المهديين ، الذين قَضَوْا بالحق وبه كانوا يَعْدِلُونَ . وَلَقُوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ ، وهم عنه راضُونَ .

وبعد : فَيَحْسِبُ ما أَفَاضَهُ اللهُ تعالى على أمير المؤمنين - صلواتُ الله عليه وسلامه - من خِلاقِهِ في الأرض ، وقَوَضَهُ إلى نظره المُقَدَّسِ في الأمور من الإبرام والتفَضُّص ، واستخْلَصَهُ له من حِياطَةِ بلاده وعبادِهِ ، وَوَكَّلَهُ إلى شَرِيفِ نظره ومُقَدَّسِ اجتهاده - لا يزال صلوات الله عليه - بِكُلِّ العبادِ بعين الرِّعَايَةِ ، ويسلِّكُ بهم في المصالح العامة والخاصة مذاهبَ الرُّشْدِ وسُبُلَ الهداية ، وينشر عليهم جناحَيْ عِزِّهِ وإِحْسَانِهِ ، وَيُنْعِمُ لهم النَظَرَ في اِرْتِيَادِ^(١) الأُمَماءِ الصُّلَحاءِ ، من خُلَصاءِ أَكْفَائِهِ وأَعوانِهِ - مُتَّخِيراً للاستِزْعاءِ من استخَمَدَ إليه بِمَشْكُورِ الْمَساعِي وتَعَرَّفَ إليه في سياسة الرعايا بِمَجْمِلِ الأسبابِ والتَّواعِي ، وسَلَّكَ في مفروضِ الطاعة الواجبة على الخِلاَئِقِ قَصْدَ السَّبِيلِ . وعلم منه حُسْنَ الاضْطِلاعِ في مصالح المسلمين بالعِصَةِ الثَّقِيلِ . والله عز وجل يُؤَيِّدُ آراءَ أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بالتأييد والتسديد . وَيُؤَيِّدُهُ أَبَداً من أقسام التوفيق الإلهي بالموافور والمزید ، وَيَقَرِّنُ عزائمه الشريفة باليُمْنِ والنجاح وَيُسَيِّئُ له فيما يَأْتِي وَيَنْزُرُ أسبابَ الخير والصَّلاحِ . وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله - عليه يَقُولُ وإليه يُنِيبُ .

(١) كَلَّاهُ : كَتَمَهُ : حَرَمَهُ . وَكَلَّاهُ بَصَرَهُ فِي الشَّيْءِ : رَتَمَهُ .

(٢) الرُّؤْدُ : الطَّلَبُ ، كَالرُّيَادِ وَالرُّيَادِ ، وَالدَّهَابِ وَالْهَيْ . وَالرُّقْدُ : الرُّسُلُ فِي طَلَبِ الْكَلَّاهِ .

وَلَمَّا وَقَّقَ اللَّهُ تَعَالَى نَصِيرَ الدِّينِ : مُحَمَّدٌ ^(١) ، بن سيف الدين أبي بكر ، بن أيوب - من الطاعة للشهورة ، والخِدْمَ المشكورة ، والخُطُوَّةُ في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحة ، والفوز من المراضى الشريفة الإمامية - أجلها الله تعالى - بالمغانم الجزيلة والصفقة الرابعة - لِمَا وَصَلَ فِيهِ سَالِفَ شَرِيفِ الْاِخْتِصَاصِ بِآيِهِ . وَشَفَعَ تَالِدُهُ ^(٢) في تحصيل مآثور الاستخلاص بطاريفه ^(٣) . واستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مَزِيدَ الْاِكْرَامِ والتفضيل ، وَضَرَعَ في الإنعام عليه بِمَشْهُورِ شَرِيفِ إِمَامِي يَسْتَلِكُ فِي أَتْبَاعِهِ هُدَاه . والعمل بمراشده مَوَاقِ الصراطِ وَقَصْدَ السبيل - اقتضت الآراء الشريفة المقدسة - زادها الله تعالى جلالاً مُتَالِقَ الْأَنْوَارِ ، وَقُدْساً يَسَاوِي فِي تَعْظِيمِهِ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ - الْإِيْمَازَ بِإِجَابَتِهِ إِلَى مَا وَجَّهَ أَمَلَهُ إِلَى الْإِتْنَاقَةِ ^(٤) فِيهِ بِهِ إِلَهِي . وَالْجَذْبَ بِقَبْضِهِ ^(٥) إِلَى فِرْوَةِ الْاجْتِيَاءِ الَّذِي تَظْهَرُ أَشِعَّةُ أَنْوَارِهِ الْبَاهِرَةِ عَلَيْهِ .

فَقَلَّدَهُ - عَلَى خَيْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى - الرِّعَامَةَ وَالصَّلَاةَ ، وَأَعْمَالَ الْحَرْبِ ، وَالْمَعَاوَنَ ^(٦) وَالْأَحْدَاثَ ^(٧) ، وَالْحَرَاجَ وَالْفُصْيَاعَ ، وَالصَّدَقَاتِ وَالْجَوَالِي ^(٨) ، وَسَائِرَ وَجُوهِ الْجَبَايَاتِ ، وَالْفَرَضَ وَالْعَطَاءَ ^(٩) وَالنَّفَقَةَ فِي

(١) نصير الدين محمد : هو لذلك الكامل .

(٢-٣) التالذ : القديم ، والطارف : الجديد .

(٤) ناث وأثاف على الشيء : أشرَفَ . وَالثَّيْفُ : جبل وجسن . وَأَثَافَ عَلَيْهِ : زَادَ .

(٥) الضَّيْعُ : الضَّيْدُ .

(٦) أَسْوَالُ مُجْتَبَى مِنَ الْمَدَنِ ، غَيْرِ الْحَرَاجِ .

(٧) الْفَرَامَاتُ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ مَرْتَكِبِي الْأَحْدَاثِ .

(٨) مَا يُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ : أَيْ الْجَزَى . الْجَوَالِ جَمْعُ جَالِيَةٍ .

(٩) الْفَرَضُ : تَقْدِيرُ الرِّوَابِ . وَالْعَطَاءُ : صَرَفُ الرِّوَابِ لِلْقَرَّةِ .

(١) الأولياء ، والمظالم والحسبة في بلاده ، وما يفتحه ويستولى عليه من بلاد الفرنج الملاحين ، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده ، من المارقين من الإجماع المنعقد بين المسلمين ، ومن يتعدى حدود الله تعالى ، بمخالفة من جُبلت الأعمال الصالحات بولايته المفروض على الخلائق مقبولة ، وطاعته - ضاعف الله جلّاله - بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولة ، حيث قال - عز من قائل : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأرلى الأمر منكم .

واعتمد - صلوات الله عليه وسلامه - في ذلك على حسن نظره ، ومدد رعايته . وألقى مقاليد التفويض فيه إلى وفور اجتهاده ، وكمال سياسته . وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما يتقى له على تعاقب الدهر واستمراره ، ويخلد له على ممر الزمان حسن ذكره وجزيل فخاره . وحباه بتقليد يوطد له قواعد الممالك ، ويفتح بإقليده (٢) رتاج (٣) الأبواب والمسالك ، ويقيده قاعدته في بلاده زيادة تقرير وتمهيد ، ويطيّر به صيته في كل قريب وبعيد .

(١) وظيفة دينية عامة ، وهي الإشراف على تنفيذ قوانين الشرع ، ولا سيما ما يتعلق بالأداب العامة ، ومصالح الجمهور : مثل منع النش في البيع والشراء .

(٢) : المفتاح .

(٣) الرتاج : الباب العظيم ، وهو الباب للخلق . ورتاج الباب أخفه .
فالمقصود هنا تعلق الأبواب . أو ما يعلق به الباب .

وَوَسَّمَهُ بِالْمَلِكِ الْأَجَلِّ : السَّيِّدِ الْكَامِلِ ، الْمُجَاهِدِ الْمُرَابِطِ ، نَصِيرِ
الدِّينِ ، رَكْنِ الْإِسْلَامِ ، جَمَالِ الْأَنَامِ ، جَلَالِ الدَّوْلَةِ فَمَحْرُ الْمَلَّةِ . عِزُّ الْأُمَّةِ .
سَنَدُ الْخِلَافَةِ . تَاجُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ . ، قَامِعُ الْكُفْرَةِ وَالْمَشْرِكِينَ ، قَاهِرُ
الْخَوَارِجِ وَالْمُنْتَرِدِينَ ، إِبْلَغُ غَازِي بِلْكَ ، مُحَمَّدٌ ، بَنُ أَبِي بَكْرٍ بَنِ أَبِيوبَ ،
مَعِينُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - رِعَايَةُ لِسَوَابِقِ خِدْمَتِهِ ، وَخِدْمَةُ آبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ ، وَإِبَانَةُ عَنْ
وُفُورِ احْتِيَاجَاتِهِ ^(١) ، وَكَمَالِ ارْتِدَائِهِ ^(٢) . وَإِنَاقَةُ بِهِ ^(٣) مِنْ ذِرْوَةِ الْقُرْبِ إِلَى مَحَلٍّ
كَرِيمٍ ، وَإِخْتِصَاصاً لَهُ بِالْإِحْسَانِ الَّذِي لَا تَلْقَاهُ إِلَّا مَنْ هُوَ - كَمَا قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى - ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ - وَتَوْقَافاً بِصَحَّةِ دِيَانَتِهِ الَّتِي بِسَلْكَ فِيهَا سَوَاءَ سَبِيلِهِ ،
وَإِسْتِمَامَةً إِلَى أَمَانَتِهِ فِي الْخِدْمَةِ الَّتِي يَنْصَحُ فِيهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ . وَرَكُوناً إِلَى
[كَوْنِ] الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ مَوْضُوعاً بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْسَنِ مَوْضِعٍ ، وَاقِعاً بِهِ
لَدَيْهِ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ وَمُسْتَوْدَعٍ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - لَازَلَتْ الْخَيْرَةُ مَوْضُوعَةً بِآرَائِهِ ،
وَالنَّائِيْدُ الْإِلَهِيُّ مَقْرُوناً بِإِنْفَاقِهِ وَإِمْضَائِهِ - بِسَمِيْدَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حُسْنِ
الْإِعَايَةِ فِي اصْطِفَائِهِ ، الَّذِي اقْتَضَاهُ نَظَرُهُ الشَّرِيفُ وَاعْتِمَادُهُ ، وَأَدَّى إِلَيْهِ
إِرْيَاؤُهُ الْمُقَدَّسُ الْإِمَامِيُّ وَاجْتِهَادُهُ . وَحَسَبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ - .

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ، الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ الْوَاقِيَةُ ، وَالنَّعْمَةُ الْبَاقِيَةُ ،
وَالْمَلْجَأُ الْمَنِيْعُ وَالْعِمَادُ الرَّفِيعُ ، وَالذَّخِيرَةُ النَّافِعَةُ فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى ، وَالْجَدْوَةُ

(١) اصطفاؤه .

(٢) قربه وتقديمه .

(٣) إعلاؤه له ورفعه .

المُتَّقِبَةُ من قوله سبحانه : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . وَأَنْ يَدَّرَعَ شِعَارَهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَصْعَالِ ، وَيَهْتَدِيَ بِأَنْوَارِهَا فِي مُشْكِلَاتِ الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ . وَأَنْ يَعْمَلَ بِهَا سِرًّا وَجَهْرًا ، وَيُشْرَحَ لِلْقِيَامِ بِحُدُودِهَا الْوَاجِبَةِ صَدْرًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .

وَأَمْرُهُ بِتِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ مُتَدَبِّرًا غَوَامِضَ عَجَائِبِهِ ، سَالِكًا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَالْهُدَايَةِ فِي الْعَمَلِ بِهِ . وَأَنْ يَجْعَلَهُ مِتَالًا يَتَّبِعُهُ وَيَتَّقِيهِ ، وَدَلِيلًا يَهْتَدِي بِمُرَاشَدِهِ الْوَاضِحَةِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ . فَإِنَّهُ الثَّقَلُ الْأَعْظَمُ ، وَسَبَبُ اللَّهِ الْمُحْكَمُ ، وَالدَّلِيلُ الَّذِي يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ لِعِبَادِهِ جَوَامِعَ الْأَمْثَالِ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ بِهُدَاهِ الرَّشْدَ وَالضَّلَالِ . وَفَرَّقَ بِدَلَالَتِهِ الْوَاضِحَةِ وَبِرَاهِينِهِ الصَّادِقَةِ بَيْنَ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ . فَقَالَ - عَزَّ مِنْ قَائِلٍ - : هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَقَالَ تَعَالَى : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

وَأَمْرُهُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَفْرُوضِ الصَّلَوَاتِ ، وَالِدُخُولِ فِيهَا عَلَى أَكْمَلِ هَيْئَةٍ مِنْ قَوَانِينِ الْخُشُوعِ وَالِإِحْتِبَاتِ . وَأَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ فِي مَوْضِعِ نَجْوَاهِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَنْ يُمَثِّلَ لِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ مَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْعَرْضِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَقَالَ سبحانه : إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . وَأَنْ لَا يَشْتَغَلَ بِشَاغِلٍ عَنْ أَدَاءِ فُرُوضِهَا الْوَاجِبَةِ ، وَلَا يُلْهَوَ بِسَبَبٍ عَنْ إِقَامَةِ سُنَنِهَا الرَّائِبَةِ ، فَإِنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ الَّذِي سَمَتَ أَعَالِيهِ ، وَمِهَادُ الشَّرْعِ الَّذِي رَسَتْ قَوَاعِدُهُ وَمِبَانِيهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى ، وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ . وَقَالَ سبحانه : إِنْ الصَّلَاةَ تَنَهَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَمِيَ إِلَى صَلَوَاتِ الْجُمُعِ وَالْأَعْيَادِ . وَيَقُومَ فِي ذَلِكَ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ . وَأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ مُتَوَاضِعاً ، وَيَبْزُزَ إِلَى الْمُصَلَّيَاتِ الضَّاحِيَةِ فِي الْأَعْيَادِ خَاشِعاً . وَأَنْ يَحَافِظَ فِي تَشْيِيدِ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْوَاجِبِ وَالْمُتَدَوِّبِ . وَيُعَظِّمَ بِاعْتِمَادِ ذَلِكَ شَعَائِرَ اللَّهِ الَّتِي هِيَ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . وَأَنْ يَشْمَلَ بِوَافِرِ اهْتِمَامِهِ وَاعْتِنَائِهِ ، وَكَأَلِ نَظَرِهِ وَإِزْعَائِهِ ، بَيُوتَ اللَّهِ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ الْبَرَكَاتِ وَمَوَاطِنُ الْعِبَادَاتِ ، وَالْمَسَاجِدَ الَّتِي تَأْكُدُ فِي تَعْظِيمِهَا وَإِجْلَالِهَا حُكْمَهُ . وَالْبُيُوتَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُزْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ . وَأَنْ يُرْتَّبَ لَهَا مِنَ الْخَدَمِ مَنْ يَتَّبِعُ^(١) لِإِزَالَةِ أَذْنَابِهَا . وَيَتَصَدَّى لِإِذْكَاءِ مَصَائِحِهَا فِي الظَّلَامِ وَإِبْنَائِهَا . وَيَقُومُ لَهَا بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالْعِمَارَاتِ . وَيُخَضِّرُ إِلَيْهَا مَا يَلِيْقُ مِنَ الْفُرْشِ وَالْكُسُوتِ .

وَأَمْرُهُ بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي أَوْضَحَ جَدَدُهَا^(٢) وَتَقَفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْدَهَا^(٣) . وَأَنْ يَعْتَمِدَ فِيهَا عَلَى الْأَسَانِيدِ الَّتِي تَقْلُهَا الثَّقَاتُ . وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي صَحَّحَتْ بِالطَّرُقِ السَّليمةِ وَالرَّوَايَاتِ . وَأَنْ يَقْتَدِيَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، الَّتِي تَنْدُبُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْعَمَلِ بِسَبِيلِهَا ، وَرَغَبَ أُمَّتُهُ فِي الْأَخْذِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِأَدَبِهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » .

(١) أَيْ مِنْ يَنْفَعُ وَيُخَصِّصُ جِهَدَهُ لِحُدُودِهَا .

(٢) الْجَدُّ : مَا اسْتَرْقَ مِنَ الرَّمْلِ . وَالْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الْمُسَوَّيَّةُ . جَدَدُهَا : أَيْ طَرِيقُهَا الْمُسَوَّى .

(٣) أَيْ : سَوَى جَوَافِهَا : الْأَوْدُ : الْعَوَجُ . وَالْمَرَادُ : يَسَّرَ مِيقَاتِهَا .

وأمره بمُجالسة أهل العلم والدين ، وأولى الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين . والاستشارة بهم في عوارض الشك والالتباس . والعمل بآرائهم في التمثيل والقياس . فإن في الاستشارة بهم عين الهداية ، وأمناً من الضلال والغواية . وبها يُلقح عُقْمُ الأفهام والألباب ، ويُفتدح زنادُ الرشد والصواب . قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها ، والأمر في التمسك بحبلها : « وَشَارِزْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

وأمره بمراعاة أحوال الجُند والعسكر في نُفُوره ، وأن يشملهم بحُسن نظره وجميل تدبيره . مستصلحاً نياتهم بإدامة التلطف والتعهد ، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص عنها والتفقد . وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم . وتهديهم في انتظامها وأتساقفها إلى الصراط المستقيم . وتحملهم على القيام بشرائط الخدم ، والتلزم بها بأقوى الأسباب وأتمن العِصم . ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف . وبصدهم عن موجبات التخاذل والاختلاف . وأن يعتمد فيهم شرائط الحزم في الإعطاء والمنع . وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الحفظ والرفع . وأن يُثيب المُحسن منهم على إحسانه ، ويُسبل على المسيء - ما وسعة العقو واحتمل الأمر - صفحه وامتنانه . وأن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم والحُكَّمة ، ويجتنب بمشاورتهم في الأمر ثمر الشُرْكة . إذ في ذلك أمنٌ من خطأ الأفراد ، وتَرْخُصٌ عن مقام الرئع والاستيذاء .

وَأَمْرُهُ بِالْثَّبُلِ^(١) لما يليه من البلاد وَيَتَّصِلُ بنواحيه من نُفُورِ أُولَى الشَّرِكِ والعناد . وَأَنْ يَصْرِفَ مَجَامِعَ الْاِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا . وَيَخْصُّهَا بِوَفُورِ الْإِهْتِمَامِ بِهَا والتطلع عليها . وَأَنْ يَشْمَلَ مَا بِيَلَادِهِ مِنَ الْحُصُونِ وَالْمَعَاوِلِ بِالْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ ، وَيُنْتَهِيَ فِي أَسْبَابِ مَصَالِحِهَا إِلَى غَايَةِ الْوُسْعِ وَنَهَايَةِ الْإِمْكَانِ . وَأَنْ يَشْحَنَهَا بِالْمَيِّرَةِ^(٢) الْكَثِيرَةِ وَالذِّخَائِرِ ، وَيَعِدُّهَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ بِالْعَدَدِ الْمُسْتَصْلِحِ الْوَافِرِ ، وَأَنْ يَتَخَيَّرَ لِحِرَاسَتِهَا مِنْ يَخْتَارُهُ مِنَ الْأَمْنَاءِ الثَّقَاةِ . وَيَسُدُّهَا بِمَنْ يَتَخَبَّهَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْكَمَامَةِ^(٣) . وَأَنْ يَتَأَكَّدَ عَلَيْهِمْ فِي أَسْبَابِ الْحَيْطَةِ وَالْاِسْتِظْهَارِ ، وَيُوقِفْهُمْ لِلْاِحْتِرَاسِ مِنْ غَوَائِلِ الْعَقْلَةِ وَالْاِغْتِرَارِ . وَأَنْ يَكُونَ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ مِمَّنْ تَزَبُّوا فِي مِمَارَسَةِ الْحُرُوبِ عَلَى مَكَافِحَةِ الشَّدَائِدِ وَتَدْرَبُوا فِي نَصَبِ الْحِبَائِلِ لِلْمَشْرُكِينَ وَالْأَخْذِ عَلَيْهِمْ بِالْمَرَادِدِ وَأَنْ يَعْتَمِدَ هَذَا الْقَبِيلُ بِمَوَاصِلَةِ الْمَدَدِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَالتَّوَسُّعِ فِي النِّفْقَةِ وَالْعَطَاءِ . وَالْعَمَلِ مَعَهُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ وَتَفَاوُثُهُمْ فِي التَّقْصِيرِ وَالْعَنَاءِ . إِذْ فِي ذَلِكَ حَسْمٌ لِمَادَّةِ الْأَطْعَامِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَرَدٌّ لِكَيْدِ الْمَعَانِدِينَ مِنْ عِبَدَةِ الْأَصْنَامِ .

فَعَلَوْهُ أَنْ هَذَا الْقَرَضُ أَوَّلَى مَا وُجِّهَتْ إِلَيْهِ الْعَنَابَاتُ وَصُرِفَتْ ، وَأَحَقُّ مَا قُصِرَتْ عَلَيْهِ الْحُمَمُ وَوُقِفَتْ . فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ مِنْ أَهَمِّ الْفُرُوضِ الَّتِي أُلْزِمَ فِيهَا الْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَأَكْبَرِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي كَتَبَ الْعَمَلُ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ . فَقَالَ صَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هَادِيًا فِي ذَلِكَ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ ، وَمُخَرِّضًا لِعِبَادِهِ عَلَى

(١) الاقطاع ووفور العناية .

(٢) اللون والألوان .

(٣) جمع كمي : وهو الشجاع ، أو لابس السلاح .

قيامهم له بفروض الجهاد : وذلك بأنهم لا يُبْصِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَخْمَصَةً ^(١) في سبيل الله ولا يَطَّأُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ، ولا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عُلُوِّ نَيْلٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إن الله لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . ولا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، ولا يَقْطَعُونَ وادِيًا - إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقال تعالى : **وَالْقُلُوبُ حَيْثُ تَقَعَتْهُمْ** ^(٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من نَزَلَ مِنْزِلًا يُخِيفُ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ وَيُخَفِّفُونَهُ ، كان له كَأَجْرِ سَاجِدٍ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرٍ قَائِمٍ لَا يَقْعُدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرٍ صَائِمٍ لَا يُفْطِرُ . وقال عليه السلام : غُدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ . هذا قوله - صلى الله عليه وسلم - في حق من سَمِعَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ فَوَقَفَ لَدَيْهَا . فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ : مُنْسِكَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا .**

وَأَمْرُهُ بِاِقْتِنَاءِ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رَعَايَاهُ ، وَالِاهْتِدَاءِ إِلَى رَعَايَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ وَالْإِحْسَانِ بِمُرَاشَدِهِ الْوَاضِحَةِ وَوَصَايَاهُ ، وَأَنْ يَسْلُكَ فِي السِّيَاسَةِ بِهِمْ سُبُلَ الصَّلَاحِ ، وَيُشْمَلَهُمْ بِلَيْنِ الْكَفِّ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ . وَيَمُدُّ ظِلَّ رِعَايَتِهِ عَلَى مُسْلِمِهِمْ وَمُعَاهِدِهِمْ ، وَيُزْخِرُ الْأَقْدَاءَ وَالشُّوَابِبَ عَنْ مَتَاهِلِهِمْ فِي الْعَدْلِ وَمَوَارِدِهِمْ . وَيَنْظُرُ فِي مَصَالِحِهِمْ نَظْرًا يُسَاوِي بَيْنَ الضَّعِيفِ وَالْقَوِي ، وَيَقُومُ بِأَوْدِهِمْ قِيَامًا يَهْتَدِي بِهِ وَيَهْدِيهِمْ فِيهِ إِلَى الصَّرَاطِ السَّوِيِّ .

(١) جماعة .

(٢) حيث أدركهم ، أو وجدتهم .

(٣) الهَيْعَةُ : الصوت تَهْرُجُ منه ونَحَاهُ من عُدُو . أَيْ : صَوْتُ قَرَحٍ ، إِذَا نَاقَ بِهِ عَقَال .

قال الله تعالى : « إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْطُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وأمره باعتماد أسباب الاستظهار والأمانة ، واستقصاء الطاقة المستطاعة والقُدرة المُمكنة ، في المساعدة على قضاء نَفْسِ^(١) حُجَّاجِ بيت الله الحرام وزُورِ نَبِيِّهِ - عليه أفضل الصلاة والسلام . وأن يُعِدَّهُم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرَام ، ويَحْرُسَهُم من التَحَطُّفِ والأذى في حالتي الظَّنِّ والمُقَام . فإن الْحَجَّ أحد أركان الدين المُشَيِّدة وفروضة الواجبة المؤكَّدة . قال الله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ .

وأمره بتقوية أيدي العاملين بحُكْمِ الشرع في الرعايا ، وتنفيذ ما يَصْدُرُ عنهم من الأحكام والقضايا ، والعمل بأقوالهم فيما يَثْبُتُ لذوى الاستحقاق ، والشَّدُّ على أيديهم فيما يَرَوْنَهُ من المنع والإطلاق . وأنه متى تأخر أحدُ الحَضَمِينَ عن إجابة داعي الحُكْم ، أو تَقَاعَسَ في ذلك لما يلزم من الأداء والعزم - جَذَبَهُ بَعِثَانُ الْقَسْرِ إِلَى مَجْلِسِ الشَّرْع ، واضطره بقوة الإنصاف إلى الأداء بعد المنع . وأن يَتَوَخَّى عُمَالُ الْوُقُوفِ التي تُقَرَّبُ الْمُتَقَرَّبُونَ بها ، واستمسكوا في ظل ثوابِ الله بِمَتْنِ سَبِيلِهَا . وأن يمدِّهم بِجَمِيلِ المعاونة والمساعدة وحُسْنِ المُوَازَرةِ والمُعَاضَدةِ ، في الأسباب التي تُؤْذِنُ بِالْعَمَارِ والاستِئْماءِ ، وتعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء . قال الله تعالى : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .

(١) أى مناسك الحج ، وما يجب فيه .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَوْلَى الْكِفَايَةِ وَالْتِزَامِهِ مِنْ يَسْتَحْلِصُهُ لِلخِدْمَةِ
وَالْأَعْمَالِ ، وَالْقِيَامَ بِالْوَاجِبِ مِنْ آدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْحِرَاسَةِ وَالتَّكْمِيلِ ، لَيْتَ
الْمَالُ وَأَنْ يَكُونُوا مِنْ ذَوَى الْأَصْطِلَاحِ بِشَرَايِطِ الْخِدْمَةِ الْمُعَيَّنَةِ وَأُمُورِهَا ،
وَالْمُهْتَدِينَ إِلَى مَسَالِكِ صَلَاحِهَا وَتَنْذِيرِهَا . وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِأَخْذِ الْحَقُوقِ مِنْ
وَجْهِهَا الْمُتَيَقَّنَةِ ، وَجِبَايَتِهَا فِي أَوْقَاتِهَا الْمُعَيَّنَةِ . إِذْ ذَاكَ مِنْ لَوَازِمِ مَصَالِحِ
الْجُنْدِ وَوُفُورِ اسْتِظْهَارِهَا ، وَمَوْجِبَاتِ قُوَّةِ الشُّوْكَةِ بِكَثِيرِ الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ ،
وَأَسْبَابِ الْحَيْطَةِ الَّتِي يُحْتَمَى بِهَا الْبِلَادُ وَالْأَمْصَارُ . وَيَأْمُرُهُمُ بِالْجَرِيِّ فِي
الطُّسُوقِ ^(١) ، وَالشُّرُوطِ عَلَى التَّمَطُّعِ الْمُعْتَادِ ، وَالْقِيَامِ فِي مَصَالِحِ الْأَعْمَالِ أَقْدَامَ
الْجِدَّةِ وَالْاجْتِهَادِ . وَإِلَى الْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ بِأَخْذِ الزُّكُوتِ عَلَى مَشْرُوعِ
السَّنَنِ الْمَهِيَجِ ^(٢) ، وَقَضْدِ الصَّرَاطِ الْمُنْتَجِعِ ، مِنْ غَيْرِ عُدُولٍ فِي ذَلِكَ عَنْ
الْمِيزَانِ الشَّرْعِيِّ ، أَوْ تَسَاهُلٍ فِي تَبْدِيلِ حُكْمِهَا الْمَفْرُوضِ وَقَانُونِهَا الْمَرْعَى
إِذَا أُخِذَتْ مِنْ أَرْبَابِهَا الَّذِينَ يَطْهَرُونَ وَيَزُكُّونَ بِهَا سَعَى فِي الْعَمَلِ فِي صَرْفِهَا
إِلَى مُسْتَحِقِّهَا بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَوْجِبِهَا . وَإِلَى جُبَاةِ الْجَزْيَةِ مِنْ أَهْلِ
الذِّمَّةِ بِالْمَطَالِبَةِ بِأَدَائِهَا فِي أَوَّلِ السَّنَةِ ، وَاسْتِيفَاتِهَا مِنْهُمْ عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِهِمْ
بِحُكْمِ الْعَادَةِ فِي الثَّرْوَةِ وَالْمَسْكِنَةِ . إِجْرَاءً فِي ذَلِكَ عَلَى حُكْمِ الْإِسْتِمْرَارِ
وَالْإِنْتِظَامِ ، وَمُحَافَظَةً عَلَى عَظِيمِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَطَّلَعَ عَلَى أَحْوَالِ كُلِّ مَنْ يَسْتَعِيلُهُ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَيُصَرِّفُهُ فِي
مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الْجُمْهُورِ ، تَطَّلُعًا يَقْتَضِي الْوُقُوفَ عَلَى حَقَائِقِ أَمَانَاتِهِمْ ،

(١) ج طسوق : وهو يكيال ، أو ما يوضع من الخراج على الجزيان (الأمدنة) أو شبه ضريبة معلومة .

(٢) طريق مهيج : أي بين .

وَيُوجِبُ تَهْدِيَتَهُمْ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ ، ذَهَاباً مَعَ التُّضْحِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي بَرِّيَّتِهِ ، وَعَمَلاً بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَصْلِحَ مِنْ ذَوَى الْأَضْطِلَاعِ وَالْعَنَاءِ ، مَنْ يُرْتَبُ لِلْفَرَضِ وَالْعَطَاءِ ، وَالتَّفَقُّعِ فِي الْأَوْلِيَاءِ وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْحَرَمِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَالْمَوْسُومِينَ فِي الْمُنَاصَحَةِ بِإِخْلَاصِ الطَّوْبَةِ وَإِصْفَاءِ السَّرِيرَةِ ، خَالِينَ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالصُّلُوبِ بِمَا يَزِينُ . نَاكِيبٍ عَنْ مَقَانِ الشُّبْهِ وَالطَّمَعِ الَّذِي بَصِمُ وَيَشِينُ . وَأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِاتِّبَاعِ عَادَاتِ أُمَّتِهِمْ فِي ضَبْطِ أَسْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَتَحْلِيلَةِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْكَالِ وَاعْتِبَارِ شَيَاتِ^(١) الْخِيُولِ وَإِثْبَاتِ أَعْدَادِهَا ، وَتَحْرِيزِ الْجُنْدِ عَلَى تَحْيِيرِهَا وَاقْتِنَاءِ جِيَادِهَا . وَبَذَلِ الْجُهِدِ فِي قِيَامِهِمْ مِنَ الْكُرَاعِ^(٢) وَالْبَرَكِ^(٣) وَالسَّلَاحِ بِمَا يَلْزَمُهُمْ ، وَالْعَمَلِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . فَإِذَا نَطَقَتْ جَرَائِدُ^(٤) الْجُنْدِ الْمَذْكُورِينَ بِمَا أُثْبِتَ لَدَيْهِمْ ، وَحَقَّقَ الْإِعْتِبَارُ وَالْعَيَانُ قِيَامَهُمْ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ ، أُطْلِقَتْ لَهُمُ الْمَعَايِشُ وَالْأَرْزَاقُ بِحَسَبِ إِقْرَارَاتِهِمْ ، وَأُوصِلَتْ إِلَيْهِمْ بِمُقْتَضَى وَاجِبَاتِهِمْ وَاسْتَحْقَاقَاتِهِمْ . فَإِنْ هَذِهِ الْحَالُ أَصْلُ حِرَاسَةِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ، وَقَوَامُ الْأَمْرِ فِيمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِ الْإِسْتِعْدَادِ

(١) أوصاف ، أو علامات .

(٢) اسم جمع . معناه : الخيل .

(٣) البرك : المنافع والحاجات .

(٤) كشوف الحساب في الديوان .

بِفَرْضِ الْجِهَادِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وَأَمْرُهُ بِتَفْوِضِ أَمْرِ الْحِسْبَةِ إِلَى مَنْ يَكُونُ بِأَمْرِهَا مَضْطَلَعًا ، وَلِلْسُنَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي إِقَامَةِ حُدُودِهَا مَثْبُتًا . فَيَعْتَمِدُ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَحْوَالِ الْعَامَّةِ فِي تَصَرُّفَاتِهَا الْوَاجِبُ . وَيَسْتَلْكَ فِي التَّطَلُّعِ عَلَى مُعَامَلَاتِهِمُ السَّبِيلَ الْوَاضِحَ وَالسَّنَنَ الْلَاحِظَ ^(١) . وَيَأْتِيهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ لاعتبار المكايل والموازين ، وَيَعْتَمِدُ فِي مُوَاخَذَةِ الْمُطْغَفِّينَ ^(٢) وَتَأْدِيبِهِمْ بِمَا تَقْتَضِيهِ شَرِيعَةُ الدِّينِ . وَيُحَذِّرُهُمْ فِي تَعَدُّى حُدُودِ الْإِنصَافِ شِدَّةَ نَكَالِهِ ، وَيُقَابِلُ الْمُسْتَحِقَّ لِلْمُوَاخَذَةِ بِمَا يَرْتَدِّعُ بِهِ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ مِنْ أَمْثَالِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أُولَئِكَ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَلَيْلٌ لِلْمُطْغَفِّينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ . أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْجُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

فَلْيَتَوَلَّ الْمَلِكُ الْأَجَلُ ، السَّيِّدُ الْكَامِلُ الْمُجَاهِدُ الْمُرَابِطُ ، نَصِيرُ الدِّينِ رُكْنُ الْإِسْلَامِ أَثِيرُ الْإِمَامِ ، جَمَالُ الْأَنَامِ ، جَلَالُ الدَّوْلَةِ ، فَخْرُ الْمِلَّةِ عِزُّ الْأُمَّةِ ، سِتْدُ الْخِلَافَةِ ، تَاجُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، قَامِعُ الْكُفْرَةِ وَالْمُشْرِكِينَ ، قَاهِرُ الْخَوَارِجِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ، أَمِيرُ الْمُجَاهِدِينَ : أَلْبَ غَازِي بَلَكْ ، مَعِينُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - مَا قَلَّدَهُ عَبْدُ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمُ لَهُ بِحَقِّهِ الْوَاجِبُ

(١) أَى : الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ .

(٢) طَغَفَّ : زَادَ أَوْ نَقَصَ الْيَكْيَالَ عَنْ الْقَدْرِ الْحَلَالِ .

وفرضه : أبو جعفر المنصور « المُستَنصِر بالله » أمير المؤمنين - بقلب مطمئن بالإيمان ، ونُصَحَ لِه تَعَالَى وَلِخَلِيفَتِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَلِيُشْرَحَ بِمَا قَوَّضَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ صَدْرًا ، وَلِيُقَمَّ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ مِنْ شُكْرِ هَذَا الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ سِرًّا وَجَهْرًا . وَلِيَعْمَلَ بِهِذِهِ الْوَصَايَا الشَّرِيفَةُ الْإِمَامِيَّةُ ، وَلِيَقْتَفِيَ آثَارَ مَرَّاشِدِهَا الْمُقَدَّسَةِ النَّبَوِيَّةِ . وَلِيُظْهِرَ مِنْ أَثَرِ الْجِدِّ فِي هَذَا الْأَثَرِ وَالْإِجْتِهَادِ ، وَتَحْقِيقِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ فِيهِ وَالْإِرْشَادِ - مَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى تَأْيِيدِ الرَّأْيِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ - أَجَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي اصْطِنَاعِهِ وَاسْتِكْفَائِهِ ، وَإِصَابَةِ مَوَاقِعِ التَّجَنُّعِ وَالرُّشْدِ فِي التَّفْوِيزِ إِلَى حَسَنِ قِيَامِهِ وَكَمَالِ غَنَائِهِ وَلِيَقْدِرَ الثَّمَنَةُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ حَقَّ قَدْرِهَا . وَلِيَعْتَرِ^(١) بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ مِنْ جَزِيلِ الشُّكْرِ - غَزِيرَ دَرِّهَا ، وَلِيُطَالِعَ مَعَ الْأَوْقَاتِ بِمَا يُشْكَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَوَاضِ . وَلِيُنْهِيَ إِلَى الْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ الْمُقَدَّسَةِ - أَجَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى - مَا يَلْتَبَسُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالْعَوَاضِ . لِيَرِدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْثَلَةِ مَا يُوضَعُ لَهُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِي الْأُمُورِ ، وَيُعَدَّ مِنَ الْمَرَّاشِدِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي هِيَ شِفَاءُ مَا فِي الصَّدُورِ ، بِمَا يَكُونُ وَرُودُهُ عَلَيْهِ . وَتَتَابَعُهُ إِلَيْهِ ، نُورًا عَلَى نُورٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَكُتِبَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَسِتِّينَ^(٢) . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، قُتِبَتْ دَارُ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ^(٣) الْمَجَاوِرَةُ لِقَلْعَةِ دِمَشْقِ الْمَحْرُوسَةِ ، لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ . وَأُمِّلَى بِهَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ : تَقِيُّ

(١) مَارَ عِيَالَهُ ، وَاسْتَارَ لَهُمْ : أَيِ جَلَبَ لَهُ مَخْطَمًا .

(٢) هَذَا نَصٌّ عَلَى تَارِيخٍ بِمُتَابَعَةِ هَذَا الْعَهْدِ . وَهُوَ يَبَيِّنُ أَنَّ الْعَهْدَ كَانَ لِلْمَلِكِ الْكَامِلِ لَا أَيْه .

(٣) مَدْرَسَةُ بَنَاهَا الْأَشْرَفُ مُوسَى بْنُ الْعَادِلِ .

الدين بن الصَّلَاح الشافعي^(١) وَوَقَفَ عليها الملك الأشرف أوقافاً جليلة .

ذكر ركوب الملك العادل بشعار السُّلْطَنَة

وفي الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء ، ثامن عشر شهر رمضان ، من هذه السنة - سَلَطَنَ السلطانُ الملكُ الكامل وَلَدَهُ الملكَ العادلَ سيفَ الدين أبا بكر ، وَرَكَبَهُ في هذه الساعة بِشِعارِ السُّلْطَنَة . وَشَقَّ القاهرة ، وفي خدمته جميعُ الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين والأماثل وغيرهم .

وفيها - في صفر - تسلم رَاجِعُ بن قَتادة مكة - شَرَفَهَا الله تعالى - وكان قد قَصَدَهَا في سنة تسع وعشرين ، وصحبته عسكر صاحب اليمن : الملك المنصور عُمر بن علي بن رَسُول . وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ بمكة ، ففارقها .

وفيها كانت وفاة الملك العزيز : فخر الدين عثمان بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب . وهو شقيقُ الملك المعظم . وكان صاحب بانياس ونبين وهونين والحُصُون . وهو الذي بنى قلعة الصُّبَيْبَة

وكان عاقلاً قليل الكلام ، مُطِيعاً لأخيه الملك المعظم ، وإنما أخرجه عن موالاته وَلَدُهُ - الملكُ الناصر داود - أنه كان قَصَدَ بعلبك في سنة خمس وعشرين وستائة ، بمواطنة من ابن الملك الأمجد صاحبها - كما تقدم - فلما

هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ، الكُرْدِيُّ الشَّهْرَزُورِيُّ ، المعروف بابن الصَّلَاح . كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه . دُرِّسَ بالمدرسة الناصرية بالقدس . ثم لما بينى الملك الأشرف د. الحديث بدمشق ، قَرَضَ تدريسها إليه . ولد سنة ٥٧٧ . وتوفى في سنة ٦٤٣ هـ .

(وفيات الأعيان : ج ٢ - ٤٠٨)

فاته وقتُ الميعاد ، الذى اتفقا عليه ، نزل على بعلبك ، وأخذ فى حصارها . فأرسل الملك الأجدد إلى الملك الناصريقول له : أنت تعلم ما كان بينى وبين والدك الملك المعظم من المودة ، وأننى كنت صديقاً من صادقته وعدو من عاداه ، فَرَحِّلْ عَنِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ .

فأنفذ الملكُ الناصرُ داودَ القُرسَ خَليلاً إلى الملكِ العزيزِ ، وأمره بالرحيل . وقال له : متى لم يَرَحِّلْ ، أَرَمَ خَيْمَتَهُ عَلَى رَأْسِهِ ! فرحل العزيزُ إلى بانياس وأوجبت هذه الحادثةُ غضبه ، إلى أن التحق بالملك الكامل ، وجاء معه إلى دِمَشق - كما تقدم .

وكانت وفاة الملك العزيز فى يوم الاثنين ، عاشر شهر رمضان ، سنة ثلاثين وستمائة ، ببستانه فى النَّاعِمَةِ ، بَيَّيْتُ لَهَا^(١) من غُوطَةِ دِمَشق . ودفن بقاسيون فى نربة الملك المَعْقُطِمْ ، عند والدته - رحمه الله تعالى .

وفىها ، فى يوم الاثنين ، سابع عشرين شهر ربيع الأول ، تُوفى بالقاهرة الشيخ جلال الدين أبو العزائم : هَمَّامُ بْنُ رَاجِيٍّ اللَّهِ سَرَّابَا ، بن أبى الفتوح ناصر . بن داود الشافعى : إمام جامع الصالح ، بظاهر باب زُوَيْلَّةَ^(٢)

رَحَّلَ إلى بغداد واشتغل بها مدة ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ ، واشتغل بالأدب بمصر على ابن بَرِّي^(٣) ولقى جماعة من الأدباء ، وصَفَّ كُتُباً كثيرة فى

(١) (بكر اللام) : قرية مشهورة بغوطة دمشق .

(٢) (ياقوت : ج ٢ - ٢٧٤)

(٣) هو الباب الجوى لمدينة القاهرة القديمة . وقد ذكرناه من قبل .

(٣) هو أبو محمد عبد الله ابن بَرِّي (بفتح الباء) المَقْلِسَى الأصل ، المصرى . الإمام المشهور فى علم النحو واللغة . اطلع على أكثر كلام العرب ، وله حاشية على الصَّحَاح . ولد سنة ٤٩٩ هـ . وتوفى سنة ٥٨٢ هـ . (وفيات الأعيان : ج ٢ - ص ٢٩٢)

الأصول والفروع والخلاف ، مُحْتَصَرَةٌ وَمُطَوَّلَةٌ . وله شعر . ومولده بُونَا من صَعِيد مصر ، في ذِي الْقَعْدَةِ أَوْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . رحمه الله . ولما مات ، وَلِيَ الْإِمَامَةَ بِالْجَامِعِ الصَّالِحِيِّ بَعْدَهُ وَلَدُهُ : نور الدين علي .

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبي حفص : عمر بن محمد بن عبد الله السُّهْرَوْرْدِي . وهو ينتسب إلى أبي بكر الصَّدِيق - رضى الله عنه - فيما قيل . وذكر ابن خَلِّكَانَ أَنَّ وفاته كانت في مُسْتَهْلَ ذِي الْحِجَّةِ ، سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . ومولده بِسُهْرَوْرْدٍ ، في سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وقد تقدم ذكرُ تَرَدُّدِهِ في الرِّسَالَةِ ، من جهة الخليفة إلى الملك العادل ، وغيره . وكان رجلاً صالحاً عابداً ، زاهداً ورِعاً . وصَنَّفَ كِتَاباً لِلصُّوفِيَةِ ، سماه عَوَارِفُ الْمَعَارِفِ .

حكى أَنَّهُ جلس يوماً بِيَعْدَادٍ عَلَى مَنبَرٍ وَعَظَهُ ، فَذَكَرَ أَحْوَالَ الْقَوْمِ ، وَأَنشَدَ :

مَا فِي الصُّحَابِ أَخْوَرُ وَجَدٍ نَظَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ ، وَلَا صَبُّ نَجَارِيهِ

وجعل يُرَدِّدُ الْبَيْتَ وَيَطْرُبُ ! فصاح به شابٌ من طَرَفِ الْمَجْلِسِ - عَلَيْهِ قَبَاءٌ وَكُلُوتَةٌ ^(١) - وقال : يَا شَيْخُ ، كَمْ تَشْطَعُ وَتَنْقِصُ الْقَوْمَ ! وَاللَّهِ إِنْ

(١) غطاء للرأس ، شبه بالطائفة ، كان يلبسه الأمراء الكبراء من غير رجال الدين (شرحناه من قبل) .

فيهم من لا يرضى أن يُجَارِيكَ ، ولا يصل فهُمَّكَ إلى ما تقول ! هلا
أُنْشَدْتَ :

ما في الصحاب ، وقد سارت حُؤْلُهُمْ
إلا مُحِبٌّ له في الركب مَحْبُوبُ
كأنما يُوسَفُ في كل راحِلَةٍ
والْحَيُّ في كل بَيْتٍ منه بِغُفُوبُ

فصاح الشيخ ، ونزل عن المنبر وقصد الشاب ، لِيَعْتَذِرَ إليه . فلم
يَجِدْهُ . ووجد في موضعه حُفْرَةً فيها دم ، مما فَحَصَ رَجُلُهُ عند إنشاد الشيخ
اليث ! .

وفيهما توفى الشيخُ الفاضل : عز الدين أبو الحسن علي ، بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكرم ، بن عبد الواحد الشَّيْكَانِي - المعروف بابن
الأثير الجَزْرِي^(١) . وكانت وفاته في هذه السنة من شعبان . ومولده في رابع
جُمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، بجزيرة ابن عُمر^(٢) .

وكان رجلاً فاضلاً ، صُنِّفَ في التاريخ كتاب « الكامل » من أول
الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستائة . وهو من أجود التواريخ التي
رأيناها . واختصر كتاب « الأنساب » لأبي سعيد عبد الكرم بن الشَّيْكَانِي ،

(١) هو القُرْبُخ المشهور : ابن الأثير .

(٢) ورد ذكرها من قبل ، وهي بلدة فوق الموصل .

واستدرك عليه في مواضع . وثبته على أغاليط ، وزاد أشياء . وهو كتاب مفيد
في ثلاث مجلدات وأصله في ثمانية ، وهو عزيز الوجود . وفصائله وآدابه
مشهورة - رحمه الله تعالى .

وفيهما كانت وفاة شرف الدين أبي المحاسن : محمد بن نصر بن مكارم ،
ابن الحسن بن علي بن محمد ، بن غالب الأنصاري ، المعروف بابن عثيمين -
الكوفي الأصل ، الدمشقي المولد . وقيل بل هو من زرع من إقليم حوران .
نشأ في دمشق ، وسافر عنها ، وطوف البلاد شرقاً وغرباً . ودخل بلاد
الجزيرة والروم والعراق وبغداد وخراسان وما وراء النهر ، وبلاد الهند واليمن
والحجاز ومصر . ومدح ملوك هذه الأماكن وأعياها .

وكان ظريفاً حسن الأخلاق جميل العشرة . غزير المادّة في الشعر ،
مولعاً في الهجاء وتلبّ أغراض الناس - خصوصاً الأكابر . وله قصيدة طويلة
جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء الشام وأهل دمشق ، سماها : « مقرّاض
الأغراض » ، يقال إنها خمسمائة بيت .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد نفّاه من دمشق ،
بسبب وقوعه في الناس . ولما نفى كتب من الهند إلى دمشق :

فَعَلَّامَ أَبْعَدْتُمْ أَخَائِفِي لَمْ يَجْتَرِمِ ذَنْبًا وَلَا سَرَفًا
انْقُوا الْمُؤَذِّنَ مِنْ بِلَادِكُمْ إِنْ كَانَ يُنْقَى كُلُّ مَنْ صَدَقَا

ولما مات الملك الناصر صلاح الدين ، ومَلَكَ الملكُ العادل دمشق ،
سار متوجهاً إلى الشام . وكب إلى الملك العادل قَصِيدَتَه الرَّائِيَّةَ ، واستأذَنَهُ في
الدخول إلى دمشق . ووصفها وصف ما قاسى في القُرْبَةِ ، ولما فرغ من وصف
دمشق وأنهارها وبساتينها ومُسْتَرَاهَاتِهَا ، قال في قصيدته :

فَارَقْتَهَا لَاعِنَ رِضَى ، وَهَجَرْتَهَا لَا عَنْ قَلْبٍ ، وَرَحَلْتُ لَا مُتَحَيِّراً
أَسْقَى لِرِزْقٍ فِي الْبِلَادِ مُشْتَبِراً وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مُقْتَرّاً
وَأَصُونُ وَجَهَ مَدَانِحِي مُتَقَنّاً وَأَكْفُ ذَبِيلَ مَطَامِعِي مُتَسَرّاً

جاء منها في شكوى القُرْبَةِ ، وما قاساه منها :

أَشْكُو إِلَيْكَ نَوَى ، تَأْدِي عُمْرَهَا حَتَّى حَيِّتَ الْيَوْمَ مِنْهَا أَشْهُرَا
لَا عِشْقِي يُصْفُو وَلَا رَسْمُ الْهَوَى يَغْفُو ، وَلَا جَفْنِي يُصَافِيهِ الْكَرَى
أُضْحِي عَنِ الْأَحْوَى الْهَرَبِ مُجَلّاً ^(١) وَأَيْتُ عَنْ وَرْدِ التَّمِيرِ ^(٢) مُتَقَرّاً
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَفِيّاً ظِلَّكُمْ كُلُّ الْوَرَى ، وَنُبْذْتُ وَحْدِي بِالْعَرَا

فلما وقف العادل على هذه القصيدة ، أذِنَ لَهُ في الدخول إلى دمشق ،

فدخلها .

(١) خَلَاةٌ مِنَ الْمَاءِ : طَرْدُهُ وَمَنْعُهُ . « الْقَامُوس » .

وَالْأَحْوَى : الْأَرْضُ الْمُحْضَرَّةُ أَوْ التَّرْمَى . قَالَتْنِي : أَنَّهُ يُضْحِي عَنِ الْمَرْحَى الْخَصِيبِ مَطْرُوداً .

(٢) التَّمِيرُ : التَّقْدِيرُ الْعَاقِبُ .

وقال :

هَجَوْتُ الْأَكَابِرَ فِي جِلْدٍ^(١) وَرُعْتُ الْوَضِيعَ بِسَبِّ الرَّفِيعِ
وَأُخْرِجْتُ مِنْهَا ، وَلَكِنِّي رَجَعْتُ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الْجَمِيعِ

وكانت وفاته في عشية يوم الاثنين ، العشرين من شهر ربيع الأول ،
سنة ثلاثين وستمائة . ومولده في يوم الاثنين ، تاسع شعبان ، سنة تسع وأربعين
وخمسائة - حكاه ابن خُلِكَان وابنُ السَّاعِي .

وقال أبو الْمُظَفَّر في مِرَاة الزَّمان : إن وفاته كانت في سنة ثلاث وثلاثين .

قال : وكان خَبِيثَ اللِّسان هَجَاءً ، فَاسِقًا مُتَهَنِّكًا . قال : ولما عاد إلى
دمشق ، اسْتَوَزَّرَهُ الْمَلِكُ الْمُعَظَّم . وكانت مجالسُه مَعْمُورَةً بِقَبَائِحِهِ .

قال : وحضر مجلسَ الإمامِ فخر الدين الرَّازِي بن خطيب الرُّمِّي ، وهو
يَعِظُ ، فَجَاءَتْ حَمَامَةٌ وَخَلْفَهَا جَارِحٌ ، فَأَلَقَتْ نَفْسَهَا عَلَى الْإِمَامِ فخر الدين ،
فَعَطَّاهَا بِكُمِّهِ . فقال ابنُ عُثَيْنٍ ، بَلَدِيهَا :

يَا ابْنَ الْكِرَامِ ، الْمُطْعِمِينَ إِذَا شَتَا فِي كُلِّ مَسْعَةٍ وَثَلَجٍ خَاسِفٍ^(٢)
الْعَاصِمِينَ إِذَا النُّفُوسُ تَطَايَرَتْ بَيْنَ الْمَخَارِمِ وَالْوَتِينِ^(٣) الرَّاعِفِ

(١) من أسماء « دمشق » .

(٢) في كل وقت للجموع ، أو جماعة . وفي (ك) : مسبعة . وهو خطأ . والشَّبُّ : الجوع الشديد .

(٣) الموجود في النسختين : والوسيح . وهو غير معروف في اللغة . فرجحت قراءتها : والوتين ، وهو عرق في
العنق . وبه يستقيم المعنى في البيت .

(١) مَنْ أَنْبَأَ الْوَرَقَاءَ أَنَّ بِحِلْكُمْ حَرَمًا ، وَأَنَّكَ مَلْجَأٌ لِلخَائِفِ
وَفَدَتْ عَلَيْكَ ، وَقَدْ تَدَانَى حَتْفُهَا فَحَبَّوْنَهَا بِبَقَائِهَا الْمُسْتَأْنَفِ
ولو أنها تُحْيِي بِمَالِهَا ، لَأَنْتَنَتْ مِنْ رَاخَتِكَ بَنَائِلُ مُضَاعِفِ
جاءت سُلَيْمَانَ الزَّمانَ بِشُكْرِهَا وَالْمَوْتُ يَلْمَعُ مِنْ جَنَاحِي خَاطِفِ
قَرْمٌ (٢) لَوَاهُ الْفَوْتُ حَتَّى ظَلُّهُ بِإِزَائِهِ يَجْرِي بِقَلْبِ خَائِفِ

قال : فرمى عليه الإمام فخر الدين جميع ما كان عليه ، وفعل
الحاضرون كذلك . فبلغ قيمة ذلك أربعة آلاف دينار ! وكتب معه كتاباً إلى
الملك الناصر ، وكتاباً إلى الملك العادل ، يَشْفَعُ فيه . فقبل الملك شفاعته .

ولما عاد هجا العادل ، فقال :

إِنْ سُلْطَانَنَا الَّذِي نَرْتَجِيهِ وَاسِعُ الْمَالِ ضَيِّقُ الْإِنْفَاقِ
هُوَ سَيِّفٌ كَمَا يُقَالُ ، وَلَكِنْ قَاطِعٌ لِلرُّسُومِ وَالْأَرْزَاقِ

وهجا أيضاً أولاد شيخ الشيوخ الأربعة ، فقال :

أَوْلَادُ شَيْخِ الشُّيُوخِ قَالُوا الْقَائِلُ كُلُّهَا مُحَالٌ
لَا فَخْرَ فِينَا وَلَا عِمَادٌ وَلَا مُعِينٌ ، وَلَا كَمَالٌ

وأهاجيه في الأكابر والأعيان كثيرة - سامحه الله تعالى وإيانا :

(١) الهامة .

(٢) القَرْمُ : الفعل ، أو السِّد .

واستهلّت سنة إحدى ولّالّين وسّالة :

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة ، وصل الملك الأشرف ، صاحب دمشق ، إلى السلطان بالديار المصرية ، وحرّضه على قصد بلاد الروم . فخرج بالعساكر من القاهرة في ليلة السبت ، لخمس خلون من شعبان ، واستتاب بالديار المصرية ولده الملك العادل : سيف الدين أبا بكر .

وسار حتى وصل إلى دمشق ، وجمع سائر الملوك . وسار من دمشق ، فنزل بظاهر البصرة^(١) . واجتمعت الملوك ، فكانوا ثلاثة عشر ملكا : كلهم من بني أيوب . وعرض العساكر أطلابا ، فكبرت نفسه وتعاظم . ثم دخل بهم الدربندكات^(٢) ، وأشرف على أرض الروم ، وماشك في أخذها .

فاجتمع الملوك إلى الملك الأشرف ، قالوا : متى فتح الملك الكامل بلاد الروم ، استولى على ممالكنا ، وعوضنا عنها من بلاد الروم . فانفقوا على خذلانه ، ومكاتبة صاحب الروم : علاء الدين كيقيباد ، بن كيخسرو

(١) اسم لعدة مواضع . منها بلد قرب شَيساط ، بين حلب والنعور الرومية . وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع (قُرى حولها) .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٣٣٠)

(٢) الطرق الضيقة بين الجبال في مداخل بلاد الروم ، شمال البصرة .

(انظر السلوك : ج ١ - ٢٤٨)

السُّلُجِيُّ ، فكانت به . فوقعت الكبُّ إلى الملك الكامل ، فرَحَلَ عن الدَّرَبَاتِ لوقته ، وعاد إلى السُّوَيْدَاءَ ^(١) وخيَّم بها .

وكان عند نزوله على الدَّرَبَاتِ ، أرسل الملك المظفر صاحب حِجَاز ، والطَّوَّاشِيَّ شمس الدين صَوَّاب ، وجماعة من الأمراء ، إلى خَرَّتْ بِرْتِ ^(٢) . وكان بها عسكرٌ كثيفٌ من عساكر الروم ، فكسروهم ، وأسروا بعض الأمراء الكامليَّة ، وطلع الملك المظفر ، والطَّوَّاشِيَّ صَوَّاب ، والباُنْيَاسِيَّ وجماعةً من الأمراء ، إلى القلعة ، فأقاموا بها سبعةَ عشر يوماً ، وطلبوا الأمان من صاحب الروم . فَأَمَّنَهُمْ على تسليم القلعة ، ولا يأخذوا منها شيئاً .

فعلوا ذلك ، ونزلوا إليه . فخلع عليهم وأعادهم إلى الملك الكامل . ولم يَسَلِّمْ من خيلهم في هذه الوقعةَ إِلَّا سبعةً أو ثمانية : كلُّ أميرٍ على فرس . فسير السلطان الملك الكامل إليهم الخيول ، فركبوها ووصلوا إلى السلطان إلى السُّوَيْدَا ، فأحسن إليهم . ثم عادَ إلى الديار المصرية ، وقد حصلت الوحشة بينه وبين سائر الملوك . وكان وصوله في جِهادي الأولى ، سنة اثنتين وثلاثين .

(١) بلدة مشهورة في ديار مصر ، قرب حران . بينها وبين بلاد الروم . فيها غيرات كثيرة . وأكثر أهلها أرمن .

(معجم البلدان : ج ٥ - ١٨٠)

(٢) اسم أرمني . وهو الحصن المعروف بحصن زياد ، في أقصى ديار بكر من بلاد الروم . بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينها الفرات .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٤١٥)

ولما رجع ، جهّز صاحبُ الروم جيشاً كبيراً إلى حرّان والرّها وآبد ،
والسّوندا وقطيّنا^(١) ، فاستولى على ذلك ، ورثبَ فيهم من يحفظهم . وكانت
هذه الجهات تحت يد شهاب الدين غازى - أخى السلطان - والملك الصالح

نجم الدين أيوب : ولده . **مَحِينُ التَّارِخِ**
لأهل التَّارِخِ

فلما اتصل ذلك بالملك الكامل ، تجهّز بمساكره وخرج من القاهرة ،
فى ثالث عشرين ذى القعدة من السنة : وكان قد أوصى ولده الملك الصالح
نجم الدين وأخاه شهاب الدين غازى - أن صاحب الروم إذا قصد البلاد
يتركونها ، ويحضرّون ، وقال له : إذا أخذَ البلادَ استعدّها منه ، وإذا
أخذَكم لا تقبلُ على استعادتكم منه . فلما وصل عسكر صاحب الروم إلى
البلاد ، تركاها ، وسارا بعسكرهما إلى سكّينيه .

ولما قدّم السلطان إلى دمشق ، كان بها ولدا^(٢) ولده الملك الصالح ،
وهما : جلال الدين ، وثورانشاه ، فخرجا يُسكّان على جدّهما ، فأنشهرهما ،
فخرجا من عنده . واتصل ذلك بأبيها ، فعلم أن الغضب إنما هو عليه ،
لاعلى ولدّيه . فأرسل إليهما وأخذهما من دمشق ، ولم يُشعِرْ بذلك جدّهما .

وسار عن سكّينيه ، ومعه شهاب الدين غازى ، فوصل إلى حصن
كيفا ، ووصل شهاب الدين إلى ميّافارقين . فعظم ذلك على السلطان ، وذكر
ما فعله الصالح لبعض الأمراء . فتلطف فى الاعتذار عنه ، وقال : الملك
الصالح معذور ، لأن السلطان سلّم له البلاد وجعله تحت الحَجَر . ثم فعل

(١) سبق التعريف بهذه المواقن ، ما عدا الأخيرة .

قطيّا : بلدة على نهر الزاب الأعلى ، شمال الموصل .

(٢) فى (ج) : وكان بها ولدى ولده ، ا

السلطان بأولاده مافعل . فأرسل إليه وطيب قلبه ، وأمره أن يمضى هو وشهاب الدين غازى لمحصنة السويداء ، فتوجهتا إليهما .

ووصل السلطان إليهما أيضا . ثم مضى إلى آيد ، فهرب العسكر الرومى منها . ووصل السلطان إلى حران ، وفتحها عتوة فى ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين . وفتح قلعة الرها عتوة . وتسلم السويداء عتوة ، فى جمادى الآخرة . وهدم قلعة الرها . وأسّر من كان فى هذه القلاع من الروم . وأخذ قطينا فى شهر رجب عتوة ، ونزل على دُنَيْسِر^(١) فأخربها ، إلا الجامع .

وسير جميع الأمراء إلى الديار المصرية فى الجوالق ، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف . ورتب ولده الملك الصالح بآيد . وأضاف إليه حران والرّها ونصيبين ، والخابور^(٢) ورأس عين والرّقة ، وجعله سلطانا مستقلا . وعاد إلى الديار المصرية . فوصل إلى القاهرة فى شعبان ، سنة ثلاث وثلاثين وستائة .

(١) سبق التعريف بها ، وهى بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة ، قرب مازدين : بينها فرسخان .

(ياقوت : ج ٤ - ٩٤)

(٢) سبق التعريف بهذه الأماكن . أما الخابور فهو أولا اسم لتركيب بين رأس عين والفرات ، من أرض الجزيرة . ثم أطلق اسمه على ولاية واسعة ولدان فى تلك الجهة .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٢٨٣)

نعود إلى تسعة حوادث سنة إحدى وثلاثين وستائة .

فيها وَلَّى الأمير جمال الدين يَعمُور ^(١) شَدَّ الدواوين بالديار المصرية

وفيها عَمَّرَ الملكُ الأشرفُ مسجدَ جُراح خارج باب الصَّغير بدمشق ،
ورُتِبَ فيه خُطبة للجمعة ، يصل فيه سكان الشَّاعُور وغيرهم .

وفيها قدم رسولُ الأتُورُوك ملكُ الفِرَنج بالهدايا والتُّحف ، وفي جملة
ذلك دُبٌ أبيض ، شَعْرُه مثل شعر السَّبع ، ينزل إلى البحر فيصيد السمك
ويأكله ، وطاووس أبيض ، وغير ذلك .

وفيها عُزِّلَ قاضى القضاة عمادُ الدين بن الحَرَسَتَانِ عن قضاء الشام ،
ووليه قاضى القضاة شمسُ الدين بن سَنَى الدَّوْلَة .

وفيها ، تُوُفِيَ الأتابِكُ : شهاب الدين طُغرُل الخادم ، عَتِيقُ السلطان
الملك الظاهر ، صاحب حلب - وكان أَرْمَنِيَّ الجنس ، حَسَنَ السَّيَرَةِ محمود
الطريقة ، صالحاً عفيفاً ، زاهداً كثير الصدقة والإحسان ، يُقَسِّمُ الليل
أَثَلَاثًا : فالثُلُثُ الأولُ يُجْرَى حكاياتُ الصالحين وأحوالِ الناس ومحاسنهم ،
وينام الثلث الأوسط ، ويحیی الثُلُثُ الآخرُ قِرَاءَةَ وصلاةً وبُكَاءً . وكان
حَسَنَ الوَسَاطة عند الملك الظاهر

(١) فى (ع) : شاد . وهذا وصف صاحب الوظيفة . ولكن المراد المصدر . وقد تكلمنا على شد الدواوين فيما
تقدم . وهذه الوظيفة هى الكشف عن حسابات الدواوين ومراقبتها ، والتحدث فى ذلك إلى الوزير .

ولما توفى الظاهر ، قام بأمر ولده العزيز أحسن قيام . واستمال الملك الأشرف ، حتى حَقِطَ على الملك العزيز البلاد- ولما استعاد الملك الأشرف تَلْ بِأَشِير^(١) ، دفعها لهذا الخادم ، وقال هذه تكون لصدقاتك وما يلزمك ، فإنك تَكْرَهُ أن تصرف في أموال الصغير ، فنقل إليها من الأموال والنخائر كل نفيس . وكان قد طَهَرَ حلب من الفسق والفُجور والمُكُوس . وكان الملك الأشرف يقول : إن كان لِلَّهِ تعالى في الأرض وَلِيٌّ ، فهو هذا الخادم ، الذي فعل ما عجز عنه الفُحُول .

فلما تَرَعَرَعَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ بْنُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، في سنة تسع وعشرين وثمانمائة- قال له بعض خَوَاصِهِ : قد رَضِيتَ لنفسك أن تكون تحت حَجَرٍ هذا الخادم ! فأخذ منه تَلْ بِأَشِير ، ونَزَعَ يَدَهُ منه . وبقي الْأَمَّاكُ لَا يَتَقَدُّ لَهُ أَمْرٌ ثم مَرِضَ وتوفى بحلب ، في ليلة الحادى عشر من المحرم ، من هذه السنة . ودُفِنَ بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين- رحمه الله تعالى .

وفيهما توفى الشيخ أبو عبد الله : الحسين بن محمد بن يحيى ، بن مُسْلِمِ الرَّيْبِلِيِّ . سَمِعَ أبا الْوَقْتِ عَبْدَ الْأَوَّلِ^(٢) بن عيسى ، وغيره .

(١) قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب : بينها وبين حلب يومان . ولها رَنْقُسُ (ريف حولها) وأسواق . وهي عامرة آهلة

(باقوت : ج ٢ - ٤٠٢)

(٢) هو : أبو الوقت عبد الأول : بر أبي عبد الله عيسى بن شعب السَّجَزِيِّ (نسبة إلى سِجِسْكَان) .

كان من كبار الْمُحَدِّثِينَ ، دُرِّسَ في المدرسة النُظَّامِيَّةَ ببغداد . وأخذ عنه العلماء . ولد سنة ٤٥٨ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٥٥٣ هـ .

(وفيات الأعيان : ج ٢ - ص ٣٩٢)

وهو من ساكني باب البصرة ، وحضر إلى الشام وَحَدَّثَ بدمشق بصحيح البخاري عن أبي الوقتِ غيرَ مرة . وهو شيخُ شيوخنا . ولما وصل إلى دمشق ، أكرمه الملك الأشرف ، وَحَصَلَ له دُنْيَا صَالِحَة بعد فقر وَضُرُورَة . ثم عاد إلى بغداد ، فرض قبل وصوله إليها ، وتوفى بعد أن دخلها بأيام . كانت وفاته يوم الاثنين ، الثالث أو الرابع والعشرين من صفر ، سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة . وسئل عن مولده ، فقال : سنة ست ، أو سبع ، وأربعين وخمسمائة - الشك منه - ودفن بمقبرة جامع المنصور .

وفيهما توفى رُكْنُ الدين مَنكُوسُ الفلكي : مملوكُ فَلَکُ الدين - أخى الملك العادل لِأُمِّهِ - كان من أكابر الأمراء . ولأه العادل مصرَ والشام نيابة عنه . وكان صالحاً دُنيّاً ، غنيا عادلاً ، كثير الصدقات . وله بقاسيون مدرسة وثروة أوقف عليها أشياء كثيرة . وكانت وفاته . بجرود^(١) : قرية من قرى دمشق ، وحُيِّلَ منها فدفن بترته بقاسيون - رحمه الله تعالى .

وفيهما توفى الأمير كرم الدين الخِلاطى . وكان كثير المروءة حسن المُلتقى ، يتعصبُ في الخير . خدم الملك الكامل والمعظم والأشرف . وتقدّم في زمن الملك العادل . وكانت وفاته بدمشق ، ودفن بقاسيون - رحمه الله تعالى .

(١) من أحوال غوطة دمشق .

وفيهما توفى صلاح الدين أبو العباس : أحمد بن عبد السيد بن شعبان ابن محمد بن جابر ، بن قحطان الإربلي - وهو من بيت كبير بإربل ^(١) . وكان حاجباً عند الملك المعظم : مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل . فتغير عليه واعتقله مدة . فلما أفرج عنه ، خرج منها إلى الشام ، واتصل بخدمة الملك المغيث : محمود بن العادل - وكان قد عرفه من إربل - فنحست حاله عنده .

فلما توفى الملك المغيث ، انتقل الصلاح إلى الدبار المصرية ، وخدم الملك الكامل فعظمت منزلته عنده ، ووصل منه إلى ما لم يصل إليه غيره ، واختص به في خلواته . وجعله أميراً .

وكان الصلاح ذافضلية تامة ، ومشاركة حسنة . وله نظم حسن ، ودويبت ^(٢) . ثم تغير عليه الملك الكامل ، واعتقله ، في المحرم سنة ثمانية عشر وستائة ، والسلطان بالمنصورة . فاستمر في الاعتقال بقلعة الجبل ، مضيقاً عليه ، إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين .

فعمل الصلاح دويبت ، وأملاه على بعض المطربين ، فغنى به عند الملك الكامل . وهو :

ما أمر تجنيك على الصب حصى أفتيت زمانى بالبكا والأسف
ماذا غضب بقدر ذنبي ، ولقد بالعت وما قصدك إلا لفي

(١) قلعة حصينة ومدينة كبيرة بين الزابين ، من أعمال الموصل . بينها مسيرة يومين . وأكثر أهلها أكراد .

(باقوت : ج ١ - ١٧٢)

(٢) نوع من الشعر ، له وزن خاص ، غير أوزان البحور العربية المأثورة .

فاستحسنه الملك الكامل ، وسأل لمن هو ؟ فقيل : للصالح الإزيلي .
فأمر بالإفراج عنه . وقيل إن الشعر غير هذا ، وهو :

اصْنَعْ مَا شِئْتَ ، أَنْتَ أَنْتَ الْحَيُوبُ مَا لِي ذَنْبٌ ، بَلَى - كَمَا قُلْتَ - ذُنُوبُ
هَلْ يَسْمَحُ بِالْوَصَالِ فِي لَيْلَتِنَا يَجْلُو صَدَا الْقَلْبِ وَيَعْفُو ، وَأَتُوبُ

ولما أفرج عنه ، عادت مكانه عنده إلى أحسن ما كانت عليه

ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الروم كان في خدمته ، لفرض بالعسكر
بالقرب من السويداء ، فحُيِّلَ إلى الرُّهَاتِ قبل وصوله إليها ، في خامس
عشرين ذى الحجة ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة . وكان مولده في شهر ربيع
الآخر سنة اثنين وخمسين وخمسمائة .

ولما مات وُجِدَ بداره بدمشق خمسة عشر ألف دينار ، وبدارَه بالقاهرة
خمسَ ألف دينار . ولما عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية ،
أقطع ولده صَنَافِيرَ^(١) بالقليوبية خاصاً له ، وجعل معه أقارب والده
ومماليكه - وعدتهم سبعة عشر نفرًا - وذلك في سنة اثنين وثلاثين .

وتوفى الأديب الفاضل : نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي محمد
عبد الوهاب بن الحسن بن علي ، المعروف بابن وهيب القوصي ، بحماه .

(١) هي بمركز قلوب (بمصر) ، غربي ناحية بهادة . وشمالاً كفر الحارث . وبالقاهرة الآن شارع يسمى شارع
الصفاري .

وكان قد توجّه في خدمة الملك المظفر - صاحب حماه - ووَزَرَ له . وكانت بينها مودة ورعاية . ثم نَقِمَ عليه أمرا ، قتلته - رحمه الله تعالى . وكان فاضلا ، له اليد الطولى في الأدب والترسل ، والشعر الرائق . وقد تقدم من كلامه ما كُتِبَ به عن مُتَوَلَّى الأعمال القُوصية ، في معنى حريقِ خان المكرم ، ظاهر مدينة قوص .

وانتهت سنة التتبع وللاثنين وسبعمائة :

في هذه السنة ، توجه الأمير أسد الدين جُزْزِيل أحد ممالك السلطان الملك الكامل - إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، وصُحِبَتْهُ سبعمائة فارس فتسلمها في شهر رمضان . وهرب منها الأمير : راجع بن قتادة ، ومن كان بها من عسكر اليمن .

ذكر إنشاء جامع التَّوْبَةِ بالعُقَيْيَةِ ^(١) بدمشق

في هذه السنة ، شرع السلطان الملك الأشرف في هدم خان الزنجيلي ^(٢) ، الذي كان بالعُقَيْيَةِ بظاهر دمشق . وكان قد جمع أنواع الفساد من الخُمُور والفسق قبيل للسلطان إن مثل هذا لا يصلح أن يكون في بلاد الإسلام ، فهدمه وعمره جامعا ، غرم عليه جُمْلَةٌ كثيرة ، وسماه الناس جامع التَّوْبَةِ .

(١) سبق ذكرها ، وهي ضاحية في دمشق .

(٢) نسبة إلى زنجيلة . وهي قرية من قرى دمشق .

قال القاضي شمس الدين بن خلّكان في وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ : « وجرت فيه نُكْتُهُ لطيفة أُحْيِيَتْ ذِكْرُهَا ، وهي أَنَّهُ كَانَ بِمَدْرَسَةِ مَيْتِ الشَّامِ الَّتِي خَارِجَ الْبَلَدِ إِمَامٌ ، فَعُرِفَ بِالْجَمَالِ السَّيِّ - أَعْرِفُهُ شَيْخًا حَسَنًا ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ فِي صَبَاهٍ يَلْعَبُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَلَاهِي ، وَهِيَ الَّتِي تَسْمَى الْجَعَّانَةَ . وَلَمَّا أَسَنَّ حَسَنَتْ طَرِيقَتَهُ ، وَعَاشَرَ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الصَّلَاحِ ، حَتَّى عُذِّ فِي الْأَخْيَارِ . فَوَلَاهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ خُطَابَةَ الْجَامِعِ ، لِنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ . فَلَمَّا تَوَفَّى ، وَلِيَ بَعْدَهُ الْعِمَادُ الْوَاسِطِيُّ الْوَاعِظُ ، وَكَانَ يَتَهَمُ بِالشَّرَابِ .

وكان صاحبُ دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، فكَتَبَ إِلَيْهِ الْجَمَالَ عَبْدَ الرَّحِيمِ : الْمَعْرُوفُ بِابْنِ زُوَيْتَةَ الرَّحْبِيِّ :

بِأَمْلِيكَ أَوْضَحَ الْحَقُّ لَدَيْنَا وَأَبَانَهُ
جَامِعُ التَّوْبَةِ قَدْ قَلَدَنِي مِنْهُ أَمَانَهُ

قال : قُلْ لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ - أَعْلَى اللَّهِ شَانَهُ :

بِأَعِمَادِ الدِّينِ ، بِأَمِنْ حَمَدَ النَّاسِ زَمَانَهُ
كَمْ إِلَى كَمْ أَنَا فِي ضَرٍّ وَبُؤْسٍ وَإِهَانَهُ
لِي خَطِيبٌ وَاسِطِيٌّ يَغْشَقُ الشَّرْبَ دِيَانَهُ
وَالَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلُ يُغْنَى بِالْجَعَّانَةِ
فَكَمَا نَحْنُ ، وَمَا زِلْنَا - وَلَا أَبْرَحُ - حَانَهُ
رُدُّنِي لِلنَّمَطِ الْأَوَّلِ ، وَاسْتَبْقِ ضَمَانَهُ

وفي هذه السنة ، في تاسع صفر ، كانت وفاة الملك الزاهد :
مجير الدين أبوسليمان ، داود بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن
أيوب - صاحب قلعة البيّرة^(١).

وكان يحب العلماء وأهل الأدب ، ويقصدونه من البلاد . وكان
فاضلاً أديباً شاعراً ، جَوَاداً سَمُحاً . ومولده بالقاهرة لسبع بقين من
ذى القعدة - وقيل ذى الحجة - سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .
ولما مات ، توجه الملك العزيز ، ابن أخيه الملك الظاهر ، إلى قلعة
البيّرة ، فملكها .

وفيها توفي الأمير الأجل الطواشي : شمس الدين صَوَّاب ، مُقَدِّم
عسكر الملك العادل .

وكانت وفاته بحرّان ، في العشر الآخر من شهر رمضان . وكان
السلطان الملك الكامل قد جعله بها ، وبغيرها ، من تلك البلاد - كما تقدم .
وكان أميراً كبيراً في الدؤوتين : العادلية والكاملية . وكان خادماً عاقلاً ، ذنباً
شجاعاً جواداً . وكان العدل والكامل يعتمدان عليه .

وكان له مائة خادم ، تَعَيَّنَ جماعةٌ منهم وتأمروا بعد وفاته : منهم
بدر الدين الصَّوَّاب ، وشيخ الدولة : كافور الخَزَنة . وأربدمشق ، وشمس الدين
صَوَّاب السُّهَيْلِي بالكرك ، وغيرهم . وكان شمس الدين صَوَّاب العادلي -

(١) ذكرنا موقعها من قبل ، وهي بالقرب من سُمَيَّاط ، بين حلب والنفور الرومية . وكان الملك الظاهر غازي -
صاحب حلب - بن السلطان صلاح الدين هو الذي أقطع مجير الدين هذا - وهو أخوه - هذه القلعة .
فبقيت بيده حتى وفاته هذه السنة . وهي قلعة حصينة ولها رستاق (ريف) واسع .

هذا - إذا حُكِّل في الأعداء يقول : أين أصحاب الحَصَى ^(١) . وكان له بُرٌّ وصدقة ، وفيه إنصاف - رحمه الله تعالى .

وفيها توفي صاحب تاج الدين : أبو اسحاق يوسف بن صاحب الوزير : صفي الدين أبي محمد عبدالله ، بن القاضي المخلص أبي الحسن علي ، الشيبسي المالكي بمدينة حرَّان ، في الحادي عشر من شهر رجب ، ودفن بها ومولده بمصر في شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وكان قهيباً مالِكياً ، دَرَسَ بمدرسة أبيه بالقاهرة . وناب عن والده في الوزارة بالديار المصرية . وولَّى الوزارة بعد والده نحو شهرين . ثم صُرف واستُخدِم في التوقيع . ثم ولي نظر الدواوين بالديار المصرية .

ثم عُزِّل واعتُقِل ، ثم أفرج عنه في سادس عشر شعبان ، سنة خمس وعشرين وستائة . ثم وَلَّى الجزيرة وديار بَكْر وحرَّان في الدولة الكاملية ومات هناك - رحمه الله تعالى .

وفيها توفي شرف الدين ، أبو حفص وأبو القاسم : عمر بن علي بن المرشد بن علي ، الحموي الأصل ، المصري الدار والمولد والوفاة : المعروف بابن الفارض ، الشاعر .

(١) ميدان الحصى بدمشق . لعله يقصد أهل دمشق .

له ديوان شعر مشهور . وكانت وفاته بالجامع الأزهر بالقاهرة المعزّية ، في يوم الثلاثاء الثاني من جادى الأول ، ودُفن من الغد بسفح المقطم . ومولده بالقاهرة في الرابع والعشرين من ذى القعدة ، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

واستهلّت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة :

في هذه السنة ، حصل بمصر وباء عظيم ، مات فيه خلق كثير . واستمر ثلاثة أشهر .

وفيها ، في المحرم ، وصل الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، إلى بغداد . واجتاز في طريقه بالحيلة^(١) ، وبها الأمير شرف الدين ، بن الأمير جمال الدين قُشْتَمَر ، زعيم الحيلة ومُقَدِّم الجيوش ، فتلّقه وأكرمه ، وأقام له الإقامة الوافرة . وعَمِلَ له دَعْوَةٌ عظيمة اشتملت على أنواع من المآكل . قال ابن الساعى في تاريخه : بَلَّغَتْ الضُّفْعَةُ على تلك الدعوة اثني عشر^(٢) ألف دينار .

ثم قصد بغداد ، فوصل إليها في يوم الاثنين سادس عشر المحرم ، فَبَرَزَ تَلْقِيَهُ الموكبُ ، وفيه جميعُ الحجاب والدعاة ، وفي صدره قطب الدين : أبو عبد الله بن الأَقْأَسَى ، - نَقِيبُ الطَّالِبِيّينَ - وعن يمينه وشماله خادمان من

(١) علّمَ لعدة مواضع . وأشهرها حيلة بين مَرْيَد : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٣٢٧)

(٢) في (ع) : واثنا عشر .

خَدَمَ الديوان العزيز^(١) . وحين وافى بَابَ الثُّوبِ^(٢) نَزَلَ وَقَبِلَ الْعَبَّةَ . وحضر دارَ الوزارة ، فَأَكْرَمَ وَخُلِعَ عَلَيْهِ قَبَاءُ^(٣) أَطْلَس ، وَشُرْبُوش^(٤) ، وَأُعْطِيَ فَرْسًا بِمَرْكَبٍ ذَهَبٍ . وَأُسْكِنَ مَحَلَّةَ الْمُقْتَدِيِّ ، بالدار المنسوبة إلى أَبِي تَمِيمِ الْمُوسَوِيِّ ، وَأُقِيمَتْ لَهُ الْإِقَامَاتُ الْوَافِرَةُ مِنَ الْمَحْزَنِ الْمَعْمُورِ^(٥) فِي كُلِّ يَوْمٍ .

وَأَنْتَهَى لِلدِّيَّانِ الْعَزِيزِ مَا اعْتَمَدَهُ مَعَهُ عَمَاهُ مِنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ دِمَشْقٍ - وَهِيَ مَمْلَكَةُ أَبِيهِ - وَنَقَلَهُ إِلَى الْكَرْكِ .

وَأَقَامَ بِبَغْدَادٍ إِلَى خَامَسِ عَشْرِينَ شَعْبَانَ . ثُمَّ أَحْضَرَ إِلَى دَارِ الْوِزَارَةِ ، وَخُلِعَ عَلَيْهِ قَبَاءُ أَطْلَسٍ أَسْوَدَ ، وَفَرَجِيَّةُ^(٦) مُمَوَّجَ ، وَعِمَامَةُ قَصَبٍ كُحْلِيَّةٍ مُذَهَّبَةٍ . وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِفَرَسٍ عَرَبِيٍّ بِمَرْكَبٍ ذَهَبٍ ، وَكُتُبُوشٍ^(٧) وَمِشْدَةٍ إِبْرِيَسَمٍ^(٨) . وَأُعْطِيَ الْعِلْمَ وَالْجَفَّتَاوَاتِ^(٩) وَالْكَرَاعَ^(١٠) وَالْخِيَامَ وَالْفَارِشَ

(١) أى ديوان الخلافة . وكان الخليفة إذا ذاك ببغداد : المستنصر بالله .

(٦٤٠ - ٦٢٣)

(٢) الباب الذى كان ينزل عنده القادمون على الخليفة ، ويقدمون شعائر الولاء .

(٣) الثوب أو الكساء الخارجى .

(٤) غطاء للرأس أشبه بالطربوش .

(٥) أى خزانة ديوان الخلافة .

(٦) كساء واسع يلبس فوق الثياب يصنع من الجوخ ، له أكمَامٌ واسعة طويلة تحت اليد .

(٧) البرذعة تجمل تحت سرج الفرس ، وهو غاشية الفرس .

(٨) حرير .

(٩) أقبية صُفِرَ من حرير مزركش وملابس خاصة .

(١٠) الحبل .

والآلات ، وخمسة وعشرين ألف دينار ، وعدة من الخيل وجوز من الثياب الفاخرة . وشرف من معه من أصحابه وأتباعه ومماليكه .

وأذن له في التوجه إلى بلده - وذلك بعد الصلح بينه وبين عمه : الكامل والأشرف . وخرج من بغداد في ثالث شهر رمضان - وصحبته الأمير : سعد الدين حسن بن علي - إلى الملك الكامل ، يأمره عن الديوان العزيز بإجابة سؤاله . ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه .

وفيهما ، توفي الحافظ : أبو الخطاب عمر بن الحسن بن محمد بن دحية الأندلسي البُلَيْسِيُّ ^(١) ، المعروف بذي النسيين .

طلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقى علماءها ومشايخها . ثم رحل إلى بر العدة ^(٢) ودخل مراكش واجتمع بفضلائها . ثم ارتحل إلى إفريقية ، ومنها إلى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق . ودخل إلى عراق العجم وخراسان ، وما والاها ، ومازندران ^(٣) ، في طلب الحديث والاهتمام بأمنته ، والأخذ عنهم . وهو في ذلك يؤخذ عنه ، ويستفاد منه .

(١) نسبة إلى «بلنسية» : وهي مدينة وكورة مشهورة بالأندلس ، شرق قرطبة ، وبينها وبين البحر فرسخ .

(معجم البلدان : ج ٢ - ٢٧٩)

(٢) أي : البر المقابل للأندلس ، وهو الذي فيه المغرب الأقصى .

(٣) اسم لولاية طبرستان .

وقدم مدينة إزبيل ، في سنة أربع وستائة ، عند توجهه إلى خراسان .
 واجتمع بصاحبها : الملك المعظم بن زين الدين . وكان المعظم عظيم
 الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فألف له كتابا سماه : التَّوْبِيرُ في
 مولد السَّراجِ المُنِير ، وقرأه عليه فأعطاه ألف دينار . وله عدة تصانيف .
 ولما عاد إلى الديار المصرية ، ولَّاهُ الملك الكامل دارَ الحديث
 الكامِلية ^(١) بالقاهرة . ثم عزَّله منها قبل وفاته ، وولى أخاه محيي الدين
 أباعمرو .

وتوفى أبوعمرو بالقاهرة ، في يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى ،
 سنة أربع وثلاثين وستائة . وكان حافظاً للغة العرب . وكانت وفاة
 أبي الخطاب بالقاهرة في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين
 وستائة ، ودُفن بسفح المقطم . ومولده في مستهل ذى القعدة سنة ست
 وأربعين وخمسمائة .

وفيهما ، في سلخ شهر ربيع الآخر - توفى الأمير أبو التقي صالح بن الأمير
 المكرم أبي الطاهر ^(٢) إسماعيل بن أحمد بن الحسن بن اللَّمطي ، بمِثَّةِ بني

(١) سبق الحديث عنها . وهي أول دار للحديث بمصر . نحت عمارته في سنة ٦٢١ هـ وجعل شيخها أبو الخطاب
 صر بن دحية ، ثم وليها بعده أخوه : أبو عمرو عثمان بن دحية . ثم وليها الحافظ المُنذِرِي .

(السيروطي : حسن المحاضرة : ج ٢ - ١٤٢)

(٢) الأمير المكرم اللَّمطي كان نائب السلطان بمدينة قوص زمن العادل .

خَصِيب^(١) من صَمِيد مصر. وصُلِّي عليه على ساحل البحر، وحُمِل في مركب وأُخِيرَ إلى مصر، فوصل بعد صلاة العصر مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح المقطم، بترية كان أنشأها لنفسه قبل وفاته ييسر. وقد قارب الستين. سمع ببغداد جماعة كبيرة وبتيسابور وبمرزو ومراء وهمدان ودنيسر وديمشق. وجال في البلاد كثيرا، ودخل ما وراء النهر. ولم يُحْصَلْ من مسموعاته إلا اليسير. رحمه الله تعالى.

وفيا في شهر ربيع الأول، توفى الأمير فخرالدين أباز البانياسي بخربزرت من ديار الجزيرة. وحمل إلى القاهرة، ودفن بترته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وأنشأ بجانبها حوض ميل. وكان قد وَلَّى مصر مدة، وله غزوات وتقدُّم في الدولتين العادلية والكاميلية. وكان مشهورا في شيبته بالقوة. وكان محبا لأهل الخير متفقدا لهم. رحمه الله تعالى.

وفيا، توفى خطيب مصر الشيخ الفقيه: أبو الطاهر محمد بن الحسين ابن عبد الرحمن الجابري. من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري. رضى الله عنه. وهو المشهور بالمَحَلِّي، وهو من أصحاب الشيخين: الشاطبي والقرشي.

(١) سماها «بقرت»: منية أبي الخصب، وقال عنها إنها «مدينة كبيرة حنة كثيرة الأهل والسكن» على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى.

(المعجم: ج ٨ - ١٨٨)

وفي حاشية «النجوم الزاهرة»: «منية ابن خصب...»، سميت كذلك نسبة إلى «الخصيب ابن عبد الحميد» صاحب خراج مصر في عهد الخليفة هارون الرشيد العباسي. وفي المخطوط للمعري منية الخصيب. وقد اختُصِرَ اسمها واشتهرت باسم «منية». ثم «النيا» وهو الاسم الحالي.

(النجوم الزاهرة: ج ٥ - ٣٠٩ حاشية (١))

واستهلت سنة أربع وللائين وسنائة :

ذكر وقوع الوحشة بين السلطان الملك الكامل
وأخيه الملك الأشرف

كان وقوع الوحشة بين الملكين الأخوين في هذه السنة .

وسبب ذلك أن الملك الأشرف طلب من أخيه الملك الكامل الرقة ،
وقال إن الشرق قد صار للسلطان ، وأنا في كل يوم في خدمته ، فتكون هذه
برسم عليك دوائى . وجعل الفلك المسمى واسطة بينه وبين السلطان .
فكتب الفلك إلى الملك الكامل بذلك ، فأجابه الملك الكامل بكتاب أغلظ
له فيه .

وكان الملك الكامل ، لما عاد من بلاد الشرق في سنة ثلاث وثلاثين ، بلغه
اتفاق الملوك عليه ، فعجل السير إلى الديار المصرية .

فكتب إليه الملك الأشرف يقول : إنك أخذت منى الشرق . وقد
افتقرت لهذه البواكير ، ودمشق بستان ليس لي فيها شئ . فبعث إليه عشرة
آلاف دينار ، فردّها عليه ، وقال : أنا أدفع هذه لأمرين .

فغضب الملك الكامل ، وقال : الملك الأشرف يكفيه عن الملك
عشرته للمعانى وتعلمه لصناعتهم ! فاتصل ذلك بالملك الأشرف ، فتنمر له
وقال : والله لأعرفه قدره . ورأسل الملوك : بحلب وحماه وبلاد الشرق ،
وصاحب الروم ، وقال : قد عرفتكم بخيل الكامل وطمعه في البلاد .

فحلفوا كلهم واتفقوا ، وسيروا رسلهم إلى الملك الكامل يقولون : انهم معه صلحاً ، ما أقام بالديار المصرية ولم يخرج إلى الشام لفتح شئ من البلاد .

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر

وفي سنة أربع وثلاثين وستائة ، كانت وفاة الملك العزيز غياث الدين محمد ، بن الملك الظاهر غازي ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب ، بها . ومولده في ذى الحجة سنة تسع أو عشر وستائة . ومَلَكَ بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكان عمره يوم ذاك ست سنين . فقام بتدبير المملكة والددة أبيه ، وهي ابنة الملك العادل . وجعلت الأمير شمس الدين لؤلؤ أتابكته . ثم زوجته السلطان الملك الكامل ابنته عاشورا شقيقة الملك العادل ، في تاسع عشر ذى الحجة من السنة .

واستهلت سنة خمس وثلاثين وستائة :

ذكر وفاة الملك الأشرف وشيء من أخباره

وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك

في يوم الخميس رابع المعرم ، سنة خمس وثلاثين وستائة ، توفى الملك الأشرف : مظفر الدين موسى ، بن الملك العادل : سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب - صاحب دمشق - بها . ودفن بقلعتها ، ثم نقل إلى تربته بالكلاسة ، بجوار الجامع الأموي .^(١)

ومولده بالقاهرة . وقيل بقلعة الكرك - في سنة ست وسبعين وخمسمائة . وقيل إنه قبل أخيه الملك المعظم بليلة واحدة . وكان - رحمه الله تعالى - عفيفاً عن المحارم ، ما خلا بامرأة قط إلا أن تكون زوجته أو جاريته .

وحكى أبو المظفر يوسف بن قزوغلى ميسط ابن الجوزي عنه ، في كتابه : « مرآة الزمان » ، من الأوصاف الجميلة ، والمروءة القريية ، والكف عن المحارم ، والعفة عنها مع العكن منها ، ما يرحى له به الخير عند الله تعالى .

وكان مما حكاه عنه قال : جلست يوماً عنده في مظرة بقلعة خلاط ، يغيب على أخيه الملك المعظم في قضية بلغتته عنه ، ثم قال : والله ما مددت عيني إلى حرم أحد : لا ذكر ولا أنثى .

(١) تقع شمال جامع دمشق .

ولقد كنت يوماً قاعداً في هذه الطَّيَّارَةِ ، فدخل الخادم فقال : على الباب امرأة عجوز ، تذكر أنها من عند بنت شاه أرمن - صاحب خلّاط . فأذنتُ لها ، فدخلتْ ، ومعها ورقة من عند بنت صاحب خلّاط ، تذكر أن الحاجب « على » ^(١) قد أخذ ضيعتها وقصدَ هلاكها ، وما تتجاسر أن تظهر ، خوفاً منه . فكتبْتُ على الورقة بإطلاق القرية ، ونهيتُ الحاجب عنها .

فقالت العجوز : هي تسأل الحضور بين يديك ، فعندها سِرُّ ما يمكن ذكره إلا للسلطان ! فأذنتُ لها . فتوجَّهتْ وعادت بعد ساعة ، ومعها امرأة ما رأيت في الدنيا أحسنَ من قَدِّها ، ولا أظرفَ من شكلِها ، كأن الشمس تحت نقابها ! فخدمتْ ووقفتْ . فقمتُ لها وقلت : وأنتِ في هذا البلد ، وما علمتُ بك ؟! فسفرتْ عن وجهها فأضاءت منه النظرة ! فقلت : غطِّ وجهك ، وأخبريني بحالك .

فقالت : أنا بنتُ شاه أرمن ، صاحب هذه البلاد . مات أبي ، واستولى بكتمر على الممالك ، وتغيرت الدُّول ، وكانت لي ضيعة أعيش منها ، أخذها الحاجب « على » وما أعيش إلا من عمل النَّقش ، وأنا ساكنة في دار بالأجرة ! قال : فبكِيتُ ، وأمرتُ الخادم أن يكتب لها توقيعاً بالضَّيعة وبالصَّيئة ، وأمرتُ لها بقماش من الخزانة ، وأمرتُ لها بدار تصلح لسكنها ، وقلت باسم الله ، امضي في حفظ الله ودَعَتِهِ .

(١) هو الحاجب على بن حماد التوماني . الملقب بالأمير حسام الدين . كان نائب الملك الأنوف بخلّاط .

فَقَالَتِ الْعَجُوزُ : يَا خُونُدُ^(١) ، مَا جَاءَتْ إِلَى خِدْمَتِكَ إِلَّا حَتَّى تَحْطَى بِكَ اللَّيْلَةَ ! قَالَ : فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهَا ، وَقَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِي تَغْيِيرُ الزَّمَانِ ، وَأَنْ يَمْلِكَ خِلَاطُ غَيْرِي ، وَتَحْتَاجَ بَنِي إِلَى أَنْ تَقْعُدَ مِثْلَ هَذِهِ الْقَعْدَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ : يَا عَجُوزُ ، مَعَاذَ اللَّهِ ! وَاللَّهِ مَا هُوَ مِنْ شَيْئِي ، وَلَا خَلَوْتُ بِغَيْرِ مَحَارِمِي ، فَخَذِيهَا وَانصُرْفِي ، وَهِيَ الْعَزِيزَةُ الْكَرِيمَةُ ! وَمَهْمَا كَانَ لَهَا مِنَ الْحَوَائِجِ تُنْقِذْ إِلَى هَذَا الْخَادِمِ . فَقَامَتْ ، وَهِيَ تَبْكِي ، وَتَقُولُ - بِالْأَرْمَنِیَّةِ : صَانَ اللَّهُ عَاقِبَتَكَ ، كَمَا صُنَّتَنِي . قَالَ : فَلَمَّا خَرَجْتُ ، أَقْسَمْتُ نَفْسِي ، وَقَالَتْ : فَنَفِي الْحِلَالِ مَتَدَوِّحَةً عَنِ الْحَرَامِ ، تَرَوُّجَهَا . فَقُلْتُ : يَا نَفْسُ خَيْثُ ، فَأَيْنَ الْحَيَا وَالْكَرَمُ وَالْمَرْوَةُ ! وَاللَّهِ لَا فَعْلَهُ أَبَدًا .

وَمَا حَكَاهُ أَبُو الْمُظَفَّرِ - أَيْضًا - قَالَ : كُنْتُ عِنْدَهُ بِخِلَاطٍ ، فَقَدِمَ النَّظَّامُ بْنُ أَبِي الْحَدِيدِ ، وَمَعَهُ نَعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَأَخْبَرْتَهُ بِقُدُومِهِ ، فَأَذِنَ بِحَضُورِهِ . فَلَمَّا جَاءَ ، وَمَعَهُ النَّعْلُ ، قَامَ وَنَزَلَ مِنَ الْإِبْرَانِ ، وَأَخَذَ النَّعْلَ فَقَبَّلَهُ ، وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ ، وَبَكَى ! وَخَلَعَ عَلَى النَّظَّامِ وَأَعْطَاهُ نَفَقَةً ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ جِرَايَةً ، وَقَالَ يَكُونُ فِي الصُّحْبَةِ مُتَبَرِّكًا بِهِ . ثُمَّ عَزَمَ عَلَى أَخْذِ قِطْعَةٍ مِنَ النَّعْلِ تَكُونُ عِنْدَهُ . قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ بِتُّ مَفْكَرًا ، وَقُلْتُ : إِنْ فَعَلْتُ هَذَا فَعَلَ غَيْرِي مِثْلَهُ ، فَيَنْسَلِسُ الْحَالُ وَيُودَى إِلَى اسْتِثْصَالِهِ . فَرَجَعْتُ عَنْ هَذَا الْخَاطَرِ . وَتَرَكْتُهُ اللَّهُ ، وَقُلْتُ : مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ . ثُمَّ أَقَامَ النَّظَّامُ عِنْدِي شَهْرًا وَمَرَضَ ، وَأَوْصَى لِي بِالنَّعْلِ ، وَمَاتَ وَأَخَذْتُهُ بِأَسْرِهِ .

(١) يَاسِيدُ ، أَوْ يَأْمِيرُ . كَلِمَةٌ قَارِصِيَّةٌ أَوْ تَرْكِيَّةٌ .

ولما اشترى دار قايماز التنجى ، وجعلها دارَ حديث ، ترك النعلَ فيها ، ونقل إليها الكتبَ الشمينة ، وأوقف عليها الأوقاف . وعمرَ غيرها من الأماكن الشريفة : منها مسجد أبي الدرداء بقلعة دمشق - بناء وزخرفه - وكان غالب إقامته به . والمسجد الذى عند باب النصر ، وجامع العقبيّة ومسجداً خارج باب الصغير ومسجد القصب خارج باب السلامة ، وجامع بيت الآبار . ووقف على ذلك الأوقاف الكثيرة . وزاد وقف دار الحديث الثورية .

هذا وتربته بالكلاسة بدمشق ، وتربة والدته بالقرافة بمصر . وبني أيضاً ببلاد الشرق وخلاط خانات السبيل .

وكان - رحمه الله تعالى - حسن الظن بالفقراء ، يحسن إليهم ويزورهم ويتفقدهم بالمال والأطعمة . وكان في ليالى شهر رمضان لا يفلق باب قلعة دمشق ، ويرسل في الليل جفانَ الحلو إلى الجامع والزوايا والرُّبُط ، ما قرب منه وما بعد .

وكان ابتداء مرضه في شهر رجب ، سنة أربع وثلاثين وستائة ، مرضين مختلفين في الأعالى والأسافل . وكان الحرائجى يخرج العظام من رأسه ، وهو يُسبِّح الله ويحمده ثم اشتد به الدُّرْب ، فلما يش من نفسه قال لوزيره - جمال الدين بن جرير - : فى أى شى تكفنى ؟ فقال : حاشاك ! فقال دغنى من هذا ، فما بقى فى قُوَّةٍ محملى أكثر من نهار غد ، وتواروفى . فقال فى الحزانة نصافى . فقال : حاشَ لله أن أكفن من هذه الحزانة .

وقال : لعماد الدين بن مُوسى أَخْضِرْ لى الودِيعَة . فقام ، وعاد وعلى رأسه ميّزر صوف أبيض تلوح منه الأنوار ، ففتحها وإذا فيه خرق الفقراء وطواق الأولياء ، وفيه إزار عتيق ما يساوى خمسة قراطيس . فقال يكون هذا على جسدى أتقى به حرّ الوطيس ، فان صاحبه كان من الأبدال وكان حبشياً ، أقام بجبل الرّها يزرع قطعة زعفران يتقوت بها ، وكنت أصعد إليه وأزوره ، وأعرض عليه المال فلا يقبله ، فسألته شيئاً من أثره أجعله فى كفى ، فأعطاني هذا الإزار ، وقال قد أحرمتُ فيه عشرين حجة . وكان آخر كلامه : لا إله إلا الله . ثم مات فى التاريخ المذكور .

قال أبو المظفر : ولما أحسن بوفاته فى آخر سنة أربع وثلاثين ، قلت له : استعد للقاء الله فما يصيرك ، قال : لا والله بل ينفعنى . ففرق البلاد ، وأعتق مائتى مملوك وجارية . ووقف دار قرخشاه ، التى يقال لها دار السعادة ، وبستان الثّيب^(١) على ابنته . وأوصى لها بجميع الجواهر .

قال أبو المظفر : وحكى لى الفقيه محمد اليونانى^(٢) ، قال : حكى لى فقير صالح من جبل لبنان ، قال : لما مات الأشرف رابته فى المنام وعليه ثياب خضر ، وهو يطير بين السماء والأرض ، مع جماعة من الأولياء . فقلت له يا موسى ، إيش تعمل مع هؤلاء ، وانت كنت تفعل فى الدنيا وتصنع ؟ فالتفت إلى وتبسم ، وقال : الجسد الذى كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم ، والروح التى كانت تحب هؤلاء قد صارت معهم - رحمه الله تعالى .

(١) قرية مشهورة بدمشق ، على نصف فرسخ منها فى وسط البساتين قال ياقوت عنها : هى أبرز موقع رأته .

(مجمع البلدان : ج ٨ - ٣٥٥)

(٢) نسبة إلى يونان : قرية من بعلبك . تقدم ذكرها .

ذكر مُلك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل
- ابن الملك العادل - دمشق ، ووصول الملك الكامل إليها
وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها

لما مات الملك الأشرف : مظفر الدين موسى - رحمه الله تعالى -
ملك دمشق بعده - بوصية منه - أخوه الملك الصالح : عماد الدين إسماعيل ،
الملقب بأبي الخيش ! وإنما لُقِّب بذلك ، لأنه - فيما حُكِيَ عنه - كان يملأ
خيشة ثِيَاباً وَيَسْتَهْطِئُ فِي الْمَاءِ ، ثُمَّ يَطْعُمُهَا بِرُغْمِهِ فَيَرْفَعُهَا عَلَيْهِ . فَلَقِبَ بِذَلِكَ .
ولما انْفَصَلَتْ أَيَّامُ عِزِّهِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، رَكِبَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ
بِشِعَارِ السُّلْطَنَةِ ، وَتَرَجَّلَ النَّاسُ فِي رِكَابِهِ ، وَأَسَدُ الدِّينِ شَيْكُوهُ صَاحِبُ
حِمَصٍ إِلَى جَانِبِهِ ، وَحَمَلُ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ أُتَيْكَ - صَاحِبُ صَرْخَد -
الْعَاشِيَّةُ ^(١) بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ عَادَ كُلُّ مَنْهَا إِلَى مَمْلَكَتِهِ ، وَاسْتَقَرَّ هُوَ بِدِمَشْقَ .
وَصَادَرُ جَاعَةٌ مِنْ أَهْلِهَا ، اتَّهَمَهُمْ بِمَكَايَةِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ : مِنْهُمْ الْعَلَمُ
تَعَاسِيفُ ^(٢) وَأَوْلَادُ مِزْهَرٍ وَابْنُ عَرِيفِ الْبَذْرِ ، وَاسْتَصْنَفَى أَمْوَالَهُمْ . وَأَفْرَجَ

(١) هي من رسوم الملك . وصفها : القلقشندي ، بأنها هي غاشية سرج من أديم عروزة بالذهب ، يحاطها الناظر
جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين
والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، وأفعالها على يديه يلتفتا يميناً وشمالاً . فهي من شعار السلطنة .

(صحح الأعشى : ج ٤ - ص ٧)

(٢) هو قيصريين أبي القاسم ، يمتع بالعلم ، ويعرف : بتعاسيف ، الأصغري . كان عالماً بالرياضيات وأنواع
الحكمة . ولد بأصفهان من الصعيد سنة ٥٦٤ هـ .

(حسن المحاضرة : ج ١ - ص ٢٢٣)

عن الشيخ على الحريري من الاعتقال بقلعة عرّتا - وكان الملك الأشرف قد اعتقله بها في سنة ثمان وعشرين وستائة - فأفرج عنه الآن ، ومنعه من الدخول إلى دمشق .

وأما الملك الكامل فإنه لما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف ، سر بذلك سروراً عظيماً ، لئلا كان قد وقع بينهما من الوحشة التي تأكلت أسبابها - وقد تقدم ذكرها . فتجهز بمساكر الديار المصرية وتوجه من قلعة الجبل ، لقصد دمشق ، في ثالث عشرين صفر . ولما اتصل خبره بالملك الصالح حصّن دمشق ، وقسم الأبراج على الأمراء ، وغلّق أبواب المدينة . وجاء الأمير عز الدين أيّك من صرخند ، وأمر بفتح الأبواب ففتحت .

ووصل الملك الكامل بمساكره ، ونزل عند مسجد القُدَم . ونزل الملك الناصر داود بالميزّة^(١) ، ونزل مجير الدين وتقي الدين لبنا للملك العادل بالقابون^(٢) ، وهم في طاعة الملك الكامل . وأخذت المساكر بدمشق ،

(١) قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ .

(مجم البلدان : ج ٨ - ص ١٧) .

(٢) موضع بين وبين دمشق جبل واحد ، في طريق القاصد إلى العراق ، وسط البساتين .

(مجم البلدان : ج ٧ - ص ٤) .

وقطع الملك الكامل عنها المياه . وردّ ماء بردى^(١) إلى ثورا^(٢) . وشدد الحصار ، ففلت الأسعار . وسد الصالح أبواب دمشق ، إلا بابي الفرج والنصر . وتقدم الملك الناصر داود إلى باب ثوما ، وعُجل الثُقُوب فيه . ولم يبق إلا فتح البلد .

فأرسل الملك الكامل إليه فخر الدين بن الشيخ ، فردّه عنها ، ورَحَّلَه إلى أرض بَرَزَه^(٣) . وأحرق الصالح إسماعيل قصر جَحْجَاج والشَّاعُور ، وأخرب ظاهر دمشق خراباً لم يُعْهَدْ مثله . واحترق جماعة من سكان هذه الجهات في دورهم ، ومن سلم منهم لم يبق له ما يرجع إليه إلا الكُدْبَة وسؤال الناس . وحكى أن الصالح - أو ابنه - وقف على العُقْبَة^(٤) ، وقال للزُّرَّاقِين^(٥) : أحرقوها ، فضربوها بالناس . وكان لرجل من سكانها عشر بنات ، فقال لمن : اخرجن ، فقلن لا والله ، النار ولا العار ، ما نفتضح بين الناس ! فاحترقت الدار وهم فيها ، فاحترقوا . وجرى من الخراب بظاهر دمشق ما لم يمر مثله قبل ذلك .

(١) حدد ياقوت مجرى نهر بردى وصلته بثورا ، قال : « بردى : أعظم أنهار دمشق ، يخرج من قرية قنوا على خمسة فراسخ من دمشق ، مما يلي بعلبك ، ويمر بالغوطة ، ثم بمدينة دمشق ، فيشق ما بينها وبين العقبة ، حتى يصب في بحيرة المرج في شرق دمشق . ويساوقه من الجهة الشمالية نهر « ثورا » ويتصل به في بعض أجزائه . وفي شمال ثورا نهر يزيد .

(مجمع البلدان : ج ٢ - ١١٨ - ١١٩)

(٢) قرية من غوطة دمشق .

(المعجم : ج ٢ - ١٢٤)

(٤) صاحبة بدمشق . ورد ذكرها قبل .

(٥) الذين يرمون بالثُغُط . والزُّرَّاقَة : أنثى بَرَق (يقذف) بها الثُغُط في الحرب .

ثم راسل الملك الصالح أخاه الملك الكامل يقول : بلغني أنك تعطى دمشق للملك الناصر داود وأنت أحق بها ، وإن أنت لم تعطني ما أريد ، وإلا ضربت قوارير التُّفُط في أربع جوانب دمشق وأحرقتها ، وأحرق قلعها ، وأخربها خراباً لا تُعمر بعده أبداً . فعلم الملك الكامل من جرأته أنه يفعل ، فأعطاه ما طلب .

ودخل بينها الشيخ محي الدين بن الجوزي - رسول الخليفة - وكان بدمشق - فوقع الاتفاق والصلح على أن الملك الكامل أقرَّ يده أخيه الملك الصالح بُصْرَى^(١) والسَّوَادَ^(٢) ، وأعطاه بعلبك وأعماها . ولو طلب أكبر من ذلك أعطاه ، خوفاً من أن يحرق دمشق .

وتسلم الملك الكامل دمشق ، ودخلها في عاشر جمادى الأولى - وقيل في أواخر الشهر المذكور - وأفرج عن القلک المَسِيرى ، وكان الملك الأشرف قد اعتقله في حبس الحيات . ولما دخل الملك الكامل إلى دار رضوان بقلعة دمشق ، رأى قبر أخيه الأشرف فرفسه برجله وسبه ، وقال انقلوه الساعة . فنقلوه إلى الكَلَّاسِيَّة .

ولما ملك الملك الكامل دمشق ، عزم على قصد حِمص ، لاتفاق صاحبها الملك المجاهد شيركوه ، فيما مضى ، مع الأشرف . فصالحه الملك المجاهد على أن يحمل إلى خزانته ألف درهم ، ودخل عليه بالنساء ، فأجاب الملك إلى ذلك . ومات الكامل قبل حمل المال .

(١) هي قصبة كورة حوران . من أعمال دمشق . سبق ذكرها .

(٢) المراد بالسواد : الأرض الزراعية أو القرى حوالها .

ذكر وفاة السلطان الملك الكامل

كانت وفاته في يوم الأربعاء ، وقيل ليلة الأربعاء - الحادى والعشرين من شهر رجب ، سنة خمس وثلاثين وستائة ، بقلعة دمشق بقاعة الفضة . ومولده بالقاهرة في ذى الحجة ، سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وكان أَسَنَ أولاد الملك العادل . وكانت مدة عمره تسعا وخمسين سنة وسبعة أشهر - تقريباً . ومدة ملكه - بعد وفاة والده الملك العادل عشرين سنة ، وشهرين وستة عشر يوماً . وملك دمشق واحداً^(١) وسبعين يوماً . ومنذ خُطِبَ له بولاية العهد ، ثمانياً وثلاثين سنة وتسعة أشهر ، وستة عشر يوماً .

ودُفِنَ بالقلعة . ثم نقل إلى تربته بجوار الجامع الأموى بدمشق . وكان مدة مرضه نيافاً وعشرين يوماً ، بالإسهال والسعال ونزلة في حلقه ، ونقرس في رجله . وأظهروا موته يوم الجمعة . ولم يظهروا الحزن عليه بدمشق . حُكِيَ عن خادمه الذى كان يُعَلِّله في مرضه ، قال : طلب منى الملك الكامل الطُّشْتُ^(٢) لسقياً ، فأحضرت له . وكان الناصر داود على الباب يطلب الإذن . فقلت له : داود على الباب . فقال : يتظر موتى ! وانزعج . فخرجت إليه ، وقلت له : ليس هذا وقت عبورك ، فإن السلطان مترجع . فتوجه إلى دار أسامة^(٣) - وكان قد نزل بها . ودخلت إلى السلطان ، فوجدته قد قَضَى ، والطُّشْتُ بين يديه ، وهو مكبوب على المخدة .

(١) في (ج) : إحدى . ع

(٢) غلب استعمال هذا اللفظ بالسين المعجمة . وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء . وأصله «تُس» بـسين مشددة ، ولذا فجعله طُشْتُ وطُوس .

(الققشندى : ج ٤ - ١٠)

(٣) هو أسامة أو سامه الجبلى ، الذى مر ذكره في أول الكتاب . وكان من الأمراء الصلاحية .

وكان ملكاً حازماً ، ضابطاً لأُمُوره . متطعاً لجميع المال ، يباشر الحُمُول التي تصل إليه بنفسه ويكتبها بخطه في دفتر له ، ويحاققُ المستخدمين فيما يطلع عليه . وجمع مالاً عظيماً ، حتى يقال إنه خلف ألف إردب ذهب . وهذا ما لم يُسمع بمثله . وأراه - والله أعلم - من التَّعَالَى .

وكان يجلس في مجلس خاص في كل ليلة جمعة ، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم . وله في بقية الجمعة ليال ، يجتلي فيها مع نُدَمائِهِ على الشراب وسماع القِيَان^(١) . وكان حسن الاعتقاد في السُّنَّة . وكان جَهْوَريَّ الصوت ، وله هبة عظيمة في قلوب الرِّعَايَا والخَوَاصِّ . وعَمَر قاعة بقلعة الجبل ، يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين في شهر رمضان ، سماها قاعة رمضان . وهي الآن من جملة الخزائن السلطانية .

ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان

الملك الكامل في هذه السنة

لما توفي الملك الكامل اجتمع الأمراء ، وهم : سيف الدين على بن قليج ، وعزالدين أَيْتُك ، وركن الدين الهَيْتَجَاوِي ، وعُماد الدين ، وفخر الدين : ابنا شَيْخِ الشَّيْخ^(٢) ، وتشاوروا في أمر دمشق ، وانفصلوا

(١) الجهراري المغنيات .

(٢) هو صدر الدين بن حمويه ، الملقب بشيخ الشيخ لأنه كان شيخ الصوفية ، وكان من كبار قهواء الشافعية . وقد سبقَتْ ترجمته .

عن غير شئ . وكان الملك الناصر داود بدار أسامة ، فأتاه الرُّكن الهَيَجَاوى ليلاً ، وبيّن له وجه الصواب . وأرسل إليه أَيْبِك المَعْظَمُ يقول له : أخرج المال ، وفرّقهُ في ممالك أَيْبِك والعَوّام ، فهم معك ، وتملك البلد ، ويبقى هؤلاء بالقلعة محصورين . فلم يَتَّفِقْ ذلك .

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء بالقلعة في يوم الجمعة ، وذكروا الملك الناصر داود ، والملك الجواد مظفر الدين : يونس بن مودود بن الملك العادل . وكان فخر الدين بن الشيخ يميل إلى الملك الناصر ، وعماذ الدين يكرهه فأشار عماذ الدين بالملك الجواد ، ووافقهُ الأمراء ، وقالوا لفخر الدين بن الشيخ : ما تقول فيه ؟ فقد اتفق الأمراء عليه . فقال : المصلحة أن نُؤلَّى بعض الخدام نائباً عن الملك العادل : ابن أستاذنا الملك الكامل ، فتى شاء عزله [وإن رضى أبواه ، ولا تولوا من بيت المُلك فيتعذر عزُّه] ^(١) ويستقل بالملك .

وبلغ ذلك الملك الجواد فجاء إليه ، وتحدث معه ، وذكر له سالفَ صُحبة ومودة ، وترفق له ووعدهُ أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارساً ، وعشرة آلاف دينار . فقال : والله لا وافقتُ إلا على ما فيه مصلحة لابن أستاذى . فلما پُئِس منه ، قُرِقَ ضِياع الشام على الأمراء وخلق عليهم ، وأعطاهم ما فى الخزائن - وكان بها تسعمائة ألف دينار . وتوجه فخر الدين بن الشيخ إلى الديار المصرية ، ومعه جماعة من الأمراء ، بعد أن تَرَدَّدَ إلى الملك الناصر مراراً ، وهو بالقابُون .

(١) ما بين الحاصرتين يحايط من النسخة (ك) ، فأكملناه من (ع) .

واستقر أمر الملك الجواد في يوم الجمعة . وأرسل الأمراء الأمير ركن الدين الهتجأوى إلى الملك الناصر داود - وهو في دار أسامة - فأمره بالخروج إلى مملكته بالكرك . فقام وركب ، وقد اجتمع الناس من باب داره إلى القلعة . وهم لا يشكّون أنه يطلع إلى القلعة . فتوجه . وخرج من باب الفرج . وصاحت العامة واستغاثوا . محبة له ورغبة فيه . وتوجه إلى القابون .

وأما الملك الجواد فانه فرّق الأموال وخلع الخلع . فيقال إنه خلع خمسة آلاف خلعة . غير الأموال . وأبطل الخمر والمكوس . ونفى الحواطي ^(١) . وأقام الملك الناصر بالقابون أياما . وعزموا على القبض عليه . فرحل . وبات بقصر عقرا . وركب خلفه أيتك الأشرقي ليمسكه . فبعث إليه عماد الدين بن مؤسك في السرّ فعرفه . فسار في الليل إلى عجلون ^(٢) وعاد أيتك إلى دمشق .

ذكر ما وقع بين الملكين : الناصر والجواد

وهرب الناصر إلى الكرك

قال : ولما توجه الملك الناصر إلى عجلون . سار منها إلى غزة . واستولى على الساحل بموافقة عسكره . ومقدمهم . الأمير مجد الدين عمر - أخو الفقيه عيسى الهكاري ^(٣) - ووصلت غاراته إلى الوردادة ^(٤) وخرب بُرج الحمام

(١) البهايا .

(٢) في إقليم الأردن مشرفة على القزير . وبها قلعة حصينة جداً ، بناها أسامة الجليل .

(٣) هو الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وكان من كبار رجال دولة صلاح الدين .

(٤) منزل في طريق مصر للقادم من الشام ، في وسط الرمل والماء والملح ، من أعمال الجفّار . فيها سوق ومنازل ومسجد ومبرجة للحمام ، يكب ويطلق على أجنحتها ويرسل إلى مصر بالوارد والصادر .

بها . فخرج إليه الملك الجواد في عسكر مصر والشام ، وأمر الأمراء الأشرفة بمكاتبة الناصر وإطماعه في الملك ، ففعلوا ذلك . فاغتر بكتيهم واطمأن إليهم ، وركب من غزة في سبعمائة فارس ، وقصد نابلس باثقاله وخزائنه وأمواله . وكانت على سبعمائة جمل - وضرب دهليزه على سبسطيه^(١) ، وترك عساكره مقطعة خلفه .

والملك الجواد على جنين^(٢) فركب بعسكره وأحاط به . فركب الناصر في نفر يسير . وساق نحو نابلس . واستمرت به الهزيمة إلى قلعة الكرك لا يلبى على شيء . واستولى الملك الجواد على خزائنه وذخائره . وخبوله وخيامه وأثقاله . وكان فيها ما لا يحصى قيمته . وكانت هذه الواقعة في رابع عشرين ذى الحجة من السنة .

قال أبو المظفر : وبلغني أن عماد الدين بن الشيخ وقع بسيف صغير . فيه اثنا عشر قطعة من الجوهر . وفصوص ليس لها قيمة . فدخل على الجواد وطلبه منه . فأعطاه إياه . قال : وهذه الأموال - التي كانت على جبال الملك الناصر - هي التي جهز بها الملك المعظم ابنته دارمرشد . لما زوجها بالسلطان : جلال الدين خوارزم شاه - أخذها الناصر منها ظنا منه أنه يعرضها إذا فتح البلاد ، فكان الأمر بخلاف ما ظن .

(١) بلدة من نواحي فلسطين . بينها وبين البيت المقدس يومان . وهي من أعمال نابلس . يقال أن بها قبر زكرياء وعيسى بن زكرياء - عليه السلام - وجماعة من الأنبياء والصالحين .

(ياقوت : ج ٥ - ٢٩)

(٢) بلدة حنة بين نابلس ويسان ، من أرض الأردن . بها عين وبياض .

(معجم البلدان : ج ٣ - ١٩٥)

وكان نصحاؤه أشاروا عليه - وهو بقرة أنه يبعث بالأموال والأثقال إلى الكرك ، على عقبة الزويرة ^(١) ، ويجمع عسكره ويتوجه إليهم جريدة ^(٢) . فاعتز بمكاتبة الأشرقية . وجهز الملك الجواد الطلعات والصنائج ^(٣) إلى الديار المصرية ، فوصلت في سادس وعشرين الشهر . وعاد إلى دمشق بالظفر والغنيمة .

هذا ما كان بدمشق ، فلنذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ببلاد الشرق .

ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ببلاد الشرق في هذه السنة

كان الملك الصالح نجم الدين قد استخدم الخوارزمية ، الذين سلموا من أصحاب السلطان جلال الدين خوارزم شاه ^(٤) ، في سنة أربع وثلاثين

(١) لا توجد في «معجم البلدان» ، ولكن ورد في حاشية رقم ٣ بالنجم الزاهرة : ج ٧ - ص ١٢ أن هناك جهة تعرف اليوم باسم «عقرة الزول» ، وهي على بعد عشرة كيلو مترات غرب العريش ، كانت قديماً أحد مراكز البريد في الطريق بين مصر وخرقة . فيبدو أن عقرة الزول ليست إلا تحريفاً لعقبة الزويرة ، لأن موقعها ينطبق على ما في السياق .

(٢) فرقة من الجيش ، تخف سريعة على ظهور الخيل لأداء مهمة حربية .

(٣) الأتوية ، أو القواد حاملوها ، وقد سبق شرحها في أول الكتاب .

(٤) السلطان «جلال الدين» كان آخر شاهات الدولة الخوارزمية . تولى سنة ٦١٧ هـ . وفي سنة ٦٢٨ طارده التتار بعد أن هزمه ، ففر شريداً ، وقتل في أثناء فراره في ذلك العام . ففي ذلك العام (٦٢٨) انتهت الدولة الخوارزمية ، التي كان مقرها خوارزم ، والتي امتدت حتى نافست الدولة السلجوقية ، وحلت محلها . فبعد انقضاء الدولة ، تفرق جنود الخوارزمية ودخلوا في خدمة الملوك . وكان الملك الصالح أيوب ممن استخدمهم ، وذلك في سنة ٦٣٤ - على ما ذكر في المتن . وسيكون هؤلاء الخوارزمية شأن كبير في تطور الأحداث في الشام ومصر والجزيرة منذ ذلك الوقت ، وسيفتحون بيت المقدس مرة أخرى ، كما سيبين من الأحداث التالية التي سيرد ذكرها في المتن .

وستائه . وكانوا - قبل ذلك - خدموا صاحب الروم السلطان : علاء الدين . كَيْقَبَاز ، ففارقوه . واستخدمَهُمُ الملك الصالح ، واستعان بهم ، فحَالَفُوا عليه في سنة خمس وثلاثين . وأرادوا القبض عليه - وكان على الفرات - فهرب إلى سنجار ، وكان قد ملكها واستولى عليها بعد وفاة عمه الملك الأشرف . وترك خزانته وأثقاله ، فنبهوا ذلك بِجُمْلَتِهِ . ولما صار بَسِنجَار ، وعلم الملك الرحيم : بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل - مخالفة الخُوارزْمِيَّة ، قصده وحصره بِسِنجار ، في ذى القعدة . فأرسل الملك الصالح إليه بِسأله الصلح . فقال : لا بُدَّ من حمله إلى بغداد في قَفَصٍ ! وكان بدر الدين لؤلؤ وملوك الشرق يكرهون مجاورة الملك الصالح ، وينسبونه إلى الكِبَرِ والظلم .

فبعث الملك الصالح القاضي بدر الدين - أبا المحاسن يوسف - قاضى سِنجار إلى الخُوارزْمِيَّة ، فَتَحِيلَ في الخروج من سِنجار ، بأن حَلَقَ لِجَبَّتِهِ وَتَدَلَّى من السُّور بِجبل ، وتوجه إليهم . وشرط لهم كل ما أرادوا . فاقوا جَرَّادٌ^(١) من حَرَّان ، ومكبسو بدر الدين لؤلؤ وعسكر الموصل بِسِنجار . فهرب منهم على فَرَس . وترك خزانته وأثقاله وخيوله . فنهبت الخوارزمية جميع ذلك . واقتسموه . فصلحت به أحوالهم واستغنوا .

هذا ما كان من أخبار دمشق والشام ، وأخبار الملك الصالح بالشرك بعد وفاة والده : الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين . فلنذكر أخبار الملك العادل .

(١) أى : حملات سريعة خفيفة .

ذكر أخبار السلطان الملك العادل

هو سيف الدين : أبو بكر ، بن السلطان الملك الكامل : ناصر الدين أبي المعالي محمد ، بن السلطان الملك العادل : سيف الدين أبي بكر محمد ، ابن أيوب . وهو السابع من ملوك الدولة الأيوبية ، بالديار المصرية .

استقر في الملك بعد وفاة والده : السلطان الملك الكامل . وذلك أنه لما مات والده بدمشق ، كان هو ينوب عنه بالديار المصرية . فاجتمع الأمراء الذين كانوا بدمشق ، في خدمة السلطان الملك الكامل ، الأمير سيف الدين علي بن قليج ، والأمير عماد الدين ، وفخر الدين : ابنا الشيخ ، وغيرهم من أكابر الأمراء . في قاعة المسرة بقلعة دمشق ، وحلفوا للملك العادل هذا ، واستحلفوا له جميع العساكر المصرية والشامية . وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ورثوا الملك الجواد : مظفر الدين يونس بن مودود - ابن عمه - في نيابة السلطنة بدمشق ، كما تقدم . وطالعوا السلطان الملك العادل بالخير . فخطب للملك العادل بالديار المصرية ، في سابع شعبان من السنة ، وأعلن بوفاة الملك الكامل . فقال القاضي برهان الدين بن الفقيه نصر :

قل للذى خاف من مصر، وقد أُمِيتَ ماذا تألمه منها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر مُحَمَّداً فقد أقيم أبو بكر خليفته^(١)

قال : ولما استقر في الملك ، وَضَعَ المُكُوسَ^(٢) ، وزاد الأجنَادَ^(٣) ،
وَوَسَّعَ على الناس في أرزاقهم . ورضى ما قرره الأمراء من استنابة الملك الجواد
بدمشق ، وأرسل إليه الخلع والصُّنْبُقَ . فركب بذلك في يوم الأحد تاسع
عشرين شهر رمضان من السنة .

ووصلت العساكر المصرية التي كانت مع الملك الكامل بالشام - وكان
ابتداء وصولهم في ثاني عشر شعبان ، وكمّلوا في مستهل شهر رمضان من
السنة - وتأخر منهم من جرّد مع الملك الجواد . فأكرمهم الملك العادل وخلع
عليهم ، وزاد في أرزاقهم . ثم عاد من تأخر منهم إلى الديار المصرية ، بعد
هرب الملك الناصر داود من سَبْطِيَّة - كما تقدم . وكان وصولهم في ثامن
المحرم سنة ست وثلاثين وستائة .

وفي سابع عشرين شوال ، من سنة خمس وثلاثين ، وصل الشيخ
محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجوزي ، برسالة الخليفة بالتعزية للملك
العادل بأبيه ، والتهنئة له بالملك . واستخلفه للخليفة . في ثاني ذى القعدة
منها .

(١) الموجود في (ع) : « قد قام أبو خليفته » . ولكن اليت ينكر . فإما أن يكون : قد أقام . أو فقد أقيم .
والثاني أول . ولذا نرجحه .

(٢) الضربات غير الشرعية ، التي استحدثت زيادة على الخراج .

(٣) أى زادهم في عطائهم : مرتباتهم .

ذكر ما وقع في هذه السنة من الحوادث - خلاف ما تقدم -

في هذه السنة ، في ليلة الإثنين سادس جمادى الآخرة ، أمر السلطانُ الملك الكامل أن لا يُصَلَّى بالمسجد الجامع بدمشق صلاةً المغرب إلا خلف إمام واحد : وهو خطيبُ الجامع الشافعى . وأبطل من عداه من الأئمة المالكية والحنفية والحنابلة ، في صلاة المغرب خاصة ، لانهصارها في وقت واحد ، واشتباه الحال على المؤمنين

وفيها قصد الملك المنصور : عمر بن على بن رسول - متملك اليمن - مكة . فلما بلغ الأمير أسد الدين جفريل الخبر ، خرج من مكة بمن معه من العسكر إلى الديار المصرية ، في سابع شهر رجب ، ووصلوا إلى القاهرة متفرقين ، في العشر الأوسط من شعبان . ودخل صاحبُ اليمن مكة في تاسع شهر رجب .

وفيها ولى الشريف : شمس الدين الأرموى ^(١) الشافعى - قاضى العسكر - نقابة الأشراف بالديار المصرية - وذلك في يوم الأربعاء سلخ ذى القعدة . وقرىء تقليدُه بجامع مصر ، وحضر قراءته الأمير جمال الدين بن يَعمُور ، وفلك الدين المَسِيرى ، وابن النجلى .

(١) نسبة إلى «أرمية» (بالضم ثم السكون) : اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان . وهى ، فيما يزعمون ، مدينة زرادشت : مدينة حسنة كثيرة الخيرات .

وفيه في شعبان ، ولى الشيخ كمال الدين : عمر بن أحمد بن عبد الله ابن طَلْحَةَ النَّصِيبِي (١) - الخطابة ، بعد وفاة عمه الدَّوْلَمِي (٢) - وكانت وفاته في رابع عشر جادى الأولى ، ودفن بالمدرسة التى أنشأها بجيرون (٣) . وكان له أخ جاهل فولى الخطابة ، ثم عزل . فوليا الشيخ كمال الدين .

وفيه كانت وفاة قاضى القضاة : شمس الدين أبو البركات - يحيى بن هبة الله - بن الحسن ، المعروف بابن سَنَى الدولة ، في يوم الأحد سادس ذى القعدة ، ودفن بقاسيون . وكان فقيهاً إماماً فاضلاً عفيفاً - رحمه الله تعالى . وولى القضاء بعده قاضى القضاة : شمس الدين أحمد بن الخليل الحَوَّيى فى ذى القعدة ، استقلاًّ وَعَدَلَّ جماعةً كبيرة من أهل دمشق وهو أول قاضٍ رُتِبَ مراكز الشهود بدمشق وكان قبل ذلك موركون يورقون المَكْتُوب ، ويتوجه أربابه إلى بيوت العُدُول فيُشْهَدُونهم .

وفيه توفى الأمير صارم الدين خَطَّابُ الثَّيْنِي ، فى يوم الاثنين ثالث شعبان ، ودفن بترته التى أنشأها بقاسيون . وكان ذنباً صالحاً عاقلاً . أقام فى الثُّمُور مدة سنين ، يجاهد العدو . وكان كثير الصدقة دائم المعروف ، طاهر اللسان ، رحمه الله تعالى .

(١) نسبة إلى نصيبين . وهى من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل والشام .

(٢) نسبة إلى الدولة ، وهى قرية من قرى الموصل .

(٣) اسم دمشق أو موضع فيها .

واستهلّت سنة ست وللاثين وسنائة :

ذكر القبض على صاحب صني الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله

في هذه السنة - في أولها - قبض الملك الجواد على صاحب صني الدين بن مرزوق ، وصادره ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار .

وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين الملك المجاهد - أسد الدين صاحب حمص - عداوة مستحكمة ، لما استوزره الملك الأشرف . وكان الملك الجواد لا يخرج عن رأى الملك المجاهد ، فحسنَ الملكُ المجاهدُ للملك الجواد القبض عليه . وكان ابن مرزوق قد استشعر ذلك ، فعمد إلى تابوت وضع فيه جواهر والآلئ ، وأظهر أن إحدى سَرَاريه قد ماتت وهي عَزِيزَةُ عنده . وأنه يريد دفنها في داره المجاورة للمدرسة الثوريّة ، بالقرب من الحَوَاصِين - وهي التي تعرف الآن بالتَّجِييَّة الشافعية - وعمل في القُبَّة أَرْجاً ، ثم أخرج التابوت على أعناق غلمانه وخُدامه إلى الجامع ، وحضر الناس للصلاة على المَيِّتَةِ ، بِرَعْمِهِمْ ، وعَمِلَ العَزَاءَ وَتَرَدَّدَ القُرَاءُ إلى التربة أياًماً .

ثم قبض على مرزوق بعد أيام قلائل ، وأخذ جميع موجوده ، وحُبِسَ بقلعة دمشق . فاتفق أن خادمه الكبير ضرب خادماً صغيراً ، فجاء الخادم ، وسأل الاجتماع بالملك الجواد . واجتمع به وأخبره بالواقعة . فأرسل القاضي والشهود وأميرَ جَانْدَارَ وأستاذ الدار ، فتوجهوا وفتحوا التربة ، وأحضروا التابوت بحاله . وكُشِفَ بين يدي الجواد وصاحب حمص ، فوجئ فيه من

الجواهر ما قُومَ بمائتي ألف دينار وستين ألف دينار^(١) . وكانوا - قبل ذلك بأيام - قد طوّل ابن مرزوق بمال يَحْمِلُهُ ، فحلف برأس الملك الجواد أنه لا يملك شيئاً . فلما وجد هذا التابوت ، سلّمه الجواد للملك المجاهد . فاعتقله بقلعة حمص . فأقام سنين لا يرى الضّوء . وقبل أنه جُيِسَ اثنتي عشرة سنة . وأظهر أسد الدين مؤثته ، وكتب بينه وبينه مَبَارَاةً^(٢) .

ذكر خروج دمشق عن الملك العادل

وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل - لما حضر الأمير هاد الدين عمر بن شيخ الشيوخ من الشام إلى الديار المصرية - أنكر عليه . ولامه وتهدده (لكونه)^(٣) سلم دمشق للملك الجواد . فقال : أنا أتوجه إلى دمشق وأنزل بالقلعة ، وأبعث الملك الجواد إلى السلطان . وإن امتنع ، أقمت نائباً عن السلطان حيّضه .

وتوجه من القاهرة في شهر ربيع الأول ، وقرر أن يُقَطِّعَ الملك الجواد نهر الإسكندرية . ولما عزم على المسير ، أشار عليه أخوه فخر الدين أن لا يتوجه إلى دمشق ، وقال أخاف عليك من ابن مَمْدُود - يعني الجوّاد .

(١) في (ك) : بمائة ألف دينار ، وأصلحناه - كما أثبتناه في المتن - من النسخة الأخرى (ع) .

(٢) محالفة .

(٣) في (ع) : كونه .

قال أنا مُلْكُهُ دِمَشق ، ولا يخالِفُنِي فقال : أنت فارقتَه وهو أمير ، وتعود إليه وقد صار سُلْطَاناً ، فتطلب منه تسليم دِمَشق ، وتعرضه الإسكندرية ، وبقم عندكم ، فكيف يطيب له هذا ؟ أو تسمع نفسه بمفارقة المُلْك ؟ فأما إذا أُبَيَّتَ إلا التوجه ، فانزل على طَبِيبَةٍ وَكَانَتْهُ . فإن أجاب ، وإلا نُقيم مكانك وتكتب إلى الملك العادل .

فلم يَرْجِعْ إلى رأيه ، وتوجه إلى دِمَشق . وخرج الجواد إليه ، وتلقاه بالمُصَلَّى ، وأنزله بالقلمة في قاعة المَسْرَةِ . وأرسل إليه الملك الجواد الخَلْع والأموال والأفمشة والخيل ، ففرق عمادُ الدين الخَلْعَ على أصحاب . وجاء الملك المجاهد أسد الدين - صاحب حمص - إلى دِمَشق .

قال : ولما قال الأمير عماد الدين للملك الجواد أن يتوجه إلى الديار المصرية ، ويأخذ ثغر الإسكندرية - غضب ، ورَسَمَ عليه في الدار^(١) . ومنعه من الركوب .

ثم جاء إليه وقال : إذا أخذتم دِمَشق مني ، وأعطيتموني الإسكندرية ، لا بد لك من نائب بدمشق ، فاجعلوني ذلك النائب . ومتى لم تفعلوا هذا ، فقد كَانَتْهُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأُسْلِمَ إليه دِمَشق ، وأتعرض عنها سِنْجَار . فقال له ابن الشيخ : إذا فَعَلْتَ هذا ، اصطَلَحَ السلطان الملك العادل والملك الصالح ، ولا تحصل أنت على شَيْءٍ الْبَتَّة .

(١) هذا التعبير مقابل ما نقول اليوم من أن شخصاً . حدثت إقامته ،

ففارق الجود وخرج مُغَضَّباً ، وحكى ما جرى بينه وبين ابن الشيخ للملك المجاهد . فقال : والله إن أُنْفَقَ الصالح والعاقل لا تَرَكَا بيدَ أحدٍ منا شيئاً ، وسَلَبَنَا مُلْكَنَا وما بأيدينا ، حتى نحتاج إلى الكُذْبَةِ^(١) في المَخَالِي . ثم جاء صاحب حمص إلى ابن الشيخ ، وقال له : المصلحة أن تكتب إلى الملك العادل ، وتشير عليه بالرجوع عن هذا الرأي : يعنى إخراج الملك بالرجوع عن هذا الرأي . يعنى إخراج الملك الجواد من دمشق . فقال : حتى أتوجه إلى بَرْزَه^(٢) ، وأُصَلِّيَ صلاة الاستِخَارَةِ . فقال له أسد الدين : كأنك تريد أن تتوجه إلى بَرْزَه ، وتهرب منها إلى بَعْلَبَك . ففضب عماد الدين وانفصلا على هذه الحال

واتفق الجواد وصاحب حمص على قَتْلِ عماد الدين . وتوجه أسد الدين إلى حِمص . وكان عماد الدين قد مَرِضَ ، وأَبْلَ^(٣) .

فلما كان في يوم الثلاثاء ، السادس والعشرين من جمادى الأولى ، بعث الجواد إلى الأمير عماد الدين يقول له : إن شئت أن تركب وتسنزه فاركب إلى ظاهر البلد . فظن أن ذلك بوادرُ الرضا . ولبس فَرَجِيَّةً كان الجواد قد بعث بها إليه ، وقدموا له حِصَاناً كان سِيره إليه أيضاً ، فلما خرج من باب الدار إذا

(١) أى : الشحاذة .

(٢) قرية في بساتين غوطة دمشق ، كما مر .

(٣) شق . أو تمائل للشقاء .

هو بَنْصَرَانِي من نَصَارَى قَارَا^(١) قد وقف ويده قَصَبَةٌ وهو يستغيث ، فأراد الحاجبُ أن يأخذ القصبة منه ، فقال : لي مع الصاحب شغلٌ . فقال عماد الدين : دعوه .

فتقدم إليه ، وناولهُ القَصَبَةَ . فلما تناولها ، ضربه النصراني بِسِكِّينٍ في خَاصِرَتِهِ ! وجاء آخر وضربه بسكين على ظهره ، فمات وأُعيد إلى الدار مَيِّتاً واحتاط الجوادُ على جميع مَوْجُودِهِ ، وكتب مَحْضَرًا أَنَّهُ ما مالاً على قتله . وقصد استخدام مَمَالِيكِهِ ، فامتنعوا وقالوا له : أنت تُدْعِي أَنكَ ما قتلته ، وهذا له إِخْوَةٌ وَوَرَثَةٌ ، فبأى طريق تأخذ ماله ؟ فاعتقلهم . وَجْهَهُ عماد الدين ، ودفن بقاسيون في زاوية الشيخ سعد الدين . وكان مولده في يوم الاثنين سادس عشر شعبان ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة - رحمه الله تعالى .

ولما قُتِلَ عماد الدين ، علم الجواد أَنَّهُ إن دخل الديار المصرية وسَلِمَ من القتل ، صار ضَمِيمَةً^(٢) . واتفق وصول رسول الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الجواد ، وهو يبذل له أن يكون له سِنْجَارٌ وَالْحَابُورُ وَنَعِيبِينَ والرُّقَّةَ ، وَيُسَلِّمَ دمشق للملك الصالح . فَأَذْعَنَ إلى ذلك ، لعلمه أن دمشق لا تبقى له . وقيل إن الملك الجواد هو الذي كتب إلى الملك الصالح ، والتمس منه ذلك ، فأجاب الملك الصالح إليه .

(١) اسم قرية كبيرة على لارعة الطريق ، وهي المنزل الأول من حصص ، للقاصد إليها من دمشق . كانت آخر حدود حصص ، وما عداها من أمال دمشق . بها حيون جارية يزرع عليها . وأطها كلهم نصارى .

واسمها الأصل : قَارَةٌ (واقارة أصغر من الجبل) لأنها على رأس قَارَةٍ . ثم قيل : قَارَا .

(مجموع البلدان : ج ٧ - ص ١١)

(٢) أى رهينة ، كالأسير .

ورُتِبَ وَلَدَهُ : الملك المعظم غياث الدين ثورانشاه في بلاد الشرق ،
وجعل مُقَامَهُ بمحصن كَيْفَا . ورتب الثواب بِأَمْد ، وأَقْطَعَ الحُورَازْمِيَّةَ حُرَّانَ
والرُّهَّا والرُّقَّةَ وبلادَ الجزيرة وسار إلى دمشق ، فوصل إليها يوم الأحد مسنبل
جهاذى الآخرة ، سنة ست وثلاثين وستائة .

وحَمَلَ الجَوَادُ العَاشِيَةَ^(١) بين يَدَيْهِ من تحت القلعة ، وحملها الملك
المظفر صاحب حِجَاه - من باب الحديد . وتسلم الملك الصالح القلعة ، وخرج
الجواد منها في تاسع الشهر ، وترك دار قَرْوَخْشَاه . واستوزر الملك الصالح
جمال الدين بن جَرِير . ثم توجه الملك الصالح في شهر رمضان إلى نابلس ،
وكان ما نذكره .

ذكر أخبار الملك الجواد ، وما كان من أمره

بعد تسليم دمشق

قال المَوْزُوعُ : لما قَدِمَ الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق ،
رُتِبَ له الملك الجواد الضِّيَافَاتُ كل يوم ، في قاعة من قاعات دمشق ،
ورُتِبَ في كل قاعة ما يحتاج إليه من الفرش والآلات وأواني الفضة ، وغير
ذلك . وكان إذا حضر إلى قاعة سلمها إليه بجميع ما فيها ، ثم ينتقل إلى قاعة
أخرى ، وكان آخر الضيافة في قاعة المَسْرَةِ . ثم خرج الملك الجواد ، وركب
والعسكر في خدمته ، فقال لهم : سلطانيكم الملك الصالح . فحَلَفَ الصالحُ
العساكر في تلك الساعة ، إلا الأمير سيف الدين على ابن قَلِيْلِج ، فإن الصالح
قبض عليه .

(١) سبق وصفها ، وهى صرح أو آدم محزوز بالذهب ، وحمل بين يدي السلطان في المركب عند توليه الملك .
وهى من شعارات السلطنة .

فعظم ذلك على الثَّوَاب ، ولامه أصحابه على ما فعل من تسليم السلطنة للملك الصالح . فأراد نقض ما أبرمه ، والقبض على الملك الصالح . فاستدعى المُقَدِّمِينَ والجند واستحلفهم ، وجمع الصالح أصحابه عنده في القلعة ، وأراد أن يحرق دار قُتُخْشَاه . فدخل جمال الدين بن جرير بينها ، وأصلح الأمر .

وخرج الجَوَادُ إلى الثَّيْرَب ^(١) ، واجتمع الناس على باب القصر يدعون عليه وَيَسْتُبُونَهُ في وجهه - وكان قد أساء السَّيْرَةَ فيهم ، وسلط عليهم خادماً لبنت كُرْجِي يقال له الناصح ، فأخذ أموالهم وصادرهم ، وعلقهم وضربهم ، فيقال إنه أخذ منهم ستائة ألف درهم . وأرسل الملك الصالح إلى الجواد يأمره أن يعطى الناس أموالهم ، فلم يصنع إلى قوله ، ولا أجابه عن ذلك بجواب . وتوجه إلى بلاد الشرق .

فلما وصل إلى ضُمَيْر ^(٢) رأى بَدَوِيًّا فاستراب منه ، فقبض عليه ، فوجد معه كتاباً من الملك الصالح إلى الخَوَازِمِيَّة - وكانوا على حِمَص - يُحَسِّنُ لَهُمُ الْقَبْضَ عَلَى الملك الجواد ، وأخذ ما معه ، وأن يُسَيِّرُوهُ إليه . فعند

(١) قرية كبيرة في بساتين دمشق - كما سبق ذكره .

(٢) هو قرية وحصن في آخر حدود أعمال دمشق ، مما يلي السَّامَوَّة (الصحراء) .

ذلك أخذ على طريق السَّماوَة^(١) وعرج عن حمص ، وسار إلى عانة^(٢) ،
فدخلها وأقام بها .

فبلغه أن صاحب الموصل يحاصر سنجار - وبها أُنْذِمَ مملوك الجواد -
فسار إليه في مائتي فارس . ولما قرب منها رَسَمَ أن يُضْرَبَ في كل ناحية طبلٌ
بازٍ وقرق من معه فِرْقًا ، وجعل كل فرقة طَبْلَخَانَاهُ^(٣) ومشاعل ، وأمرهم
أن يضربوا طَبْلَخَانَتَهُمْ جُمْلَةً واحدة . وسار إلى سنجار لَيْلاً على هذه
الصَّفَةِ ، فظن صاحب الموصل أن معه عَسْكَراً ، فارتحل عن سنجار في
ليلته . ودخلها الملك الجَوَادُ بُكْرَةَ النهار ، وأقام بها سنة .

وحاصره الخَوَارِزْمِيَّةُ ، وعادوا عنه وترددت الرسائل بينه وبين
صاحب الموصل في المصاهرة بينهما . وقصد الجواد أن يتصل بآبنة صاحب
الموصل ، ليكون عَضُدًا له . فعقد عقد النكاح بالموصل ، وكان وكيل الجواد
زُرَيْقُ مملوكة .

(١) بادية السهول هي من بين الشام والكوفة . وهي قراء .

سميت كذلك لأن بها مادة تسمى السهولة ، أو لأن السهولة هي الأرض المنوية التي لا حجر فيها .

(المعجم : ج ٥ - ١٢٠)

(٢) بلد مشهور بين الرقة وبيت جند في أعمال الجزيرة . وهي مشرفة على الفرات . وبها قلعة حصينة .

(المعجم : ج ٦ - ١٠٢)

(٣) هي طبول متعددة ، معها أبواق وزفر ، تختطف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تُدق كل ليلة في القلعة ،
وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب ، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ٨)

ثم سأله صاحب الموصل الاجتماع ، وسير ولده رهينة . فوافق الجواد على ذلك وتوجه إلى عانة . هذا ، وصاحب الموصل قد أقصد أهل سنجار . ولما سار الجواد من سنجار ، جاء صاحب الموصل إليها فدخلها من غير مُمانع - وذلك في سنة سبع وثلاثين وستائة .

فسار الجواد إلى بغداد ، واستنصر بالخليفة . وأقام ببغداد ستة أشهر . فوصله الخليفة بأربعة آلاف دينار ، وأمره بالخروج عن بغداد . فسار إلى عانة وأقام ها ، ثم اشتراها الخليفة منه بمائة وعشرين ألف درهم . فقبض الجواد المال وسَلَّمَهَا - وهى جزيرة فى وسط الفرات . وسار الجواد بعد تسليمها إلى حرَّان ، وهى بيد الخوارزمية ، فأقام عندهم سنة . وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها ، ثم عاد معهم إل حرَّان .

فاستدعاه الملك الصالح نجم الدين - بعد أن ملك الديار المصرية - فسار ومر على قرقيسيا^(١) ، واجتاز بالرحبة بالبرية ، وأقام عند ابن صدقه^(٢) أياماً . وسار فى البرية إلى الشوبك ، وسير مملوكه زريق إلى الصالح فى البرية . فعظم ذلك على الصالح ، وأنكر كونه حضر من البرية . ووصل الجواد إلى العباسة^(٣) ، فأرسل إليه الملك الصالح الطواشى ديناراً وأمره برده . وأن يعود إلى الشوبك^(٤) ، ولا يدخل مصر . فسار على طريق الرَّمْلُ يريد الساحل ، ووصل إلى رفح .

(١) بلدة على نهر الخابور (بالجزيرة) قرب الرحبة (رحبة مالك بن طوق) على بعد ستة فراسخ . وعندها يصب نهر الخابور . فى مئكت بين الخابور والفرات

(مجمع البلدان : ج ٧ - ٦٠)

(٢) من رؤساء العرب هناك . وسير ذكره فها بعد .

(٣) مر ذكرها ، وهى أول منزلة من مصر للقادم من الشام على الطريق إلى بليس .

(٤) قلعة فى جنوب الكرك شمال أيلة . سبق ذكرها .

فندب الملك الصالح كمال الدين بن الشيخ للقبض عليه . فعلم بذلك فتوجه إلى الملك الناصر داود - وكان إذ ذاك بالقدس - وتحالفا على قتال الصالح ، وذلك في سنة تسع وثلاثين وستائة . فاستبشر الناصر بقدمه ، وجردَ العساكر معه . وجاء كمال الدين بن الشيخ ، والتقوا على مكان يقال له بيت قوريك - وهى قرية من قرى نابلس - بالقرب منها ، فيما بينها وبين القُور من جهة أريحا ، فكسره الجواد وأسره . وأحضره إلى عند الملك الناصر داود ، فوبخ الناصر كمال الدين .

وأقام الجواد عند الناصر فتَحَيَّلَ منه وقبض عليه بعد أيام ، وأراد قتله ، لما كان بينهما من الدُّخُولِ ^(١) القديمة . ثم سبَّه إلى بغداد في البرية تحت الاحتياط ، فنزل قريباً من الأزرق ، فعرفه جماعة من العرب فأطلقوه .

فتوجه إلى عمه الملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق - فلم يُمكنه من الدخول إليها ، وبعث إليه بالتفقات . وجردَ معه خمسمائة فارس ، وكتب إليه بالمسير إلى الساحل والاجتماع بملوك الفرنج ومُقدِّم الدِّيَّوَةِ ^(٢) . فتوجه إليهم واجتمع بهم بقبسارية ^(٣) - وكانت أمه فرنجية - فمالوا إليه .

فبلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين ، فكذب إليه يَعِدُهُ بمواعيد جميلة ، وطلب منه أن يستميل الفرنج إلى طاعته ، وَيَعِدَّهُم عنه بجميع ما يختارونه . ففعل الجواد ذلك ، واستألفهم ، وكتب إليه أن يسير رسوله إليهم .

(١) الثارات .

(٢) سبق شرح هذه الكلمة . وهو الاسم الذى أطلق على فرقة من الرهبان الصليبيين المتعصبين ، الذين نفروا أنفسهم لحرب المسلمين ، وهم جماعة فرسان المعبد .

(٣) بلدة على ساحل الشام . مر ذكرها .

ففعل الملك الصالح ذلك ، وأرسل رسوله إلى الفرنج ، واستحلف الملك الجواد ومُقَدِّم الدِّيَوِيَّة وأكابر الفرنج . فلما وثق الصالح بذلك ، سير الأمير ركن الدين الهَيَّجَاوِي . إلى غَزَّة بعسكر ، وكتب إلى الجَوَاد أن يرحل وينزل عند الهَيَّجَاوِي ، ويتفق معه على الصلح . ففعل الجواد ذلك .

ثم كتب الملك الصالح إلى الهَيَّجَاوِي بأمره بالقبض على الملك الجواد . وإرساله إليه . فأخبره الهَيَّجَاوِي بذلك . فاتفقا على مفارقة الملك الصالح أيوب . فتوجه الجواد إلى عَكَّا ، والتجأ إلى الفرنج . وتوجه الركن الهَيَّجَاوِي إلى دمشق ، والتحق بصاحبا الملك الصالح إسماعيل وأقام عنده . ولم يخدمه ، بل كان يتردد إليه فيكرمه ويستشيريه في أموره .

ثم كتب الملك الصالح إسماعيل إلى الملك الجَوَاد يُعْتَفُّه . على لحاقه بالفرنج وطلبه إليه . ثم أرسل إلى الفرنج وطلب منهم المعاوضة على صاحب مصر . ووعدهم أنه إذا ملك مصر أعطاهم البلاد الساحلية .. وجميع قُتُوح الملك الناصر صلاح الدين يوسف . فاستشاروا الجواد في ذلك . فكتب إليهم يحذروهم من الملك الصالح إسماعيل ، وينهاهم عن موافقته . فوقع بخطه للملك الصالح إسماعيل ، فقبض عليه بمنزلة العَوَّجَاء ^(١) . وسيره إلى دمشق ، واعتقله بعريا . فأت في شوال سنة إحدى وأربعين وستائة . وطلبه الفرنج وشددوا في طلبه ، فأظهر أنه مات . وأهله يقولون إنه خنقه . والله أعلم . ولما مات دفن بقاسيون في ثربة الملك المعظم - رحمها الله تعالى . هذا ما كان من أمر الملك الجواد . فلترجع إلى بقية أخبار الملك العادل صاحب مصر .

(١) العوجاء : في عدة مواضع . وأيضاً نهر بين أرسوف والرملة ، من أرض فلسطين من السواحل .

ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل ، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق

وفي سنة ست وثلاثين وستائة ، ندب السلطان الملك العادل العساكر إلى الساحل ، وقدم عليهم الأمير ركن الدين الهيتجاوى ، وأنفق فيه الأموال - وذلك في جمادى الآخرة . فأقاموا ببلبيس إلى العشرين من شهر رمضان .

وأظهر جماعة من الأتراك والمُصَافِين إليهم الخروجَ عن طاعة الملك العادل ، وشيَعُوا أنه يقصد القبض عليهم ، وعزموا على قصد الملك الصالح أيوب . فأرسل الملك العادل إليهم الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وبهاء الدين ابن ملكشُو ، وطَيَّبَ قلوبهم واستألمهم ، فلم يُجيبوا

ولما كان في الحادى والعشرين من شهر رمضان ، خرج جماعة من الحَلَقَةِ^(١) من القاهرة ، من باب النصر وغيره ، تقدير ألف فارس من الأتراك - وأظهروا أن السلطان عزم على القبض عليهم ، وقصدوا للحاق بمن كان على بلبيس من الأمراء فَبَطَّقَ^(٢) الملكُ العادل إلى الأمراء الأكراد

(١) كانت الجنود في زمن الدولة الأيوبية والمالكية تتكون من نوعين ، أو كما قال «القلشندى» : وكانت الأجناد على طبقتين : الطبقة الأولى : المالكية السلطانية وهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا ، وأوفرهم إقطاعاً . ومنهم تومر الأمراء رتبة بعد رتبة . الطبقة الثانية : أجناد الحَلَقَةِ : وهم عدد جَمٍّ وخلق كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتصممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات .
(صح الأعرشى : ج ٤ - ١٥ و ١٦ ، وانظر : «السلوك» زيادة : ج ٦ - ١٢٢ حاشية رقم ٢٠٢ -

(٢) أى أرسل بطاقة .

ببليس ، بمناجزة الأتراك وقتلهم ، قاتلهم الأكراد قبل وصول الحلقة إليهم . فانهزم الأتراك إلى جهة الشام وانضم أكثرهم إلى الأكراد . ولما انهزموا تبعهم الأكراد ، ثم رجعوا خوفاً على أنقلاهم من الحلقة فوجدوا الحلقة قد وصلوا إلى بليس ، فلم تعرض إحدى الطائفتين إلى الأخرى بقتال ، لدخول الليل . وتوجه الأتراك للحاق بأصحابهم الذين انهزموا ، وساروا إلى دمشق واتصلوا بخدمة الملك الصالح أيوب .

ذكر وصول الملك الناصر داود - صاحب الكرك -

إلى السلطان الملك العادل

وفي خامس شوال ، سنة ست وثلاثين وستائة ، وصل نجاب^(١) من للملك الناصر داود - صاحب الكرك - إلى السلطان ، يخبره بوصوله . فخرج السلطان للقاءه في سابع الشهر ، وزينت القاهرة ومصر زينة لم يشاهد مثلها ، وعاد السلطان والملك الناصر معه في ثامن الشهر ، واستبشر بقدومه وحلف كل منهما لصاحبه .

وفي العشرين من شوال ، وردت الأخبار بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب - صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر - إلى جيبين . فجمع الملك العادل والناصر الأمراء ، وتحالفوا على قتاله . وخرج الملك الناصر داود في يوم الأحد تاسع ذي القعدة ، لقصد الشام . وندب الملك العادل جماعة من الأمراء في خدمته ، لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب . وجهاز صحبته خزانة مال وسلاح خاتاه ، وخرج لوداعه إلى بركة

(١) أى : رسول على ظهر فرس نجيب : سريع .

الجُبِّ ، وعاد إلى القلعة . ثم خرج الملك العادل في يوم الثلاثاء - سَلَخَ ذِي
الحِجَّة - لِقَصْدِ الشَّامِ ، لِقِتَالِ أَخِيهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، فَتَزَلَّ عَلَى بَلْبِيسَ

وفي هذه السنة ، في يوم الأحد ثامن صفر ، كانت وفاة الشيخ الإمام
جمال الدين أبي المحامد ، محمود بن أحمد الحَصِيرِي الحَنَفِي ، بدمشق .
وأصله من بُخَّارَى ، من قرية يقال لها حَصِيرَه . تفقه في بلده ، وسَمِعَ
الحديثَ الكثير . وقَدِمَ الشَّامَ ، ودَرَّسَ بِالثَّوْرِيَّةِ . وانتهت إليه رياسَةُ أصحاب
أبي حنيفة . وقرأ عليه الملك المعظم الجامع الكبير ، وغيره . وصَنَّفَ الكُتُبَ
الحسانَ ، وَشَرَحَ الجامعَ الكبير . وكان كثير الصدقة غزير الدُّمْعَةِ نَزْهًا عَفِيفًا .
وكان إذا أتى قلعة دمشق لا ينزل عن حماره إلا على الإيوان السلطاني ،
والمُلوِكُ تُعَظَّمُهُ وَتُجَلِّهُ . ودُفِنَ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَةِ عِنْدَ الْمُتَيْبِعِ ^(١) ، عَلَى الْجَادَّةِ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وفيها توفي الوزير جمال الدين بن جَرِير ، وزير الملك الأشرف . ثم وَزَرَ
لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ بدمشق دون الشهر ، ومات . وأصله من
الرَّقَّةِ . وكانت وفاته في يوم الجمعة - السابع والعشرين من جمادى الآخرة -
بِعِلَةِ الْحَوَائِقِ . ودُفِنَ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَةِ عِنْدَ الْمُتَيْبِعِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وفيها في شعبان ، توفي الأمير علاء الدين أبو الحسن على ، بن الأمير
شجاع الدين أبو المنصور جَلْدَك ، بن عبد الله الْمُظْفَرِي التَّقَوِي ، بِبَغْدَادِ
دِمَاطَ - وَكَانَ وَالِيًا بِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) محلة بدمشق .

ذكر عود السلطان الملك العادل

من بليس إلى قلعة الجبل

قد ذكرنا أن السلطان كان قد خرج من قلعة الجبل في سَلَخ ذى الحجة سنة ست وثلاثين ، لقصد الشام . وتزل على بليس وأقام بها ، إلى سادس عشر المحرم من هذه السنة ، ثم رجع .

وكان سبب رجوعه أن الأمراء قصدوا القبضَ عليه ، وتحيلوا على ذلك ، فسألوه أن يَعْمَلَ كُلُّ مِنْهُمْ دَعْوَةً وَيُحَضِّرُهَا للسلطان ، فَسَخَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . وحضّر عند بعضهم فأكل ، ثم قُدِّمَ الشرابُ فشرب ، ورأى ما أنكره قهّام ، ودخل إلى خَرَبَشْت^(١) لقضاء الحاجة ، فخرج من ظهر خَرَبَشْت ، وركب فرساً وساق إلى القلعة . فلما طال على الأمراء انتظاره ، دخلوا فلم يجدوه فتفرقوا ، وعلموا أنه شعر بما أرادوه من اغتياله .

فسُيِّرُوا إِلَيْهِ يَطْلُبُونَهُ ، فأظهر أنه ما دخل إلى القاهرة إلا لِيُحَلِّقَ^(٢) المِقْيَاسَ وَيَكْسِرَ الخَلِيجَ^(٣) ، ويعودَ إليهم . ثم أُلْجِئَتْهُ الْفُرُورَةُ إِلَى الْخُرُوجِ ،

(١) لفظ فارسي . معناه الحيلة .

(سلوك : ج ١ - ٢٨٤)

(٢) تخليق المقياس كان احتضاراً عظيماً يقام في كل عام ، احتفاءً بوفاء النيل . وقد وصف القلقشندي مُرَكَّبَ رُكُوبِ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ الْحَفْلِ ، وَصفاً تفصيلاً (ج ٤ - ص ٥١٦) ، وذكر أنه عندما يصل السلطان إلى المقياس يؤتى بالزعفران والمسك ، فيمزجه في إهاء يده بألّة معه ، ثم يتناولُه صاحب بيت المال فيعطيه ليتولى المقياس ، فيلق هذا نفسه في الفسقية ببيابه ، فيتعلق في عمود المقياس برجليه ويده اليسرى ، وَيُخَلِّقُهُ (أى يُضَمِّنُهُ بِالْوَطَرِ) يده اليمنى . فَمِنْ ثَمَّ مَتَّى هَذَا الْحَفْلُ بِالتَّخْلِيقِ .

(صبح الأمتى : ج ٤ - ٥١٦ - ٥١٧)

(٣) وهو خليج القاهرة . كان يُكسر سده عند بدء الفيضان .

فخرج إلى العباسة في يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر ، وقبض على الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وزين الدين غازي ، وفتح الدين بن الركن ، ووصل بهم إلى قلعة الجبل بكرة نهار الأحد السابع والعشرين من الشهر . وفي خامس عشرين صفر ، توجه الملك الناصر داود من العباسة إلى الكرك ، وصحبته ابن قليج وجاعة من أمراء مصر .

وفي يوم الخميس ، الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، عملت والدَةُ الملك العادل وَلِيمةً عظيمة في الميدان تحت قلعة الجبل ، لجميع الناس : الخواص والعوام ، ذبحت فيها ألفَ رأس من الغنم ، وجُملة من الخيل والبقر والجاموس والإبل ، وحلت ما يزيد على مائة قنطار من السكر ، في ثلاث فساقى كانت على جانب الميدان مما يلي القلعة ، وتفرق الناس ذلك بالأواني . وكان ذلك قَرَحاً باعتقال الملك الصالح أيوب ، فإنه كان قد أعْتِقِل بالكرك - على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى في أخباره .

ذكر قتال الفرنج وفتح القدس

وفي يوم الخميس - ثامن عشر شهر ربيع الأول ، من السنة - وردت الأخبار ، إلى السلطان الملك العادل ، أن الفرنج قصدوا الأمير ركن الدين الهبيجَاوى ومن معه من العسكر ، والتفوا واقتلوا ، في يوم الأحد رابع عشر الشهر ، عند سطر الجُمَيْر بالقرب من غَزَّة .

وكانت الهزيمة على الفرنج . وأسِرَ مَلِكُهم ، وثلاثة من يتوَدِّعهم ، وما يزيد على ثمانين فارساً ، ومائتين وخمسين رجلاً . وقُتِل منهم ألف وثمانمائة إنسان . ولم يُقَتَّل من المسلمين في هذه الوقعة إلا دون العشرة ،

منهم : الأمير سيف الدين محمد بن الأمير أبي عمر ، وعثمان بن الأمير علكان ابن أبي علي الكردي الهيجاي - وكان شاباً صالحاً - وعمره ثلاثون سنة - رحمه الله تعالى . فخذلت هذه الكثرة الفرنج .

ثم فتح الملك الناصر داود صاحب الكرك - ومن معه من العسكر الميصرى - البيت المقدس ، في يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى . فقال جال الدين بن مطروح :

المسجد الأقصى له عادة سارت ، فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا للشرك مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصر^(١) طهره أولاً وناصر^(٢) طهره آخراً

قال : ولما فتح البيت المقدس ، تحصن جماعة من الخيالة والرجاله ، يترج داود والأبراج والبدنات ، فنصب عليها المجانيق وهدمها . فسألوا الأمان على أنفسهم خاصة ، فأمنهم .

ذكر وفاة الملك المجاهد صاحب حمص

وفي ثامن عشر شهر رجب ، من السنة - وقيل في يوم الثلاثاء العشرين منه - توفي الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، بن ناصر الدين محمد ، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه ، بن شادي - صاحب حمص - بها ، ودُفن بها .

(١) يقصد : السلطان صلاح الدين .

(٢) يقصد : الناصر داود صاحب الكرك بن الملك المعظم عيسى .

وكانت حمص بيده ، منذ أعطاها إياه السلطان الملك الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب - عم أبيه - بعد وفاة والده ، في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . فكانت مدة ملكه بـحمص سبعة وخمسين سنة ، تقريباً .

وكان شجاعاً شهماً ، مقداماً ، يباشر الحروب بنفسه . وحفظ بلاده من الفرنج والعرب . وبني الأبراج على مخاضير العاصي^(١) ورثب فيها الرجال والطيور . وكان الفرنج إذا خرجوا أطلق الرجال الطيور ، فيركب بنفسه وعساكره ، فيسبق الفرنج ويردّهم . وكذلك كان يقصد العرب من جهة البرية . وكان قد منع النساء أن يخرجن من باب حمص ، مدة ولايته . وكان إذا اعتقل إنساناً أطال حبسه . وملك بعده حمص ولده الملك المنصور إبراهيم .

ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العاذل بالتشريف

وفي ثامن عشر شهر رمضان - سنة سبع وثلاثين وستائة - وصل الشيخ محيي الدين بن الجوزي - رسول الخليفة - وفلك الدين المسيري ، بخلع الخليفة إلى السلطان الملك العادل ، ولولده . ولقب ولده - الملك المغيث - من الديوان العزيز باللقاب الملك الكامل جدّه ، وسُمّي باسمه ، ثم انتفض ذلك . وأعيد إلى ألقابه الأول ، وهي الملك المغيث فتح الدين عمر .

(١) هو نهر العاصي المعروف ، الذي يخرج من بحيرة قلنس بالقرب من حمص ، ويسير شمالاً إلى حماه (ولذلك يسمى أيضاً نهر حماه) ، ثم يستمر حتى إطّاكية .

ووصلت الخَلْعُ أيضاً لجماعة من الأمراء ، وخِلعة للوزير - ولم يكن للسلطان الملك العادل وزير - فُرِسم بنقل خِلعة الوزير إلى الخِزانة العادلية . وكانت جملة الخَلْع ثمانى عشرة خِلعة . وسُيِّر للسلطان مع خِلعته فرس له سَرَجٌ مشغول بالذهب ، وَعَلَمَان ، وسيفان ، تقلد بهما عن اليمين والشمال . فَلَبِسَ السلطانُ الخِلعةَ بظاهر القاهرة ، وشقَّ البلد .

ثم اتصل بالملك العادل أن الملك الصالح قد أُطْلِقَ من حبسه بالكرك ، وأنه قصد نابلس ، وخطب له بها . فخرج من القاهرة في يوم السبت الخامس من شوال ، ونزل على بليس ، فأقام بها ، إلى أن قبض الأمراء عليه .

ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخِلعِهِ

وفي يوم الجمعة ، لثمان مَضَيْنَ من ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين ومائة - وقبل سبع بقين من شوال ، منها - قُبِضَ الأمراء على السلطان الملك العادل ، وخَلَعُوهُ .

وذلك أن الأمير عز الدين أَيْبُكَ الأَمر - مَقْدَمُ الأَشْرَفِيَّة - ومُقَدَّمِي^(١) الحَلَقَةِ ، وهم : الطَّوَّاشِي مسرور الكايل ، وكافور الفائزى ، وجوهر التَّوْبِي ، وجماعة من الحَلَقَةِ - اتفقوا على خِلعِهِ ، والقبض عليه ، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب . فخلعوه وقبضوا عليه . فكانت مدة سلطته ستين ، وثلاثة أشهر ، وثمانية عشر يوماً .

(١) ف (ع) : ومقدمين الحلقة . ومثل هذا يتكرر .

ولما قبض على الملك العادل ، ركب جماعة من الأتراك وقصدوا أمراء الأكراد ، لما كان بينهم من الذُّحُول^(١) التي أترتها وقعة بليس . وكان الأكراد على غير أهبة ، فنهزم الأتراك . ووافقهم ممالك الأكراد على أستاذيهم^(٢) ، ومالوا للأتراك للجَنَسِيَّة ، فاستولى الأتراك على خيامهم وأثقالهم وخبوهم . وانهزم الأكراد ، كلُّ منهم على فرس ، ودخلوا القاهرة . وقبض الأمراء على خواص الملك العادل وحرَّفائه .

وكان الملك العادل قد اشتغل باللهو والهزل واللعب . وكان لا يؤثِّرُ قيامَ نأموس المملكة . ووَثِقَ بكرمه وبذله الأموال ، وظن أن ذلك يُعْنيهِ عن التحفظ . وكان من أكرم الناس وأكثرهم عطاء ، ودليل ذلك أنه فرَّق في مدة سلطته ما يزيد على ستة آلاف (ألف)^(٣) دينار ، وعشرين ألف ألف درهم ، من الأموال التي خَلَّفَهَا والدُّهُ : السلطان الملك الكامل .

(١) (٢) (٣)
٢٥٦
٢٥٨

ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن
السلطان الملك الكامل - وما كان من أمره بعد وفاة
أبيه إلى أن ملك الديار المصرية

كان السلطان الملك الصالح ، لما تُوُفِيَ والدُّهُ السلطان الملك الكامل ، مُقِيمًا بِسِنْجَار^(٤) - وله آمِدٌ وَحَرَّانٌ وَالرُّهَّا ، وَنَصِيبِينَ وَالْحَابُور ، وَرَأْسُ عَيْنَ

(١) الثارات .

(٢) أى رؤسائهم : جمع أستاذ .

(٣) الزيادة من النسخة (ع) ، وليست موجودة في (ك) . ورقم النسخة الأولى هو الصحيح .

(٤) مدينة كبيرة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين كلٍّ من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام .

والرَّثَّةُ^(١) - من سنة ثلاثٍ وثلاثين وستائة . وتوفى السلطان الملك الكامل والدته ، والأمر على ذلك .

ثم كان من أخباره مع الخوارزمية ، ومفارقتهم له ، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ له بسنجار ، واستنصاره بالخوارزمية وعودهم إلى خدمته ، وهرب بدر الدين لؤلؤ - ما قدَّمناه .

وملك بعد ذلك دمشق من الملك الجواد - كما تقدم . ولما ملك دمشق ، راسل حمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل - صاحب بعلبك - والتمس منه مساعدته على قصد الديار المصرية ، وانتزاعها من أخيه الملك العادل . وشرط له أنه إذا فتح الديار المصرية تكون له ، وتكون دمشق للصالح إسماعيل . فأجابه إلى ذلك ، وشرع في الاستعداد والاستخدام والاحتشاد .

فانصل ذلك بالملك العادل ووالدته ، فكتب إلى الملك الصالح إسماعيل ، وكتب إليه بعض الأمراء المصريين ، وهم يصرفون رأيه عن مساعدة الملك الصالح أيوب ، وحسبوا له أخذ دمشق . فاتفق الصالح إسماعيل ، وصاحب حمص على مخالفة الملك الصالح نجم الدين .

وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق في شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستائة ، وقصد نابلس - وهي في جملة مملكة الملك الناصر داود ، صاحب الكرك - فاستولى عليها وعلى بلادها - وذلك في شوال من السنة . وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية - كما تقدم .

(١) سبق تحديد هذه الأماكن من قبل ، وكلها في بلاد الجزيرة (أي شمال العراق) .

وأقام الملك الصالح نجم الدين بنأبلُس ، ينتظر وصولَ عمه الملك الصالح إليه بعسكرِه ، ليتوجها إلى الديار المصرية . وكان بقلعة دمشق الأمير ناصر الدين القيمري ، ينوب عن الملك الصالح ، فاتصل به خبير الملك الصالح إسماعيل وما عَزَم عليه . فكتب إلى الملك الصالح أيوب ، يُعلمُه أن عمه الصالح إسماعيل قد عزم على مخالفته ، واستَخدم الرجال لذلك ، وحذَّره منه مرَّةً بعد أخرى . ووالى كُتبه إليه ، وهو لا يكثرُ بقوله . فلما كرر كُتبه بذلك ، أجابه : إن مِرْقَعَتِي إذا وقعت في فَلَاقٍ لا يقدر أحدٌ أن يَمَسَّهَا يده ، ولا يتجاسر عليها ! فلما وقف على جوابه كفَّ عنه .

وكان الملك المسعود بن الملك الصالح إسماعيل في خدمة الملك الصالح أيوب - هو والأمير ناصر الدين بن يَغْمُور - فتواترت كتبُ الملك الصالح إلى عمه الصالح يستحثه على اللحاق به . وهو يتعاهدُ عنه ، ويُجيبه إننى لا يمكننى إخلاء قلعة بعلبك بغير حافظ ، والقصد إرسال ولدى إلى لأجعله بها ، وأحضر إليك . فعند ذلك جهَّزَ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب الحكيم سعد الدين بن صدقة المَعْرَى ، إلى عمه الملك الصالح ، برسالةٍ ، ظاهرُها استحثائه على سرعة الوصول إليه ، وأمره أن يطالعه بما يظهر له من أحوال عمه ، وهل هو على الطاعة أو العصيان .

فلما وصل الحكيمُ إلى بعلبك ، اطلع على ما اتفق عليه الصالح إسماعيل وصاحب حمص : من قصد دمشق ، وانحرفاها عن الملك الصالح . فكان يكتب إليه بذلك ، ويدفع البطائقَ إلى البَرَّاج ليرسلها على الحَمَام ، فيرصده الصالح إسماعيل ويأخذها منه ، ويُغيِّرُها بخط أمين الدولة السامري ،

بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل مُجِبٌّ في السلطان ، وقد اسْتَحْدَمَ واحتَقَلَ ، وهو على عَزمِ القدوم إلى السلطان . فتصل هذه البطائق المَرْوَرَةُ إلى الملك الصالح أيوب ، فلا يشك أنها صحيحة . فعند ذلك أرسل الملك المسعود إلى أبيه بعلبك ، وقد طابت نفسه ووَثِقَ [أن عمه] معه .

فلما حَصَلَ وَلَدُهُ عنده ، سار من بعلبك ، وسار صاحبُ حمص من حمص ، وتوافوا بجبل قاسيون . وكان جملة من اسْتَحْدَمَ الملكُ الصالح إسماعيل ألفَ فارس وأحد عشر ألفَ راجل . واستخدم صاحب حمص أربعة آلاف راجل . وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق وأعمالها للملك الصالح إسماعيل ، والثلث لصاحب حمص . وكان الصالح إسماعيل قد أَفْسَدَ بعض أمراء الصالح أيوب . كل ذلك والأميرُ ناصر الدين القَيْمُرِيُّ يَطْلُعُ عليه ، وَيُطَالِعُ به الملكُ الصالح أيوب ، وهو لا يلتفت إليه ، ولا يرجع إلى نصحه .

ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل

ابن السلطان الملك العادل سيف الدين

أبي بكر محمد بن أيوب - على دمشق

قال : ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من الاستِخدام والاحتِباد ، ووافقه صاحبُ حمص - الملكُ المجاهد أسدُ الدين شيركوه - راسَلَ الأميرَ ناصر الدين القَيْمُرِيُّ النائبَ بقلعة دمشق ، وبذل له عشرة آلاف دينار على تسليم القلعة . فوافقه على ذلك ، ووقع منه بموقع ، لأنه كان قد كَرَّرَ نصائحه لمخدومه الملك الصالح - نجم الدين أيوب - وحذَّره ، فما رَجَعَ إليه ، وأنجَزَ بما تقدم ذكره . فحَمَلَهُ ذلك على مواهبة الملك الصالح عماد الدين ، وتقرر

بينها أن الصالح يحاصر قلعة دمشق ثلاثة أيام ، ويُسلمها إليه ، ففعل ذلك . ودخل إلى دمشق في يوم الثلاثاء ، سادس أو سابع عشرين صفر ، سنة سبع وثلاثين وستائة .

وكان دخوله من باب القرايس ، من غير مُمانعة ، فإنه لم يكن عليه من بدفع عنه ، ولا عن البلد . ونزل الصالح بداره بدرب الشعارين . ونزل صاحب حمص في داره . وزحفوا في يوم الأربعاء ثامن عشرين الشهر على القلعة ، ونقبوها من ناحية باب الفرج ، وقاتل عليها ثلاثة أيام ، وتسلمها من القيمري - كما تقرر بينها وكان بها الملك المغيث : جلال الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاعتقله الملك الصالح إسماعيل عم أبيه في برج بالقلعة .

واتصل الخبر بالملك الصالح أيوب ، وهو بمُحمّيه بظاهر نابلس ، وقيل له : إن القلعة ما أُخذت . فاستحلف عسكره ، وخلع على عمّيه : مجير الدين وتقي الدين ، والركن والتميس وغيرهم ، وأعطاهم الأموال واستشارهم . فقالوا : نتوجه إلى دمشق قبل أخذ القلعة : فركب بهم من نابلس ، فلما انتهوا إلى القصير^(١) المسمى بالقور^(٢) أنفق في عسكره ، وجدد

(١) في عدة مواضع . منها قصير ميين الدين ، وهو بالقور ، من أعمال الأردن ، يكثر فيه نصب السكر . (معجم البلدان : ج ٧ - ١١٥)

فهذا هو القصير المييني .

(٢) يكثر ذكره في المتن ، لوقوع بلدان ومواضع كثيرة فيه .

القور - لغة - هو المنخفض من الأرض . والمراد به - جغرافيا - هو غور الأردن بالشام ، بين البيت المقدس ودمشق . وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سُمي الغور . طول مسيرة ثلاثة أيام وعرضه يوم . فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة . وأشهر بلادها تيسان بعد طبرية ، ومن قرأه أربعا . وعلى طوله (في الشمال) بحيرة طبرية ، وعلى طوله (الجنوبي) البحيرة الممتدة (البحر الميت) .

(معجم البلدان : ج ٦ - ص ٣١٢)

عليهم الأيمانَ وقت صلاة المغرب . وبلغهم أن قلعة دمشق قد استولى عليها الصالح إسماعيل .

فلما كان في نصف الليل ، رحلوا عنه بأجمعهم . وتركوه وليس معه إلا دون المائة من مماليكه . وتفرق عنه بقية مماليكه وخواصه . فرجع بقصد نابلس ، ومعه جاريته أم ولده خليل : المدعوة شجر الدر . وطمع فيه حتى القوارنة ^(١) والعُشْران ^(٢) وكان مُقَدِّمهم رجل شيخ جاهل ، يقال له نبل ^(٣) من أهل بيسان ، قد سفك الدماء ورَكِبَت الجيوشُ بسبه مراراً ، فتبعه بمن معه . وقد توجه الملك الصالح على طريق جينين يريد نابلس ، والقوارنة والعُشْران يتبعونه ، وهو يرجع إليهم ويحمل عليهم بماليكه فيُفَرِّق جماعتهم . وأخذ بعضَ خيولهم ، واستولوا هم أيضاً على بعض ثقله .

ووصل إلى سَبَسْطِيَّة ^(٤) . وكان الوَزِيرُ - نائبُ الملك الناصر داود - عاد إلى نابلس ، بعد خروج الملك الصالح منها . فأرسل إليه الملكُ الصالحُ أيوب يقول : إنه قد مضى ما مضى ، وما زال الملوك على هذه الحال . وقد جئتُ الآن مستجيراً بابن عمي الملك الناصر . ونزل في الدار بنابلس . وكان الملك الناصر داود قد عاد من الديار المصرية على غير رضا . ووصل إلى الكرك . فكتب إليه الوَزِيرُ يُخبره بخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(١) يظهر أن المقصود بهم : أهل الغور .

(٢) هكذا في (ع) . ويبدو أن المراد بهم العربان البدو ، من العشائر ، سكان هذه الجهة . وورد ذكره عُشْران في صبح الأمل (ج ٤ - ٩٩) على أنهم بدو البرية القريبة من غزة .

(٣) قراءة في النجوم الزاهرة : « سبل » .

(ج ٦ - ص ٣٠٧)

(٤) سبق ذكرها ، وهي من أمهل نابلس .

ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكرك

قال : ولما وصل كتاب الوزير إلى الملك الناصر بالكرك ، ندب الأمير عماد الدين بن مؤسك ، والظاهر بن سنقر الحلبي ، في ثلاثمائة فارس إلى نابلس . فركب الملك الصالح أيوب وتلقاهم . فخدموه وقالوا له : طيب قلبك . إنما جئت إلى بيتك . فقال : لا ينظر ابن عمي إلى ما فعلت . فإزال الملوك على هذا . وقد جئت إليه ، أستجير به ، فقالوا له : قد أجارك ، ولا بأس عليك . وأقاموا أياماً حول الدار .

فلما كان في بعض الليالي ، ضرب بوق التغير ، وقيل جاء الفرنج إلى الظاهر . فركب الناس وركب ممالك الملك الصالح ووصلوا إلى سبسطية . فجاء عماد الدين والظاهر والعسكر إلى الدار التي بها الملك الصالح . ودخل الظاهر عليه ، وقال له : تتوجه إلى الكرك . فإن ابن عمك له بك اجتماع . وأخذ سيفه . وكانت جاريته حاملاً ، فأسقطت . وأخذوه . وأركبوه بغلة . بغير مهمّاز في رجله ، ولا مِرْعَعة في يده . وذلك في ليلة السبت ، لثمان بقين من شهر ربيع الأول . وتوجهوا به حتى وصلوا إلى الرّية ^(١) .

قال أبو المظفر : إن الملك الصالح أخبره . قال : إلى الرّية في ثلاثة أيام . والله ما كلّمت أحداً منهم كلمة . ولا أكلت لهم طعاماً . حتى جاء خطيب الرّية ومعه برّدة وعليها دجاجة . فأكلت منها . قال : وأقاموا بالرّية

(١) مكّذا في كلتا النسخين (ع) و(د) . ورسمها في النجوم الزاهرة : المونه . وقد ورد ذكره الريه في معجم البلدان في مادة (زغر) (ج ٤ - ٣٩٣) وقاله إنها في جنوب البحر الميت بجنوب الأردن من أعمال الكرك .

يومين ، وما عَلِمْتُ المقصودَ بي ما هو ؟ وإذا هم يريدون أن يأخذوا طالعاً نحساً ، يقتضى أن لا أخرج من الكرك . ثم أدخلوني الكرك ليلاً ، على الطالع الذى كان سبب سعادتي . ووَكَّلَ بي الناصرُ مملوكاً له فظاً غليظاً ، يقال له زُرَيْقُ وكان أَضَرَّ عَلَىَّ من كلِّ ما جَرَى .

قال : فَأَقَمْتُ عندهم إلى شهر رمضان ، سبعة أشهر - يعنى من سنة سبع وثلاثين . وَحَكَى الملكُ الصالح له ما ناله من الضائقة والشدة والإهانة شيئاً كثيراً .

ولما توجهوا به إلى الكرك ، جهز الوَزِيرُ خِزَانَتَهُ ونساءه ، وخيله وأسبابه ، إلى الصَّلْتِ^(١) . وعاد ممالك الملك الصالح فلم يجدوه ، ففترقوا وأما حسكره الذى فارقه من منزلة القُصَيْرِ^(٢) - فانهم توجهوا إلى دمشق . فنعهم الصالح من الدخول إليها . وقال : هذه بلدُ الملك العادل فلا تدخلوها إلا بإذنه . ثم استَحْدَمَ بعد ذلك جماعةً منهم ، وطَرَدَ طَائِفَةً واعتَقَلَ طائفة .

وَزُبِنَتْ مِصْرُ والقاهرة للقبض على الملك الصالح شهراً . وعملت والدَةُ الملك العادل الوليمة التى ذكرناها . وأرسلت القاضى الشريف شرف الدين موسى ، والعلاء بن النابلسى ، إلى الملك الناصر ، بِقَفَصِ حديد ، لِيَجْعَلَ فيه الملك الصالح ، وَيُرْسِلَهُ معها إلى الديار المصرية ! وبَدَلَتْ فيه للملك الناصر مائة ألفِ دينار . وكاتبه الصالحُ إسماعيل وصاحبُ حِمَص ، فى

(١) بلدة فى الأردن جنوب عجلون ، أهلة ذات بساتين وفواكه

(صح الأعمش : ج ٤ - ١٠٦)

(٢) سبق ذكره القصر المعين .

إرساله إلى دمشق . وبذل الصالح إسماعيل فيه للناصر رُبْع دمشق . فما أجاب
الناصرُ إلى ذلك

وقيل : كان السبب في امتناع الملك الناصر من تسليمه ، لمن بذل فيه
ما بَدَل ، أن الصالح أيوب كان قد أرسل جبالَ الدين بن مطروح -
الكاتب - إلى الخوارزمية في الحضور إليه ، لمحاصرة دمشق . فتوجهَ لذلك .
فلما قبض على الصالح ، أرسل ابنُ مطروح رسولاً على الثُجُب إلى الملك
الناصر ، يقول له : إن قرطَ في الملك الصالح أمرٌ ، فاعلم أن الخوارزمية
لا يُثَقُّون لك في البلاد قَصَبَةً ، فقد حَكَّفوا على ذلك .

وقيل إن والدَ الملك الناصر اهتمَّت بأمر الملك الصالح ، وخدمته أتم
خدمة ، وتولت ذلك بنفسها ، وكانت تطبخ له بيدها . وحكفت على ولدها
أنه إن فعل به ما يكره ، لا أقامت عنده . وقالت له : ما ملَكنا البلادَ ،
وجعلنا في هذا الحصن إلا والدَه - تعني : الملك الكامل . فتوقف عن
إرساله . والله أعلم .

ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك ، وما كان من
أمره إلى أن ملك الديار المصرية

قال : ولما كان في أواخر شهر رمضان ، استشار الملكُ الناصر داود
الأمير عماد الدين بن مُوسى ، وابن قُليج ، والظهير ، في أمر الملك الصالح .
فوقع الاتفاق على تحليفه وإخراجه . فاجتمع الناصرُ والصالحُ وتحالفا ، وأفرج
عنه . وذلك في أواخر شهر رمضان ، سنة سبع وثلاثين وستائة . ولما أخرجه
الناصرُ من اعتقاله ، رَكَّبَه بالكرك بشعار السُّلْطَنَةِ ، وحَمَلَ العَاشِيَةَ بين يديه ،
وأظهر الناصرُ الخلافَ على الملك العادل .

وحكى عماد الدين بن شدّاد - في سبب خلاص الملك الصالح - أن الملك العادل كان قد حلف الناصر ، وحلف له على الاتفاق واجتماع الكلمة على قتال الملك الصالح ، وأن تكون دمشق إذا فتحت للملك الناصر . فلما اتفق هجوم الملك الصالح إسماعيل على دمشق ، وأخذها ، أرسل إليه الملك العادل يُصَوِّبُ رأيه ، وَيَشْكُرُ فِعْلَهُ . فعظّم ذلك على الملك الناصر ، وكان سبب خلاص الملك الصالح .

وحكى أبو المظفر يوسف سيوط ابن الجوزى ، في كتابه : «مِرآة الزمان» أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أخبره - بعد أن ملك الديار المصرية - قال : حلفنى الناصرُ على أشياء ، ما يَقْدِرُ عليها ملوكُ الأرض ، وهو أن آخذ له دمشق ، وحِصْن ، وحِماه وحلب ، والجزيرة والموصل وديار بكر ، وغيرها ، وأن يكون له نصفُ الديار المصرية ، ونصفُ ما فى الخزان : من الأموال والجواهر والخيول والنياب وغيرها . فحلفتُ من تحت القَهْر والسيف .

وقد شاهدتُ أنا بعض نسخة اليمين عند المولى الملك العزيز : فخر الدين عثمان ، بن الملك المغيث فتح الدين عمر - صاحب الكرك - كان بالقاهرة - وفيها أشياء كثيرة من هذا النوع ، وإلزامات ، يَعْلَمُ المُستَحْلِفُ العاقل أن الحالف لا يَفِي بها ، لكثرتها وخروجها عن حد القُدرة البشرية ، وأن النفوس لا تسمع بها لوالد مُشْفِق ، ولا وَلَدٍ بَارٍّ ، فكيف لابن عمٍّ عَدُوٌّ .

قال المؤرخ : ولما أطلقه الملك الناصر ، ركبَ الملك الصالح من يومه ، وسار إلى نابلس . فوصل إليها في يوم السبت ، تاسع عشرين الشهر ، وخطبَ له بها يومَ عيد . ونكر ابنُ مؤسك على الخطيب والناس الذهب . وخرج الركنُ الهيجاي إلى الديار المصرية ، فأرسل إليه الملك العادل يأمره بالإقامة على بليس ، إلى أن تصل إليه العساكر . ثم خرج الملك العادل بعساكره - في خامس شوال - لقتال أخيه الصالح ، فقُبضَ الأمراء عليه - كما قلّمنا .

{

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

بالديار المصرية

وهو السلطان الثامن من ملوك الدولة الأيوبية

بالديار المصرية

قال المؤرخ : لما قبضَ الأمراء الذين قدمنا ذكرهم على الملك العادل ، كتبوا إلى الملك الصالح يستدعونه ، فسار لوقته .

وكان وصوله - والملك الناصر داود - إلى بركة الجُب^(١) ، في يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين وستائة . فنزل في خيمة الملك العادل - والملك العادل معتقل في خركاه^(٢) .

(١) سبق ذكرها ، ومى على مرحلة من القاهرة شرقها ، ومى المروقة ببركة الحاج (تاجة الآن لمحافظة القليوبية) .

(٢) لفظ فارسي . خيمة أو مظلة من نوع خاص ، تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتنطىها قطع من اللبد .

واستدعى الملك الصالح مُعِينَ الدين بن شيخ الشيوخ ، واستَوَزَره ، ورد إليه النظر في الدواوين . وأقام بِرِكَتِهِ الجُبُّ إلى يوم الأحد ، لستُ بقين من الشهر . فركب وصعد إلى القلعة في الثالثة من النهار - وذلك باتفاق المتَّجِمِينَ .

واعْتَقَلَ أخاه الملك العادل في بعض آدُر القلعة . وبقي ابنه الملك المغِيث - فتح الدين عمر - في خدمة عمه السلطان الملك الصالح مدة ، ثم رأى منه نَجَابَةً فَحَجَبَهُ في الدار القُطَيْبِيَّةَ ، عند عمته ابنة السلطان الملك العادل ، أختِ الملك الكامل . فلم يزل الملك المغِيث بها ، إلى أن مات عمه الملك الصالح وَمَلَكَ ابنه الملكُ المعظم ، فنقله إلى الشُّبُوكِ واعتقله بها . وكان من أمره ما نذكره - إن شاء الله تعالى .

وفي الثامن والعشرين من ذى القعدة ، من السنة - تقدم أمر السلطان بتجريد جماعة من الأمراء والعساكر إلى الأعمال القُوصِيَّةِ ، لإصلاح العُرْبَانِ بالوجه القبلى . وجَمَلَ المُقَدَّمُ عليهم الأمير زين الدين بن أبى زكرى .

ذكر عَوْد الملك الناصر داود إلى الكَرْك

كان عَوْدُهُ إلى الكَرْك في ذى الحجة ، من السنة .

وسببُ ذلك أنه اجتمع هو والسلطان الملك الصالح ، بقلعة الجبل على شراب ، فلما جَنَّهُم الليلُ وأخذ منهم الشرابُ ، قال الملك الناصر للسلطان : أفرِّجْ عن أخيك الملك العادل في هذه الساعة . فلا طَفَقَ الملكُ الصالح ، وهو يكرر عليه القول ! وكان آخر كلام الملك الناصر أن قال للسلطان : لو غسلت رِجْلِي وشَرَبْتُ ماءَهما ، ما أَدَيْتَ حَقِّي ! فأمر السلطان مَمَالِيكَه بإخراجه .

فأخرجوه وركبوه إلى الوزارة . فلما أصبح ، سأل عما كان منه ، فأخبر به . فقال : ما بقى لنا مقام في هذه الديار . وأحضر الثَّجْبَ ، وعمل عليها الأَخْرَاجَ - وفيها ما كان معه من الأموال - وهمَّ أن يركبها . فبينما هو يتهبأ للركوب ، إذ حضر إليه الأمير : عز الدين أيدمر الجَمَدَار^(١) الصالحى ، ومعه عشرة آلاف دينار ، وعشرة أفراس وخلع ، وقال له : يقول لك السلطان : هذه ضيافة ، خذها وامض إلى بلادك . فأخذها ، وركب من وقته ، وسلك طريق البرية . ثم ندِم السلطان على إطلاقه ، وكونه ما قبض عليه ليأمن شره .

وقيل : إن السبب عوّده أن الملك الصالح إسماعيل راسل الفرنج ، في قصد بلاد الناصر . فتوجهوا إلى نابلس ، قاتلهم أهلها وهزموهم ، فرجعوا إلى بلادهم . فعاد بسبب ذلك . هذا ما حكاه ابن جلب راغب ، في تاريخه ، في سبب عود الملك الناصر .

وحكى أبو المظفر يوسف ، في «مرآة الزمان» ، عما أخبره به الملك الصالح نجم الدين - من لفظه - عندما حضر إليه في سنة تسع وثلاثين وستائة ، عن وقائع انقضت له ، بين خروجه من اعتقال الملك الناصر إلى أن ملك ورجع الناصر .

(١) يتكون هذا اللفظ من كلمتين فارسيتين : جاما ، ومعناها الثياب ، ودار ومعناها صاحب . فعنى القلب . صاحب الثياب ، فوظيفة حامل هذا القلب في الأصل : الإشراف على خزنة الثوب أو الملابس السلطانية ، وما يتعلق بذلك .

منها أنه قال : والله لم أحضرُ الملكَ الناصرَ معي إلى الديارِ المصرية ،
إلا خشيّةً أن يكون قد عمِلَ عليّ . ومنذ فارقتنا غزّة ، تغيّرَ عليّ ولا شك أن
بعض أعدائي أطعمه في الملك . فذكر لي جماعةٌ من مماليكى أنه تحدث معهم
في قتلى . قال : ومنها أنه لما أخرجني نديم ، وعزم على حبسنى ، فرميتُ
روحي على ابن قليج ، فقال : ما كان قصده إلا أن توجه إلى دمشق أولاً ،
فإذا أخذناها عدنّا إلى مصر .

ومنها أنه لما وصلنا إلى بليس ، شرب وشطّح إلى العادل ، فخرج
العادل من الخركاه^(١) وقبل الأرض بين يديه ، فقال له : كيف رأيتَ ما
أشرتُ به عليك ، ولم تُقبلْ مِنِّي ؟ قال : يا خوند^(٢) ، التوبة . قال
طيّب قلبك ، الساعة أطلقك . قال الصالح : وجاء فدخل علينا الحثيمة ،
ووقف . فقلت له : باسم الله اجلس . قال : ما أجلسُ حتى تُطلقَ العادل .
قلت : اجلس - وهو يكرر هذا القول . ثم سكت . ولو أطلقته ضربتُ
رِقَابَتَا كُلِّهَا

ثم نام وما صدقتُ بنومه . وقتُ في بقية الليل ، وأخذت العادل في
مَخِيفَةٍ ، ودخلتُ به إلى القاهرة . قال : ولما دخلنا القاهرة ، بعثت إليه
بمشرين ألف دينار ، فعادت لي مع مماليكى . ومنها أنه قال في بعض
الأوقات : قَبْلَ قَدَمَيَّ وَرِجْلَيَّ - إلى غير ذلك ، مما لا تصبر عليه القُفُوس .

(١) سبق شرحها نوع من الخيلاء أو المظلات

(٢) سبق شرحها وهو بمعنى سيد أو أمير

ذكر عدة حوادث وقعت في سنة سبع ولئلين وسمائة - خلاف ما قدّمناه

في هذه السنة - في شهر ربيع الأول - أخرج الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق ، إلى تربته شمالي حائط الجامع الأموي ، وفتح في الحائط ثلاث شبايك إلى الجامع : أحدها باب يتوصل منه إلى الجامع .

وفيهما فوضّ السلطان الملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق - الخطابة بالجامع الأموي لشيخ الإسلام : عز الدين عبدالعزيز بن عبد السلام - وذلك في شهر ربيع الآخر .

وفيهما أمر الملك الصالح - المذكور - الخطباء بدمشق والشام ، بالخطبة لصاحب الروم .

وفيهما فوضّ الصالح - أيضاً - قضاء الشام للقاضي : رفيع الدين أبي حامد ، عبدالعزيز بن عبد الواحد ، بن إسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجبلي ^(١) الشافعي - وكان قبل ذلك قاضي بعلبك . وظهر منه من سوء السيرة والعسف والظلم ، ومصادرات أرباب الأموال ، ما لا يصدّر مثله من ظلمة الولاة . وكانت عاقبة ذلك ما نذكره - إن شاء الله تعالى - من قتله .

وفيهما ، في ليلة الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة ، سقط كوكب عظيم قبل طلوع الفجر بمنزلة ، وكان مستديراً على هيئة ومقدار ، فأضاءت منه

(١) نسبة إلى بلاد الجبل ، وهي على الساحل الجنوبي الغربي لبحر قزوين بجوار بلاد الديلم .

الدنيا ، وصارت الأرض أشدَّ نوراً من ليلة القَمام . وشاهده من كان ببليس عابراً عليها آخذاً من المشرق إلى نحو القبلة ، وشاهده من كان بظاهر القاهرة ، عابراً من جهة باب النَّصر إلى صَوْب قلعة الجبل . ثم قَطَعَ البحرَ إلى ناحية الجزيرة ، وكانت له ذُوَابَةٌ طويلة خضراء ، مَبْتُورَةٌ قَدَرُ رُمَحَيْن . واعْتَمَبَهُ رَعْدٌ شديد ، وَتَقَطَّعَ مِنْهُ قِطْعٌ . وأقام ، من حين إدراك النَّظَرِ له حين انطفائه ، بقدر ما يقرأ الانسانُ سورة الإخلاص ثلاثين مرة - هكذا قَدَرَهُ من شَاهِدَةٍ - على ما نُقِلَ إلينا .

وفيه في شعبان - كانت وفاة قاضي القضاء ، شمس الدين أحمد ، ابن الخليل بن سَعَادَةِ بن جعفر بن عيسى ، الحَوَّيِّ ^(١) الشافعي ، بالمدرسة العادلية ، بدمشق ، ودفن بقاسيون . ومولده في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وكان - رحمه الله تعالى - حسن الأخلاق ، لطيفاً كثير الإنصاف ، عالماً فاضلاً في علوم متعددة ، عفيفاً متواضعاً - رحمه الله تعالى .

وكان وروده إلى دمشق ، في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى ، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب . وحُكِيَ أنه لما ورد إلى دمشق ، كان مع فضيلته وعلومه يلعب بالقانون ، ويُعْتَمَى عليه ، وقد اتَّفَقَ صِنَاعَتُهُ . فَأَنْهَى إلى الملك المعظم أمره ، فاستحضره إلى مجلس أُنْشِئَ ، وَلَعِبَ بين يديه بالقانون ، وَعُتِيَ عليه ، ونادَمَهُ فأعجبه . وأمره بملازمته في أوقات خلواته ومجالس شرايه . هذا سبب اجتماعه بالملك المعظم .

(١) سنة إلى «خوى» وهي بلدة قديمة بأفريسيان . مشهورة بالياب التي تنسب إليها سبق ذكرها

وأما سببُ ولايته القضاء بدمشق ، فإنه كان قد بلغ الملكَ المعظمَ عن القاضي جمال الدين المصري - قاضي قضاء دمشق - أنه يتعاطى الشراب . فأراد تحقيقَ ذلك عَيْنًا ، فاستدعاه ، وهو في مجلس الشراب ، فحضر إليه . فلما رآه قام إليه ، وناولَه هَتَّابًا^(١) مملوءاً خَمْرًا . فولى القاضي جمال الدين المصري ورجع ، فتاب هُتَيْهَ ، ثم عاد وقد خَلَعَ ثياب القضاء : الطُرْحَةَ^(٢) والْبَقِيَّارَ^(٣) والفَوْقَانِيَّةَ^(٤) ، ولبس قَبَاءً^(٥) ، وتعمَّمَ بِتَخْفِيفِهِ وَحَمَلَ مَنْدِيلًا . ودخل على الملك المعظم في زى الثَدْمَاءِ . وقَبَلَ الأرضَ ، وتناول الهَتَّابَ من يده وشرب ما فيه . ونادى المعظمَ فأحسن مَتَادَمَتَهُ . فأعجبه . واعتذر من قراره أنه ما كان يمكنه تعاطى ذلك ، وهو في زِيِّ الْقُضَاةِ . فَاغْتَبَطَ الملك المعظم به .

(١) الهَتَّاب : قدح للشراب . وهذا اللفظ يوجد في اللغات الأوربية أيضاً .

(أنظر سلوك - زيادة ج ١ ص ٦٠٧ حاشية ٣)

(٢) كانت من ملابس القضاء . قال في «صبح الأعشى» : «ويتميز قضاء القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تسرعاه وتسدل على ظهره» .

(ج ٤ - ٤٢)

(٣) عمامة كبيرة من زى القضاة . جاء في نفس المصدر السابق : «القضاة والعلماء يلبسون العمام من الشاشات الكبار للغة» .

(ج ٤١ - ٤٢)

وهي كلمة فارسية . فسرهما دوزي بما تقدم

(سلوك - ج ١ - ٥٥)

(٤) كانت من زى القضاة أيضاً ، يلبسونها في الشتاء . جاء في المصدر السابق : «وإن كان شتاء ، كان فوقاني من ملبوسهم (أى القضاة) من الصوف الأبيض اللطى . ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم» .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ٤٢)

(٥) المراد أنه لبس ثياب الجند . أو غير رجال الدين .

ولما انقضى مجلسُ الشراب ، ورجع المعظم إلى حِجَّه ، علم أنه لا يجوز له أن يُقرَّه على ولاية القضاء - وقد شاهدَ من أمره ما شاهد . فقَوَّضَ القضاة للقاضي شمس الدين الحَوَّيْ ، وخلَعَ عليه . وجلس للحكم بين الناس ، وأحسن السيرة . وانقطع عن مجلس الملك المعظم وحضوره ، إلا في أوقات المواكب ، على عادة القضاة .

واستمر على ذلك مدة . ثم ذكره الملك المعظم واشتاق إلى مُنَادَمَتِهِ ، وسماع قانونه . فاستدعاه وتحدث معه ، واستوحشَ منه . ثم كلمه في الحضور إلى مجلس الأنسِ معه ، في بعض الأوقات ، وأنه لا يُخلِّيه منه جُمْلَةً ، وتلطّف به في ذلك . فأجابه عن ذلك ، بأن قال : إذا أَمَرَ السلطان - أعزّه الله بهذا - امتثلتُ أمره ، وفعلتُ . ولكن يكون هذا بعد عَزْلِي عن منصب القضاء والحكم بين الناس ، وتولية قاضٍ غيري . فإني لا أجمع بين منصب القضاء وما يُضادّه أبداً ، لما يترتب على ذلك من فساد عقود أنكحة المسلمين ، ويتعلق ذلك بِذمة السلطان . فَإِنْ أَحَبَّ السلطان ذلك ، فَلْيُؤَلِّ قاضٍ غيري .

فأعجب الملك المعظم ذلك منه ، وسرَّبه ، وقال : بل نَرْجِعْ مصلحة المسلمين على غرضنا . واستقر على القضاء . وما سُمِّع عنه بعد ولائهِ القضاء ما يَشِينُهُ في دينه ولا يَغُضُّ من منصبه - رحمه الله تعالى .

واستهلَّت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة :

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر ، رُئِيَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب دارَ العدل . وجعلَ افتخارَ الدين ياقوت الجمالي نائباً عنه بها . ونُصِبَ معه شاهدان من العُدُول ، وجاعةٌ من الفقهاء ، منهم :

الشریف شمس الدین الأرموی^(١) نقیب الأشراف ، والقاضی فخر الدین بن السُّکری ، والفقیه عز الدین . فصار الناس یأتون إليها ، ویظلمون وتُکشف ظُلُمَاتِهِمْ . وإنما قتلَ السلطان ذلك ، لأنه کان غلیظَ الحِجَاب ، فاستغنی بذلك عن مواجهة الناس .

وفیها ، فی رابع المحرم ، حصلَ الشروع فی بناء القنطرة علی الخلیج الحاکمی - وهی المعروفة فی وقتنا هذا بقنطرة السَّد .

وفیها فی تاسع شهر ربیع الأول ، رَسَمَ السلطانُ بتجهیز زَرْدُ خَانَاهُ^(٢) وشَوَانِی^(٣) وحرَّارِیق^(٤) إلی القلزم^(٥) لقصد الیمن . وجرَّد جماعةً من الأمراء والجنود بسبب ذلك ، فی سادس عشر الشهر .

ثم عاد العسکر فی خامس شهر رمضان ، بسبب حادثة الأشرَفِیة التي نذكرها . لأنهم بلغهم أن الأشرَفِیة ومن شایعَهم عزموا علی نهب العسکر المذكور - وكان یرکةُ الجُبِّ . وبطلَ التَّجْرِیدُ^(٦) إلی الیمن .

(١) نسبة إلی أزمیة «مدينة قديمة بأذربيجان» ، سبقت الإشارة إلیها .

(٢) معناها : بیت السلاح . وقد یقال : السلاح خاتناه . وتشتمل علی أنواع السلاح : من السیوف والقصی العربية والشباب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع ، وغير ذلك .

(صح الأعشى : ج ٤ - ١١)

(٣) ج : شینی . وهی سفينة حربية كبيرة . سبق ذكرها .

(٤) ج حرقاة . وهی نوع من السفن التي كانت تستعمل فی الحرب أو فی السلم .

(٥) هو البحر الأحمر . وهذا اسمه القديم ، نسبة إلی مدينة القلزم التي كانت تقع علی رأس خلیج السويس ، قرب السويس الحالية .

(٦) أي إرسال جرائد ، أي فرق خفيفة من الجنود ، إلی الیمن .

ثم توجه من جملة العسكر ثلاثمائة إلى مكة ، في أواخر شهر رمضان .
فدخلوا مكة سَلَاماً ^(١) ، في ذى القعدة ، وهرب من كان بها من العسكر
اليمنى .

وفي شهر ربيع الأول من السنة ، قَبَضَ السلطان على الأمير عز الدين
أَبِيكَ الأَسَمَر ، والخُدام الذين وافقوه على القبض على أخيه الملك العادل ،
وهم : جواهر الثوى ، وشمس الخواص سرور ، وكافور الفايزى ، وعلى
جماعة من الأتراك والحَلَقَة ^(٢) ، ونفى جماعة من الأتراك ، وسبَّهم مُحَشَّبين
في المراكب نحو الصعيد وبلاد المغرب ، وأخذ أموالهم وقتل بعضهم . وانهمز
بعض الأشرفة ، واختفى بعضهم . وأمر السلطان مماليكه ، وأعطاهم
الإقطاعات .

وفيها في يوم السبت - تاسع شهر ربيع الآخر - وقيل في خامس
عشرة - وَلِدَ للسلطان الملك الصالح وَلَدٌ ذَكَرٌ ، من سُرِّيَّته : شَجَرِ الدَّر ،
وسمَّاه خَلِيلًا . ثم مات بعد مدة يسيرة .

وفيها ، في تاسع شهر ربيع الأول ، صُرفَ الأمير سيف الدين بن
عَدْلَانَ ، عن ولاية الصناعة بمصر . ووليا أسد الدين ، بن الأمير شجاع
الدين جَلْدَكَ .

(١) بدون قال .

(٢) سبق شرح هذا اللفظ ، وهم الجنود الثابتون الذين يتقاضون مرتباتهم من ديون الجيش .

وفيهما ، في سابع عشرين شهر ربيع الآخر ، نُقِلَ الأمير بدر الدين
بأخِل من ولاية مصر إلى ولاية نَجَر الإسكندرية . وفيها ، في سابع شهر ربيع
الآخر ، صُرفَ عن شَدِّ^(١) الدواوين عَلَمُ الدين كُرْجى ، ووُلَّى الأمير حسام
الدين كُوكُو .

وفي يوم الاثنين خامس شعبان ، أمر السلطان بالشروع في عمارة قلعة
البحر ، التي بالروضة . فابتدئ في حفر أساسها في هذا اليوم ، وبُنِيَ فيها في
آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة ، سادس عشر الشهر . وهُدِمت الدُور التي
كانت بالجزيرة وتحوَّلَ الناسُ إلى مصر .

ذكر مسير الملك الصالح إسماعيل ، صاحب

دمشق ، منها قصد الديار المصرية ، وقتاله الملك الناصر

صاحب الكرك ، وعُودَه إلى دمشق

قال المؤرخ : لما اتصل بالملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق -
ما وقع بمصر من الفتن ، والقبض على الأمراء الأشراف والخدّام وغيرهم ،
عَزَمَ على قصد الديار المصرية ، وأطمعته آماله في الإستيلاء عليها . فتجهز
بمساكره ، ومعه الملك المنصور صاحب حمص ، ونَجْدَةُ من حلب ، وقصد
الديار المصرية .

(١) يتا عمل هذه الوظيفة من قبل ، وموضوعها مراقبة حسابات الدواوين .

فبلغه أن الملك الناصر صاحب الكرك على حُصْبَان^(١) من بلد البلقاء ،
 فقصده بمن معه . والتفوا واقتتلوا ، فانكسر صاحب الكرك . واستولى
 الصالح إسماعيل على أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه . ثم رحل ونزل على
 نهر العوجا^(٢) ، وطلب الملك الجواد - وكان عند الفرنج - فحضر إليه .
 واستنصر بالفرنج ، فكتب الجواد إليهم يحذرهم منه . فوقع كتابه للصالح ،
 فقبض عليه واعتقله - كما ذكرنا - وعاد إلى دمشق ، وتفرقت العساكر التي
 كان قد جمعها .

ذكر تسليم صفد وغيرها للفرنج

وما فعله الشيخ عز الدين بن عبد السلام - بسبب ذلك - وما
 اتفق له مع الملك الصالح

وفي هذه السنة ، خاف الملك الصالح عاد الدين إسماعيل على نفسه
 من الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فكاتب الفرنج واستنصر بهم ، واتفق
 معهم على معاخذته . وأعطاهم قلعة صفد وبلاذها ، وقلعة الشقيف^(٣)
 وبلاذها ، ومناصفة صيدا ، وطهوية وأعمالها ، وجبل عامله ، وجميع بلاد
 الساحل . ومكنهم من دخول دمشق لايتباع السلاح .

(١) هي مدينة البلقاء بالشام (ضبطها القلقشندي بضم الحاء وإسكان السين) وهي بلدة صغيرة . ولها واد .
 وأشجار وأرجية وبساتين وزروع .

(صح الأعشى : ج ٤ - ١٠٦)

(٢) نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين ، من السواحل .

(معجم البلدان : ج ٦ - ٢٣٩)

(٣) هي قلعة «شقيف أرنون» ، التي مر ذكرها في أول الكتاب .

وهي قلعة حصينة قرب باناس من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل .

(المعجم : ج ٥ - ٢٨٤)

فشق ذلك على المسلمين . واستبقى المتديبون ، ممن يبيع السلاح ، الشيخ عز الدين : عبد العزيز بن عبد السلام ، في مباحة الفرنج السلاح . فأفاهم أنه يحرم عليهم بيعه للفرنج . وتوقف عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على منبر الجامع بدمشق ، وجدّد دعاء يدعو به على المنبر ، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله ، وهو : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشيداً ، يعز فيه وليك ويذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينتهي فيه عن معصيتك » . والناس يصيحون بالتأمين ، والدعاء للمسلمين .

فكتب الصالح إسماعيل بذلك ، فورد كتابه بعزله واعتقاله . واعتقل الشيخ أبو عمرو بن الحاجب أيضاً ، لموافقة الشيخ على الإنكار . ثم وصل الصالح بعد ذلك إلى دمشق ، فأفرج عنها ، واشترط على الشيخ عز الدين أنه لا يفتى ، ولا يترجم بيته ، ولا يجتمع بأحد . فسأله الشيخ أن يفسح له في صلاة الجمعة ، والاجتماع بطبيب أو مرّين ، إن دعت حاجته إليهما ، وفي دخول الحمام ، فأذن له في ذلك . ثم انترح الشيخان : عز الدين وأبو عمرو ، عن دمشق إلى الديار المصرية - على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى .

وفيها كانت الوقعة بين عسكر حلب والخوارزمية^(١) . وكان الملك الجواد والملك المنصور - صاحب حمص - مع الخوارزمية . فقصدوا حلباً ، ونزلوا على باب بڑاعة^(٢) في خمسة آلاف فارس . وخرج إليهم عسكر حلب

(١) نحدثنا عنهم من قبل ، وهم الجنود الذين سلكوا من جيش الدولة الخوارزمية ، بعد أن قضى عليها التار في سنة ٦٢٨ هـ . وجاءوا إلى الشام حيث استخدمهم بعض الملوك .

(٢) وأصلها : بڑا . وهي بلدة من أعمال حلب ، في وادي بھتان : بين شبيح وحلب بينها وبين كل منها مرحلة . ولها عيون جارية وأسواق حسنة .

(معجم البلدان : ج ٢ - ١٦٢)

في ألف وخمسمائة ، فكسروهم ، وأسروا من أمرائهم ونهبوا من أثقالهم . فتوجه الخوارزمية حَيَّالَن^(١) وقطعوا الماء عن حلب ، وضايقوهم . ثم عادوا إلى مَنبِج^(٢) ، فنهبوا . وقتلوا أهلها وفضحوا النساء ، ثم عادوا إلى حَرَّان^(٣) . وكان الملك المنصور إبراهيم - صاحب حمص - قد نزل على شَيْزَر^(٤) ، فاستدعاه الحلييون ، فجاء إلى حلب ، ونزل بظاهرها - ومعه عسكر حمص .

وفيها سَلَّمَ الملكُ الحافظ قلعةَ جَعْبَرٍ إلى صاحب حلب ، وعوضه عنها أَعْزَاز . وكان سبب ذلك أنه حصل له فالج ، فوجه ولده إلى الخَوَّازْمِيَّة يستجدهم على أبيه ، وطلب منهم عسكرا لمُحَاصَرَتِهِ ، فحَتَّى من ذلك ، فسَلَّيَهَا لصاحب حلب .

وفيها تسلم عسكرُ صاحب الروم آمِد ، بعد حصار شديد . ويقال إنهم اشتروها بثلاثين ألف دينار .

(١) (بالفتح ثم السكون) : من قرى حلب . تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء تسبح إلى حلب ، وتدخل إليها في قناة وتنفرد إلى الجامع ، وإلى جميع مدينة حلب .

(المصدر السابق : ج ٣ - ٣٨٢)

(٢) هي بلدة من جُندِ قُسْرَيْن ، شرقي حلب ، على نحو مرحلتين منها . وهي كثيرة القننى والبساتين . (صبح الأعشى : ج ٤ - ٢٢٧) .

(٣) سبق ذكرها . وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرقة يومان ، وبينها وبين الرها يوم . (المعجم : ٣ - ٢٤٢)

(٤) قلعة وكورة قديمة بالشام قرب المعرة . بينها وبين حماه يوم .

(المعجم : ج ٥ - ٣٢٤)

(٥) قلعة على الفرات . بين بالس والرقة ، قرب صفين .

(المعجم : ج ٣ - ١٠٨)

وفيهما ، في ليلة الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر ، توفى الشيخ محي الدين : أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ، المغربي الحائمي الطالبي ، المعروف بابن العربي ، وهو من أهل الأندلس . ومولده في ليلة الاثنين ، سابع عشر شهر رمضان ، سنة ستين وخمسمائة ، بمرسية من بلاد الأندلس . ونشأ بها ، وانتقل إلى إشبيلية^(١) ، في سنة ثمان وتسعين . ثم رحل إلى بلاد الشرق ، ودخل بلاد الروم . وطاف البلاد وحج . وصحب الصوفية . وصنف كتباً كثيرة في علوم القوم . وكانت وفاته بدمشق ، ودفن بقاسيون .

واستهلّت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة :

وفي هذه السنة ، حصل الشروع في عمارة المدرستين الصالحيتين ، بالقاهرة الميزية ، بين القصرين - والمكان التي عُمرتا فيه من جملة القصر . وكان الشروع في الهدم والإنشاء في ذي الحجة . ولما كملتا ، أوقفهما على طوائف الفقهاء : الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، وأوقف عليهم الأوقاف . ويقال انه لما قرع من عمارتها نديم ، لكونه لم يبن مكانها جامعاً ، ويُرَبَّب فيه الدروس التي رتبها فيها .

(١) مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس (أسبانيا) كانت مقر دولة بني عباد ، على شاطئ نهر كبير ، يقال له وادي الكبير .

ذكر صرف قاضى القضاة شرف الدين
ابن عَيْن الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبلى ،
وتفويض ذلك لقاضى القضاة بدرالدين السَّجَّارِى

وفى يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الآخر ، من هذه السنة ، كتب
السلطانُ الملك الصالح إلى قاضى القضاة شرف الدين بن عَيْن الدولة كتاباً ،
من جملته : أن القاهرة المَحْرُوسَةَ لما كانت دارَ المملكة ، وأمراء الدولة
وأجنادُها مقيمون بها ، وحاكمُها محتص بحضور دار العدل - تَقَدَّمَا أن يَتَوَفَّرَ
القاضى على القاهرة وعملها ، لا غير . وقَوَّضَ السلطانُ قضاء القضاة ، بمصر
والوجه القبلى ، للقاضى بدر الدين أبى المحاسن : يوسف السَّجَّارِى قاضى
سُجَّار . ثم مَرَضَ القاضى شرف الدين المذكور ، إثر ذلك ، ومات فى هذه
السنة .

ذكر وفاة قاضى القضاة شرف الدين
ابن عَيْن الدولة ، وشىء من أخباره

وفى ليلة الخميس ، التاسع عشر من ذى القعدة ، سنة تسع وثلاثين
وسبعمائة - كانت وفاة قاضى القضاة شرف الدين أبوالمكارم : محمد بن
عبدالله ابن الحسن بن على ، بن عَيْن الدولة : أبى القاسم صَدَقَةَ بن حَنْص
الصَّفَرَاوى الإسكندرانى .

وكان قد وَلَّى القضاء فى أيام السلطان الملك العادل : سيف الدين -
جَدُّ السلطان - كما تَقَدَّم ، واستمر بعده .

ولما مات - رحمه الله - صَلَّى عليه بِمُصَلَّى بَنِي أُمَيَّةَ ، وشَهِدَ جنازته خلقٌ كثير ، ودُفِنَ بعد صلاة الظهر بِالْقَرَّاقَةِ ، وَأُمُّ النَّاسِ عليه وَلَدُهُ محيى الدين : أَبُو الصَّلاح عبد الله . ومولده - رحمه الله تعالى - بِشَجر الإسكندرية في يوم السبت ، مَسْتَهْلَ جُمَادَى الآخِرَةِ ، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . وكانت مدة عمره ثمانيا وثمانين سنة ، وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً . ومدة ولاية القضاء - اسْتِقْلَالاً - ستا وعشرين سنة ، وتسعة أشهر ، وسبعة عشر يوماً . وناب عن القضاء قبل ذلك ثمانيا وعشرين سنة . وشهرين وأياما .

وكان رحمه الله تعالى - ذا رِياسة قَدِيمَةٍ ، ووالده وجده من كبراء أهل الثَّغر . وَجَدُ آبِيهِ - القاضي الجليل - من رؤسائه . وبلغ من مَحَلَّةٍ في الدولة

العُمَيْيَّةِ ^(١) أَنْ لُقِّبَ بِعَيْنِ الدولة ، وَلُقِّبَ وَلَدُهُ بِثِقَةِ الدولة ، وَوَلَدُ وَلَدِهِ بِعَيْنِ الدولة . فسأل تَخْصِيصاً مانِعاً ، لاشْتِيَاهِ الْوَلَدِ بِالْجَدِّ ، فُمَيِّزَ الْوَلَدِ ^(٢) بعين الدولة وَمَكِينَهَا ، ووالده بِثِقَةِ الدولة وَأَمِينَهَا - بتقليد من الخلفاء العُمَيْيِّين . وعُمِّرَ القاضي الجليل مائة سنة وأربع سنين . ومات عن عدة أولاد ذكور ، ما منهم إِلَّا من عُدُلٍ ^(٣) بِالدينار المصرية ، وتولى الأحكامَ الشرعية .

وكان القاضي شرف الدين - رحمه الله تعالى - مَالِكِيَّ المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي

(١) أى : الدولة الفاطمية .

(٢) أى : الحفيد .

(٣) أى شَهِدَ لَهُ بِالْعَدَالَةِ : أى استيفاء الشروط الشرعية للشهادة أمام القضاء ، وتولى أعماله .

وسبب ذلك أنه قَدِمَ من ثغر الإسكندرية إلى مصر وسكن بها ، في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . واتصل بالقاضى المرتضى ابن القسطلانى ، ثم اتصل بقاضى القضاة : صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس الهذبانى ^(١) ، فعَدَّله واستَكْتَبه ، في ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . فلما عَزَلَ ابن الجاموس ^(٢) من خطابة الجامع بالقاهرة ، أَمَرَه القاضى صدر الدين أن يَحْطُب ، فخطب وأجاد وأبلغ في الموعظة ، ونزل فَصْلَى وجَهَرَ بالبسملة .

فلما فَرَّغ من الصلاة ، وجلس بين يدى القاضى صدر الدين ، شكره وأثنى عليه - والمجلس غَاصُّ بالفقهاء والصُّدُور وأرباب المناصب - فقال بعض الأكابر : يا شرف الدين جَهَّرت بالبسملة ، وخَالَفتَ مَذْهَبَكَ . فَأَنشَدَ قولَ الْمُتَنَبِّى في كَافُور :

فِرَاقٌ ، ومن فارت غير مُدَمِّمٍ وَأُمٌّ ، ومن يَمَمْتَ خَيْرٌ مُبِمِّمٍ

(١) سبقت الإشارة إليه في أول هذا الجزء ، وكان قاضى القضاة في عهد صلاح الدين .

(٢) هو شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحمَوى . كان من كبار الشافعية . تفقه بجمّاه ، وقدم الديار المصرية ، فول خطابة الجامع العتيق (جامع عمرو) وتدرّس المشهد الحنفى . مات في ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ . (حسن المحاضرة : ج ١ - ١٧٢) .

فاستحسنَ ذلك القاضي والجماعة . وصار شافِعياً من ذلك اليوم . واشتَكل بمذهب الشافعي على القاضي : ضياء الدين أبي عمرو عثمان بن درباس ^(١) ، مُصَنِّف الاستِقصاء ، وعلى الفقيه : أبي إسحاق إبراهيم بن منصور العراقي ^(٢)

واستأبه القاضي صدرُ الدين عنه في الحُكْم بمصر ، في يوم الاثنين والخميس ، في العشر الأوسط من ذي القعدة ، سنة أربع وثمانين وخمسمائة . فحضر إليه يَسْتَعْفِي من ذلك . وكان جَمَالُ الدولة : أبو طالب شَرَاتِكِينَ - يَكَلِّف القاضي صدرَ الدين - حاضِراً ، هو من الأَجَنَاد - فَاسِراً إليه ، وقال له : لا تَسْتَعْفِي ، فَأَنْتَ ، وَاللَّهِ ، بعد اثنتين وثلاثين سنة ، قاضي القضاة . فَأَرَاهَا فَلَمْ تَرُدْ وَلَمْ تَنْقُصْ .

وَوَقَّعَ للقاضي زين الدين علي بن يوسف التَّمَنِّي ^(٣) ، أَيَّامَ وِلَايَتِهِ . ثم عاد القاضي صدرُ الدين إلى الحُكْم ، فعاد إليه . ووُلِّيَ القاضي مُجِيبُ الدين : أبو حامد محمد بن القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرُونَ ، فَوَقَّعَ له .

(١) هو آخر صدر الدين بن درباس قاضي القضاة ، للتقدم ذكره . كان من أعلم الفقهاء في وقته بالمذهب الشافعي . وصنف كتاب « الاستِقصاء » في شرح المهذب . ونائب عن أخيه في الحُكْم . توفي سنة ٦٢٢ هـ . (المصدر السابق : ص ١٧١)

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم المصري . وإنما قيل له العراقي لأنه سافر إلى بغداد وأقام مدة للدراسة . ولد بمصر سنة ٥١٠ هـ . ثم سافر إلى بغداد لطلب العلم ، ثم عاد إلى مصر ، وتولى خطابة الجامع العتيق بها . وشرح « المهذب » شرحاً حسناً . مات سنة ٥٩٦ هـ . (المصدر السابق : ص ١٧١)

(٣) هو الذي تولى قضاء مصر في عهد الملك العزيز والأفضل ، ثم عزله الملك العادل في أول عهده سنة ٥٩٦ هـ ، وأعاد مكانه صدر الدين بن درباس - كما تقدم ذكره في أول الجزء .

ثم عاد صدر الدين ، فعاد إليه ، ولم يزل كآتيه إلى أن توفى . وكان كثير الركون إليه ، والاعتماد عليه . حتى إن شرف الدين مريض ، فسأل عنه القاضي صدر الدين ، فأخبر بشدة مرضه ، فقال : والله لن قضى عليه بمحتوم ، لأغزلن نفسى ، لأننى لا أجد من أثق به سواه .

ولما ولى القاضي عماد الدين : عبد الرحمن بن عبد العلى السكرى القضاء ، كتب له ، إلى أن عزل القاضي عماد الدين فى شهر المحرم ، سنة ثلاث عشرة وستائة ، فقسّم السلطان الملك العادل القضاء شطرين : قولى القاضي شرف الدين هذا القاهرة والوجه البحرى ، فى الشهر المذكور - وقيل فى يوم السبت ثانى صفر - وولى القاضي تاج الدين بن الحرّاط مصر والوجه القبلى ، كما تقدم . ثم أضاف السلطان الملك الكامل إلى قضاء مصر والوجه القبلى ، فى العشر الآخر من شعبان - أو فى شهر رمضان - سنة سبع عشرة وستائة ، كما تقدم ذكر ذلك

وكان السلطان الملك الكامل كثير التّويع بذكره ، والافتخار بولايته ، والابتهاج بما يراه من أحكامه ، وما يبلغه من سيرته ، وما يتحققه من حسن طويته ، وجميل سريته . وكان إذا نظر إليه يقول : والله لتتعبن بعد هذا ، إذا فقدناه ، ولا نجد بعده من يقوم مقامه

وكان إذا كتب إلى السلطان ، يستأذنه في عزله نائب من نوابه بالأعمال ، أو في أمر يقصده فعله ، يجيبه عن كتابه بخطه على ظهر كتابه ، أو بين سطوره . وكان يقترح ذلك على السلطان ، في بعض الأحيان . وكان الرّسم في المكاتبات والأجوبة جارياً^(١) على غير ما هو عليه ، في عصرنا هذا .

وقد رأينا أن نثبت من مكاتبات قاضي القضاة إلى السلطان ، وأجوبته له ، في هذا الموضع ، ما يُعلم منه كيف كان الرّسم جارياً^(٢) . فمن ذلك ما كتبه به إلى السلطان الملك الكامل :

« اللهم إني أسألك حسنَ الفاتحة ، والحائمة في عافية . المملوكُ يخدمُ المقامَ المولويَ السلطانيَ المالكِي ، الكامل - بَلَّغَهُ اللهُ تعالى كُلَّ مُرادٍ وأملٍ ، ووفقه لطاعة ربه في كل قولٍ وعمل - ويُنهي : أن النائبَ في الحكم بإطفاح^(٣) قد كثّر من القول فيه ما تقتضي المصلحة الاستبدالَ به وهو ابنُ أخت الأجلِّ مجد الدين ، أخى الفقيه الأجلِّ عيسى^(٤) - وقد كان المتظلمون ، من مدة ، حضروا شاكين لأمره ، وطالَعَ المملوكُ مولانا بجاله ، وكان مولانا في بعض متوجّهاته الميمونة . فورد الجواب ، بأن مولانا ينتظر في ذلك . وقد كثّر القول . والمملوكُ يستأذن على ما يفعله في أمره ، من صرفٍ أو إبقاء .

(٢٨١) في (ع) : وكان الرسم ... جارياً .

(٣) مدينة بصر ، وهي مدينة لطيفة في البر الشرق (أي : الضفة الشرقية للنيل) جنوب القسطنطينية . وعملها ما بين المقطم والنيل .

(صحيح الأعشى : ج ٣ - ٣٩٧)

(٤) أي الفقيه : ضياء الدين عيسى الهكاري الذي كان من كبار الفقهاء والأمراء أيام صلاح الدين ، ومن أقرب أصدقائه .

المملوك يُخْدَم ، وَيُنْهَى أَنْ النَّائِبَ فِي الْحُكْمِ بِالْمَحَلَّةِ قَدْ ظَهَرَ مِنْ أحواله ، وَتَحَايِفِهِ عَلَى مَنْ يَحْفِدُ عَلَيْهِ ، وَنَقْصِدُ مُضَادَّتِهِ لِمَا فِي نَفْسِهِ - مَا يَقْتَضِي كَفَّ يَدِهِ وَهُوَ يَسْتَنْدُ إِلَى مُتَوَلَّى الْحَرْبِ بِالْمَحَلَّةِ ، وَيُعَوِّلُ عَلَى ثَنَائِهِ عَلَيْهِ وَمِثْلِهِ إِلَيْهِ - عَلَى مَا ذَكَرَ لِلْمَمْلُوكِ . وَهُوَ يَسْتَأْذِنُ عَلَى أَمْرِهِ .

المملوكُ يَسْأَلُ الْإِجْرَاءَ - عَلَى عَادَةِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ - فِي أَنَّهُ ، إِنْ حَسُنَ التَّشْرِيفُ عَنْ هَذَيْنِ الْفَضْلَيْنِ بِالْجَوَابِ ، أَنْ يَكُونَ تَشْرِيفُ الْخَطِّ الْكَرِيمِ - لِأَزَالِ عَالِيًا - لِيَكُونَ سَبَبًا لِسَرِّ الْقَضِيَّةِ ، إِلَى أَنْ يُعْتَمَدَ فِيهَا مَا يُرْسَمُ مِنْ تَوَقُّفٍ أَوْ إِنْصَاءٍ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى الْمَمْلُوكِ بِدَوَامِ جَمِيلِ آرَاءِ مَوْلَانَا وَعِضْدِهِ لَهُ . وَتَقْوِيَةِ يَدِهِ فِي نِيَابَتِهِ عَنْ مَوْلَانَا فِيمَا قَوَّضَهُ إِلَيْهِ .

المملوكُ يُنْهَى أَنْ مِنْ اعْتِمَادٍ فِي أَمْرِهِ مِنَ الشُّهُودِ وَالثُّبُوتِ - الْأَمْرُ الَّذِي أُرْشَدَ مَوْلَانَا الْمَمْلُوكُ فِيهِ إِلَى الصَّوَابِ - لِكُلِّ مِنْهُمْ جِهَةٌ ^(١) بِمَا شَقَّ عَلَيْهَا مَا جَرَى ، وَحَصَلَ مِنْهَا فِي حَقِّ الْمَازَكِ مَا يَقْضِي بِتَغْيِيرِ خَاطِرٍ وَتَقْسِيمِ فِكْرٍ . وَاللَّهُ مَا يَبَالِي الْمَمْلُوكَ - بَعْدَ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى - [إِلَّا] بِرِضَى مَوْلَانَا بِمَنْ أَحَبَّ أَوْ أَبْغَضَ ، أَوْ أَعَانَ أَوْ تَعَصَّبَ .

وَلَوْ كَانَ كُلُّ النَّاسِ عَنِ بِيحَانٍ لَمَّا ضَرَّنِي ، إِذْ كُنْتُ مِنْكَ بِجَانِبٍ الْمَمْلُوكُ يُنْهَى أَنْ مَوْلَانَا ، لَمَّا شَرَّفَ الْمَمْلُوكَ فِي الْخِدْمَةِ ، كَانَ فِي التَّقْلِيدِ أَنَّهُ لَا يَسْتَنْبِئُ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ . وَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَرَدَّ مَكْتُوبٌ مِنْ مَوْلَانَا فِي زَمَنِ إِقَامَةِ وَكَابِهِ بِالْمَنْصُورَةِ ،

(١) يظهر أن المعنى أن وراء كل منهم متداً يستند إليه ، أي شخصية ذات نفوذ تؤيدها ، وأنها قد تغضب لما يتحدث وتتقدم بإبداء صاحب الخطاب وهو القاضي .

يتضمن أن أمر الاستجابة إلى المملوك . وفي النواب اليوم شخصان على مذهب مالك - رحمه الله تعالى . فيحيط العلوم أنه ما خالف إلا بعد ما ورد ما ذكره . وكان ممن تقدم المملوك في الحكم من استتاب الشافعية والحنفية والمالكية بمصر نفسها ، وبالأعمال . انتهى ذلك ، والرأى أعلى في التشریف بالجواب - إن شاء الله رب العالمين .

فأجابه على ظهر كتابه - بخطه - ما مثاله : « اخترتكَ دون غيرك ، لبرائة ذمتنا وذمتك . أفعل ما يُخلصك عند الله ، من خير معنا نفعله ، ومع نفسك - إن شاء الله تعالى » وختمه . وكتب على الختم القاضي شرف الدين قاضي القضاة .

وأضاف السلطان إليه الحكم في البيع ، في بعض شهور سنة ست وعشرين وستائة ، فاستتاب فيه . ثم أضاف إليه الحكم بقرّة والخليل والأردن وطبرية وبانياس ، في سنة إحدى وثلاثين ، فاستتاب عنه فيها نواباً . ثم تقدم إليه أن يستنيب عنه خطيبا وحاكماً بفردياط ، في شعبان سنة أربع وثلاثين وستائة ، فاستتاب في ذلك .

وكتب إلى السلطان - قبل أن يستنيب - يستأذنه في النيابة ، ويستوضح عن أمر البلاد الشامية ، فأجابه :

« ورد كتاب الحضرة - أعاد الله علينا من بركاتها ، ونفعنا بمقتبل دعواتها ، وأسعد آراءها ، ووفق قصودها وأنحاءها ، ولا زالت تصرفاتها في الشريعة أبداً ميمونة ، وأحكامها بإصابة الحق مقرونة - وقضضنا ختمها ووفقنا عليها ، وأحاط علمنا بما اشتملت عليه ، وما أوامات الحضرة إليه

وشكّرنا اجتهادها الموقوف البرود ، وتحرّزها في الأمور الشرعية الجليلة العقود . وأتينا على ديانتها التي رقتنا عندنا إلى المقام المحمود .

فأما إشارتها إلى أنها تستنيب في غرة وما معها ، عنا أو عن نفسها ، فمن أصفاء ذلك إليها ، وهي تستنيب عن نفسها من يكون أهلاً لذلك . وأما استفهامها أن المواضع المذكورة : هل لها جَامِيَّاتٌ ^(١) مُقرّرة أم لا ؟ نعم لها جَامِيَّاتٌ مقرّرة ، والديوان شاهد بها . وأما استيضاحها : هل لهذه المواضع أصلٌ ، حتى يقال : الموضع الفلاني وعمله ، فيؤلّى فيه شخصاً واحداً ، أو كلُّ موضع ، وإن قلّ ، مُقتَر إلى نائبٍ مُقرّد - فلتَعَلَّم الحَضْرَةُ أن مُرادنا أن تستنيب شخصين : أحدهما لقرّة وطبريّة والأردن وجبل الخليل ، والآخر لبانياس وعملها .

ثم ذكر غير ذلك في جوابه ، وقال : وكُتب لسبع خلون من شوال سنة إحدى وثلاثين وسنة ، بمنزلة تقابل البيرة بشاطئ الفرات ، من برّ الشام المحروس - شيفاهاً .

وكب إلى السلطان أيضاً يستأذنه في صَرْفِ بعض الثواب ، فأجابه : « وردت مكاتبة الحَضْرَةِ - أيّها الله بتوفيقه في جميع حالاتها ، ولا أخلى من صالح دَعَوَاتِها في شريف أوقاتها ، وأجرها من السَّدَاد والتحرّز على مُحْكَار عاداتها - ووقفنا عليها جميعاً ، وأحاطت علومنا بما أشارت إليه ، وما نبّهت فيها عليه . »

فأما إشاراتها إلى صَرْفِ قاضى القيوم والاستبدال به بخطيب البلد وصَرْفِ قاضى قوص ، وتعريضها بأنها لا يَجُوزُ لها إعادته . وعزيمها على صَرْفِ قاضى إخميم ، وما عرَّضَتْ به من انتباهه إلى كريم الدين الخلاطى . وإصرارها على صَرْفِ قاضى مينة زفتى ، وتصريحها بأنه ذا كُرٍّ أَثًّا نَعْرِفُهُ . وقد خَلَعْنَا عليه - فجوابنا عن جميع ذلك : أنا قَلَدْنَاها هذا الأمرَ العظيم . ودَمَمْنَاها هذا الخطبَ الحسيم ، ونَهَجْنَا بها السلوكَ فى طريقه المستقيم . وقَوَّضْنَا ذلك إليها ، وجَعَلْنَا أَرْمَةً نَقْضِهِ وإِبْرَامِهِ بِيَدَيْهَا ، وصَيَّرْنَا رَكائبَ آمالِ طاليسى التَّوَلِيَةِ مُنَاخَةً لَدَيْهَا - نَرْجُو بِذلك بَرَاءَةَ النِّعَةِ عند الله تعالى . وأن لا تقوم الحُجَّةُ علينا ولا عَلَيْهَا .

فمن استَضَلَّحَتْ وَرَضِيَتْهُ من الثَّواب ، فَلْتَعْرِهْ على حاله . ومن ظَهَرَ لها اعوجاجُه وسَخَطُكُه ، فَلْتَصْرِفْهُ ، ولا تُعْرِجْ على أساطيرِ أقواله . فالإِزْهَابَاتُ والتَّسْوِيهَاتُ لا مَدْخَلَ لَهَا فى أمور الدين ، والشَّرْعُ الشريفُ مُتْرَعٌ عن شِفاعَةِ الشَّافِعِينَ . فَلْتَعْلَمْ الحَضْرَةُ ذلك ، وَلْتَوَاصِلْ بِالْمُتَجَدِّدَاتِ ^(١) ، مُؤَقَّةً فى ذلك - إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى . سَطَّرَتْ لِإحدى عشرة ليلةً بَقِيَّتْ من ذى الحجة ، سنة إحدى وثلاثين ومائة ، بظاهر السَّوَيْدَا - مُشَافَهَةً .

هذا كان الرُّسْمُ فى المُكَاتِبَاتِ والأَجْوِبَةِ . وفيه دليلٌ على أن قاضى القضاة بالديار المصرية ، فى ذلك الوقت ، كان لا يَسْتَقِيلُ بِعُزْلُو نَائِبٍ من نَوَائِبِهِ بالأعمال - وَإِنْ صَعُرَتْ جِهَةٌ ولايته - إِلَّا بعد مُرَاجَعَةِ السُّلْطَانِ ،

(١) الأخبار والأحداث التى تُجَدِّدُ .

واستثنائه . وما زال الأمر جارياً على ذلك ، إلى أن ملكَ السلطانُ الملكُ الصالح نجم الدين ، فغلظَ حِجَابَهُ ، وتَعَذَّرَ خِطَابُهُ وَجَوَابُهُ ، وتَعَاظَمَ أَنْ يُشَاوَرَ فِي الْجُزْئِيَّاتِ ، وَأَنْ يُشَافَهُ إِلَّا فِي الْأُمُورِ الْمُعْضِلَاتِ . فاستَقَلَّ حَيْثُ الْقَضَاءُ وَغَيْرُهُمْ ، واستَبَدُّوا بِالْوِلَايَاتِ وَالْعَزَلِ .

ولترجع إلى أحوال قاضي القضاة : شرف الدين ، وسيرته .

وكان - رحمه الله تعالى - جَوَاداً كَرِيماً ، زَاهِداً لَا يَدْخِرُ شَيْئاً : وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا سَجَادَةً خَضَاءَ مِنَ الصُّوفِ ، وَسَجَادَةً مِنْ أَدَمٍ وَمُشْطاً وَسُبْحَةً ، وَمِقْرَاضاً ، وَعُوداً مِنْ أَرَاك^(١) . وليس له إِلَّا بَدَلَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَإِذَا تَغَيَّرَتْ ، غُسِلَتْ لَهُ لَيْلاً . وَبَقْلَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا كَانَ زَمَنُ الرَّبِيعِ ، اسْتَأْجَرَ بَقْلَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ ، وَيَقُومُ بَعْلَفِهَا مِنْ عِنْدِهِ : مَا مَلَكَ عَقَاراً ، وَلَا وَجَبَتْ عَلَيْهِ زَكَاةٌ فِي عُمُرِهِ .

وكان مَقْضُوطَ الْمَجْلِسِ ، لَا يُسَارُّ أَحَدًا فِي مَجْلِسِهِ وَلَا يَضْحَكُ فِيهِ . وكان كَثِيرَ الْعِبَادَةِ ، يَسْرُدُ الصُّومَ ، وَلَا يُفْطِرُ إِلَّا الْأَيَّامَ الَّتِي لَا يَحُوزُ صَوْمَهَا ، كَثِيرَ التَّلَاوَةِ لِلْقُرْآنِ ، وَالذِّكْرِ وَالْأَذْعِيَةِ . وكان . لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا قَضَاءَ حَاجَةٍ ، إِلَّا وَيُعْطِيهِ فَوْقَ أُجْرَتِهِ . حتى كَانَ يَدْفَعُ مِائَةَ إِبْرَاقٍ مَاءً حَارًّا فِي الشِّتَاءِ مِنَ الْحَمَامِ ، عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، نِصْفَ دِرْهَمٍ لِلْحَمَامِي ، وَرُبْعَ دِرْهَمٍ لِحَامِلِ ذَلِكَ إِلَيْهِ . وكان يَدْفَعُ لِبَارِي أَقْلَامِهِ أُجْرَةً ، مِنْ دِرْهَمَيْنِ إِلَى ثَلَاثَةِ .

(١) أَرَاك : السَّوَاك . لِأَنَّ شَجَرَ الْأَرَاكِ هُوَ الَّذِي يُتَّخَذُ مِنْهُ السَّوَاكُ .

وكان له شعرٌ حسن ، قد وَقَفْتُ منه على قصائد ، يمدح بها السلطان الملك الكامل - تركنا إيرادها إختصاراً . فن شعره ، بديهةً :

وَلَيْتَ الْقَضَاءُ ، وَلَيْتَ الْقَضَا ، لَمْ يَكُ شَيْئاً تَوَلَّيْتُهُ
وَقَدْ قَادَنِي لِلْقَضَاءِ الْقَضَا وَمَا كُنْتُ قَدِماً تَمَنَّيْتُهُ

وكان حسنَ التَّنْزُّعِ . وكانت علامته : الحمدُ لله مُتَوَلَّى السرائر .
ويكتب تحت خط الشهود : أَقَامَ شهادته عندى بذلك ، وشخص المذكور . والله على كل شيء شهيدٌ . وأخباره - رحمه الله تعالى - وأوصافه الحسنة كثيرة ، وقد أتينا منها بما فيه الكفاية .

ولما مات قاضى القضاة شرفُ الدين فى التاريخ المذكور ، خرج الأمر السلطانى بالإذْن للعُقَّاد والنواب عنه بالقاهرة - فى يوم الأحد الثانى والعشرين من ذى القعدة من السنة - بالإستمرار ، إلى أن يقع الإختيار على قاضٍ ، ولم يُؤْذَن لنائبه : القاضى محبى الدين عثمان بن يوسف القليوبى - بشيء - وهو الذى كان خليفة القاضى شرف الدين بن عَيْن الدولة فى الحُكْم - إلى أن مات . واستمر ذلك إلى يوم الأربعاء ، الخامس والعشرين من الشهر .

فَقَرَضَ السلطانُ قضاء القاهرة والوجه البحرى لقاضى القضاة : بَذَر الدين السنجارى - وصُرِفَ عن الحُكْم بمصر والوجه القليل . وكان قد

استتاب بمصر ابن عمه : القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن حلكان^(١) ، وفوض إليه عقود الأنيحة وقضاء الجيزة . واستتاب شمس الدين عنه في قضاء الجيزة أخاه : بهاء الدين محمد بن محمد . فلما ولي القاضي بدر الدين القاهرة ، استتاب القاضي شمس الدين - المذكور - بها . فجلس في يوم الخميس - السادس والعشرين من ذي القعدة - بجامع الأزهر ، وأمر الشهود بالانتقال إلى حرم الجامع . ثم شرك بينه وبين القاضي محيي الدين ، في النيابة بالقاهرة . وولي قضاء مصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

ذكر وصول شيخ الإسلام^(٢)

عبد العزيز بن عبد السلام - إلى الديار المصرية . وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل . وتفويض القضاء بمصر والخطابة بها - وغير ذلك - إليه ، وما فعله وعزله نفسه

كان وصوله إلى الديار المصرية في سنة تسع وثلاثين وستمائة وذلك أنه لما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق ما وقع . وعزله والزمه داره - كما تقدم - فارق دمشق ، وقصد البيت المقدس .

(١) هو المؤرخ المشهور صاحب «وفيات الأعيان» .

(٢) ذكره السيوطي بين «من كان بمصر من الأئمة المجتهدين» ، وقال عنه : «وهو عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن .. السلمي ، شيخ الإسلام ، سلطان العلماء . ولد سنة (٥٧٧) أو (٥٧٨ هـ) ونفقه على الفخر بن عساكر . وأخذ الأصول عن السيوف الأمدى ، وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره . وبرع في الفقه والأصول العربية . قال الذهبي في العبر : «انتهت إليه معرفة للذهب مع الزهد والورع . وبلغ رتبة الاجتهاد . وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين سنة ، ناسراً للعلم ، امرأ بالمعروف ناهياً عن المنكر . بلفظ على الملوك فمن دونهم . وألقى التفسير بمصر وألف كتباً عديدة . وكانت وفاته سنة ٦٦٠ هـ . (حسن الحاضرة : ج ١ - ١٢٦ - ١٢٧)

فوافاه الملكُ الناصر داود صاحب الكرك بالعمور^(١) ، فأكرمه ونقله إلى الكرك . وقال له : تُقيمُ عندي بهذا الحصن وأنا لا أُخرجُ عن أمرك . فأقام عنده مدة يسيرة . ثم استأذنه في الخروج ، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه . فقليل إنه قال له : هذا بلدٌ صغير ، وأنا أُحبُّ الانتقال إلى بلدٍ أنشرُ به ما عندي من العلم .

فأذن له . وتوجه الشيخُ إلى القدس ، وأقام به . فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعضَ خَوَاصِّه بمَنَدِيله ، وقال له : ادفعْ إليه مَنَدِيلِي وتَلَطَّفْ به واستترِّ له ، وعِذه بعوده إلى مناصبه . فإن أجاب ، فائتني به . وإن خاشتك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمتي .

فأتاه الرسولُ ولاطفه ، ثم قال له : يبتك وبينَ أن تعودَ إلى مناصبك ، وتعودَ إلى ما كنتَ عليه وزيادة ، أن تُقبَلَ يدَ السلطان . فقال له : « والله ما أرضاه أن يُقبَلَ يدي ، فضلاً أن أُقبَلَ يده » !! فقال : إنه قد رَسَمَ أن أُعْتَمَلَكَ إذا لم تُوافق . فقال افعلوا ما بَدَأَكم ! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمةِ السلطان .

وكان يقرأ القرآنَ والسلطانُ يسمعه . فقال يوماً للملوكِ الفرنج : تسمعون هذا الذي يقرأ ؟ قالوا نعم : قال هذا أكبرُ قُسُوسِ المسلمين ، وقد حبسه لإبكاره على تسليمي لكم حصُونِ المسلمين ، وعزَّته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى القدس . وقد جددت اعتقاله

(١) أى غور الأردن . وقد قدم ذكره .

لَأَجْلِكُمْ . فقالوا له : لو كان هذا قِسْيَسًا ، لَعَسْنَا رِجْلَيْهِ ، وَشَرَبْنَا مَرَقَتَهَا ! . ثم فَارَقَ الصَّالِحُ الْقُدُسَ .

وَقَدِمَ الشَّيْخُ إِلَى الدِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ ، وَأَكْرَمَهُ ، وَقَوَّضَ إِلَيْهِ الْخُطَابَةَ وَالْإِمَامَةَ بِجَمَاعِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ بِمِصْرَ ، فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ ، سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، عِوَضًا عَنْ أَبِي الْمَجْدِ الْإِخْمِيمِيِّ - وَكَانَ أَبُو الْمَجْدِ قَدْ وَلِيَ الْخُطَابَةَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَاهِرِ الْمَحَلِّيِّ ، وَكَانَ يَنْوِبُ عَنْهُ فِي حَالِ حَيَاتِهِ . وَخَطَبَ الشَّيْخُ عِزَّ الدِّينِ فِي هَذَا الْيَوْمِ . وَأَذَّنَ الْأَذَانَ الثَّانِي عَلَى الدُّكَّةِ يَوْمَئِذٍ ، مُؤَذِّنٌ وَاحِدٌ - خِلَافَ الْعَادَةِ .

ثُمَّ فُورِضَ إِلَيْهِ الْقَضَاءُ بِمِصْرَ وَالْوَجْهَ الْقِبْلِيَّ - فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، مِنْ السَّنَةِ - بَعْدَ انْتِقَالِ قَاضِي الْقَضَاءِ بَدْرِ الدِّينِ السَّنْجَارِيِّ مِنْهَا إِلَى الْقَاهِرَةِ وَالْوَجْهَ الْبَحْرِيَّ . وَشَقَرَتْ^(١) مِصْرُ عَنْ حَاكِمِهَا ، فِيمَا بَيْنَ نَقْلِ الْقَاضِي بَدْرِ الدِّينِ وَتَوَلِيَةِ الشَّيْخِ ، أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، وَلِئِذَا الشَّيْخُ مُضَافَةً إِلَى الْخُطَابَةِ .

وَجَلَسَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ . وَاسْتَنْابَ الشَّيْخُ عَنْهُ ، فِي الْحُكْمِ ، الْقَاضِي صَدْرُ الدِّينِ مَوْهَبٌ : قَاضِي جَزِيرَةِ ابْنِ عَمْرِو . وَفِي يَوْمٍ جُلُوسَ الشَّيْخِ لِلْحُكْمِ ، اسْقَطَ عَدْلَيْنِ مِنَ الْعُدُولِ الْمُتَّذِمَّةِ .

(١) شَقَرَتْ الْأَرْضُ : لَمْ يَبْقَ بِهَا أَحَدٌ بِحَسْبِهَا أَوْ يَفْضِلُهَا ، فَهِيَ شَاغِرَةٌ . وَقَدْ شَقَرِ الْبَلَدُ : يَهْدَمُ مِنَ النَّاصِرِ وَالسُّلْطَانِ .

وسبب ذلك أنه وَجَدَ مَسْطُوراً^(١) ، فيه شهادتها ، وهو غير مَوْرَخ ، وفي خطٍّ كُلٍّ منهما : كَتَبَهُ فُلَانٌ فِي تَارِيخِهِ . وسأل أحدهما عن فرائض الصلاة ، فلم يُجِبْهُ جَوَاباً مُرْضِياً . ثم أَسْقَطَ ، بعد ذلك بأيام ، القاضي فخر الدين بن قاضي القضاة عماد الدين بن السُّكْرِي - مُدْرَسَ مَكَازِلِ الْعِرَاقِ - لأنه وَجَدَ شَرْطَ الْوَاقِفِ بِالْمَدْرَسَةِ أَنْ يَكُونَ الْمُدْرَسُ بِهَا عَارِفاً بِالْأُصُولَيْنِ^(٢) ، وهو عارٍ عن معرفتها . فَأَسْقَطَهُ لذلك .

وَأَسْقَطَ أَيْضاً جَمَاعَةً مِنْ عُدُولِ^(٣) الْقَاضِي شَرَفِ الدِّينِ بْنِ عَيْنِ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ أَسْقَطَ وَلَدَهُ عَجِي الدِّينَ أَبَا الصَّلَاحِ . وَطَلَّبَهُ فَخَرَجَ مُسْتَخْفِياً إِلَى نَقْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ . وَاسْتَنْدَ فِي إِسْقَاطِ كُلِّ مِنْهُمْ إِلَى مُوجِبِ ظَاهِرٍ . ثُمَّ عَزَلَ نَفْسَهُ . فَتَلَطَّفَ السُّلْطَانُ فِي إِعَادَتِهِ ، فَعَادَ .

ثُمَّ أَسْقَطَ الصَّاحِبَ مُعَيَّنَ الدِّينِ بْنِ شَيْخِ الشُّيُوخِ : وَزَيْرَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ وَنَائِبِهِ ، وَمُقَدِّمَ جِيُوشِهِ . وَعَزَلَ نَفْسَهُ عَنِ الْقَضَاءِ ثَانِياً .

وسبب ذلك : أَنَّ الصَّاحِبَ مُعَيَّنَ الدِّينِ كَانَ قَدْ بَنَى فِرَاشَخَانَاهُ^(٤) عَلَى ظَهْرِ مَسْجِدٍ ، بِحَوَارِ دَارِهِ . وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ قَوَّضَ إِلَى الشَّيْخِ أَيْضاً

(١) أى مكتوباً ، أى ورقة مكتوبة .

(٢) أصول الدين ، وأصول الفقه .

(٣) إسقاط العدول - المنزود هنا ذكره - معناه : الحكم بإضفاء العدالة عن الشخص : أى عدم الأهلية للشهادة أمام القضاء ، وبمباشرة الأعمال الدينية التي تشترط فيها العدالة . والعدالة في الفقه الإسلامي معناه - بإجمال - أن يكون المرء جامعاً للفضائل الدينية ، لم يخالف أحكام الدين في شيء .

(٤) خاناه : معناها بيت أو محرن .

فراشخاناه : محرن للقرآن .

النظر في عمارة للمسجد ، بمصر والقاهرة . فأرسل إليه يأمره بهدم ما استجدّه على ظهر المسجد وإزالته ، وإعادة للمسجد إلى ما كان عليه . فلم يُجِبْ إلى ذلك . ثم عاوده فلم يفعل .

فلما طال ذلك على الشيخ ، أمر الفقهاء طلبته أن يأتوه في غدٍ - ومع كل واحد منهم معول - ففعلوا ذلك . فلما رآهم القوام اجتمع منهم خلق كثير بالمساحي . وركب الشيخ إلى دار صاحب معين الدين ، وهو في خدمة السلطان ، وأمر بإخراج ما في ذلك المكان ، فأخرج ، ثم أمر بهدمه فهدم . فتألم صاحب معين الدين لذلك ، ولم يمكنه أن يحدث فيه شيئاً . فلما كان بعد مدة يسيرة ، جلس الشيخ بجامع مصر لتغذيل من شهد بعدالته ، منهم : فخر الدين محمد بن صاحب بهاء الدين على بن محمد . واجتمع لذلك جمع كثير من العلماء والفقهاء والأكابر والقراء - وكانت العادة كذلك في إنشاء العدالة . فاتصل الخبر بالصاحب معين الدين ، فأمر والى مصر أن يدخل إلى المجلس ، ويُفَرَّقَ ذلك الجمع ، ويقول للشيخ عز الدين : يقول لك صاحب : بلد السلطان لا يجتمع فيه الجموع . ففعل الوالى ذلك .

فصرخ الشيخ في المجلس بإسقاط العدالة صاحب معين الدين ! ثم عزّل نفسه عقيب ذلك . وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات . ولما اتصل خبر هذا الإسقاط بالسلطان ، منع صاحب معين الدين من الدخول إليه ثلاثة أيام ، حتى لفق صيغة شهدت أن الشيخ إنما أسقطه بعد أن عزّل نفسه ، وأن إسقاطه لم يصادف محلاً ، وأنه باقٍ على عدالته .

وَأَثَرُ هَذَا الْإِسْقَاطِ فِي الصَّاحِبِ مُعِينِ الدِّينِ أَثَرًا مُؤَلِمًا . وَهُوَ أَنَّهُ حُكِيَ أَنَّ السُّلْطَانَ أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى الدِّيَّانِ الْعَزِيزِ ^(١) بِبَغْدَادَ ، وَكَانَ الْمُشَافَهُ لِلرَّسُولِ عَنِ السُّلْطَانَ الصَّاحِبَ مُعِينِ الدِّينِ . فَلَمَّا أُبْلَغَ الرِّسَالَةَ قَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : أَيُّوبُ شَافَهُكَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ ؟ قَالَ : لَا ، إِنَّمَا شَافَهُنِي بِهَا عَنْهُ الصَّاحِبُ مُعِينِ الدِّينِ . فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : مُعِينُ الدِّينِ أَسْقَطَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ عِدَالَتَهُ ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى مُشَافَهَتِهِ .

وَلَمَّا عَزَلَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ ، أَرَادَهُ السُّلْطَانُ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى الْقَضَاءِ ، فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ . فَقَرَّضَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ الْقَضَاءَ بَعْدَهُ ، بِمِصْرَ وَالْوَجْهَ الْقِبْلِي ، إِلَى نَائِبِهِ : الْقَاضِي صَدْرِ الدِّينِ أَبِي مَنْصُورٍ مُوْهَبٍ ، بَنِ عَمْرِ بْنِ مُوْهَبٍ ، بَنِ إِبْرَاهِيمَ ، الْجَزْرِي ^(٢) الشَّافِعِي . وَذَلِكَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتَّمِائَةٍ . فَأَعَادَ بَعْضُ مَنْ أَسْقَطَهُمُ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ إِلَى الْعِدَالَةِ . وَلَمْ تَطُلْ وِلَايَتُهُ . فَإِنَّهُ اسْتَمَرَ فِي الْقَضَاءِ نَحْوَ سَنَةٍ . وَعُزِّلَ ، وَلَمْ يَلِ الْقَضَاءَ بَعْدَهَا . وَفِي سَنَةِ تِسْعِ وَثَلَاثِينَ وَسِتَّمِائَةٍ - أَيْضًا - تَوَجَّهَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ - صَاحِبُ حِمِصَ - وَعَسْكَرُ حَلَبَ ، إِلَى حَرَّانَ ، وَالتَّقَاوُ مَعَ الْخَوَازَرْمِيِّ ، وَمَرْقُومِهِمْ كُلِّ مُمَرِّقٍ ، فَكَسَرُوا الْخَوَازَرْمِيَّةَ .

(١) أَيُّ دِيَّانِ الْخَلِيفَةِ .

(٢) هُوَ صَدْرُ الدِّينِ مُوْهَبُ الْجَزْرِي . وُلِدَ بِالْجَزِيرَةِ (جَزِيرَةُ ابْنِ عَمَرَ) فِي جَدَادِ الْآخِرَةِ سَنَةِ ٥٩٠ هـ ، وَأَخَذَ عَنِ الْعَلَمِ الشَّافِعِيِّ وَالشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ، وَتَفَقَّهَ وَبَرَعَ فِي الْمَذْهَبِ وَالْأَصُولِ وَالنَّحْوِ ، وَتَخَرَّجَتْ بِهِ الطَّلَبَةُ وَجَمَعَتْ عَنْهُ الْقِتَاوِيُّ الْمَشْهُورَةُ ، وَوُلِيَ الْقَضَاءَ بِمِصْرَ . مَاتَ سَنَةِ ٦٦٥ هـ .

مَعِينُ التَّارِخِ لأهل التَّارِخِ

واستهلَّت سنة أربعين وستائة : لاهل التَّارِخِ
في هذه السنة ، عَزَمَ السلطانُ الملكُ الصالحُ نجم الدين على التوجه إلى
الشام ، فبلغه أن العساكر مختلفة ، والبلاد مُختلَّة ، فأقام .

وفيها كانت وَقْعَةٌ عظيمة بين عسكر حلب والخوارزمية . وكان الملك
المُظفرُ شهاب الدين غازي - صاحب مِيفَارِقِينَ^(١) - مع الخوارزمية ،
وكانوا قد حَلَفُوا له وحَلَفَ لهم . وأخربوا بلاد الموصل وماردين ، فاضطرَّ
صاحبُ ماردين إلى موافقتهم . وجمع غازي الحانَات الخوارزمية ، وأشار
عليهم بقصد بلاد الموصل فقالوا : لا بد من لقاء العسكر الحلبي ، فألجأته
الضرورة إلى موافقتهم .

وركبوا في ثامن عشرين المحرم ، من جبل ماردين إلى الحَابُور^(٢) ،
وساقوا إلى المِجْدَل^(٣) . ووقف الحانَاتُ ميمنة وميسرة ، ووقف الملك المظفر
غازي في القلب ، والتقوا . فصدَّهم العسكر الحلبي صدمة رجل واحد .
فانهزموا لا يَلُوون على شيء ، ومعهم الحلبيون يقتلون ويأسرون .
وأخذوا أثقال غازي وأغنام التركمان ، وخیلهم ونساءهم ، وكانوا خَلْقاً

(١) أشهر مدينة بديار بكر (بالجزيرة)

(ياقوت : ٨ - ٢١٤)

(٢) بلد بالقرب من قرقسياب بالجزيرة ، على نهر الحابور الذي يصب في أعالي القرات . وتُسمَّى إلى النهر
(المعجم . سبق ذكره)

(٣) المِجْدَل (يكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال - كما ضبطه ياقوت) : اسم لبلد طيب بالحابور ، إلى جانبه
قل عليه قصر ، وفيه أسواق كثيرة .
المِجْدَل - لغة - معناها : القصر المشرف .

(معجم البلدان : ج ٧ - ٣٨٧)

كثيراً . فبيع الفرس بخمسة دراهم ، ورأس الغنم بدرهم . ونُهبت نَصِييبين ،
وسُبي نساؤها . وكانت قد نُهبَت مراراً في سنة تسع وثلاثين - يقال نُهبَت
سبع عشرة مرة ، من المواصلة والخوانزمية وعسكر ميثافارقين وماردين -
وعاد الملك المظفر غازي إلى ميثافارقين .

وتفرقت الخوارزمية ، ثم اجتمعوا على نصيبين . ثم رحلوا فترلوا رأسَ
عَينَ ، فقتلوا أهلها ، ونهبوا الأموالَ وسبوا النساء . وفعلوا بالطابور كذلك ،
ونهبوا أغنام التُّركمَان .

وفيا وصل إلى الملك المظفر - شهاب الدين غازي - منشورٌ بخِلَاطٍ
وأعمالها ، مع شمس الدين النائب بالروم ، فسلَّمها وما فيها .

وفيا توفيت صَبِيغَةُ خاتُون ، ابنة الملك العادل : سيف الدين أبي بكر
ابن أيوب .

وهي والدَةُ الملك العزيز : بن الملك الظاهر صاحب حلب - والد
الملك الناصر . وكانت هي التي دَبَّرَت الدولة ، وحَفِظَت المُلْكُ بسببها على ابنها
وابنه ، بعد وفاة الملك الظاهر . ولما توفيت ، قام بتدبير الدولة الحلبية الأمير
الأتابك : شمس الدين لؤلؤ ، أتاك الملك الناصر صاحب حلب .

ذكر الإطفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين :

نجم الدين أيوب صاحب مصر ، وعهاد الدين

إسماعيل صاحب دمشق

في هذه السنة ترددت الرُّسُلُ بين الملكين الصالحين : نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية ، وعمه عهاد الدين إسماعيل صاحب الشام ، وتوجه شرف الدين بن التُّنَيِّ والْأَصِيلُ الإِسْعَزْدِيُّ^(١) الخطيب ، إلى دمشق . فأطلق الملك الصالح إسماعيل الملك المغيـثَ جلال الدين - . ولدَ السلطان الملك الصالح نجم الدين - من الاعتقال . وَرَكِبَ وَخَطَبَ لابن أخيه الملك الصالح أيوب بدمشق . وَرَضِيَ الملك الصالح أيوب بإقرار دمشق بيد عمه الصالح إسماعيل ، بعد أن يُسَلِّمَ إليه ولده .

وحصل الاتفاقُ على ذلك ، ولم يبق إلا أن يتوجه الملك المغيـثُ إلى أبيه . فصرف أمينُ الدولة السَّامِرِيُّ - وزيرُ الملك الصالح إسماعيل - رأيَه عن ذلك وقال : هذا خاتم سليمان ، لا تخرجه من يدك يُعَدِّمُ المُلْكُ . فَرَوَّفَ ، ولم يتنظَّم الحال . وقطع خُطْبَةَ ابن أخيه ، وأعاد الملك المغيـثَ إلى الاعتقال بالبرج ، واستمر به إلى أن مات . وكانت وفاته يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر ، سنة اثنتين وأربعين وستائة . وَحُمِلَ إلى تربة جدّه الملك الكامل فدفن بها . وكان عاقلاً ، ما حُفِظَتْ عنه كلمة فُحِشَ - رحمه الله تعالى .

(١) نسبة إلى «إِسْعَزْد» : بلد بين دجلة وميافارقين .

ولما رجع الصالح إسماعيل عن الصلح ، كتب الملك الصالح أيوب إلى الخوارزميه في الحضور إلى الشام . فعبروا إلى الفرات وانقسموا قسمين : قسم جاءوا على البقاع البعلبكي ، وقسم على غوطه دمشق . ونهبوا وسبوا وقتلوا . وسد الصالح إسماعيل أبواب دمشق . وتوجه الخوارزميه إلى غزوة . وكان من خبرهم ما نذكره - إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل قاضي القضاة : صدر الدين مؤهوب الجزري عن القضاء بمصر والوجه القبلي ، وقوض السلطان الملك الصالح ذلك إلى القاضي : أفضل الدين أبي عبدالله ، محمد بن تآمادر ، بن عبد الملك ، بن زنجلين ، الخونجي^(١) ، وكانت ولايته في يوم عيد الثحر من هذه السنة . واستمر في القضاء إلى أن مات .

وفيها في يوم الجمعة بعد الصلاة ، ثاني العيد الأضحى ، أمر الملك الصالح إسماعيل بالقبض على أعوان القاضي رفيع الدين الجلي - وكانوا ظلمة آذوا الناس . وكان كبيرهم الموق حسين بن عمر بن عبد الجبار - المعروف بابن الواسطي . ثم قبض على القاضي الرفيع بعد أيام . وأمر بمصادرتهم فصدروا ، وعوقبوا وعذبوا بأنواع العذاب - وكانوا لذلك أهلاً . ثم قتل الرفيع في سنة اثنتين وأربعين وسئالة ، يعلبك : جهزه أمين الدولة السامري إليها ، فقتل هناك .

(١) نسبة إلى «خونج» : وهي بلد من أعمال أذربيجان ، بين مراغة ورتجان . وبينها وبين رتجان يومان . ويقال لها أيضاً : «خونأ» .

وكان القاضي الرفيع هذا قد صادَرَ أهلَ دمشق ، وفعل ما لا يفعله ظَلَمَةُ الْوَلَاةِ . وكتب إلى السلطان يقول : إننى قد حملت إلى خِزانتك ألفَ ألفِ دينار ، من أموال الناس . فقال السامري : ولا ألفَ ألفِ درهم . وكان السامري قد تمكن من الملك الصالح ثَمَكُنًا عَظِيمًا ، لا يخالفه في شيء أَلَبَّته . فقال الملك الصالح : أنا أَحَاقِقُهُ ، فإنه قد أَكَلَ الأموال ، وأقام علينا الشَّاعَةَ ، والمصلحة تقتضى عزله ومُؤاخَذته ، ليعلم الناس أنك لم تأمره بأذاهم . فعزله عن القضاء . ثم نسب في قَتْلِهِ .

ولما عَزِلَ ، فُوضَ القضاء بعده لقاضي القضاة محيي الدين يحيى ، بن قاضي القضاء محيي الدين محمد ، بن على بن محمد بن يحيى ، الْقُرَشِيُّ . وقرئ تقليده بالجامع بدمشق ، في خامس عشرين ذى الحجة . وَحَكَمَ بِإِسْقَاطِ عَدَالَةِ أَصْحَابِ الرَّفِيعِ ، وهم : الْمُعِزُّ بْنُ الْقَطَّانِ ، وَالزَّيْنُ الْحَمَوِيُّ ، وَالْجَمَالُ بْنُ سَيِّدِهِ ، وَالْمَوْفَّقُ الْوَاسِطِيُّ ، وسالم المَقْدِسِيُّ ، وابنه محمد - لِمَا فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى ، وَقَطَعَ الْمُصَانَعَاتِ .



واستهلكت سنة التين وأربعين وستائة :

ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مصر - ومن

معه من الخوارزمية - وبين عسكر الشام - ومن شايعهم

من الفرنج ، وانهمزام الفرنج وعسكر الشام ، على غزاه

قد ذكرنا وصول الخوارزمية إلى الشام ، ونزولهم على غزاه .

ولما استقروا بها ، أرسل إليهم السلطان الملك الصالح النفقات والخلع

والكساي ، وطائفة من العسكر المصرى . فاتفق الملك الصالح إسماعيل

صاحب دمشق ، والملك المنصور صاحب حمص ، والملك الناصر داود

صاحب الكرك ، وراسلوا الفرنج . وكان الصالح إسماعيل قد سَلَّم إليهم من

الحصون ما تقدم ذكره . ووَعَدَهُم الآن أنه متى ملك الديار المصرية ،

أعطاهم الأعمال الساحلية بأسرها . واستقر ذلك بينهم وبين الملوك الثلاثة

المذكورين .

وخرج الملك المنصور - صاحب حمص - بعسكره وعساكر دمشق .

وأقام الصالح بدمشق . وجهَّز الملك الناصر داود عسكره من نابلس - ضجة

الظهير سَنَقَر الحلبي والوزيري ، وأقام هو بالكرك . واجتمعت هذه العساكر ،

وعساكر الفرنج : الذبوية والإسبتار والكثوة ^(١) ، على يافا . والعسكر

المصرى والخوارزمية على غزاه .

(١) سبق تسمية هذه الكلمات . فالذبوية هم طائفة فرسان المعبد ، من الفرنج ، الذين نزلوا أنفسهم لحرب المسلمين في الحروب الصليبية . وه الإسبتار أو الاستبارية هم طائفة أخرى من فرسانهم ، وهم مثل هؤلاء في التعصب والحماس ، والكثوة : أى الأشراف أو الأمراء من الفرنج .

قال أبو المظفر: وساق صاحبُ حمص وعسكر دمشق، تحت أعلام الفرنج - وعلى رموسهم الصُّلبان، والأقساء^(١) في الأطلاب^(٢) يُصَلُّون^(٣) على المسلمين ويُقَسُّون عليهم، وبأيديهم كنوسُ الخمر والهَبَابَات^(٤) يَسْقُونهم. وساق العسكرُ المِصرى والخوارزمية. والتفوا بمكانٍ يقال له أَرِيّاً^(٥) - بين غَزَّة وعَسْقلان.

وكان الفرنجُ في الميمنة، وعسكر الناصر داود في الميسرة، وصاحب حمص في القلب. وكان يوماً عظيماً، لم يَجِرْ في الإسلام بالشام مثله، واقتتلوا. فانكسرت الميسرة، وهرب الوزيرى، وأسير الظهير سنقر الحلبي وجرح في عينه. ثم انهزم صاحبُ حمص. وكان العسكر المِصرى قد انهزم، ووصل إلى قرب العَرِيش. وثبتت الخوارزمية والفرنج، واقتتلوا، فمالت الخوارزمية عليهم بالسيوف، يُقَتِّلُونهم كيف شاءوا.

قال أبو المظفر: وكنتُ يومَ ذلك بالقُدس، فتوجهتُ في اليوم الثاني من الكسرة إلى غَزَّة، فوجدتُ الناسَ يَعدُّون القتلى بالقَصَب، فقالوا: إنهم يَزِيدون على ثلاثين ألفاً.

(١) مكنا في (ع). والفهوم أنها جمع قَس. وفي القاموس: القَس، بالفتح: رئيس التصارى في العلم. كالقيس. ج قسوس وقبسون وقساوسة. فالجمع الوارد هنا لم يذكر، ولكن يظهر أنه جمع كياس: جمع قس، على وزن أفعال، ولكن أبدلت السين الأخيرة هزة لتلدها، ولسهولة الهزة في التلق.

(٢) سبق شرح هذه الكلمة، وأنها جمع: طَلَب: بمعنى الكَيْبَةِ في الجيش، وهو لفظ كُرْدِي، دخل في المصطلحات الحربية منذ الدولة الأيوبية.

(٣) معنى ذلك: يباركونهم بالصلبان، أو الإشارات بها أو نحو ذلك.

(٤) ج هَبَاب: وهو قَدَحُ الشراب. وتوجد هذه الكلمة في اللغة الفرنسية.

(٥) انظر السلوك - زيادة ج ١ - ص ٦٠٧ - حاشية ٣

(٥) هذه موقعة تاريخية هامة في الحروب الصليبية. ولم يلفت إليها كثير من المؤرخين إلا أخيراً

وَبَعَثَ الْخَوَارِزْمِيَّةَ بِالْأَسَارَى وَالرَّهْوسَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وَفِي جُمْلَةٍ
الْأَسْرَى الظَّهِيرِ سَتَفَرَّ وَجَاعَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَكَانَ يَوْمٌ وَصَلَهُمْ إِلَى الْقَاهِرَةِ يَوْمًا
مَشْهُودًا . وَعُلِّقَتْ رَهْوسُ الْقَتْلِ عَلَى الْأَسْوَارِ ، وَامْتَلَأَتْ الْحُيُوسُ بِالْأَسْرَى .
وَوَصَلَ صَاحِبُ حِمَصٍ إِلَى دِمَشْقَ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ، وَنَهَبَتْ خَزَائِنُهُ وَخِيَلَهُ
وَسِلَاحُهُ ، وَقُتِلَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ . فَكَانَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ ، حَيْثُ سَقَنَّا
نَحْتَ أَعْلَامِ الْقِرْنَجِ - أَنَا لَا نَقْلُحُ !

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، تَوَفَّى شَيْخُ الشُّيُوخِ : تَاجُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَمْرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ حَمَّوِيَّةٍ ، بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي نَصْرِ بْنِ
أَحْمَدَ ، بْنِ حَمَّوِيَّةٍ بْنِ عَلِيٍّ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِدِمَشْقَ ، فِي سَادِسِ صَفَرٍ .
وَوُصِّلَ عَلَيْهِ بِجَامِعِهَا ، وَدُفِنَ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَّةِ . وَمَوْلَدُهُ يَوْمَ الْاِحْدَاءِ ، رَابِعَ عَشَرَ
شَوَّالَ ، سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

وَهُوَ عَمُّ الْأَمْرَاءِ : فَخْرِ الدِّينِ ، وَعَمَادِ الدِّينِ ، وَمُعِينِ الدِّينِ ،
وَكَمَالِ الدِّينِ : أَوْلَادُ صَدْرِ الدِّينِ شَيْخِ الشُّيُوخِ . وَكَانَ شَيْخًا حَسَنًا
مُتَوَاضِعًا ، عَالِمًا فَاضِلًا ، نَزْهًا عَفِيفًا أَدِيبًا ، صَحِيحَ الْإِعْتِقَادِ ، شَرِيفَ
النَّفْسِ عَالِيَّ الْهِمَّةِ ، قَلِيلَ الطَّمَعِ ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، لَا
إِلَى أَهْلِهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِمْ ، بِسَبَبِ دُنْيَاهُمْ . وَصَنَّفَ التَّارِيخَ وَغَيْرَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى .

وَفِيهَا تُوفِيَ الْأَمِيرُ عَمْرٌ : بْنُ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ شَهَابِ الدِّينِ غَازِيٍّ ، بْنِ
الْمَلِكِ الْعَادِلِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ . وَكَانَ يُقَلَّبُ : بِالْمَلِكِ السَّعِيدِ .
وَكَانَ شَابًا حَسَنَ الْأَخْلَاقِ ، جَمِيلَ الصُّورَةِ ، جَوَادًا شَجَاعًا .

وكان التتار قد استولوا على ديار بكر ، وأخذوا خيلاً . فخرج الملك المظفر غازي من ميافارقين ، ليستنجد عليهم الخليفة والملوك . وخرج معه ولده عمر هذا ، وأمير حسن بن تاج الملوك أخى غازي . فوصلوا إلى الهرمأس^(١) ، لوداع الملك المظفر : فقال المظفر لولده عمر : المصلحة تقتضى أن ترجع إلى ميافارقين ، ونحفظ المسلمين من التتار ، وأنا أتوجه إلى بغداد وإلى مصر أستنجد الملوك .

فقال : والله لا أفارقك . وجاء حسن بن تاج الملوك وجلس إلى جنبه ، وأخرج سيكناً وضرب عمر في خاصرته . وهرب ليرمي نفسه في ماء العين فيغرق . فصاح الملك المظفر : امسكوه ، فقد قتل عمر ولدى ! وقام غازي ليقتله ، قصد حسن الملك المظفر ليقتله . فرمى عمر نفسه على أبيه ، وقال لحسن : يا عدو الله ، قلننى وتقتل والدى ! فضربه حسن بالسيف ، فقطع خاصرته فسقط إلى الأرض . وأمر غازي بحسن قطع قطعاً ، وحمل عمر إلى الحصن فدفن به - رحمه الله .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه وملك ولد المنصور

وفي هذه السنة ، في يوم السبت ثامن جادى الأول ، توفى الملك المظفر تقي الدين محمود ، بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد ، بن

(١) بكسر الميم وآخره سين مهمله) وهو نهر نصيبين ، ويسير حتى يلتقى بنهر الخابور ، فهو من روافده ، ويجرى النهر الكبير حتى يصب عند قريشاه .

الملك المظفر تقي الدين عمر ، بن الأمير نور الدولة شاهنشاه بن أيوب - صاحب حماه .

ومولده في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ، سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وملك حماه في سنة ست وعشرين وستمائة ، كما تقدم . ولما مات ملك بعده ولده الملك المنصور : ناصر الدين محمد .

وفيها كانت وفاة السلطان نور الدين أرسلان شاه ، بن عماد الدين زنكي ، بن نور الدين أرسلان شاه ، بن عز الدين مسعود ، بن قطب الدين مؤدود بن عماد الدين زنكي ^(١) ، بن قسيم الدولة : آقستغر ^(٢) . كان والده - رحمه الله تعالى - لما ملك شهرزور ، وحضرته الوفاة - أخذ العهد على الأمراء والأجناد والأعيان ، فاستقر بها . وقاتل التتار مراراً عديدة . ثم مات - رحمه الله تعالى . وكانت وفاته في يوم الأحد ، رابع عشر شعبان .

وفيها في يوم الأربعاء ، العشرين من ذى القعدة ، كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبو طالب : محمد بن أبي الحسن بن علي ، بن علي بن الفضل ابن التامغاز ، المعروف بابن الخيمي . كان إماماً في اللغة ، راوية للشعر والأدب . وكان مولده في الثامن والعشرين من شوال ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، بالجلّة المزيديّة ^(٣) . وله نظم حسن : رحمه الله تعالى .

(١) الذي هو الأتابك ، عماد الدين صاحب الموصل ، والد السلطان نور الدين .

(٢) هو جد الأسرة الأتابكية .

(٣) الجلّة : علم لعدة مواضع . وأشهرها جلّة بني مزّيد : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد . وكان أول من صرحها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن ذبيس بن هلي بن مزّيد ، الأستدي .

(مجمع البلدان : ج ٢ - ٣٢٧)

ولذا فهي تنسب إلى مزيد هنا ، جدهم .

واسنَهَتْ سنة ثلاث وأربعين وسَمائة :

ذِكْر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب
على دمشق ، وأخذها من عمه الملك الصالح إسماعيل . وعَوْد
الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها

لما اتَّفَقَتِ الرَّقَّةُ - التي ذكرناها - بين عساكر السلطان الملك الصالح
نجم الدين ومن انضم إليها من الخوارزمية ، وبين عسكر الملك الصالح
إسماعيل والفرنج وحصلت المُكَاشَفَةُ - جَهَّزَ الملك الصالح نجم الدين جيشاً
كثيراً إلى دمشق ، في سنة اثنتين وأربعين وسَمائة ، وقَدَّمَ عليه صاحبُ مُعَين
الدين بن شيخ الشيوخ . وأقامه مُقَامَ نفسه ، وأمره أن يجلس في رأس السَّطَّاطِ
على عادة الملوك ، ويقف الطواشي شهاب الدين رشيد - أستاذ الدار - في
خدمته ، وأميرُ جَانْدَارٍ ، والحُجَّاب .

فسار إلى دمشق ، ومعه الخوارزمية ، فحاصروها أشد حصار . فلما
كان في يوم الإثنين ثامن المحرم - سنة ثلاث وأربعين ، بعث الملك الصالح
إسماعيل إلى الأمير صاحب - معين الدين بن شيخ - سَجَّادَةً وإبريقاً
وعُكَّازاً ، وقال : اشتغالك بهذا أُولَى من اشتغالك بقتال الملوك ! فبعث
إليه صاحبُ معين الدين جَنَكاً^(١) وزَمْراً ، وغُلَّالَةً حرير أصفر وأحمر ،
وقال : أما ما أُرْسَلْتُ به إليَّ فهو يَصْلُحُ لي ، وقد أُرْسَلْتُ بما يَصْلُحُ لك !

(١) من آلات الطرب .

ثم أصبح معين الدين وركب في العسكر ، وزحفوا على دمشق من كل ناحية ، ورُميت بالمجانيق . وكان يوماً عظيماً .

وبعث الملك الصالح إسماعيل الزُّرَّاقين^(١) ، في يوم الثلاثاء تاسع الشهر ، فأحرقوا الجُوسق^(٢) العادلي ، ومنه إلى زقاق الرُّمَّان والعُقَيْيَّة بأسرها . ونُهبت أموالُ الناس . وفعلَ فيها كما فعلَ عند حصار الملك الكامل دمشق ، وأشدُّ منه . واستمر الحالُ على ذلك . ثم خرج الملك المنصور صاحب حمص في شهر ربيع الأول إلى الخوارزمية ، واجتمع ببركة خان^(٣) وعاد إلى دمشق . وجرت وقائعُ في خلال هذا الحصار .

ثم أرسل السامريُّ وزير الملك الصالح إلى الأمير معين الدين ، يطلب منه شيئاً من ملبوسه . فأرسل إليه فُرْجِيَّة وعِمامة وقَمِيصاً ومِنْدِيلاً ، فلبس ذلك وخرج إليه بعد العشاء الآخر ، وتحدث معه وعاد إلى دمشق .

ثم خرج إليه مرة أخرى ، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق - على أن يكون للملك الصالح إسماعيل ما كان له أولاً ، وهو بَغْلَبَك وأعمالها وبُضْرَى وبلادها ، والسَّوَاد . وأن يكون للملك المنصور حمص وبلادها ، وتَدْمُر والرَّحْبَة .

فأجاب الأمير معين الدين إلى ذلك ، وتسلَّم دمشق . ودخلها في يوم الإثنين - العاشر من جُادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وتوجه الملك الصالح إلى بعلبك . وصاحب حمص إلى بلده .

(١) سبق تسميتها . وهم الدين/يرمون القفط بالزُّرَّاقات .

(٢) الجوسق : القصر . أو نوع خاص من القصور .

(٣) رئيس الخوارزمية .

ونزل الأميرُ الصاحبُ معينُ الدين - بدارُ أسامة ، والطواشي شهاب الدين رَشيد بالقلعة . وَوَلَّى الأميرُ مَعِينُ الدين بن الشيخ الجلال هارون المدينة . وَعَزَلَ قاضِي القضاة محي الدين ، وفَوَّضَ القضاة لقاضي القضاة : صدر الدين بن سَنَى الدولة . ووصل الأمير سيف الدين بن قَلِيج من عَجَلُون ، منفصلاً من خدمة الملك الناصر داود ، وأوصى بعَجَلُون وما له بها من الأموال للملك الصالح ، ونزل بدمشق بدار فُلوس .

وَجَهَّزَ الأميرُ - معينُ الدين بن الشيخ - الأميرَ نَاصِرَ الدين بن يَعمُور إلى الديار المصرية - وكان الملك الصالح إسماعيل قد اعتقله بقلعة دمشق ، في سنة إحدى وأربعين وستائة ، لمواقته للملك الجواد ، فاستمر في الاعتقال إلى الآن - فجهَّزَه ، وَجَهَّزَ أيضاً أمينَ الدولة السامري إلى الديار المصرية ، تحت الاحتياط . فاعتُقِلَا مدة ، ثم شَقَّهَا الملك الصالح نجم الدين على قَلْعَةِ الجَبَل .

وكان أمينُ الدولة يُطَبُّ في ابتداء أمره . ثم تمكن من الملك الصالح إسماعيل ، وَوَزَرَ له . وارتفع مَحَلُّه عنده ، بحيث إنه ما كان يَخْرُجُ عن إشارته . وكان يَتَسَتَّرُ بالإسلام ولا يَتَمَسَّكُ بدين . وقيل إنه مات في سنة ثمان وأربعين وستائة .

قال أبو المظفر : وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت ، والثحف والنخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء والسلاطين . وأقاموا يتقلّونه مدة . قال : وبلغني أن قيمة ما ظهر له ثلاثة آلاف ألف دينار - غير الودائع التي كانت له عند نقايته والتجار . ووُجِدَ له عشرة آلاف مجلد ، من الكتب النفيسة والخطوط المُنسوبة .

وأما الخوارزمية فإنهم ما عملوا بالصلح إلا بعد وقوعه . فرحلوا إلى دَارِيَا^(١) ، فنهبوا . وقيل إن مُعين الدين منعهم من الدخول إلى دمشق ، وأقطعهم أكثر بلاد الشام والسواحل بمناشير . ودبّر الأمر أحسن تدبير .

قال : ولما بلغ السلطان خروج عمه الملك الصالح إلى بعلبك ، كتب بالإنكار على الطوّاشي شهاب الدين رشيد والأمراء ، لكونهم^(٢) مكنوه من المسير إلى بعلبك . وقال إن الأمير مُعين الدين حَلَف ، وأنتم ما حَلَفْتُمْ . فلم يُفِدْ إنكاره شيئاً ، بل أثّر ما نذكره - إن شاء الله تعالى .

(١) قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق ، بالفرطة .

(معجم البلدان : ج ٤ - ٢٤)

(١) - في (ع) لكونهم .

ذكر وفاة الأمير صاحب معين الدين

وفي ليلة الأحد - ثاني عشر شهر رمضان ، كمن السنة - كانت وفاة الأمير صاحب معين الدين الحسين ، بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد ، ابن عمر بن حَمَوِيه - بدمشق ، وهو يومئذ نائب السلطنة بها .
ومات وله ست وخمسون سنة . ودفن إلى جانب أخيه عماد الدين .
وكان جواداً كريماً دَيِّناً صالحاً - رحمه الله تعالى . ولما مات ، كتب السلطان إلى الطَّوَّاشِي شهاب الدين رشيد أن يتولى نيابة السلطنة ، بدمشق .

ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل

صاحب بعلبك دمشق ، وما حصل بها من الغلاء
بسبب الحصار

قال المؤرخ : لَمَّا بلغ الملك الصالح عماد الدين - صاحب بعلبك - إنكارُ الملك الصالح نجم الدين أيوب - ابن أخيه - على الأمراء ، لكونهم ^(١) مَكَّنُوهُ من التوجه إلى بعلبك - خاف على نفسه ، وعلم سوء رأي السلطان فيه ، وأنه متى ظفر به لا يُنقِى عليه ، فكاتب الأمير عز الدين أَيْتِك

(١) في (ع) وكونهم .

السُّعْطَمَى صاحبَ صَرْخَدَ وأَكَابِرَ الخُوارزمية ، واففقوا ونازلوا دمشق ، في ثالث عشرين ذى القعدة ، من السنة . وحاصروها ، ونهبوا بلادها وعاثوا فيها ، وقطعوا الميرة^(١) عنها .

فَقَلَّتْ الأسعار ، وعُدِمَتِ الأقوات . وبلغ سعرُ القمح - عن كل غَرَّارة - ألف درهم وثمانمائة درهم ناصرية . فمات أكثرُ أهل البلد جوعاً واستمر ذلك مدة ثلاثة شهور .

وفي هذه السنة ، وصل رسولُ الخليفة المُستعصِم بالله^(٢) - وهو الشيخ جمالُ الدين^(٣) عبد الرحمن ، بن الشيخُ محيى الدين يوسف بن الجوزى - إلى السلطان الملك الصالح نَجْم الدين أيوب ، بالخلع والتقليد . وكانت خِلعةُ السلطان عِامة سوداء ، وفرَجِيَّة مُدَهَّبة ، وثوبين مُدَهَّبة ، وسيفين مُحَلَّاة ، وقَلَمَين ، وطوق ذهب ، وحصان بِسْرَج ولجام وعدة خِلَع لأصحاب السلطان . وقرأ الشيخُ جمال الدين - رسولُ الخليفة - التقليدَ على منبر والسلطان قائم على قدميه ، وقد لبس خِلعة الخليفة ، حتى انتهت قراءة التقليد .

(١) الأقوات والموتنة .

(٢) هو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ)

(٣) حفيد أبي الفرج بن الجوزى ، الإمام المشهور الذى مرث ترجمته . وقد خلف والده الشيخ محيى الدين وظيفته . فقد سبق أن وفد محيى الدين من قبل الخليفة المستنصر ، رسولاً بالتقليد والولاية إلى السلطان الملك الكامل . (كما مرَّ فى أحداث سنة ٦٣٠) .

وكان من جُمْلَةِ الخَلَعِ الواصِلَةِ من الخليفة خِلْعَةُ سوداء للوزير مُعِين الدين - وكان قد تُوُفِيَ - فَرَسَمَ السلطانُ أَنْ يُلْبِسَهَا أَخَاهُ الأَمِيرَ فخر الدين بن الشيخ ، فَلَبِسَهَا - وكان السلطان قد أَفْرَجَ عَنْهُ من الاعتقال في هذه السنة ، بعد أَنْ لاقى شِدَائِدَ كَثِيرَةً - وكان له في الاعتقال ثلاث سنين

وفي هذه السنة ، بعث الملكُ الصالح نَجْمُ الدين الأَمِيرَ حُسَامَ الدين بن بَهْرَامَ إلى حصن كَيْفَا ، لإحضار ولده الملك المعظم ثُورَانشَاهَ إلى الديار المصرية . وَكَتَبَ إِلَيْهِ : الولد يُقَدِّمُ خَيْرَةَ الله ، ويصلُ إلى بَالِسَ (١) ، وَيُعَدِّى عِنْدَهَا ، فقد اتفقا مع الحَلِيِّينَ ، وذكرُوا أَنَّهُمْ يُجَرِّدُونَ أَلْفَ فَارِسٍ فِي خِدْمَتِكَ . واعْتَبَرُ بِلَدِ مَارِدِينَ لَيْلًا ، فَمَا نَحْنُ مُتَفَقِّينَ . فلما قرَأَ الكِتَابَ كَرِهَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ يُؤَيِّرُ الخُرُوجَ مِنَ الحِصْنِ . وقال لابن بَهْرَامَ : يكون الإنسان مَالِكًا رَأْسَهُ يَصْبِحُ مَمْلُوكًا مَحْكُومًا عَلَيْهِ ! ولم يُجِبْهُ .

ولما اتصل خبرُ طَلَبِهِ بِالْمَلِكِ الرَّحِيمِ بدر الدين ثُوْلُو - صاحب الموصل أَرْسَلَ إِلَيْهِ المَالِيكَ والخَيْلَ والحِيَامَ . وكذلك فعل شهابُ الدين غَازِي . قال أَبُو الْمُظَفَّرِ : حَكَى لِي الأَمِيرُ حُسَامُ الدين بن أَبِي عَلِيٍّ أَنَّ الملك الصالح كَانَ يَكْرَهُ مَجِيءَ ابْنِهِ المَعْظَمِ إِلَيْهِ . وَكُنَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ : أَحْضِرْهُ ، يَتَنَفَّضُ يَدَيْهِ وَيَغْضَبُ ، ويقول : أَجِيبْهُ أَقْتَلْهُ ؟ ! وَكَأَنَّ القَضَاءَ مُوَكَّلٌ بِالنَّطِيقِ !

(١) بلدة بالشام ، بين حلب والرقّة .

وكانت حل ضفة الفرات ، فلم يزل الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً ، حتى صار بينها في أيامنا هذه (أى القرن السابع) أربعة أميال .

وفيهما وصلت الكُرْجِيَّة بنت إيوافى ملك الكُرْج^(١) . وهى التى كانت زوجةَ الملك الأوحِد بن الملك العادل ، وتزوجها بعده أخوه الملك الأشرف موسى . ثم أخذها جلالُ الدين خُوارَزْم شاه ، عندما استولى على خِلَاط . فوصلت الآن إلى خِلَاط ، ومعها فَرمانُ القان - ملكِ التتار - بخِلَاط وأعمالها .

فراستُ الملكَ المظفر شهابَ الدين غازى بن الملك العادل تقول : أنا كنتُ زوجةَ أخيك ، والقانُ قد أقطعنى خِلَاط ، فإن تزوجتْ بى فالبلاذُ لك . فما أجبها إلى ذلك . فأقامت بخِلَاط . وكانت غاراتُ عساكرها تصل إلى مِيفَارِقِينَ .

وفى هذه السنة ، توفى فلكُ الدين المَسِيرى ، وزيرُ العادل وابنه الكامل . وكانت وفاته فى يوم الجمعة تاسع شهر رجب . وكان عالىَ المنزلة فى الدولة الأيوبية .

وفيهما توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب ، أخت الملك الناصر والملك العادل ، وأخت ست الشام . وكانت وفاتها بدمشق بدار العقيقى - وقد قاربَتْ ثمانين سنة .

(١) سبق ذكرهم ، وهم - كما مرَّ فهم بالقوت - جيل من النصارى كانوا يسكنون فى جبال القُبُى (القوقاز) قويت شركتهم ، ولم يولايه تسب إليهم . (ولاية الكرج أو جورجيا) .

وكانت زوجة سعد الدين مسعود ، بن معين الدين أنسر ، ثم مات عنها . فزوجها الملك الناصر - أخوها - من مظفر الدين بن زين الدين - صاحب إربل - فأقامت بإربل . ثم قدمت دمشق فأقامت بها ، وخدمتها أمة اللطيف العالمية - بنت الناصح بن الحنبل - وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة .

فلما ماتت ربعة خاتون ، لقيت أمة اللطيف شذائد كثيرة ، وصودرت وطُوبت بالأموال ، واعتقلت بقلعة دمشق ثلاث سنين . ثم أطلقت من الحبس وتزوجت بالملك الأشرف - ابن صاحب حمص - وتوجه بها إلى الرحبة . فتوفيت في سنة ثلاث وخمسين وستائة . وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستائة ألف درهم - غير الأملاك والأوقاف .

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام : تقي الدين أبو عمرو عثمان ، بن عبد الرحمن بن عثمان ، بن الصلاح - المحدث ^(١) المفتي المشهور . وكانت وفاته بدمشق في ليلة الأربعاء ، الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر . ومولده في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، بشهر زور .

وفيها في ثاني عشر المحرم ، توفى بالقاهرة الأمير شجاع الدين بن أبي زكري . كان من أعيان الأمراء .

وفيها توفى القاضي الأشرف : بهاء الدين أبو العباس أحمد . بن القاضي الفاضل : محيي الدين عبد الرحيم البيهقي ، في سابع جمادى الآخرة بمصر . ومولده في المحرم سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . وكان الملك الكامل

(١) سبقت ترجمته له .

قد عَرَّضَ عليه الوزارة فأبأها ، وتوفر على الترسُّلة إلى الديوان العزیز ،
والمشورة . وكان صالحاً نَزْهاً عَفِيقاً ، سَمِعَ الحديثَ وأُسمعه .

وفيهَا كانت وفاة الشيخ الإمام ، المقرئ المَفْقَى : عَلَمُ الدين أبي
الحسن على بن محمد بن عبد الصمد ، المِصرى السَّخَاوِى^(١) . قرأ القرآن
على الشاطِئِى ، وشرح قصيدته . وكانت وفاته بدمشق ، فى ليلة الأحد ثامن
عشر جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون . سَمِعَ الحافظَ السُّلَفى وأبا القاسم
البُوصَيرى ، وغيرهما .

واستهلَّت سنة أربع وأربعين وسَمَالة :

ذكر وقعة الخوارزمية وقتل مقدمهم

واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها ، وصرخد

وفى سنة أربع وأربعين ، كانت الوقعةُ بين الخوارزمية - ومن انضم
إليهم - وبين العساكر الحلبية والشامية والحِمَضية .

وذلك أن السلطان للملك الصالح نجم الدين كان قد استمال الملكَ
المنصور - صاحب حِمص - إليه . فوافقهُ ومال إليه ، وانحرف عن الملك
الصالح إسماعيل . ثم كتب إلى الحلبيين يقول : إن هؤلاء الخوارزمية قد كثر
فسادهم ، وأخربوا البلاد ، والمصلحةُ أن تتفق عليهم ، فأجابوه .

(١) كان قتيباً مَفْقياً ، إماماً فى القراءات ، والتفسير والنحو واللغة . لازم الشاطِئِى . ثم سكن دمشق ونصير
للإجراء وانتفع به الناس . وله مصنفات كثيرة ، منها التفسير وشرح الفصل وشرح الشاطِئِى . مات سنة

وخرج الأتابك شمس الدين لؤلؤ بالعساكر الحلبية . وجمع صاحبُ حمص أصحابه ، ومن انضم إليه من العربان والتُرْكُمَان . وخرج إليهم عسكرُ دمشق . واجتمعت هذه العساكر كلها على حمص .

واتفق الملك الصالح إسماعيل والخوارزمية ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ، وعزالدين أيبك المَعْظُمى صاحب صَرْخَد ، واجتمعوا على مَرَج الصُّفْر^(١) ولم ينزل الملك الناصر من الكرك ، بل سَيَّر عسكره وأقام .

وبلغهم أن صاحب حمص يريد قَصْدَهُمْ . فقال بركة خان : إن دمشق لا تُقَوُّنَا ، المصلحة أن نتوجه إلى هذا الجيش ونبدأ بهم . فساروا والتفوا على بحرة حمص ، في يوم الجمعة - سابع أو ثامن المحرم - من هذه السنة . وكانت الدائرة على الخوارزمية . وقُتِلَ مقدمهم بركة خان في المعركة . وهرب الملك الصالح إسماعيل ، وعزالدين أيبك المَعْظُمى ، ومن سَلِمَ من العسكر ، كلُّ منهم على فرس ونُهِبَ أموالهم . ووصلوا إلى حَوْرَان .

وتوجه صاحبُ حمص والعسكر الحلبى إلى بعلبك ، واستولوا على الرِّيفِ^(٢) ، وسَلَّمَهُ لِلأَمِيرِ ناصر الدين القَيْمُرى ، وجمال الدين هارون . وعاد إلى حمص ، وودع الحلبين . وتوجهوا إلى حلب . وجاء الملك المنصور إلى دمشق ، خدمة للملك الصالح ، فنزل ببستان أسامة .

(١) بقرب دمشق .

(٢) ريف المدينة : ما أمام سورها من الدور والحظائر وبعض القرية ، مما هو مقدم للمدينة .

ومضت طائفة من الخوارزمية إلى البلقاء^(١) ، فنزل إليهم الملك الناصر صاحب الكرك وصاهرهم واستخدمهم ، وأسكن عيالهم بالصلت^(٢) . وقمل الأمير عز الدين المعظمي كذلك . وساروا ففتزلوا نابلس ، واستولوا عليها . وعاثوا في الساحل .

فندب السلطان الملك الصالح نجم الدين الأمير فخر الدين بن الشيخ بالمساكر إلى الشام . فلما وصل إلى غزة ، عاد من كان بنابلس من الخوارزمية إلى الصلت . فتوجه إليهم ، وقاتلهم على حُبان^(٣) وكسرهم ، وبَدَدَ شَمْلَهُمْ . وكان الملك الناصر معهم ، فسار إلى الكرك وتحصن بها . وتبعه الخوارزمية ، فلم يَمَكِّنْهُمْ من دخول الكرك . وأحرق ابنُ الشيخ الصلت . وكان الأمير عز الدين أيلك المعظمي مع الناصر ، فعاد إلى صَرْخَد وتَحَيَّرَ بها .

وكانت كَسْرَةُ الخوارزمية هذه في سابع عشر شهر ربيع الآخر .

ونزل الأمير فخر الدين بن الشيخ على الكرك ، في الوادي . وكتب إلى الملك الناصر يطلب مَنْ عنده من الخوارزمية .

وكان عنده صبي مُسْتَحْسَن من الخوارزمية ، اسمه طاش بورك بُرْخَان ، فطلبه ابن الشيخ ، فقال الناصر : هذا طُيْب الصوت ، وقد أَخَذْتُهُ لِيَقْرَأَ عِنْدِي الْقُرْآنَ . فكتب إليه ابن الشيخ كتاباً غليظاً ، وذكره غدره بآيانه

(١) كورة شرق أرميا (شرق الأردن) على مرحلة منها . مدينتا حُبان .

(صح الأضنى : ج ٤ - ١٠٦) .

(٢) مدينة بين البلقاء وحبِلون . على مسافة يوم من حبِلون (بالأردن) .

(٣) حُبان (وهكنا ضبطها القلقشندي ، بضم أولها فسكون) هي مدينة البلقاء .

ونُحِبُّهُ ، وقال : لأبُدَّ من الصبي ، وأنا أبعث إليك عِوَضَه أعمى بقرأ أطيَّبَ منه . فبعثه إليه . وتسلم أعيانَ الخوارزمية . ورحل عن الكرك . وأحسن الأمير فخر الدين إلى الخوارزمية وخلع عليهم . واستصحبهم معه .

ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك ، وخروج الملك الصالح إسماعيل عنها

وفي هذه السنة - أيضاً - توجه الأمير حسام الدين بن [أبي] على من دمشق إلى بعلبك ، وتسلم قلعتها - باتفاق من السَّامَانِي ، مملوك الملك الصالح إسماعيل ، وكان حاكماً عليها . وبعث أولاد الصالح إسماعيل وعياله إلى مصر وتسلم ثَوَابُ للـك الصالح نجم الدين بُضْرَى - وكان بها الشهاب غازي وإلياً ، فأعطى حَرَسَتَا^(١) القنطرة

وفيها ، في شهر ربيع الآخر ، توجه الملك الصالح إسماعيل في طائفة من الخوارزمية ، هاربين إلى حلب . ولم يبق للصالح إسماعيل بالشام مكاناً يأوي إليه . فتلقاهم الملك الناصر يوسف - صاحب حلب - وأنزل الصالح إسماعيل في دار جمال الدولة الخادم . وقبض على كَشْلُوخَانَ والخوارزمية ، وملأ بهم الحبوس .

(١) حرستا : قرية كبيرة عامرة في وسط بساتين دمشق على طريق حمص . وحرستا القنطرة : من قرى دمشق أيضاً ، بالقرب في شرقها .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حمص ، وقيام ولده الملك الأشرف

وفي هذه السنة - في العاشر من صفر - وقيل في يوم الأحد حادي عشرة - كانت وفاة الملك المنصور إبراهيم ، بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي ، يُسْتَنان الملك الأشرف بالتَّيرب ، بظاهر دمشق

وكانت مدة مُلكه حمص ست سنين ، وسبعة أشهر . وكان شجاعاً مقداماً . وملك بعده ولده الملك الأشرف : مظفر الدين موسى .

وفيها بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين الصاحب جمال الدين يحيى بن مَطْرُوح إلى دمشق ، وَزِيْراً . وأنعم عليه بإقطاع ، وعدَّة سبعين فارساً ، فوصل إلى دمشق وياشر ما رَسَمَ له به . ثم كان من أمره وعوده ما نذكره - إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام ، وما استولى عليه في هذه السفرة ، وما قرره ، وعوده

في هذه السنة ، توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى الشام .

فوصل إلى دمشق في تاسع عشر ذى القعدة ، وأحسن إلى أهلها وفرحَ الناس به . وَزِيَّتْ البلدُ لِمَقْدَمِهِ ، وكان يوماً مشهوداً . وأقام خمسة عشر يوماً . وتوجه إلى بعلبك وكَشَفَهَا

ثم رجع ، وتوجه نحو صَرْخَد . وسعى الأميرُ ناصر الدين القِيمَرى والصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح ، في الصلح بين السلطان والأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صَرْخَد . وتوجه السلطان من دمشق إلى بُصْرَى . ونزل إليه الأمير عز الدين أيبك . وتَسَلَّمَ صَرْخَد ، وصَعَدَ إليها - وذلك في ذى الحجة منها . وقدم عز الدين أيبك إلى دمشق ، ونزل باليَّرب^(١) وكتب له منشور بِقَرْقِيسَا^(٢) والمِجْدَل^(٣) وضياع في الحلبور ، فلم يَحْصُلْ له منها شيء . ثم كان من خبره ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في سنة خمس وأربعين وستائة .

ولما تسلم الملك الصالح صَرْخَد ، عاد إلى الديار المصرية ودخل إلى القُدُس . وتصدق فيه بألفى دينار عَيْنًا . وأمر بعمارة سور القدس فذُرِعَ ، فكان ستة آلاف ذراع بالهَاشِمِي^(٤) ، فَرَسَمَ أن يُصَرَفَ مُعَلٌّ بلاد القدس عليه ، وإن احتاج إلى زيادة جُهِزَتْ من الديار المصرية . قال أبو المظفر : وكتب لما أطلقه الملكُ الناصر من اعتقاله ، وجاء إلى القُدُس ، أَخَذَتْ يَدَهُ على ذلك .

(١) سبق ذكرها غير مرة : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، في وسط البساتين .

(٢) سبق التعريف بها . وهي مدينة مشهورة على أحالي القرات عند مصب نهر الحلبور .

(٣) بلدة قرية من قرقيساء في وادي نهر الحلبور . مرَّ ذكرها .

(٤) في النسختين : القاسمى . ولا يوجد ذراع بهذا الاسم . وصوابه - كما نرى - بالهَاشِمِي . والنَّزاع الهَاشِمِي كان هو النزاع الرسمي الذي كان يقاس به أرض السَّواد في العراق ، ثم صار يُقاس به أرض البليان من الدور وغيرها .

(انظر القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ - ٤٤٦ - ٤٤٧)

ولعرفة هذا النزاع ، والأذرع الأخرى ، راجع :

الريس : (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية)

(باب : القاييس والنقود الإسلامية) .

وفي هذه السنة ، تسلم السلطان - أيضاً - حصن الصُّيَّة^(١) من الملك السعيد : مجد الدين حسن ، بن الملك العزيز ، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ، في سابع عشرين ذى الحجة . وتسلم الصُّلْت من ابن عمه الملك الناصر داود .

وفيها قبض الملكُ الناصر داود على عماد الدين ، بن الأمير عز الدين بن مُوسك في الكرك ، واحتاط على موجوده . ثم شَفَعَ فيه الأميرُ فخر الدين بن الشيخ فافرج عنه . وخرج من الاعتقال ، وفي حلقه خراج كبير فُطَّ ، وحُشِيَ من الدواء الحارق ، فأت بالكرك . ودُفِن بمشهد جعفر الطَّيَّار . وكان - رحمه الله تعالى - من الأَجْوَاد .

وفيها توفى الأمير رُكن الدين الهِجَاوِي ، في معتقله بالديار المصرية . وكان سببَ اعتقاله أنه فارق خدمة السلطان الملك الصالح ، والتحق بدمشق . وكان قدومه على العساكر ، قبض عليه ، واعتقله . فأت في اعتقاله - رحمه الله تعالى . وكان خيراً جواداً ، عفيفاً نزهاً ، كثير الإحسان إلى جيرانه ، يَرُّ غَنِيَّهم وفقيرهم .

واستهلَّت سنة خمس وأربعين وسبعمائة :

في هذه السنة ، جهز السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشاً ، وقدم عليه الأميرُ فخر الدين بن الشيخ ، وبعثه إلى بلاد الفرنج .

(١) سبق ذكرها . وهي قلعة منيعة بحصن بانياس بالقرب من دمشق .

ففتح عَسَقَلَانَ - في ثامن عشرين جمادى الآخرة - وأخربها . ورحل عنها إلى طَبْرِية ، ففعل بها كذلك . ثم كتب إليه أن يتوجه إلى دمشق ، ويقم بها بمن معه من العساكر ، لأمر بلغه عن الملك الناصر - صاحب حلب . وفيها تسلم ثواب السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعة شُمَيْس^(١) ، من الملك الأشرف صاحب حمص . فأمر السلطان بتحسينها ، وبعث إليها الخزائن .

وفيها جهز السلطان تاج الدين بن مهاجر ، والمُبَارِز نسيه ، إلى دمشق ، ومعها تذكيرة فيها أسماء جماعة من الدماشقة ، رَسَمَ بانتقالهم إلى الديار المصرية ، وهم : القاضي محي الدين بن الرُّكِّي ، وابن الحَصِيرِي ، وابن العماد الكاتب ، وبنو صَصْرَى الأربعة ، وشرف الدين بن العميد ، وابن الخطيب العَقْرَبَانِي ، والتاج الإسكندراني - الملقب بالشَّحْرُور ، وأبو الشامات ، مملوك الملك الصالح إسماعيل ، وغازي - والي بُصْرَى - والحَكِيمِي ، وابن الهادي المُحْتَسِب .

فتوجهوا إلى الديار المصرية ، وأمروا بالمقام بها ، ولم يُخَجَّرَ عليهم ، وخُلِعَ على بعضهم . وأقاموا بالديار المصرية ، إلى أن توفي الملك الصالح أيوب ، فعادوا إلى دمشق . وكان سبب طلبهم أن السلطان بلغه أنهم خَوَاصُّ الملك الصالح إسماعيل .

وفيها في شهر ربيع ، فُوضَتِ الخطابة بدمشق للقاضي عماد الدين بن الحرَّسْتَانِي ، ورُسِمَ بإخراج العماد خطيب بيت الآبار^(٢) ، الخطيب بالجامع ، إلى بيت الآبار .

(١) مر ذكرها . وهي في سلية ، من أعمال حمص .

(٢) (ج بذر) : قرية بضاف إليها كُوزة ، من غوطة دمشق ، فيها عدة رى .

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيك المعظمي ، وولاه

وفي هذه السنة - في ثالث عشر ذى القعدة - اعتقل الأمير عز الدين أيك المعظمي صاحب صرخند - كان - في دار فرخشاه . وذلك بترتيب صاحب جبال الدين بن مطروح وغيره . ووضعوا مترجماً أنه جاءه من حلب ، من جهة الملك الصالح إسماعيل . وكتبوا بذلك إلى السلطان الملك الصالح . [فأمر] أن يُحْمَل إلى القاهرة تحت الاحتياط . فحُمِل واعتقل في دار صواب . ورافعه ولده إبراهيم ، وقال للسلطان : إن أموال أبي قد بعث بها إلى الحلبيين وأنه لما خرج من صرخند كانت أمواله في ثمانين خرجاً ، أودعها عند ابن الجوزي .

ولما وصل إلى الديار المصرية مرض ، ولم يُسمع منه كلمة حتى مات . ودفن بمقابر باب النصر ، ثم نقل إلى دمشق ، ودفن بترته . وكان خيراً دِيناً ، كثير الصدقة والإحسان إلى خلق الله تعالى . اشتراه الملك المعظم ، في سنة سبع وستائة ، لما كان على الطور ، وجعله أستاذ داره ، وأعطاه صرخند . وكان عنده في منزلة الولد . رحمهم الله تعالى .

وطُلب جماعة اتهموا بأمواله ، بسعاية ولده إبراهيم ، وهم : البرهان كاتبه ، وابن المؤصلي صاحب ديوانه ، والبدر الخادم ، وسُرور ، وغيرهم ، وحُمِلوا إلى الديار المصرية . فمات البرهان بظاهر دمشق ، عند مسجد الثارنج ، لما ناله من الفزع . وأما بقيتهم فلم يبقوا على أمواله ، فلم يظهر عندهم الدرهم الواحد .

وفيهما كانت وفاة الشيخ الصالح المُحَقِّق على الحريرى ، المقيم بقرية بشر ، المجاورة لُزْرَع^(١) من بلاد حَوْرَان . وبهذه القرية قبر اليَسَع - عليه السلام . وهذا الشيخ هو شيخ طائفة الحريرية .

واستهلَّت سنة ست وأربعين وسبعمائة :

في هذه السنة ، استولى الملك الناصر - صاحب حلب - حمص ، وانتزعها من الملك الأشرف موسى صاحبها ، وعَوَّضَ عنها ثَلَّ بِأَشِير .

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين
أيوب من الديار المصرية إلى دمشق ، وما اعتمده

في هذه السنة ، توجه السلطان من الديار المصرية إلى دمشق ، وعَزَلَ الطواشَى شهابَ الدين رشيد الدين عن النيابة ، والصاحب جمال الدين بن مطروح عن الوزارة . وفَوَّضَ نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَعْمُور .

وجَهَّزَ العساكر مع الأمير فخر الدين بن الشيخ إلى حمص . وسَخَّرَ الفلاحين لحمل المَجَانِيقِ إلى حمص ، فنالهم لذلك مشقةٌ عظيمة ، وكان يَقرَم على العود الذى يساوى درهمًا ألف درهم ، فخرَّب الشام لذلك . ونَصَّبَ المَجَانِيقَ على حمص . وكان الشيخ نجم الدين الباذرَأَتَى بالشام ، فدخل بين الطائفتين ، ورَدَّ الحلبيين إلى حلب ، والعسكر الصالحى إلى دمشق .

(١) مَكَلًا ضَبَطَهَا الْقَلْقَشْدَى . وقد مرَّ ذكرها .

وفيها احترق المَشْهَدُ الحُسَيْنِي بالقاهرة . وَذَكَرَ مَنْ تَبَعَ التَّوَارِيخُ أَنَّهُ مَا احْتَرَقَ مَكَانَ شَرِيفٍ إِلَّا وَأَعْقَبَهُ غَلَاءٌ ، أَوْ جَلَاءٌ مِنَ الْعَدُوِّ . وَكَانَ كَذَلِكَ : أَخَذَتْ دِمِيَاطُ ، عَلَى مَا نَذَكِرُهُ .

ذِكْرُ وَفَاةِ الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ شَهَابِ الدِّينِ غَازِي

وَقِيَامِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ ، تَوَفَّى الْمَلِكُ الْمَظْفَرُ شَهَابُ الدِّينِ غَازِي ، بِنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ أَيُّوبَ - صَاحِبِ مِثَافَارَقِينَ . وَقَامَ بِأَمْرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَهُ وَلَدُهُ الْمَلِكُ الْكَامِلُ ، نَاصِرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ .

وَفِيهَا ، تُوفِيَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ : سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ ، بِنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، بِنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ - أَخُو السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ . وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ رَسَّمَ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الشُّوبُكِ . بِنَسَائِهِ وَوَلَدِهِ وَعِيَالِهِ ، فِي خَامِسِ شَوَالٍ ، عَلَى مَا حَكَاهُ سَعْدُ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ شَيْخِ الشُّيُوخِ تَاجُ الدِّينِ . وَبَعَثَ إِلَيْهِ الطَّوَاشِيَّ مُحْسِنَ الْخَادِمِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا رَسَّمَ بِهِ السُّلْطَانُ مِنْ تَوَجُّهِهِ . فَامْتَنَعَ ، وَقَالَ : إِنْ أَرَادَ قَتْلِي فِي الشُّوبُكِ فَهَهُنَا أَوْلَى ، وَلَا أَتَوَجَّهُ أَبَدًا . فَعَدَّلَهُ مُحْسِنُ الْخَادِمِ ، فَرَمَاهُ بِدَوَاقِ كَانَتْ عِنْدَهُ .

فَعَادَ إِلَى السُّلْطَانِ وَأَخْبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ : دَبِّرْ أَمْرَهُ . فَأَخَذَ ثَلَاثَةَ مَمَالِيكَ - وَقِيلَ أَرْبَعَةٌ - وَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فِي لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ ثَانِي عَشْرِ شَوَالٍ ، فَخَنَقُوهُ بِشَاشِ عَلَمِهِ - وَقِيلَ بَوْتَرٍ - وَعَلَّقُوهُ بِعِجَامَتِهِ ، وَأَظْهَرُوا أَنَّهُ شَقِيَ نَفْسَهُ . وَخَرَجَتْ جَنَازَتُهُ كَجَنَازَةِ الْقُرْبَاءِ ، وَدُفِنَ بِتَرْتِبةِ شَمْسِ الدَّوْلَةِ . وَلَمْ يَتَمَتَّعِ الْمَلِكُ الصَّالِحُ بَعْدَهُ بِالدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ مَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَشْهُرٍ .

وفيهما ، في خامس شهر رمضان ، كانت وفاة قاضي القضاة : أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن تاماد بن عبد الملك ، ابن زنجيلين ، الحُونَجِيّ^(١) - قاضي مصر والوجه القليل . ودفن بالقراقة ، بالقرب من تربة الإمام الشافعي . ومولده في جمادى الأولى ، سنة تسعين وخمسمائة . وكان قد تفرّد في زمانه بعلم المنطق ، حكيماً أصولياً ، فاضلاً ، مُشاركاً فيما عدا ذلك^(٢)

ولما مات - رحمه الله تعالى - أُقِرَّ نائبه - القاضي جمال الدين يحيى - على القضاء ، إلى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين . ثم فُوضَ القضاء بمصر والوجه القليل للقاضي عماد الدين أبي القاسم إبراهيم - بن هبة الله بن إسماعيل ابن تَبْهَان ، بن محمد الحَمَوِي المعروف بابن المُقَشَّع^(٣) - في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين .

وفيهما كانت وفاة الشيخ الإمام العلامة : جمال الدين أبو عمرو عثمان ، ابن عمر بن أبي بكر بن يونس ، الدَّوِينِيّ^(٤) ثم المصري . الفقيه المالكي - المعروف بابن الحاجب .

(١) تقدم ضبطها ، وأنها نسبة إلى «حُونَج» بلد من أعمال أفريقية .

(٢) قال السيوطي عنه : «أفضل الدين الحونجي ... الفيلسوف ... برع في علوم الأوائل ، حتى صار لوحد وقته فيها ، وصنف الموجز في المنطق ، وكشف الأسرار في الطيبي ، وشرح مقالة ابن سينا ، وغير ذلك . ولى قضاء الديار المصرية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

(حسن المحاضرة : ج ٢ - ٢٣٣)

(٣) في القاموس : «الرجل المُقَشَّع لحمه كثيراً» : أي اللئيس ، كجلد القرية اليابسة .

(٤) نسبة إلى «دوين» (ضبطها ياقوت بفتح أوله وكسر ثانيه) ، وضبطها غيره بضم الأول وفتح الثاني . ومضى «بلدة من تراسى أُرْزَان في آخر حدود أفريقية» ، بقرب من تخلص . منها ملوك الشام بنو أيوب .

(ياقوت : ج ٤ - ١١٢)

كان والده حاجب الأمير عز الدين مؤسك الصلاحى - متولى الأعمال القوصية - ومولده بإسنا - مدينة مشهورة من عمل قوص - فى سنة سبعين وخمسمائة . وانتقل إلى القاهرة فى صغره ، قرأ القرآن ، واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالك ، ففقه . واشتغل بالعربية . فبرع وأكب على الاشتغال حتى صار يُشار إليه . ، انتقل إلى دمشق ، ودرس بمجاميعها . وكان من أخذ الناس ذمنا . وغلب عليه علم العربية . وقيل أنه قديم إلى دمشق مراراً ، آخرها سنة سبع عشرة وستمائة . وصحب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، واختص به ولازمه .

وخرج معه من دمشق ، فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وقدم إلى الديار المصرية . وأقام بالقاهرة واشتغل الناس عليه . وله مُصنَّف فى مذهب الإمام مالك - هو من أجود مُختصرات المالكية ، ما حفظه طالب منهم إلا وأشير إليه بالفقه . ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية للإقامة به ، فلم تطل مدة إقامته بالثغر . وكانت وفاته فى ضحى يوم الخميس ، سادس عشر شوال ، ودفن بخارج باب البحر - رحمه الله تعالى .

وفىها ، فى شهر رمضان ، توفى الوزير : أبو الحسن على بن يوسف بن إبراهيم ، بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد إسحاق ، القفطى - المعروف بالقاضى الأكرم ، وزير حلب .

كان جم الفضائل ذافنون ، مُشاركاً لأرباب كل علم فى علومهم : من القراءات . والحديث والفقه ، والنحو واللغة ، والأصول والمنطق ، والنجوم

والهندسة ، والتاريخ ، والجرح والتعديل^(١) - يتكلم في كل علم مع أربابه أحسن كلام . وله شعر حسن .

وصنف كتباً كثيرة ، منها : كتاب الفصاد والظاء ، وهو ما اشبه في اللفظ واختلف في الخط ، وكتاب الدرّ الثمين في أخبار المؤمنين . وكتاب مَنْ أَلُوْتُ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ فَرَقَعْتُهُ ، ثُمَّ أَلُوْتُ عَلَيْهِ فَوَضَعْتُهُ . وكتاب أخبار الْمُصَنِّفِينَ ، وما صَنَّفُوهُ . وكتاب أخبار الثَّغَوِيِّين . وكتاب تاريخ مصر ، من ابتدائها إلى حين مَلَكَهَا الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ - في سِتِّ مُجَلَّدَاتٍ . وكتاب تاريخ الْأَلْمُوتِ^(٢) ، ومن تَوَلَّاهَا . وكتاب تاريخ الْيَمَنِ ، منذ اخْتُطَّتْ إلى زمانه . وكتاب الْحِلْيَةِ وَالشِّيَآتِ . وكتاب الإصلاح لما وقع من الْخَلَلِ فِي كِتَابِ الصُّحَّاحِ^(٣) . وكتاب الْكَلَامِ عَلَى الْمَوْطَأِ^(٤) وكتاب الْكَلَامِ عَلَى صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ . وكتاب تاريخ محمود بن سُبُكْتِكِينٍ وَبَنِيهِ ، إلى حين انقراضِ دولتهم ، وكتاب تاريخ السَّلْجُوقِيَّةِ ، من ابتداء أمرهم إلى انتهائهم . وكتاب الْإِيْنَاسِ فِي أَنْبَاءِ آلِ مِرْدَاسٍ . وكتاب الرد على النصارى . وغير ذلك .

(١) معنى ذلك في مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ الْعِلْمُ بِأَحْوَالِ الرِّجَالِ رُوَاةِ الْحَدِيثِ ، مِنْ حَيْثُ اتَّفَقَ بِهِمُ وَالْإِعْتَادُ عَلَيْهِمْ فِي الرِّوَايَةِ وَاسْتِيفَاءُ الشُّرُوطِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَالْجَرَحُ الْحُكْمُ بِعَدَمِ عَدَالَتِهِمْ ، وَالتَّعْدِيلُ الْحُكْمُ بِمَا لَهُمْ .

(٢) قلعة « أَلْمُوت » قلعة شهيرة بجمال أذربيجان بالقرب من بحر قزوين ، نالت شهرتها لأنها هي التي اعتصم بها « الحسن بن الصباح » زعيم طائفة الباطنية أو « الحشيشية » الذين كان لهم دور كبير في الأحداث ، وكان سلاحهم « الاغتتيال » .

(٣) أى كتاب « الصُّحَّاح » للجهوري . وهو معجم لغوى كبير .

(٤) وهو تأليف الإمام « مالك » أقدم كتاب في الحديث والفقه .

وكان - رحمه الله - سَخِيَّ الكَفِّ ، طَلَّقَ الوجه . وكان مُجِيباً للكُتُب ، جَمَّاعاً لهذا ، جَمَعَ منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله . واشتهر بالرغبة فيها ، والمُعَالَاة في أثنائها ، فَصَدَّه الناسُ بها من الآفاق . فاجتمع له منها ألوف كثيرة ، بالخطوط المَنْسُوبَة ، وخطوط المشايخ والمُصَنِّفِينَ . ولم يَقَعْ له كتابٌ مِلِيجَ فَرْدِهِ ، بل يبالغ في إرضاء صاحبه بالثَمَن . فإذا ملكه استَوْعَبَ قِراءته ، ثم جعله في خَزَائِنِهِ ، ثم بَشِيعُ في إخراجِهِ ، فلا يكاد يُظْهِرُ عليه أحداً ، صِيَانَةً له وَضْناً به ! .

قال الحافظ مُجِيبُ الدين بن النجار : كُنَّا عنده ليلة ، في شهر رمضان ، فَجَرَى بَحْثٌ أَقْصَى إلى اعتبار كَلِمَة وكَشْفُها من كتاب الصُّحَّاح . فقال لبعض مماليكه : اذْهَبْ إلى المُوَيْدِّ - يعني أخاه - وأحضِرْ من عنده نسخة من الصُّحَّاح . قال : قُلْتُ له : والمُوَلَّى ما عنده نُسخة من الصُّحَّاح ؟ ! فقال : وحياتِكَ - يا مُجِيبَ - عندي خمسُ نسخ ، وما يطيبُ على قلبي أن أُخْرِجَ منها نسخة - لاسيما بالليل ، ونحتاج إلى إدخال الضوء . وله في شَعْفِهِ بالكُتب حكايات كثيرة ، أَضْرَبْنَا عن ذكرها . وأَوْصَى بكتبه بعد وفاته للملك الناصر : صلاح الدين يوسف ، بن الملك العزيز ، صاحب حلب . وكانت تساوى خمسين ألف دينار . ودفن بحلب - رحمه الله تعالى .

وفيهما توفي عماد الدين ، بن سديد الدين ، محمد بن سليم بن حِثَّاء - وهو أخو الصاحب بهاء الدين .

واستلّته سنة سبع وأربعين وستائة :

والسلطانُ الملكُ الصالحُ نجمُ الدينُ بدمشق ، وهو مريضٌ . فعاد إلى الديار المصرية في مِحْفَةٍ ^(١) ، لشدة ما ناله من المرض . وكان خروجه من دمشق في يوم الإثنين ، رابع المحرم ، ونادى في الناس : من كان له عَلَيْنَا أو عندنا شيء ، فليحضر لِقَبْضِهِ . فطلع الناس إلى القلعة ، وأخذوا ما كان لهم .

وفي هذه السنة ؛ رَسَمَ السلطانُ لِنائبه بدمشق - الأمير جمال الدين بن يَغْمُور - بهِذْمَ دارِ أُسامة ، وقَطَعَ أشجار بُسْتَانِ القَصْرِ بالقائِبُون ، وهَذَمَ القصر . فتوقف عن ذلك مدة ، ثم تَرَادَفَتْ عليه الكُتُبُ بذلك ، ففَعَلَ .

ذكر استيلاء الفرنج على نغر دِمياط

وفي سنة سبعٍ وأربعين وستائة ، وصل رِيْدَا فَرَنْس ^(٢) بعساكره وجموعه إلى نَغْرِ دِمياط .

وخرج السلطانُ الملكُ الصالحُ بعساكره إلى المنصورة ، ونزل بها . وجرَّدَ إلى نغر دِمياط جماعةً من الأمراء ، فالتقوا مع رِيْدَا فَرَنْس ، واقتلوا قتالاً شديداً فقتل الأمير شهاب الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أَرْبَكُ الوَزيْرى .

وخرج أمراء الكِتَابَةِ من دِمياط وأَخْلَوْها ، فاستولى عليها رِيْدَا فَرَنْس

(١) - بالكسر - هو كالهودج ، ولكن بدون قبة . سبق ذكر ذلك .

(٢) - معنى هذا القبط : أى « ملك فرنسا » وهو الملك « لويس التاسع » . وهذه هي حملته على مصر التي بعدها القوزخون والحملات الصليبية السابقة .

في يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، من السنة . فشَقَّ السلطانُ أمراءَ الكِنَانِيَّةِ - وكانوا نِيْفًا وخمسين أميراً - بعد أن استَقْنَى في شَتَقِيهِم - لخروجهم عن الثُّغَرِ بغير أمرِهِ . وكان قد جَعَلَ [عندهم من الميرة ما يكفيهم زمناً طويلاً ^(١)] .

ذكر استيلاء السلطان على قلعة

الكَرْك وبلادها

وفي هذه السنة ، مَلَكَ الملكُ الصالحُ نجم الدين أيوب قلعةَ الكَرْك ، وبلادَها .

وسببُ ذلك أن صاحبها الملكَ الناصرَ داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى - توجه منها إلى بغداد ، واستَخْلَفَ أولادَهُ بها . فكاتبوا السلطانَ ، واتفقوا معه على تسليمها . واشترطوا عليه شروطاً ، وتولى ذلك من أولاده : الملكُ الأجددُ أبو علي الحسن .

فأجاب السلطانُ إلى ما التمسوه ، وتسلم القلعة ، ووفى لهم بما اشترطوه - وذلك في جمادى الآخرة . وأخرج عيالَ الملك المعظم وأولادَهُ وبناتِهِ ، وأمَّ الملكِ الناصر ، وجميعَ من كان بالحصن . وبعث الملك الصالح إلى الحصن ألفَ ألفَ دينار - عتيّاً - وجواهرَ وذخائرَ وأسلحة ، وغير ذلك .

(١) ما بين الحاصرتين لم يكن ظاهراً في النسخة (ك) ، فأكملنا للفق من النسخة (ع) .

ولما عاد الملك الناصر من بغداد ، ووجد الأمر على ذلك ، توجه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، صاحب حلب ، وأقام عنده . إلى أن ملك دمشق . وحضر في خدمته إليها . ثم بلغه عنه أسباب رَدِّه ، فأخرجه إلى البُويضا بظاهر مدينة دمشق . فمات بها حتف أنفه .

وكانت وفاته في سنة خمس وخمسين وخمسمائة . ونقل من البُويضا ، وصُلِّي عليه عند باب النصر ، ودفن عند أبيه بالتربة المُعظمية . بقاسيون . رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة الملك السلطان

الصالح نجم الدين أيوب

كانت وفاته - رحمه الله تعالى - بمَثَرَلَة المنصورة ، في ليلة الإثنين النصف من شعبان ، سنة سبع وأربعين وستائة . ومولده بالقاهرة المُعَرَّبة في سنة ثلاث وستائة .

ولما مات ، كُيِّم أمر وفاته . ودُفِن بالمنصورة . ثم نُقل - في سنة ثمان وأربعين وستائة - إلى تربته . التي بُنيت بعد وفاته . بجوار مدرسته بالذهرة المحروسة ، بين القَصْرَيْن . فكانت مدة سلطته بالديار المصرية عشرين ، إلا خمسين يوماً .

وكان مَلِكاً مَهِيئاً ، شجاعاً حازماً ، ذا سَطْوَة . وكانت البلاد في أيامه آمنة ، والطرق سائِلة . وكان عَفِيفَ الذَّيْلِ . غير أنه كان عَظِيمَ الكِبَر . غَبِظَ الحِجَاب . وكان مُحِبّاً لجمع المال . ويقال إنه عاقَبَ امرأة أبيه - أم أخيه الملك العادل - وأخذ منها الأموال والجواهر . وقتل أخاه وجاعة من الأمراء . ومات في حبسه ما يريد على خمسة آلاف .

ولامات ، كانت سرّيته - والدّة خليل - في صُحبته بالمنصورة . فكُتِم أمرُ وفاته إلا عن خواصّ الأمراء . وكان السَّمَاطُ ^(١) يُمَدُّ على العادة . والأمراء . ومن جرت عادته بحضور السَّمَاط ، يدخلون ويأكلون ويتصرفون . ويظنون أن السلطان إنما احتجابه بسبب مرضه . وكانت والدّة خليل تُكتب خطّاً يشبه خطّ السلطان ، فتُخرّجُ العَلَاثِمُ ^(٢) بخطّها .

واتفق الأمراء على إحضار ولده : الملك المُعَظَّم غياث الدين ثوران شاه من حصن كَيْفَا . وكان السلطان الملك الصالح قد كتب كتاباً بخطّه . يشتمل على وصيته لولده الملك المعظم . نَذَرُ - إن شاء الله تعالى - مضمونه في أخبار الملك المعظم . فتوجّه لإحضاره الأمير فارس الدين أقطاي الصالحى - مملوك والده . وقام بتدبير الدولة - فيما بين وفاة السلطان الملك الصالح ووصول الملك المعظم - الأميرُ فخر الدين : يوسفُ بن الشيخ . إلى أن قُتِل .

(١) المائدة السلطانية .

(٢) جمع علامة . وكان المتبع أن كل سلطان له علامة : قول مأثور أو دعاء أو اسم ، أو نحو ذلك ، يكتبه بخطه على الرسائل ، لتدل على صحة الوثيقة . فهذه هى العلامة السلطانية

ذكر خبر الأمير فخر الدين أبى الفضل يوسف ابن الشيخ ، وقتله

لما مات السلطان الملك الصالح ، قام بتدبير الأمر بعده - إلى أن يصل ولده الملك المعظم - الأمير فخر الدين أبوبكر أبو الفضل : يوسف ، بن شيخ الشيوخ صدر الدين^(١) . وكان هو وزير السلطان ومقدم جيوشه ، والمشار إليه في دولته .

فدبر الأمر أحسن تدبير ، وأقطع البلاد بمناشيريه . وأطلق السكك والكثبان أن يسافره الثجار إلى الشام - وكان ذلك قد منع ، وأراد جماعة من العسكر أن يملكوه ، فامتنع من ذلك .

وتنكر له بعض الأمراء المالك الصالحية ، وعزموا على قتله فاستدعى أكاير الأمراء . وأعلمهم أنه لا طمع له في الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل . فاعتذروا له وحلفوا . وكان المتهمم بإغراء الأمراء الطواشي مخسين . وجماعة . وجهز جماعة بسنح الملك المعظم من دمشق ، بعد وصوله إليها .

فلما كان في يوم الثلاثاء - رابع ذى القعدة أو خامسه - هجم الفرنج على عساكر المسلمين ، واندفع المسلمون بين أيديهم . وكانت وقعة عظيمة .

(١) سقت ترجمة صدر الدين - الفقيه وشيخ الصوفية - وبيت ، وأخبارهم . فالأمير فخر الدين ، الذى عرف بابن الشيخ ، كان أحد أولاده ، الذين ميزوا أنفسهم في الدولة الأيوبية ، وتبوؤوا مناصب عالية . وقد وصل فخر الدين إلى أن صار وزير الملك الصالح ، ومقدم جيوشه - كما ذكر في المتن - وأصبح له الحام الأول ، حتى فاع الاعتقاد بأنه يطمع في الملك .

فركب فخر الدين في وقت السحر ليكشف الخبر ، وأنفذ إلى الأمراء
والحلفاء^(١) ليركبوا . وساق بنفسه في طائفة من مماليكه وأجناده . فصدمته
طلب^(٢) الداوية^(٣) وحملوا عليه . فهرب من كان معه ، وثبت هو . فطعن
في جنبه ، فوقع عن فرسه . فضربوه ضربتين في وجهه ، طولاً وعرضاً ،
بالسيف فقتلوه ! .

وجاء مماليكه إلى داره ، فكسروا صناديقه ، ونهبوا أكثر ما فيها .
ونهبوا أمواله وخيله . وأخذ الجولاني^(٤) قدور حماميه ، والدماطى أبواب
داره . ثم أخرج من المعركة بقميص واحد ، وجعل في حراقة^(٥) وأرسل إلى
مصر . وحمل إلى تربته بالقرافة الصغرى ، بجوار تربة الإمام الشافعى ، فدفن
عند والدته . واشتد بكاء الناس عليه ، وعُملت له الأعزيرة . وكان له من
العمر ، يوم مات ست وستون سنة - رحمه الله تعالى . وكان له شعر جيد
كثير . فمن شعره :

عَصَيْتُ هوى نَفْسِي صَغِيرًا ، فَعِنْدَمَا رَمَتْنِي اللَّيَالِي بِالْمَشِيبِ وَبِالْكِبَرِ
أَطَعْتُ الهوى - عَكْسَ الْقَضِيَّةِ - لَبَتْنِي خُلِفْتُ كَبِيرًا ، وَأَنْتَقَلْتُ إِلَى الصَّغَرِ

(١) سبق تيسير ذلك . وهم الجنود النظامية في الجيش من المالك القداماء .

(٢) سبق تيسير هذا اللفظ ، وأن معناه : الآيت أو الفرقة ، وهو لفظ كردى .

(٣) سبق الحديث عنهم ، وهم هيئة صليبية دينية متعصبة ، كانوا يسمون فرقة «فرسان المعبد» .

(٤) نسبة إلى جولان . وهي قرية من نواحي دمشق .

(مجمع البلدان : ج ٣ - ١٧٦)

(٥) صفة حرية في (ع) ، كما سبق ذكره .

٢٩٧
٢٩٨

١١
٢٩٨

ذكر أخبار السلطان الملك المعظم

غيث الدين تُوْرانْشاه ، بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ،
ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن السلطان الملك العادل
سيف الدين أي بكر محمد ، بن أيوب ، وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية
بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية والشام ، بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح
وكان مُقيماً بحصن كَيْفَا^(١) ، وما مع ذلك ، منذ تركه والده هناك - كما
تقدم . فلما مات السلطان ، اجتمع رأيُ الأمراء على إقامته ، وجهزوا
لإحضاره الأمير فارس الدين أقطاي ، كما ذكرنا آنفاً .

وكان السلطانُ الملك الصالح ، في مرض موته ، قد كتب إلى ولده
الملك المعظم هذا كتاباً ، أَسَدَ فيه المُلكَ إليه ، واشتمل كتابه على جُمْلَةِ من
الوَصايا . وقد وَقَفْتُ على الكتاب المذكور - وهو بخط السلطان الملك
الصالح بِجُمْلَتِهِ . وقد رأيتُ أن أشرح ما تَضَمَّنَتْه ، لِمَا فيه من الوَصايا التي
يتعين على الملوك التمسكُ بها والرجوع إليها ، والإعتادُ عليها .

ابتدأ السلطانُ الملك الصالح كتابَه هذا - الذي منه نَقَلْتُ - بأن كَتَبَ
في طَرَفِهِ قَبْلَ البَسْمَلَةِ : والده أيوب بن محمد^(٢) .

(١) بلد ، وقلة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٢٨٦)

(٢) من هنا تبدأ وصية الملك الصالح أيوب لابنه تُوْرانْشاه . وهي وصية تاريخية لها أهميتها ، وإن كانت مكتوبة
بأنلوب الخطاب الدارج بين العربية والعامية . وقد تركنا ألفاظها العامية على ما هي عليه ، كما وردت في
(ج) ، دون أن نحاول تغييرها .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الْوَلَدُ تورانشاه - أصلحه الله ووفقَه يا ولدى ، أنت تعلم ما سبب تأخير طلبك إلا ما أعلمه منك . من الصَّيبَانِيَّة والجُرَّة وقلعة الثبات . والمُلْكُ ما يَحْتَمِلُ هذا . والوالد ما يشئى لولده إلا الخير . والخصائل التى أعرفها منك اتركها ، يدوم لك المُلْكُ . وإن أنت خالفتَ أمرى وبقيتَ على ما أعلمه منك ، يروح منك المُلْكُ . واثبت فى جميع أمورك . وسنُسيرنى فى العسكر . واترك الأشياء على ما هى عليه : كل أحد متولَّى الشغل الذى هو فيه ، ولا تُحدثَ حادث .

والوصية بجميع الأمراء ، وأكرمهم واحترمهم ، وأرفع منزلتهم . فهم جناحك الذى تطير به ، وظهرك الذى تركز إليه . وطيب قلوبهم ، وزيد فى إقطاعهم . وزيد كلُّ أمير على [ما] معه من العدة عشرين فارس . وأنفق الأموال . وطيب قلوب الرجال ، بحبوك وتناول غرضك فى دفع هذا العدو . ولا تؤاخذ بما جرى فى دمياط ، فهذا أمرُ سَمَاوَى ، ما لِأحدٍ فى هذا جيلة . والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أقدمٍ سواه ، فأكرمه ، واحترمه كما تحترمنى . واجعله عندك كالوالد . واسمع قوله ورأيه ولا تُخالِفْه . واجعل له من العدة مائتى فارس .

يا ولدى : الوصية بأمر خليل ، فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، ارفع جانبها وأكرمها واحترمها ، وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة . وكنت طيب القلب بصحبتيها ، آمناً على نفسى من جهتها . فاجعلها لك مثلَ الوالدة . واجتهد فى انصال الراحة إليها ، وطيب

قلِّبْهَا ، واجعلها حاكِمةً على جميع أمورِكَ وأموالك . ولا يبدو منك كلمةٌ تُضيق صدرها ، ولا توجع لها قلباً أبداً ، ولا من يتعلق بسببها ، ولا من يضيق صدرها بسببها .

ولا تُخْرِجْ عن رأيها وتدبيرها . وهذه وصيتي فلا تخالفْ أمرى . واخدمها كما تخدمنى ، واحترمها كما تحترمنى . ولا تجعل على يدها يد . والوصية بجميع العيال ، أحسن إليهم فلهم علىَّ خدمةً . ولا تقصُر في حق الصغير منهم والكبير . واحفظ وصيتي ، ففى خالفتنى يروح منك الملك ، وتكون عاقلاً لى . وكبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد ، لئلا تضيق صدورهم . وكتبها فى مدة طويلة .

واعلم يا ولدى أن الملك فى ابتداء ملكه كمثل الشجرة فى ابتداء طلوعها ، فىأتى ريحٌ يهب عليها يُحرِّكها ، وربما يقلعها من أصلها . فإذا مَضَتْ عليها الأيام والسنين قَوَّى أَصْلُهَا ، واشتد ساقها ، فلا تحركها الرياحُ العواصف . فاعلم يا ولدى إشارتى ، وتنبأ لغرضي . وإن ضاق صدرك من شخص فاحتمله ، وأحسن إليه تحسن سيرتك ، ويُحيك عدوك . ولا تعجل بالعقوبة . واعلم أن الناس أعداء لبعضهم البعض ، فلا تسمع كلامَ أحد دون أن تُقابِلَ بينه وبين خصمه ، ولو أنك مقطوع اليد . فربما خصمه أسوأ حالاً منه . فإذا عُرِفَ هذا منك . تقلُّ الشكاوى والرِّفَاعَاتُ ^(١) . ويستريحُ خاطرك .

(١) أى ما يُرفع من الشكاوى ، أى الشكاوى المكوبة .

والذى أَعْرَفَكَ به يا وَلَدِي : لَمَّا نَزَلَ الْعَدُوُّ عَلَى زَمَنِ الشَّهِيد^(١) -
 رَحِمَهُ اللَّهُ - عَلَى دِمِياط ، مَا كَانَ فِيهَا سِوَى الْوَالِي وَالْكِنَانِيَّةِ ، وَأَهْلِهَا
 حَفِظُوهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ الشَّهِيدُ مِنَ الْقَاهِرَةِ ، وَعَسَكُرُ مِصْرَ مِنَ الشَّامِ . وَمَا قَدَرَ
 الْعَدُوُّ بِتَرْكِ دِمِياط ، وَمَا كَانَ فِيهَا ذَخِيرَةٌ شَهْرٍ وَاحِدٍ .

فَلَمَّا اخْتَلَفَ الْعَسْكَرُ عَلَى الشَّهِيد^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَتَحَرَّجُوا - مِثْلَ ابْنِ
 الْمَشْطُوبِ^(٢) - وَالْأَكْرَادِ - مَعَ الْمَلِكِ الْفَائِزِ ، غَضِبَ الشَّهِيدُ ، وَسَاقَ إِلَى
 أَشْمُومَ . وَتَبِعَهُ الْعَسَاكِرُ ، وَتَرَكُوا جَمِيعَ الْخِيَمِ وَالْقَهَاشِ . وَخَرَجَ مِنْ دِمِياط
 مِنْ خَرَجٍ ، وَالْوَالِي .

وَمَا بَقِيَ فِيهَا إِلَّا أَهْلُهَا . وَغَلَّقُوهَا وَقَعَدُوا فِيهَا وَحَفِظُوهَا ، إِلَى أَنْ مَاتَ
 أَكْثَرُ مَنْ فِيهَا وَالباقى تَكَشَّعُوا ، وَخَلَّتِ الْأَصْوَارُ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ . فَصَعَدَتِ
 الْفَرِنجُ وَأَخَذَتْهَا ، بَعْدَ أَنْ تَعَيُّوا مِنَ الثُّقُوبِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ ، وَشَرَبُوا
 بِالْبَتَاقِ ، وَالزَّحَفِ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَمَا قَدَرُوا بِإِخْلَاقِهَا .

وَأَنَا قَوَّيْتُ دِمِياط ، وَمَلَأْتُهَا ذَخَائِرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، يَكْفِيهَا عِشْرِينَ
 سَنَةً . مَعَ مَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الذَّخَائِرِ . وَانْكَشِفَ مِنَ الدِّيَّانِ يُعَرِّفُونَكَ
 مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْخَبَرَاتِ . وَقَوَّيْتُهَا بِجَمِيعِ عَسَاكِرِ الدِّيَّارِ الْمِصْرِيَّةِ ، مِنْ فَارَسٍ
 وَرَاجِلٍ . وَنَقَدِي ، وَمَا خَلَيْتُ لَهَا عُذْرًا ، حَتَّى بَقِيَتْ وَخْدِي فِي أَشْمُومَ
 بِسَبَبِ الْمَرَضِ .

(١) يَقْصِدُ وَالِدَهُ : الْمَلِكَ الْكَامِلَ بْنَ الْعَادِلِ .

(٢) الْأَمِيرُ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ الْهَكَارِيِّ - الَّذِي عُرفَ بِابْنِ الْمَشْطُوبِ . تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَأَخْبَارُهُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ .

فلما آن أَقْبَلَ العدو وشاهدوه وطلبوا البرَّ بالحرَّاريق ، انهزموا وسَلَّمُوا لهم البرَّ ، واشتغلوا بالنساء ونَقَلَهُم من دمياط ، وَهَرَبَتِ الْعَوَامُ وَتَبِعَهُمُ الْأَجْنَادُ . وكان الْمُقَدَّمُ عليهم الْأَخُ فخر الدين سَاقَ خَلْفَهُمْ وَرَدَّهُمْ ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير . فلما أَصْبَحَ ، ما وجد في المدينة أحد . هربوا الكِنَانِيَّةُ في الليل ، وكسروا الْخُوخُ^(١) ونزلوا من السُّور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم نهبها المسلمين بعضهم بعض . وأخلوا دمياط ، حتى أخذتها الفرنجُ ثانی يوم . وهذا كله بقضاء الله وَقَدَرَهُ .. واصبرْ تنال ما تريد .

وهذا العدو المَخْذُولُ ، إِنْ عَجَزَتْ عنه ، وخرجوا من دمياط وقصدوك ، ولم يكن لك بهم طاقَةٌ وتَأَخَّرَتْ عَنْكَ التَّجْدَةُ ، وطلبوا منك الساحِلَ وَبَيْتَ المقدس وعِزَّةَ وغيَرَهَا من الساحل - أعطيتهم ولا تَتَوَقَّفْ ، على أن لا يكون لهم في الديار المِصْرِيَّة قَرَرٌ قَصَبَةٌ .

وإن نزلوا مِثْرَلَةً من تَقَدَّمَهُمْ من العدو قُبَالَةَ المنصورة ، فَرَتَبِ الْعَسْكَرَ يكونوا ثابتين خلف السَّكَايِرِ مع البحر ، لَيْلٌ وَنَهَارٌ . فهم ما لهم زَخَفٌ إِلَّا بِالشَّوَانِي^(٢) ، فَقَوُوا الشَّوَانِي ، كَيْفَمَا قَدِيرْتُمْ . واجهدوا أن يكون بعضُ الْحَرَّارِيقِ^(٣) على بَحْرِ الْمَحَلَّةِ من خلف مراكِبهم ، تقطع عنهم المِيزَةَ . وهو يكون - إِنْ شَاءَ اللهُ - سَبَبَ هَلَاكِهِمْ . فتلک المَرَّة ما انتصر الشهيد - رحمه الله - عليهم إِلَّا من بَحْرِ الْمَحَلَّةِ .

(١) الطاقات والنوافذ في الحصن .

(٢) السفن الحربية الكبيرة . تقدم ذكرها .

(٣) سفن حربية أصغر من الأولى .

وتكون العرب مع الخَوَازِزِية مع ألفين فارس بينهم وبين دمياط .
 واستخدم ، الفارس والراجل . وأنفق الأموال ولا تتوقف . وإن كان الشرق
 لا يتجدد لك لأجل الناصر وإسماعيل ، واشترطوا أن تُرد عليهم بلادهم ،
 ورأيت الغلوئية ، ولا بد من ذلك وإلا ذهب الملك - فالضرورات لها
 أحكام .

إعلم - يا ولدي - أن الديار المصرية هي كُرسى المملكة ، وبها تستطيل
 على جميع الملوك . فإذا كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشرق . ويضربوا
 لك السكة والخطبة .

فأيقن أنت والأخ فخر الدين ، وأرضى الناصر^(١) بما يطيب به قلبه .
 فالناصر ما أخرجه من يدي إلا تغير عليه ، بسبب أوراق كانت تصل إلى
 عنه أنه فعل وصنع . وكشفت عن ذلك ، ما رأيت لها صحة . فلما انقطع
 رجاءه مني لتغيري ، استند إلى إسماعيل وابن ممدود ، وجرى مهم ما جرى .
 كل ذلك من إسماعيل وابن ممدود ، وهو يشاركهم في جميع ما يفعلوه .
 وأما الذي فعله معي على نابلس فما كان إلا مصلحة عظيمة ، أنا
 أشكره عليها . طلع بي الكرك إلى أن ذهبت أيام القطوع . لولا ذلك أخذني
 إسماعيل^(٢) ، لأنه ضيق على أرض الشام بالمسكر في طلبي ، فما فعل في
 حق إلا خير . فهو كان السبب في خروجي ، في الوقت الذي كان قدّر الله
 بتوجهي فيه إلى الديار المصرية بالملك . فلا يضيع له هذا القدر .

(١) المقصود : الناصر داود صاحب الكرك ابن المعظم عيسى .

(٢) يقصد : الملك الصالح إسماعيل ، وهو عمه ، الذي استول على دمشق حيناً ، وطالما نازعه

وَكُنْتَ تَوَيْتُ لَهُ كُلَّ خَيْرٍ . فَإِنْ حَصَلَ بَيْنَكُمَا اتِّفَاقٌ ، وَصَفَتْ يَتِيَّتُهُ فِي مَحَبَّتِكَ ، وَوَفَّى لَكَ بِالْيَمِينِ ، فَخَاطِرُكَ بِهِ مُسْتَرِيحٌ فِي أَمْرِ السَّاحِلِ . فَمَا ذُنُوبُهُ عِنْدِي ذُنُوبُ إِسْمَاعِيلَ ، الَّذِي بَارَزَنِي ، وَأَخَذَ مِنِّي دِمَشْقَ ، وَاعْتَقَلَ وَلَدِي ، وَفَعَلَ فِي حَقِّي مَا فَعَلَ ، وَأَعْطَى السَّاحِلَ وَالْحَصُونَ الَّتِي فِيهِ لَعْدُو الدِّينِ ، وَاسْتَعَانَ بِالْكَفْرِ^(١) عَلَى ، وَعَلَى أَخَذِ بِلَادِي . فَارْضِهِ بِشَيْءٍ يَسْتَعِينُ بِهِ : بُضْرَى مَعَ السَّوَادِ ، وَلَا تُعْطِ لَهُ قَلْعَةً بِعَلْبِكَ . وَتُحَسِّنْ إِلَى أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، وَيَنْفِذُوا إِلَيْهِ . فَاللَّهُ بِقَابِلِ الْمُسَىءِ ، وَيُجَازِي الْمُحْسِنِ وَأُطْلِقِ الْمُحْتَبَسِينَ كُلَّهُمْ ، إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ فِي قَبْضِ عَمِكَ ، أَوْ مُفْسِدٌ فِي الدَّوْلَةِ .

فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ بِالنَّصْرِ عَلَى هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْنُولِ^(٢) ، وَأَخَذْتَ دِمَاطَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - ابْنِي بِأَشُورَةَ^(٣) تَكُونُ طُولَ قَامَةٍ ، وَبَسْطَةَ بَشَرَارِيفَ ، وَمَرَامِيٍّ مِنْ فَوْقٍ وَأَسْفَلَ ، وَتَكُونُ الْبَاشُورَةُ عَرْضَ يُتِمَكَّنُ الْقِتَالُ عَلَيْهَا ، إِمَّا بِالْحَجَرِ أَوْ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ ، وَيَكُونُ لَهَا سَلَامٌ ، بَيْنَ كُلِّ سَلْمٍ وَسَلْمٍ ثَلَاثِينَ خَطْوَةً . تَعْمَلُ هَذِهِ الْبَاشُورَةُ مِنْ قِبَالَةِ بَرْجِ السَّلِيلَةِ ، قَرِيبَ مِنَ الْمَاءِ الْبَحْرِ إِلَى الْبَرْزَخِ ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلُوا فِيهِ الْفَرَنْجُ ، وَفَوْقَ مِنْهُ ثَلَاثَ رَمِيَّاتِ نَشَابٍ . وَمِنْ آخِرِ هَذِهِ الْبَاشُورَةِ تُخْفِرُ خَنْدَقَ ، مِنَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ إِلَى الْبَحْرِ الْحُلُوِّ ، مِثْلَ مَا حَفَرَهُ الشَّهِيدُ^(٤) تِلْكَ الْمَرَّةَ ، بَحِثْ إِذَا جَاءَ الْعَدُوُّ

(١) بِالصَّلِيلِينَ .

(٢) الصَّلِيلِينَ الَّذِينَ احْتَلَوْا دِمَاطَ .

(٣) حَائِطٌ ظَاهِرٌ حَوْلَ الْحَصَنِ ، تُقَابِلُهَا كَلِمَةُ «Bastion» بِالْفَرَنْسِيَّةِ

(مَلُوكٌ : زِيَادَةُ جَدٍّ ١ - ١٥٠ - نَقْلًا عَنْ دَوْدَى)

(٤) وَالْهَدْيُ : السُّلْطَانُ الْكَامِلُ .

لا يقدر على الماء الحلو ، ولا يبقى له منزلة ينزل فيها . وبين كل سلمين لعبتين يرموا بالحجارة ، والعسكر ثقاتيل من على الباشورة والمُنَجِّيق والرَّماة ترمى من خلف الباشورة من المَرَامِي ، ما يقدر أحد يقرب البر . وعجبت كيف غَفَلَ عن هذا الشهيد - رحمه الله - وعمل قلعة .

فهذه الباشورة فيها ألف مصلحة قَسَطُها على الأمراء وعلى بيت المال والأسرى الفرنج تعمل فيها . واجتهد في عملها تَأَمَّنْ على دمياط وتسترخ وإن لم يخرج العدو من دمياط وتطاول الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم ، أزحف عليهم من بَرِّ دمياط ومن بَرِّ البرزخ ، بالفارس والراجل والشواني من البحر ، لعل أن تملكوا بَرِّ البرزخ . فإذا ملكوه ملككم فم البحر ، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب ، أو يخرج .

ويا ولدي : قلدتُ إليك أمورَ المسلمين ، فافعل فيهم ما أمرك الله به ورسوله . يا ولدي إياك والشرب ، فإن جميع الآفات ما تأتي على الملوك إلا من الشرب . ولا تخالفني تَنَدَّمَ ، وتُدْخِلْ عليك العارض ^(١) . فما يَسْتَقِيك إلا من تَأَمَّنْ إليه ، ولا يَدْخُلْ عليك العارض إلا من القريب . يا ولدي : وامنع المسلمين والنصارى أن يَعْصِرُوا الخمر . وطَهِّرِ العساكر من القحَاب ، والمدن . ولا تجلس مع من يشرب ، فيزين لك الشيطان فتشرب ، فتكون قد خالفتني ، وتُدْخِلْ عليك العارض . وأنا قد جَرَّبْتُ الأشياءَ وَوَقَعْتُ فيها ، وَتَحَقَّقْتُ الخطأَ من الصواب ، وَنَدِمْتُ وقت لا ينفع الندم . فاجتنب يا ولدي ما حَذَّرْتُكَ منه . فقد أَخْبِرَكَ مُجَرَّبٌ صادق ، مُشْفِقٌ عليك

وَانْظُرْ يَا وَلَدِي فِي دِيوَانِ الْجَيْشِ . فَهَمُ الَّذِينَ أَفْسَدُوا الْبِلَادَ
وَأَخْرَجُوهَا - وَهَمُ النَّصَارَى - أَضْعَفُوا الْعَسَاكِرَ ، وَكَانَ الْبِلَادَ مِلْكُهُمْ يَبِيعُوهَا
بِيعَ . إِذَا كُتِبَ مَنْشُورٌ لِأَمِيرٍ بِأَخْذِهَا مِنْهُ الْمَائَتِينَ وَأَكْثَرَ ، وَمِنْ الْجُنْدَى مِنَ الْمِائَةِ
وَنَازِلٍ . وَيَكُونُ الْجُنْدَى خُبْرَهُ ^(١) أَلْفَ دِينَارٍ يَفْرُقُوا خُبْرَهُ فِي خَمْسِ سِتِّ
مَوَاضِعَ : فِي قُوصٍ وَفِي الشَّرْقِيَّةِ وَفِي الْغَرْبِيَّةِ ، فَيُرِيدُ الْجُنْدَى أَرْبَعَ وَكَلَاءَ ،
يَرْوُحُ الْخُبْرَ لِلْوَكَلَاءِ . وَمَتَى يَحْصُلُ لِلْجُنْدَى مِنْ خُبْرِهِ شَيْءٌ ، إِذَا كَانَ مَثَلًا فِي
بَيْكَارٍ ^(٢) وَيُقَاسَى الْعَلِيقَةُ بِثَلَاثَةِ نُقُرَةٍ ^(٣) ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُ ؟ يَخْرُبُ بَيْتُهُ
وَيَهْلِكُ ! فَهَذَا سَبَبُ هَلَاكِ الْجُنْدَى . وَالنَّصَارَى يَقْصِدُوا هَذَا ، لِحُرَابِ
الْبِلَادِ وَضَعْفِ الْأَجْنَادِ ، حَتَّى تَرْوَحَ مِنَ الْبِلَادِ . وَجُنْدَى يَحْصُلُ لَهُ وَجُنْدَى
مَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ أَصْلًا .

تَرَدَّ عِبْرَةَ الْبِلَادِ ^(٤) إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ صَلَاحِ الدِّينِ - رَحِمَهُ
اللَّهُ . وَالْجُنْدَى لَا يَكُونُ خُبْرَهُ مُفَرَّقٌ ، بَلْ فِي مَوْضِعٍ أَوْ مَوْضِعَيْنِ قَرِيبَيْنِ .
فَتَعْمُرُ الْبِلَادَ وَيَقْوَى الْجُنْدَى وَيَقْوَى الْفَلَاحُ . فَإِذَا كَانُوا جَمَاعَةً فِي بَلَدٍ ، وَكُلُّ
أَحَدٍ يَخْرُبُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَجُورُ الْمُقْطَعِينَ عَلَى الْفَلَاحِينَ ، تَخْرُبُ الْبِلَادُ . وَهَذَا
كُلُّهُ فِعْلُ النَّصَارَى .

(١) أَيُ : إِقْطَاعُهُ ، الَّذِي يَأْخُذُ مِنْ رَأْسِهِ .

(٢) - : أَيُ حَرْبٍ . هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَعْنِي الْحَرْبَ . بِصِفَةِ عَامَةٍ .

(٣) أَيُ دِرَاهِمِ نُقُرَةٍ . وَهِيَ الْعَمَلَةُ الَّتِي كَانَتْ مُتَدَاوِلَةً . وَقَدْ سَبَقَ تَفْسِيرُهَا وَالْعَلِيقَةُ : عِلْفُ حِصَانِهِ .

(٤) أَيُ نِظَامِ الْبِلَادِ ، أَوْ وَضْعِهَا .

وبلغنى أنهم بعثوا إلى ملوك الفرنج في الساحل في الجزائر ، وقالوا لهم .
 أنتم ما تجاهدوا المسلمين ، بل نحن مجاهدكم الليل والنهار ، بأخذ أموالهم
 ونسجّل نساهم ، ونحرب بلادهم ونضعف أجنادهم . تعالوا خذوا البلاد ،
 ما تركنا لكم عاقبة . فالعدو معك في دولتك - وهم النصارى . ولا تترك لمن
 أسلم منهم ولا تعتقد عليه ، فما يسلم أحد منهم إلا ليلة ، ودينه في قلبه باطن
 كالنار في الحطب !

ياولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين : كل من ليس
 قباء^(١) وركب فرس ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس ،
 ويُرطّل نقيبه وأستاذ داره^(٢) على خير جندى ، من جندى معروف
 بالشجاعة والحرب - طرده أميره ، وأعطى خبره لذاك العامى الذى لا ينفع
 وأكثرهم على هذه الحالة . فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا ، وينكسروا
 العسكر . لأنهم ما يعرفوا قتال ، ولا هو شغلهم . فينبى أن لا يُستخدم
 [إلا] من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالشباب والأكرة ،
 وتظهر فروسيته - حينئذ يُستخدم .

واحفظ يا ولدى ما أقوله لك ، فهذا جميعه ما عرّفنى به إلا الأخ
 فخر الدين ، وأخبرنى أنه وقف على كتاب بخط صلاح الدين ، أن القُيُوم
 وسُمُود والسواحل والخراج للأسطول . فالأسطول أحد جناحي الإسلام .
 فينبى أن يكونوا شياعاً . ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين

(١) ثوب فوق الثياب ، وهو ليس الجندى في ذلك الوقت

(٢) أى استاذ دار ذلك الأمير : المتولى شئون قصره ، أو وكيله .

درهم مستمرة راتيه ، جامعوا من كل فجٍ عميق ، ورجال معروفين بالقذف والقتال . وإنما يَجُؤُ (١) وقت الحاجة يقبضوا ناس مستورين لهم أطفال وبنات ، وهو الذى يطعمهم ويسقيهم ، تأخذوه فى الأسطول ولا ينفع ، تموت أطفاله بالجوع ، ويدعو علينا ! كيف تنتصر على العدو ؟ ! وتأخذوا إلى البحر عند قبض الأسطول كل يوم ألف دينار ، لأنه يقبض من الصبح إلى المغرب ، مساتير وياعين وأرباب معايش ، يَجُؤُ أهاليهم إلى بيت الوالى ، كل أحد يَزِنُ الذهب ويُحْلَسُ نفسه (٢) . والفقر الذى ماله قدرة تُحَدِّثُوه فى المراكب . قد تَبَهَّتْ الولد على هذه الأشياء . والأخ فخر الدين عرفنى بهذه الأحوال جميعها . فاسمع ما يَقُولُه لك .

الولد يَقْصِي بِالْخُدَام : مُحْسِن ورشيد والخدام الْمُقَدِّمِينَ ، لا تغيرهم . فما قَدَّمْتُ أحد من الخدام ولا من الممالك إلا بعد ما تحققت نصحته وشفقته . وأستاذ الدار وأمير جاندار تقصى بهم . وكذلك الخسام لا تغيرهم . فإني أعتمد عليهم فى جميع أمورى .

الْقَيْمَرِيَّة (٣) ، الولد لا يَسْمَعُ كلام بعضهم فى بعض . وناصر الدين عند كذب وخيبت . وما باطنه جيّد . وقد عَرَفْتُ الأخ فخر الدين الرُّسُل الذى مُسِكُوا من دمشق إلى حلب من عنده . والخسام يكون بمفرده لا حَلَّ ولا رِبْط . وضيا الدين الْقَيْمَرِي ، إن احتاجوا إلى أن يَخْرُجَ عسكر إلى جهة من الجهات ، يكون مُقَدِّم . وناصر الدين أرجل لا يَخْرُجَ مع عسكر .

(١) أى نجثوا ، أو نجثون .

(٢) يعنى أن الناس يأتون إلى الأسطول يخلصون أنفسهم بدفع مبالغ معينة ، ومن لا يقدر على الدفع يُجَدُّ مع عدم كفايته .

(٣) طائفة من أمراء الجنود الكردية .

وسيف الدين القَيْمَرِيّ تعمل معه ما يُقَرَّر مع الأخ فخر الدين ، يكون مُقَدَّم العسكر في دمشق . وابن يَغْمُور مُشِيدٌ ^(١) ، وناصر الدين على المظالم . فابن يَغْمُور يصلح يكون مُشِيدٌ ووالى وجابى الأموال ، ولا يصلح يكون مُقَدَّم على عسكر ، ولا يصلح لجنديه . ولا تُؤمِّن إليه كل الأمن . بل تُمَشَّى به الحال في مكان مُدة ، ثم يُنْقَل إلى غيره . وهو بالكتاب البقي .

وكذلك قرائبُ فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجندية . ابنُ العزيز الرأى عندى أن تؤخذ جماعته ، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم ، ويُقَطَّع له والماليكه ، وحاشيته ودُّوره ، ما يقوم بهم من خاصة . فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى منه ، فهو نخس مفسد مخسوس . وقد عَرَفَ الأخُ فخر الدين حاله وما جرى منه في دمياط وغير دمياط ، لما يصلح لصالحة .

مُتَوَلَّى ديوان الأحتباس ^(٢) اصْرِفَه . وولَّى ابنَ الثَّخَوِيّ ، قد سألنى المتصدرين ذلك . وطرائق بن الجباب غير صالحة . والوكيل اصْرِفَه . وولَّى ابن الفقيه نصر ، فهو رجل جيّد فقيه عنده خوفٌ من الله .

وقد عَيَّنْتُ في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من الممالك تُقَدَّمُهُمْ ، تعطى لكل واحد كُوس ^(٣) وعَلَم ، وتُحَسِن إليهم .

وتوصى بالممالك غاية الوصية . فهم الذى كنت أعتد عليهم ، وأثق بهم . وهم ظهري وساعدي . تتلطّف بهم ، وتُطَيِّب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير . ولا تخالف وصيتي . ولولا الممالك ما كنتُ قد رثتُ أركب فرس ، ولا أروح إلى دمشق ، ولا إلى غيرها . فكرمهم وتحفظ جانبهم .

(١) وهو الناظر في حسابات الدواوين .

(٢) أى الأوقاف .

(٣) من شعارات السلطة والإمارة . وهى صنوج من نحاس يلقب بها فى المواكب - كما تقدم ذكر ذلك .

فهذه وصيتي إليك ، فاعمل بما فيها ولا تخالف وصيتي . وكل يوم طالِعْها ، واقف عليها . ولا تعملْ شيء دون أن تشاورَ الأخ فخر الدين . والله يقدر بما فيه الخير - إن شاء الله تعالى .

يا ولدي ، إن أزموك - الحلبيين - أن تدفع الكرك^(١) إلى الناصر ، فأعطه الشؤبك . وإن لم يرضَ زده من الساحل ، حتى يرضى . ولا تخرج الكرك من يدك . الله الله احفظ وصيتي . فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخدول ، لعله - والعياذُ بالله - أن يتقدم إلى مصر يكون ظهرك الكرك ، تحفظ فيه رأسك وحريمك ، فصر ما لها حصن . ويجمع عندك العسكر وتتقدم إليهم ، تردهم عن مصر . وإن لم يكون لك ظهر مثل الكرك ، تفرقت عنك العساكر . وقد عزمْتُ أن أنقل إليها المال والنخائر والحرم ، وكل شيء أخاف عليه ، واجعلها ظهري . والله ما قوى قلبي واشتد ظهري ، إلا لما حصَلْتُ في يدي .

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه - وآله وصحبه -
وسلامه

هذا آخر ما تضمنه كتاب الوصية . وقد نقلته بنصّه وهيئته - على ما فيه من لحنٍ في بعض ألفاظه ، ونقص ألفاظ في بعضه .

ولم يعتد الملك المعظم ما أوصاه به ، ولا رجع إليه ولا عرج عليه ، بل خالفه في جميع ما تضمنته وصيته . وكان من أمره ، وزوال ملكه ، ما نذكره .

(١) قلعة الكرك الشهيرة (شمال أيلة) التي تقدم ذكرها مراراً . ويؤكد الملك الصالح هنا أهميتها .

وَلْتَرْجِعْ إِلَى سِيَاقَةِ أَخْبَارِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ :

قال : ولما وصل إليه الأميرُ فارس الدين . وهو بحصن كَيْفَا . رَحَلَ
وَسَلَكَ الْبَرِّيَّةَ ^(١) . وَأَخْفَى أَمْرَهُ عَنِ الْمُلُوكِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ . خَشْيَةً مِنْ غَائِلَتِهِمْ .
وَتَرَكَ بِالْحَصْنِ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْمَوْحِدَ . وَسَارَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دِمَشْقَ .

فَكَانَ وَصُولُهُ إِلَيْهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ . سَلَخَ شَهْرَ رَمَضَانَ . سَنَةِ سَبْعٍ
وَأَرْبَعِينَ وَسِتَّمِائَةٍ . وَعَبَّدَ بِهَا عِيدَ الْفِطْرِ . وَخَلَعَ وَأَنعَمَ عَلَى الْأَمْرَاءِ . وَأَقْرَأَ الْأَمِيرَ
جَمَالَ الدِّينِ مُوسَى بْنِ يَغْمُورَ عَلَى الثِّيَابَةِ بِدِمَشْقَ . وَأَفْرَجَ عَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ فِي
حَبْسٍ وَالِدَهُ . قَالَ أَبُو الْمَظْفَرِ : وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ كَانَ بِدِمَشْقَ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ ،
فَأَخَذَهَا صُحْبَتَهُ ، وَتَجَهَّزَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ

وَكَانَ رَحِيلُهُ مِنْ دِمَشْقَ فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَوَّالٍ . مِنْهَا . وَكَانَ
سَبَبُ تَأَخُّرِهِ بِدِمَشْقَ ، هَذِهِ الْمُدَّةَ ، أَنَّ الْأَمِيرَ فَخْرَ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنَ الشَّيْخِ
كَانَ قَدْ سَيَّرَ إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْمَالِكِ الصَّالِحِيَّةِ . يَسْتَحْتَنِي عَلَى سُرْعَةِ الْحُضُورِ .
فَأَوْهَمَهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ فَخْرَ الدِّينِ حَلَّفَ الْعَسَاكِرَ لِنَفْسِهِ . وَأَنَّهُ مَتَى حَضَرَ قَتْلَهُ .
وَأَسْتَقْبَلَ بِالْأَمْرِ . فَأَتَفَقَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ الْأَمْوَالَ بِدِمَشْقَ . وَأَسْتَحْلَفَ الْعَسَاكِرَ .
وَحَلَّفَ الْمَالِكِ الَّذِينَ حَضَرُوا مِنْ جِهَةِ الْأَمِيرِ فَخْرَ الدِّينِ ، عَلَى قَتْلِ فَخْرِ
الدِّينِ . فَحَلَفُوا لَهُ . فَأَتَفَقَ قَتْلُ فَخْرِ الدِّينِ قَبْلَ وَصُولِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ .
كَأَنَّهُ تَقَدَّمَ .

وَجَهَّزَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ كَاتِبَهُ - مَعِينَ الدِّينِ - هَبَةَ اللَّهِ بْنِ أَبِي الرَّهْمَرِ
حَشِيشَ - إِلَى قَلْعَةِ الْكَرْكِ ، فِي مُسْتَهْلِ ذِي الْقَعْدَةِ . فَحَقَّقَ مَا بَيَّاهُ مِنَ الْأَمْوَالِ

(١) الدَّيَّةُ بَيْنَ الْفَرَّاقِ وَالشَّامِ . وَ الدِّيَارِ .

والذخائر ، وحمل إليه من حاصلها مائتي ألف دينار ، عَيْنًا ، مما كان الملكُ الصالح قد نَقَلَهُ إليها . ولحق معيْنُ الدين السلطانَ إلى الرَّمْلِ (١) . وكان نَصْرَانِيًّا فوعده بالوزارة ، فَأَسْلَمَ . ووصل السلطانُ إلى العساكر الديار المصرية . بِمَثَرَةِ المنصورة - في يوم الثلاثاء سابع عشر ذى القعدة ، من السنة .

ولما وَصَلَ ، وضع يده على ما سَلِمَ من تركة الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ ، وأخذ مَمَالِيكَه الصغار ، وبعضَ قُاشِه - وَتَمَنَّ ذلك بخمسة عشر ألف دينار - وهي دون نصف القيمة ، فيما قيل . ولم يُعَوِّضَ الْوَرَثَةَ عن ذلك شيئًا ، فإنه قُتِلَ قبل ذلك .

ذكر عدة حوادث كانت في سنة سبع وأربعين

وسِتَمائة ، غير ما تقدم

في هذه السنة تَأَمَّرَ بِمَكَّة - شَرَفُهَا اللهُ تَعَالَى - أَبُو سَعْدٍ عَلَى بْنِ قَتَادَةَ ، وذلك في العشرين من ذى القعدة .

وفيها قُتِلَ الأمير شَيْخَه ، صاحب المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وولى بعده ولده عيسى بن شَيْخَه .

وفيها في خامس عشر شعبان ، تُوفِّي الطَّوْاشِي مَسْرُورٌ بِالْقَاهِرَةِ ، ودفن بترتبه بالقرافة .

(١) البادية بين الشام ومصر . من الرمث إلى الصالحية . وفيها العريق . د مصر

وفيهما توفي الشيخ صالح أبو الحسن على ، بن أبي القاسم بن عري بن عبد الله ، الدمياطي ، المعروف بابن قُقل - في يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي الحجة ، برباطه بالقراة ، وبه دفن .

وفيهما توفي شهاب الدين ابن قاضي دارا^(١) . وكان من الثُّظَّار في الدولة الكاميلية ، وبعدها . ولَّى نظر الأعمال القوصيّة . وكان السلطان الملك الكامل يكتب إليه بخطّه ، ويأمره وينهاه . ويقال إنه كان من ظلمة الثُّظَّار ، يُضْرَب بظلمه المثل . سامحه الله - وإيانا بكرمه .

واستهلّت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة :

ذكر هزيمة الفرنج وأسّر ملكهم ريداً فرنس

قال المؤرّخ : لما وصل السلطان الملك المعظم إلى المنصورة ، كان ملك الفرنج ريداً فرنس^(٢) - بعساكره وجُموعه - بالجزيرة التي قبالة المنصورة ، وهي الدقهلية . فرحل بمن معه طالباً دمياط . وذلك في ليلة الأربعاء ، مستهل المحرم ، من السنة .

(١) بلدة في لحف (قاعده) جبل بين نصيبين وماردين ، من بلاد الجزيرة .

(معجم البلدان : ج ٤ - ص ٥)

(٢) الأعمال التابعة لقوص ، وهي مدينة كبيرة بالصعيد بالديار المصرية .

(٣) لويس التاسع ، ملك فرنسا . وسبق ذكره . والمؤلف يذكر هنا تفهقر لويس التاسع بجيشه بعد هزيمته في موقعة المنصورة . لكن يلاحظ أنه (أي المؤلف) لم يذكر الموقعة نفسها . غير مقدمتها التي كان فيها حادث الأمير فخر الدين بن الشيخ .

فَتَبِعَتْهُ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَارِسَ كُور^(١) ، وَقَاتَلُوهُ قِتَالًا شَدِيدًا
وَأَخَذُوهُ أَسِيرًا - هُوَ وَأَخُوهُ - وَاسْتَوْلُوا عَلَى عَسَاكِرِ الْفَرَنْجِ ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ زِيَادَةً
عَنْ عَشْرَةِ آلَافٍ قَارِسَ . وَأَسِيرَ مِنَ الْحَيَّالَةِ وَالرَّجَّالَةِ مَا يُنَاهِزُ مِائَةَ أَلْفٍ^(٢) .
وَجِيءَ بِرِيدَافَرْنَسَ وَأَخِيهِ إِلَى الْمَنْصُورَةِ ، فَأَعْتَقَلَا فِي دَارِ فخر الدين بن لُقْمَانَ^(٣)
بِهَا . وَرَتَّبَ السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ فخر الدين الطُّرَيْ^(٤) لِقَتْلِ أُسْرَى الْفَرَنْجِ
فَكَانَ يَقْتُلُ مِنْهُمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ثَلَاثُمِائَةٍ نَفَرًا ، وَبَرِيهِمْ فِي الْبَحْرِ .

وَكُتِبَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ - كِتَابًا بِحَظِّهِ إِلَى الْأَمِيرِ جِالِ الدين موسى
ابن يَعْمُورِ النَّائِبِ بِدِمَشْقَ ، مَضْمُونُهُ بَعْدَ الْبِسْمَةِ :

« وَلَدَهُ ثَوْرَانِشَاهُ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ . وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصَرُّونَ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . وَإِنْ تُعْذُوا نِعْمَةً اللَّهُ لَا تُخْصُوهَا . يُبَشِّرُ
الْمَجْلِسَ السَّامِيَّ الْجَمَالِيَّ - بَلْ يُبَشِّرُ الْإِسْلَامَ كَافَّةً - بِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ ، مِنَ الظَّفَرِ بَعْدُ الدِّينِ . فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَفْجَلَ أَمْرَهُ ، وَاسْتَحْكَمَ
شَرَّهُ ، وَيَنْتَسِ الْعِبَادُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ . فَتَوَدُّوا : لَا تَيَّاسُوا مِنْ
رَوْحِ اللَّهِ .

(١) هي البلدة المعروفة على شاطئ النيل ، على الضفة الشرقية . بالقرب من دياط .

(٢) كتاب الإنشاء في الدولة .

(٣) نسبة إلى الطور ، وهو حصن وجبل بجوار طبرية .

ولما كان في يوم الأربعاء - مُسْتَهْلُ السَّنة المَبَارَكَة - تَمَّمَ اللهُ عَلَى
 الْإِسْلَامِ بَرَكَاتِهَا - فَتَحْنَا الْخَزَائِنَ . وَبَذَلْنَا الْأَمْوَالَ . وَفَرَقْنَا السَّلَاحَ . وَجَمَعْنَا
 الْعُرَبَانَ وَالْمُطَوَّعَةَ ^(١) ، وَاجْتَمَعَ خَلْقٌ لَا يَحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى . وَجَاءُوا مِنْ
 كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَحِيقٍ . وَلَمَّا رَأَى الْعَدُوُّ ذَلِكَ أَرْسَلَ
 يَطْلُبُ الصَّلْحَ ، عَلَى مَا وَقَعَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ . فَأُثْبِتْنَا . وَلَمَّا
 كَانَ اللَّيْلُ ، تَرَكُوا خِيَامَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَتَقَالَهُمْ . وَقَصَدُوا دِمِياطَ هَارِبِينَ .
 وَنَحْنُ فِي آثَارِهِمْ طَالِيِينَ . وَمَا زَالَ السَّيْفُ يَفْعَلُ فِي أَدْبَارِهِمْ . عَامَّةَ اللَّيْلِ .
 وَحَلَّ بِهِمُ الْحَرْبُ وَالْوَيْلُ .

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا نَهَارَ الْأَرْبَعَاءِ قَتَلْنَا مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، غَيْرَ مَنْ أُلْقِيَ نَفْسُهُ فِي
 اللَّجَجِ . وَأَمَّا الْأَسْرَى فَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا خَرَجَ . وَالتَّجَأَ الْإِفْرَنْجِيُّ إِلَى
 الْحِمَّةِ ^(٢) ، وَطَلَّبَ الْأَمَانَ فَأَمْسَاهُ ، وَأَخَذْنَاهُ وَأَكْرَمْنَاهُ . وَتَسَلَّمْنَا دِمِياطَ بَعُورٍ
 اللهُ تَعَالَى ، وَقُوَّتُهُ وَجَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ . وَذَكَرَ كَلَامًا طَوِيلًا .

(١) فِي النِّسْخَةِ (ك) : الْعُرَبَانَ الْمَطَوَّعَةَ ، وَفِي (ع) الْعُرَبَانَ وَالْمَطَوَّعَةَ . وَلَكِنَّا وَرَدَتْ فِي الْمَرَايِجِ الْأُخْرَى مِثْلَ
 السُّلُوكِ وَالنَّجْمِ الزَّاهِرَةِ : « الْعُرَبَانَ وَالْمَطَوَّعَةَ » - وَهَكَذَا أَثْبَتْنَاهَا فِي الْمَنْزُومِ .

(٢) هِيَ « مَنِيَّةُ أَبِي عَبْدِ اللهِ » ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْقَرْيَةُ مُوجُودَةً إِلَى الْيَوْمِ ، وَاسْمُهَا « مَنِيَّةُ الْخَوَلِ عَبْدِ اللهِ » ، وَتَقَعُ
 عَلَى الشَّاطِئِ الْشَّرْقِيِّ لِقَرْعِ دِمِياطَ مِنَ النَّيْلِ ، وَتَتَّجِعُ مَرْكَزَ قَارْمَكُورَ بِمَحَافِظَةِ الدِّقْهَلِيَّةِ .

وَبَعَثَ مَعَ الْكِتَابِ غِفَارَةً^(١) رِيدًا فَرَنْسَ إِلَى الْأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ ،
فَلَبِسَهَا . وَهِيَ إِسْقِلَاطٌ^(٢) أَحْمَرٌ ، تَحْتَهُ سِتْجَابٌ^(٣) ، وَفِيهَا شَكْلٌ يُكَلِّةٌ^(٤)
ذَهَبٌ . فَتَقَطَّمَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ ، بْنُ الْخَضِرِ بْنِ إِسْرَائِيلَ ، مُقَطَّعَاتٍ
ثَلَاثًا ، ارْتَجَالًا ، وَهِيَ :

إِنْ غِفَارَةُ الْفَرَنْسِيِّسِ الَّتِي جَاءَتْ حِجَابًا لِسَبْدِ الْأُمَرَاءِ
كِيَاضِ الْقِرَاطِاسِ لَوْنًا ، وَلَكِنْ صَبَعَتْهَا سَيْوْفُنَا بِالْذَّمَاءِ

وقال - مخاطبُ الأميرِ جمال الدين :

يَا وَاحِدَ الْعَصْرِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَجُوزُ فِي تَيْلِ الْمَعَالِي الْمَدَا
لَا زِلَتْ فِي عِزٍّ وَفِي رِفْعَةٍ تَلْبَسُ أَسْلَابَ مُلُوكِ الْعِدَا

(١) الغفارة : المعطف . جمعها غفار .

(ملوك - زيادة ج ١ - ق ٢ - ٣٥٧)

(٢) هكذا في (ع) . وفي الملوك واشكرلاط ، وفي النجوم الزاهرة : وسقراط ، وهو نوع من القماش لونه
قرمزي ، كان يرد من بلاد أيرلند .

(ملوك : زيادة - ج ١ - ٣٥٧)

وفي النجوم الزاهرة (ج ٦ - ص ٣٦٨ . حاشية ٢) : سقراط : ملابس صوفية مدققة (عن القاموس
الفرنسي الإنجليزى) .

(٣) فرو سنجاب .

(٤) الكلة : معرب اللفظ الفرنسي ومعناه : شبك .

(ملوك - ج ١ - ٣٥٧)

وكتب عن الأمير جمال الدين مُقَدِّمَةُ كتاب ، للسلطان :

أُسَيْدَ أَمَلَاكِ الزَّمانِ بِأَسْرِهِمْ تُنَجِّزَتْ مِنْ نَصْرِ الْإِلَهِ وَوَعْدِهِ
فَلَا زَالَ مَوْلَانَا يُسَبِّحُ حَمْدَ الْعِدا وَيُلَيْسُ أَسْلَابَ الْمُلُوكِ عِيْدِهِ

ولما وصل هذا الكتابُ بهذه البشرى ، اجتمع عَوَّامُ دِمَشْقَ فِي
الْعَشْرِينَ مِنَ الْمَهْرَمِ وَدَخَلُوا كَنِيسَةَ مَرْيَمَ بِالْمَقَانِ وَالْبِشَائِرَ ، وَهَمُّوا بِهِذْمِهَا .
وَأَمَّا النَّصَارَى يَبْعَلُوكَ فَيَقَالُ إِنَّهُمْ سَوَّدُوا وَجْهَ الصُّورِ ، الَّتِي فِي كَنَائِسِهِمْ ،
حُزْنًا عَلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ . فَعَلِمَ بِهِمْ مَقُولَى الْبَلَدِ ، فَجَنَّتْهُمْ جَنَابَةً شَدِيدَةً (١) ،
وَأَمَرَ الْيَهُودَ بِصَفْعِهِمْ وَضَرْبِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ .

وَفِيهَا نَفَى السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ الْمَلِكُ السَّعِيدُ مُجِيرَ الدِّينِ حَسَنَ ، بِنِ
الْمَلِكِ الْعَزِيزِ عُثْمَانَ ، بِنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ أَبِيهِ - مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ
إِلَى الشَّامِ . وَوَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ ، وَاعْتَقَلَ بِعَرْمَتَا (٢) ثُمَّ أَفْرَجَ عَنْهُ ، عَلَى
مَا نَذَرَهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ذِكْرُ مَقْتَلِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ

كَانَ مَقْتَلُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ، السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ
الْمُحَرَّمِ ، سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ

(١) أَيْ : عَاقِبِهِمْ عَقْرَةً شَدِيدَةً .

(٢) مَضْبُوطَةٌ هَكَذَا بِالْقَلَمِ فِي (ع) ، بِشَكْوَى عَلَى الرَّأْيِ . وَهِيَ قَلْعَةٌ قَرِيبُ دِمَشْقَ .

وسبب ذلك أنه لما ملكَ شرع يُبيدُ ممالك والده وغلماؤه ووزرائه .
ويُقرَّبُ غلمانَه الذين وصلوا معه من بلاد الشرق وجعلَ خادِمَه الطواشي
مسرورَ أستاذَ داره^(١) ، والطواشي صبيح أمير جَانْدَار^(٢) - وكان عبداً حبشياً
فحلاً - وأمر أن يُصاغَ عَصَاةٌ من ذهب ، وأنعم عليه بالأموال والإقطاعات .
وتوعد جماعةً من ممالك والده ، وأهانتهم . وكان يسميهم بأسمائهم ، من غير
أن يثقتَ أحداً منهم .

وكان قد وعدَ فارس الدين أقطاى بالإمرة ، فلم يَفِ به . فاستوحشَ
منه . وكانت والدَةُ خليل - سُرِّيَّة أبيه - قد توجهت إلى القلعة لَمَّا وصل إلى
الشام ، فأرسل إليها بتهنئتها ، ويطلب منها الأموال والجواهر . فيقال إنها
خافته ، وكسبت إلى المالك الصالحية بسببه .

فاجتمع منهم جماعة ، وانفقوا على قتله . فلما كان يوم الإثنين - سادس
أوسابع عشرين المحرم . جلس السلطان على السَّمَاط ، واجتمع الأمراء على
العادة . فلما تفرقوا ، تقدم أحد ممالك والده ، وضربَه بالسيف . فالتقى
الضربة بيده ، فانهزم الضاربُ فقامَ السلطان ، ودخل إلى بُرجٍ خشب كان
في خِيَمَتِهِ ، وقال : من ضَرَبَنِي ؟ قالوا : الْحَشِيشِيَّةُ^(٣) . فقال : لا والله ،

(١) سبق شرحه غير مرة . معناه . المشرف على القصور السلطانية .

(٢) سبق شرحه غير مرة . معناه . الحاجب الأول أو الأمين الأول .

(٣) يفسدون من طائفة الحشيشية أو الحشاشين ، وهو الأسم الذي أطلق على طائفة الباطنية من الشيعة
الإسماعيلية ، الذين كانوا أتباع الحسن بن الصباح ، الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الهجري ، وفق
أتباعه يتوارثون مذهبه ، وكانوا يبيعون أعيان خصوصهم .

إِلَّا الْبَحْرِيَّةُ ^(١) ! وَاللَّهِ لَا أُثْبِتُ مِنْهُمْ بَقِيَّةً ! وَقَدْ عَرَفْتُ الضَّارِبَ وَاسْتَدْعَى
الْجَرَائِحُ ^(٢) لِيَحِيطَ بِهِ

فاجتمع الجماعة الذين اتفقوا على قتله ، وهجموا عليه ، وبأيديهم
السيوف مَجْدُوبَةٌ . فهرب إلى أعلى البُرج . وأغلق بابه . فحرقوه بالنار ،
فنزَلَ مِنَ البُرج ، وهرب إلى البحر . فأدركوه ، وضربوه بالسيوف ! فَرَمَى
نفسه في البحر ، وهو يستغيثُ بهم . وتعلق بذيل أَقْطَاى . واستجارَ به ،
لما أجارَه . وهو يقول : دَعُونِي أَعُودُ إِلَى الْحَصَنِ ، فَوَاللَّهِ مَا أُرِيدُ الْمُلْكَ .
وهم لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى قَوْلِهِ . وقتلوه و الماء ، فمات قَتِيلًا حَرِيقًا غَرِيقًا ! وكانت
مدةُ سلطته واحدًا وسبعين ^(٣) يومًا . وانهمز أصحابه الذين وصلوا صُحْبَتَهُ
من الشُّرُق ، واختفوا .

وكان الذين باشروا قتلَ الملك المعظم ، من ممالك أبيه . أربعة
حُكْمَى عَنْ سَعْدِ الدِّينِ مَسْعُود . بن تاج الدين شيخ الشيوخ . أنه قال .
أخبرني صادقٌ أَنَّ السُّلْطَانَ الْمَلِكَ الصَّالِحَ ، لما أَمَرَ الطَّوْاشِي مُحْسِنِ الْخَادِمِ
بِقَتْلِ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ - أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِكِ مَنْ يَحْتَقُّهُ ، فَرَضَ
مُحْسِنٌ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمَالِكِ ، فامتنعوا بِأَسْرِهِمْ . إِلَّا هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ ،
فإنهم أَجَابُوهُ وَتَوَجَّهُوا مَعَهُ ، وَخَتَقُوا الْمَلِكَ الْعَادِلَ . فَسَلَّطَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْمَعْظُمِ هَذَا . فَفَتَنَهُ

(١) يقصد : طائفة المالك البحرية . وهم المالك الذين جلبهم أبوه الملك الصالح أيوب ، وأسكنهم قلعة جزيرة
الروضة ، فعرفوا بالبحرية ، نسبة إلى بحر النيل . وهم الذين سيزنون الدولة

(٢) أى الجراح الطبيب .

(٣) في النسخة (ك) : «أحد وسبعون» ، وفي النسخة (ع) : «أحد وسبعين» .

قال أبو المظفر يوسف بن سينا ابن الجوزي : وحكى لي الهادي بن
درباس ، قال : رأى جماعة من أصحابنا الملك الصالح نجم الدين في المنام ،
وهو يقول :

قَتَلُوهُ شَرُّ قَتْلِهِ صَارَ لِلْعَالَمِ مَثَلَهُ
لَمْ يُرَاعُوا فِيهِ إِلَّا^(١) لَا ، وَلَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُ
سَرَاهِمَ عَنْ قَلِيلٍ لَأَقْلُ النَّاسِ أَكْلَهُ

والملك المعظم هذا هو آخر ملوك الدولة الأيوبية ، بالديار المصرية ،
المستقلين بالملك . وملكت بعده شجرة الدر . { (١) } ع

٨٣١

ذكر ملك شجرة الدر : والدة خليل
سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال : ولما قُتِلَ الملك المعظم ، اتفق الأمراء الصالحية والبحرية على
إقامة شجرة الدر^(٢) - سُرِّيَّة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب - وحلفوا
لها ، واستحلفوا جميعَ العساكر الشامية والمصرية .

(١) أخذنا من قوله تعالى : « لَا يَرْثُونَ فِي شَيْئٍ إِلَّا وَلَانِثٌ » .

أي عهداً .

(٢) هكذا دائماً في (ع) وشجرة الدر ، وكلنا في كثير من المراجع .

وكانت المتأشير والتواقيع تخرج باسمها . ويكتب عليها ما صورته :
والدة خليل . ويكتب الموقع : خرج الأمر العالى المولوى السلطانى
الحائزنى الصالحى ، الجلالى العصى الرحيمى - زاده الله شرفاً ونفاذاً .
وقد شاهدت منشوراً منها ، هذه ترجمته . وتواقيعها موجودة بأيدي الناس .
إلى وقتنا هذا . وخطب باسمها على المنابر . واستقر الأمير عز الدين أيلك -
التركماني الصالحى - أتاك العساكر .

ذكر استعادة نهر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس

قال : ثم حصل الاتفاق بين الأمراء وريدا فرنس - ملك الفرنج -
على أن يسلم نهر دمياط ، ويخيل إليهم وظيفة^(١) تقرر بينهم ،
ويطلقوه . فسلم إليهم النهر في يوم الجمعة ، ثالث صفر ، سنة ثمان وأربعين
وسمائه . وتوجه هو - وأخوه وزوجته ، ومن بقى من الفرنج - إلى بلادهم .
فكانت مدة استيلائهم على النهر أحد عشر شهرا ، وتسعة أيام .

ذكر خلع شجر الدر نفسها من الملك

وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية

كان سبب ذلك أن الأمراء اتفقوا على أن يتزوج الأمير عز الدين أيلك
التركماني شجر الدر ، فتزوجها ، وخلعت نفسها من الملك ، وسلمت

(١) مبلغاً معيناً من المال يُدفع في ميّاد مقرر .

السُّلْطَنَةُ إِلَيْهِ - فِي التَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ مِنَ السَّنَةِ . وَكَانَتْ
مُدَّةُ مُلْكِهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَقَدْ قَبِلَ إِنْ زَوَّجَهُ بِهَا كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ
وَسِتِّينَ

وَانْتَصَبَ الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ فِي السُّلْطَنَةِ ، وَتَلَقَّبَ بِالْمَلِكِ الْمُعِزِّ . وَأَقَامَ
مَعَهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ : مُظَفَّرُ الدِّينِ مُوسَى ، بِنُ صَلاَحِ الدِّينِ يَوْسُفَ ، بِنُ
الْمَلِكِ الْمَسْعُودِ صَلاَحِ الدِّينِ أَقْسِمُسَ مَلِكِ الْيَمَنِ ، بِنُ الْمَلِكِ الْكَامِلِ - وَكَانَ
عَمْرُهُ سِتِّ سِنِينَ . فَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا ، ثُمَّ حَاجَبَهُ الْمَلِكُ الْمُعِزُّ ، وَاسْتَقَلَّ
بِالْمَلِكِ .

وَانْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْأَيُّوبِيَّةُ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ . (١٧٠)

(١٧١) [الْأَيُّوبِيُّونَ فِي غَيْرِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ (١)]

وَبَقِيَ مِنْ مُلُوكِهَا مَنْ نَذَرُوهُمْ : بِالشَّامِ - وَحِصْنِ كَيْفَا . وَنَصِيبِينَ .
وَمِثَافَارِقِينَ . وَهُمْ :

الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَلاَحِ الدِّينِ يَوْسُفَ . بِنُ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ غِيَاثِ الدِّينِ
مُحَمَّدَ ، بِنُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ غِيَاثِ الدِّينِ غَازِي ، بِنُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلاَحِ الدِّينِ
يَوْسُفَ بِنِ أَبِي بِنِ شَادِي - صَاحِبِ دِمَشْقَ وَحَلَبَ وَحِمَصَ ، وَمَا مَعَ
ذَلِكَ

(١) وَضَعْنَا هَذَا الْعَنْوَانَ وَلَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِي النُّسخَةِ (ع) ، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لِيُذَلَّ عَلَى الْمَوَادِّ الْقَادِمَةِ ، وَهِيَ تُكُونُ
فَصْلًا مُسْتَقْلَمًا بِذَاتِهِ ، بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ مِنْ مِصْرَ .

وليس من الذُرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ من يُخْطَبُ له بِمَمْلَكَةٍ ، سِوَاهُ .
ومن الذُرِّيَّةِ العَادِلَةِ من نَذَرَهُمْ ،
وَهُمْ :

الملك الْمُغِيثُ فَتَحُ الدِّينِ عَمْرُ ، بن الملك العادل سيف الدين أبي
بكر . بن الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن الملك العادل سيف الدين أبي
بكر محمد . بن أيوب - صاحب الكَرْكِ والشُّوَبَكِ .

والملك الْمُوَحَّدُ : تَقَى الدِّينِ عَبْدِ اللَّهِ . بن الملك المعظم غياث الدين
تُورَانْشَاهُ . بن الملك الصالح نجم الدين أيوب - صاحب حصن كَيْفَا
وَنَصِيبِينَ . وَأَعْمَالُ ذَلِكَ .

والملك الكامل ناصر الدين محمد . بن الملك الْمُظْفَرُ شَهَابُ الدِّينِ
غَازِي . بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب - صاحب
مِيفَارِقِينَ

ومن الذُرِّيَّةِ الْأَيُوبِيَّةِ :

الملك المنصور ناصر الدين محمد . بن الملك المظفر تَقَى الدِّينِ مُحَمَّدُ
ابن الملك المنصور محمد . بن الملك المظفر تَقَى الدِّينِ أَبِي سَعْدِ عُمر . بن
شَاهِنْشَاهُ . بن أيوب - صاحب حَاجَه .

هؤلاء بنو أيوب

ومن الذرية الْأَسَدِيَّةِ : شِيرَكُوهُ بن شَادِي

الملك الْأَشْرَفُ مظفر الدين موسى . بن الملك المنصور إبراهيم . بن
ملك المجاهد أسد الدين شيركوه . بن الأمير ناصر الدين محمد . بن الملك

المنصور أسد الدين شيركوه ، بن الأمير ناصر الدين محمد ، بن الملك المنصور
 أسد الدين شيركوه بن شادى - صاحب تلّ باشير والرحبة .
 وسنورد فى هذا الموضع نبذاً من أخبارهم ، تدل على ملخص
 أحوالهم ، إلى حين وفاة كل منهم ، ومن قام بعده من أولاده ، إن كان -
 على سبيل الاختصار .

٣٦٦ أما السلطان الملك الناصر صلاح الدين
 يوسف ، بن الملك العزيز ، بن الملك الظاهر ،
 ابن الملك الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب -
 فإنه كان يده مُلكُ حلب وأعمالها

ملك ذلك بعد وفاة والده الملك العزيز - كما تقدم - فى سنة أربع
 وثلاثين وستائة . ثم استولى على حمص ، فى سنة ست وأربعين وستائة :
 انتزعها من الملك الأشرف موسى ، بن الملك المنصور إبراهيم ، بن شيركوه .
 وعوّضه عنها تلّ باشير - وقد تقدم أيضاً . ثم استولى على دمشق .

ذكر استيلاء الملك الناصر على دمشق

وفى سنة ثمان وأربعين وستائة - بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه - تجهز
 الملك الناصر من حلب بعساكره ، فوصل إلى قاراً^(١) فى مستهل شهر ربيع
 الآخر .

(١) سبق ذكرها . وهى قرية كبيرة على الحدود بين أعمال حمص ودمشق وأهلها نصارى .

وسبب ذلك أن الأمراء القيمريين ، الذين بدمشق ، كاثبوه وباطنوه على أخذها فإن الأمير جمال الدين موسى بن يعقوب - نائب السلطنة بها - اتفق هو والأمراء الصالحية النجفية ، الذين كانوا بدمشق ، وتظاهروا . واجتمعت كلمتهم فتغيرت بواطن الأمراء القيمرية ، فكاثبوه ، فسار إلى دمشق . ولما اتصل خبر مقدمه بالأمير جمال الدين بن يعقوب ، أحضر الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان ، من قلعة عرّتا ^(١) إلى دمشق - وكان قد اعتقله بها - كما تقدم . وأنزله في دار فرخشاه .

وتقدم الملك الناصر بعساكره ، ونزل القصر . ثم انتقلوا إلى دارياً ^(٢) ، في يوم السبت سابع الشهر . وزحفوا على المدينة يوم الأحد ثامنه ، وجاءوا إلى باب الصغير - وكان مسلماً إلى الأمير صارم الدين القيمري ، وإلى باب الجابية وكان مسلماً إلى الأمير ناصر الدين القيمري . فلما انتهى العسكر الناصري إلى البابين . كثرت أقفالها من داخل المدينة ، وفتح البابين ، ودخل العسكر الناصري منها .

ونُهبت دار الأمير جمال الدين ، بن يعقوب ، وسيف الدين المشيد ونُهبت عسكر دمشق ، وأُخذت خيولهم من إسطبلاتهم . ودخل الأمير جمال الدين بن يعقوب القلعة ، وبها الملك المحاهد إبراهيم . ثم نودي بالأمان

(١) ذكرنا من قبل أنهم طائفة من أمراء الحند الأكراد ، ينسبون إلى جبل قير ببلاد الأكراد .

(٢) هكذا هي مصبوطة في (ع) بالعلم . قلعة قرب دمشق .

(٣) قرية كبيرة من قرى دمشق بالموطة . مر ذكرها .

ونزل الملكُ الناصر في دِهْلِيْزَ^(١) ضُربَ له بالمِئْدَانِ الأخضرِ . ونزل الأميرُ شمس الدين لُؤْلُؤُ - أَتَابِكُهُ - في الجَوْسَقِ^(٢) العادِلِ . ثم انتقل الملكُ الناصر بعد ذلك إلى القلعة ، واستولى على ما بها من الخزائن والذخائر . واعتقل الأميرَ جمال الدين بن بَغْمُورَ ، ثم أفرَجَ عنه وأَحْسَنَ إليه . واعتقلَ الأمراءَ الصَّالِحِيَّةَ ، وأرسلهم إلى الحصون ، وأَقَطَعَ أصحابَهُ أَجْبَازَهُمْ^(٣)

وكان الملكُ الناصر داود - بن الملك المعظم - قد نزل بالعُقَيْبِيَّةِ^(٤) ، فجاءه الملكُ السعيدُ بن الملك العزيز عثمان ، فبات عنده ليلة . ثم هرب إلى قلعة الصُّبَيْبِيَّةِ^(٥) - وكان بها أحدُ خدامه ، وقد كاتبه - فوصل إليها وفتح له الباب ، فدخلها واستقرَّ بها .

وتَسَلَّمَ الملكُ الناصر داود بعلبك من الحُمَيْدِيِّ . وتسلم بُصْرَى وصَرْخَدَ . ثم قَبَضَ عليه الملكُ الناصر يوسف بعد ذلك - في ثاني شعبان من السنة . وذلك أن السلطان كان قد مرض ونزل بِالْمِيزَةِ^(٦) ، ونزل الناصر داود بالقصر بالقَابُؤُنِ^(٧) ، فأرسل إليه الأميرَ ناصر الدين القَيْمَرِيُّ ونظامَ الدين بن المَوْلى . فأحضراه إلى المِيزَةِ ، وضُربتَ له خيمةٌ واعتُقِلَ بها .

(١) سِرْدَقِ كَبِيرِ

(٢) الجَوْسَقُ - قصر

(٣) أى إقطاعاتهم التي يتناولون منها مرتباتهم .

(٤) ضاحية بدمشق . سبق ذكرها غير مرة .

(٥) هي قلعة بانياس . من أرض دمشق .

(٦) قرية وسط بساتين دمشق ، بينها نصف فرسخ .

(٧) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد . وسط البساتين

واختلِف في سبب القبض عليه : فقِيل أنه كان قد طلب من السلطان دُسْتُوراً إلى بغداد ، فأذن له وأعطاه أربعين ألف درهم ، فأنفقها في الجُتْد وعَزَم على قصد الديار المصرية . وقيل : إن الملك الصالح إسماعيل جاءه كتاب من الديار المصرية ، فأوقف الأتابك شمس الدين تولو عليه . وأخبر القاصدُ أنه أحضر إلى الناصر داود كتاباً ، فستل عن ذلك ، فأنكره . فتيَم عليه السلطان بسبب ذلك . وقيل : بل أشار عليهم الملك الصالح إسماعيل بالقبض عليه ، وقال أنتم ما تعرفونه . نحن نعرفه . وأنتم على قصد الديار المصرية ، والمصلحة أن لا نتركه خلفنا . ولا نستصحيه .

فقبِض عليه ، واعتُقِلَ بالمِرَّة أياًماً . ثم نُقل في قلعة حمص ، واعتقل بها . وأُسْكِنَ أهلُه ووالدته وأولاده في خانقاه الصوفية ، التي بناها شيلُ الدولة كافور الحُسامي . ثم نُقل إلى البُوَيْضَا - وهي قرية قِبلَ دمشق ، كانت تكون لعمه الملك المُعزِّ مجير الدين يعقوب بن العادل . وتوفي بها ، كما تقدم .

ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر
يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد . وما جهزه صحبته
من الهدايا والتقادم . وما أورده الرسول في
الديوان العزيز من كلامه

ولما استولى الملك الناصر على دمشق ، جهز الصحاب كمال الدين
أنا حصص عمر بن أبي جرّاده - المعروف بابن العديم^(١) إلى الديوان
العزيز^(٢) .

قال تاج الدين علي بن أنجب - المعروف بابن السّاعي - في تاريخه :
كان وصول كمال الدين بن أبي جرّاده إلى بغداد ، في شعبان ، سنة ثمان
وأربعين فأكرم ، وخرج إلى لقائه مؤكّب الديوان العزيزي ، مُصَدِّراً بِعَارِضِ
الجيش ، مُجْتَنِّحاً بِخَادِمِينَ مِنْ خَدَم الدار العزيزة . فالتقاه ظاهر البلد ،
ودخل معه . وقبّل صخرة باب الثّوبى على العادة ، وانكفأ إلى حيث أنزل

(١) هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ... بن أبي جرادة عامر بن ربيعة ... العقيلي الحلبي الفقيه الحنفي ،
الكاظم المعروف بابن العديم . مولده بحلب سنة ٥٨٦ هـ . وسمع الحديث من أبيه وعمه ، وحدث بالكثير في
بلاد متعددة . ودرس وأفتى وصنف . كان إماماً علماً قاضياً . وهو أحد الرؤساء المشهورين والعلماء
المذكورين وجمع لحلب تاريخاً كبيراً في غاية الحسن . وتاريخ وفاته سنة ٦٦٥ هـ .

(التجويد الزاهرة : ج ٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩)

(٢) هو ديوان الخلافة ببغداد . والخليفة إذ ذاك كان هو المستصم بالله .

وَحَصَّرَ - في اليوم الثالث من قدومه - دار الوزير ، وأدى رسالته .
وعرض ما صحبه من ثُحف وهدايا . ومن جملة ذلك : دار خشب بديعة
الصنعة ، وخمسة وعشرون^(١) جملاً ، وعشرة أرؤس من الدواب : منها
أربع بغلات ، وبقيتها من جِيَاد الخيل ، مُجَلَّلة بِالْأَطْلَس [وَزَرْدِيَّاتٌ^(٢)]
وَحُوذ - عمل الفرنج - ومائة وخمسين طَفَشاً^(٣) ، وثلاثمائة تُرْس لليد ،
وعشرين ثوباً سِقْلَاط^(٤) . ومن الثياب : الْأَطْلَس [والرُوسى والخِطَائى^(٥)]
والمُتَوَج ، ومَقَاصِير ونَقَائِر وخياشي مذهبة ، وحريري ألف وخمسمائة
قطعة ، وصناديق بها أواني ذهب وفضة مجوهره ، وثلاثمائة مُجَلَّد بخطوط
مَثُوبَة ، وأصول صحيحة الضَّبْط ، ومُصحف كرم بخط ابن الحَازِن ،
وكتب عليه من نظمه قوله :

«وَعَلَيْكُمْ تَزَلُ الْكِتَابُ وَفِيكُمْ إِلَى رَبُّوعِكُمْ نَحْنُ وَنَزَجُ»

(١) في النسختين : «وعشرين» .

(٢) ما بين الحاصرتين غير موجود في النسخة (ك) ، فأُثْبِتَهُ من النسخة الأخرى (ع) .

(٣) هكذا رَسَمَهَا وَضَبَطَهَا في (ع) ، والكلمة ليست عربية ، ولكنها - فبايدو - فارسية ، معناها : الكتانة أو
الجبعة التي توضع فيها السهام ، أصلها تَرَكَاش أو طَرَكَاش .

(٤) انظر الكلمة الأخيرة في : السلوك - زيادة ج ١ - ص ٣٧١ في (٢) .

(٥) سبق تفسيره . وهي ثياب صوفية ، كانت ترد من الخارج .

(٥) نسبة إلى بلاد الخطا ، من بلاد الترك في أواسط آسيا .

قال : وكان قد جلس له الوزيرُ في الشُّباكِ العَالِي . وجَلَسَ بين يديه على الصُّفَّةِ الطويلة ، ظاهرَ الشباك ، حاجباً باب الثُّوبى - وذكر جماعة . قال : ثم أُذِنَ للرسول في الدخول ، وجَلَسَ إلى جانب حاجب باب الثُّوبى . وقرأ القُرَّاء ، ثم نهض الرسولُ ، وخطب خطبةً بليغة من إنشائه . قال ابن أنجب : وكنت حاضراً ومن خطبهُ الراقى نقلتها ، وهذه نسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله الذى أَسْبَغَ علينا جَزِيلَ النِّعْمَةِ . وَدَفَعَ عَنَّا وَبِيلَ النِّقْمَةِ . وَمَنَّ عَلَيْنَا بِالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَالْأُئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ . وَجَعَلَنَا بِاِقْتِضَاءِ آثَارِهِمُ وَالْاهْتِدَاءِ بِأَنْوَارِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ .

أَحْمَدَهُ عَلَى هَيَاتِهِ السَّنِيَّةِ ، وَصِلَاتِهِ الْهَيِّنَةِ . وَمِنَنِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِحَدِّ وَنَعْمِهِ الَّتِي لَا تُسْتَقْصَى بِعَدِّ - حَمْدُ مَنْ لَزِمَهُ الْحَمْدُ وَوَجِبَ . وَنَمْسُكُ مِنَ الطَّرِيقَةِ الْمُتَمَلِّى بِأَقْوَى سَبَبٍ . وَأَحَلَّنَا اللَّهُ دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ .

وأشهد أن لا إله الله وحده ، شهادةً من أزال عنه الشكَّ ونفى ، وَخَلَّصَ مِنْهُ الْإِيمَانَ وَصَفَا . وَتَبَوَّأَ مِنْ مَنَازِلِ الْفَوْزِ غُرْفَاً ، وَاكْتَسَبَ بِطَاعَةِ إِمَامِهِ فَخْرًا وَشَرَفًا . وَأشهد أن محمداً عبده المصطفى المُجْتَبَى ، وَرَسُولُهُ

الذى اقْتَمَدَ ذِرْوَةَ الشَّرَفِ واحتَبَى . وثَبَّأَ على المَقَامَاتِ رُكْبًا . وَفَضَلَ
العَالَمِينَ أَضْلًا وَنَسَبًا - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه . ما هَبَّتْ شَمَالُ
وَصَبَا .

والصلاة والسلام على قَسِيمِ النَّبِيِّ في النَّسَبِ ، وَشَرِيكِهِ في مَدَارِجِ
الْفَخَارِ وَالرُّكْبِ . وَاحِدِي مَالِهِ مِنَ الْمُنَاقِبِ وَالْحَسَبِ : خَلِيفَةِ اللَّهِ في أَرْضِهِ .
القَائِمِ بِسُنَّتِهِ وَفَرَضِهِ . الْمُسْتَحْرَجِ مِنْ عَثْرَةِ النَّبَوَةِ ، الْمَخْصُوصِ بِفَضِيلَتِي .
الْعِلْمِ وَالْأَبُوَّةِ :

إمام الزمان ، الْمُتَهَجَّدُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ . الذى هَجَرَ في حِفْظِ دِينِ اللَّهِ
وَسَنَّتِهِ ^(١) . وَدَعَا إلى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . ذِي الْفَضْلِ
الْمُبِينِ . وَالْحَقِّ الْبَقِيَّةِ . الْإِمَامُ الْأَوَّاهُ : الْمُسْتَعَصِمُ بِاللَّهِ . أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢)
لَا زَالَتْ جِبَاهُهُ الْمُلُوكِ الْعِظَمَاءُ بِتَرَى عَتَبَاتِهِ الشَّرِيفَةَ مَوْسُومَةً . وَأَرْزَاقُ الْعِبَادِ
بِمَا جَرَى مِنْ أَوَامِرِهِ اللَّطِيفَةِ مَقْسُومَةً . وَالْأَفْضِيَّةُ وَالْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ بِمَا يُوَافِقُ
حُكْمَهُ وَمَرْسُومَهُ . وَالْأَفْذِيَّةُ وَالْأَقْدَارُ بِطُولِ بَقَائِهِ مُثْقَلَةٌ مَحْسُومَةٌ :

ماذا يَقُولُ الذى يَتَلَوُ مدَائِحَهُ وَقَدْ أَثْنَتْهَا بِهَا الْآيَاتُ وَالسُّورُ
إِنْ قَالَ ، فَالْقَوْلُ يَفْنَى دُونَ غَايَتِهَا وَإِنْ أَطَالَ ، فَقِي تَطْوِيلُهُ قِصْرُ
خَلِيفَةِ اللَّهِ ، لَا تُحْصَى مَنَاقِبُكُمْ إِنْ الْبَلِيغَ بِهَا فِي حَضَرِهَا حَصِيرٌ ^(٣)

(١) الرَّسَنُ : العَاسُ ، أَوِ النَّوْمُ .

(٢) هُوَ الْخَلِيفَةُ وَالتَّعَصُّمُ : أَنْعَرُ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ يَبْدَادُ (٦٤٠ - ٦٥٦) . وَكَانَ وَصُولُ ابْنِ الْعَدِيمِ إِلَى
دِيَرَاتِهِ فِي عَامِ ٦٤٨ هـ .

(٣) حَصِيرٌ : أَيْ غَيِيٌّ .

أما الشفاعة عنكم في المعاد لنا لدى الكبار والزلات ندخر
أما الذي من نذاكم جاد صييه^(١) من بعد ماضٍ . فاستسقى به عمر^(٢)
فالغيث في هذه الدنيا لنا بكم والعوث زجوه في الأخرى ونسظر

وبعد : فإن الله - وله الحمد - جعل لنا أئمة خيرة ، راشدين بررة .
يُهتدى بهداهم ، ويُجتدى^(٣) نذاهم . دفع عنا الشبه والياس ، ورفع بهم
الثقة والالتياس . وآخر نسل عم نبيه العباس . من تمسك بهداهم اعتدى .
ومن حاد عن طريقهم حاد^(٤) الله واعتدى . بحبهم يذكرك الأمل والسؤل .
وطاعتهم مقرونة بطاعة الله والرسول . تعظيمهم واجب مفترض .
وبمؤالاتهم يذكرك الفوز والغرض . أقرب الناس إلى الله من هو في ولايتهم
عريق ، وأولاهم بالنجاة من هو في بحر محبتهم غريق .

ولما كان عبد الديوان العزيز : يوسف بن محمد بن غازي -
المستغصمي^(٥) - ممن تقمص لباس هذه الأوصاف ، وتخصص باقتباس
هذه الشيم الشراف . وتردّى بالتمسك في هذه الحلة الجميلة . وتبدى
بالتسك بهذه الحلة الجليلة . واعتدى متقلبا في صدقات الديوان . واعتدى

(١) الضيب : المطر المنير .

(٢) يشير هنا إلى حادث تاريخي ، وهو أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما أصاب الناس الجذب ، خرج فصل
صلاة الاستسقاء ، واستشفع بالعباس عم النبي - عليه الصلاة والسلام فأجاب الله دعاءهم . والعباس هو
جد الخلفاء العباسيين .

(٣) يُطلب .

(٤) شاق .

(٥) نسبة إلى الخليفة المستعصم ، علامة على الولاء .

من نِعَمِهِ بِلِيَانِ الْإِحْسَانِ ، وَوَرِثَ وَلَاءَ هَذَا الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ الْفَاخِرِ ، كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَأَصْبَحَ أَوَّلًا فِي الْعُبُودِيَّةِ . وَإِنْ أُمْسَى زَمَنُهُ الْآخِرُ . وَكَانَ أَحَقُّ الْعَبِيدِ بِأَنْ يُقْبَلَ - لِسَلَفِهِ سَوَالِفِ الْخِدْمِ . وَأَوَّلَاهُمْ بِأَنْ يُسَبَّلَ عَلَيْهِ مَعَاطِفُ أَذْيَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ - أَحَبُّ أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ آثَارُ هَذِهِ الثَّغْمَةِ . وَأَنْ يُدْرَكَ بِهَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا يَرْجُو فِي الْآخِرَةِ الرَّحْمَةِ .

فَارْتَادَ مِنْ رَعِيَّتِهِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي تَقْيِيلِ الْأَرْضِ ، وَيَقِفُ عَنْهُ هَذَا الْمَوْقِفُ الْجَمِيلُ لِأَدَاءِ الْقَرْضِ . وَوَجَدَ هَذَا الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ - الْمَائِلَ بَيْنَ يَدَيْ مُولَانَا : سُلْطَانِ الْوُزَرَاءِ وَسَيِّدِ الْمُلُوكِ - أَقْدَمَهُمْ فِي وِلَايَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُعْظَمَةِ أَصْلًا ، وَأَبْلَغَهُمْ فِي مُوَالَاةِ الْمَوَاقِفِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَكْرَمَةِ نَسْلًا ، وَأَضْلَبَهُمْ ، عِنْدَ الْعَجْمِ ^(١) فِي دَعْوَى الرَّقِّ وَالْوَلَاءِ عُدَا . وَاثْبَتَهُمْ فِي التَّلَقُّقِ بِدَوْلَةِ الْحَقِّ وَالْإِنْتِبَاءِ عَمُودًا . فَتَدَبَّعُوا إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ . وَالنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ . وَالطَّوَّافِ حَوْلَ كَعْبَةِ الرَّجَاءِ وَالِاسْتِئْلَامِ . وَإِنْهَاءِ مَا تَجَدَّدَ مِنَ الْأَحْوَالِ بِمَصَرٍ وَالشَّامِ . وَأَنْ يَضْرَعَ إِلَى عَوَاطِفِ الْإِفْضَالِ ، وَمَشَارِعِ النَّوَالِ . وَيَخْضَعَ لِمَوَاقِفِ الْأَمَالِ ، وَشَوَارِعِ الْإِقْبَالِ فِي أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَقَّ الْآبَاءِ وَالْجُدُودِ .

وَقَدْ وَقَفَ الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ عَنْهُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْجَمِيلِ ، وَحَجَّ عَنْ قَرْضِهِ إِلَى كَعْبَةِ الْجُودِ وَالتَّامِيلِ . وَحَطَّى بِاسْتِئْلَامِ حَجَرِ رُكْنِهَا وَفَازَ بِالتَّقْيِيلِ . وَبَوَدَّ مُرْسِلُهُ لَوْ فَازَ بِهِ أَوْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلَ . فَإِنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ مِنَ الْقَبُولِ وَالثَّوَابِ . مَا أَفَاءَ عَلَى الْأَمَلِ وَزَادَ عَلَى الْحِسَابِ . وَتُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّيَوَانِ

(١) عَجْمُ الْعُرْدِ : اخْتِبَارُ مَدَى صَلَابَتِهِ .

العزير بصدقة ، يبق فخرها في الأعقاب . ولا يتسَخَّ حُكْمُهَا مَرَّ السَّيْنِ
والأَحْقَابِ . واللهُ تعالى يُسَبِّحُ ظِلَّ الديوان العزير على كَأَفَّةِ أَوْلِيائِهِ . وَيُمَتِّعُهُمْ
بدوام اقتدارِ سُلْطَانِهِ وطول بَقَائِهِ . وَيُوزِعُهُمْ ^(١) شُكْرَ مولانا سلطانِ الوزراء
وَجَزِيلِ آلائِهِ . وَيَتَوَلَّى حُسْنَ مُجَازَاتِهِ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُمْ عاجِزون . وَالْحَمْدُ لله
ربِّ العالمين . وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

قد سَيَّرَ عَبْدُ الديوان العزير : يوسف ، إلى الخزانِ المقدسة ، والمواطن
التي هي على التَّوَيُّ مُؤَسَّسَةً - خِدْمَةً عَلَى يَدِ أَقْلٍ مَمَالِكِ الديوان وعبيده من
طَائِفِ إِنْعَامِ الديوان الْعَمِيمِ وَكَلِيدِهِ ، وسالِفِ الإِحْسَانِ الْقَدِيمِ وَجَدِيدِهِ . وَهُوَ
يَضْرَعُ إِلَى الْعَوَاطِفِ الرَّحِيمَةِ ، وَيَسْأَلُ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ ، أَنْ يُنْعَمَ عَلَيْهِ
بِقَبُولِهَا . وَالتَّقَدُّمِ بِحَمَلِهَا إِلَى الْخَزَائِنِ الشَّرِيفَةِ وَوُصُولِهَا ، وَأَنْ يُكْسَى بِذَلِكَ
فَخْرًا لَا يَبْلَى جَدَّتَهُ مَرَّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ . وَلَا بُذْهَبُ نَضْرَتَهُ كَرَّرَ السَّيْنِ
وَالْأَعْوَامِ . وَالسَّلَامُ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ ، أَدِنَ الْوَزِيرُ مُؤَيَّدُ الدِّينِ بْنِ الْعَلْقَمِيِّ فِي إِحْضَارِ الْهَدَايَا
وَالْمَدِّ ، الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ ، فَأَدْخَلَ شَيْئًا فَشِيئًا - وَالرَّسُولُ قَائِمٌ - إِلَى أَنْ أُخْضِرَ
جَمِيعُهُ ، وَعُرِفَ قَبُولُهُ . ثُمَّ انْكَفَأَ إِلَى مَنَزَلِهِ ، وَاسْتَحْسِنَ إِيرَادَهُ ، وَاسْتَحْجَنَ
إِنْشَادَهُ وَزَيْدَ فِي اخْتِرَامِهِ ، وَبُولَغَ فِي إِكْرَامِهِ

[الحرب بين الملك الناصر والملك المعز]

وفي سنة ثمان وأربعين وستائة - أيضاً - كانت الحرب بين الملك الناصر . والملك المعز صاحب الديار المصرية .

وذلك أنه لما استقر له مُلكُ دِمَشقَ ، وأضافها إلى ما بيده ، حَسَنَ له أَتَابِكُهُ - شمسُ الدين لُؤْلُؤُ - والأمراءُ القِمَرِيَّةُ ، أن يَصِيدَ الديارَ المصرية ، ويتزعمها من الملك المعز : عزَّ الدين أَيْبُكُ التُّرْكُمَانِي . وكان شمسُ الدين لُؤْلُؤُ - المذكور - يستقلُّ عساكرَ الديار المصرية ، ويقول : أنا آخذُ الديارَ المصرية بمائتي قِنَاعٍ ^(١) ! .

فسار بجيوشه إليها . فخرج إليها الملك المعزُّ بالعساكر المصرية . والتَقُوا واقتتلوا بِمَنْزِلَةِ الكُرَاعِ ^(٢) ، بالقرب من الحَشْبِي ^(٣) . فكان الظفر له أولاً ، وبلغت الهزيمةُ بالعسكر المصري إلى القاهرة . ومنهم من قرأ إلى جهة الصَّعيد وذلك في يوم الخميس ، العاشر من ذى القعدة من السنة . واتصل خبرُ الهزيمة بمن بقلعة الجبل ، فخطب للملك الناصر بها - في يوم الجمعة الحادي عشر من الشهر .

(١) بقعد : بمائتي امرأة القِنَاع هو ما تقنع به المرأة .

(٢) حددها المقرئ بأنّها واقعة بين العباة والسدير .

(سلوك - ج ١ . ق ٢ - ٣٧٤)

(٣) أول الجفّار (المنطقة الرملية) من ناحية مصر (أي للقادم إلى مصر) ، يت وبين القساطر ثلاث مراحل . فيه خان .

(معجم البلدان : ج ٣ - ٤٤١)

وهو بين بليس والصالحية . يعرف اليوم بالسعيدية .

(سلوك زيادة : ج ١ . ق ٢ - ص ٣٧٤)

ولما حَصَلَتْ هذه الهزيمةُ على العسكرِ المِصرى . ثَبَتَ الملكُ المعزُّ في نحو ثلاثمائة فارس أبطال أصحابه . وحملَ بهم على الصَّانِجِ الناصرية ، رجاء أن يكون الملكُ الناصرُ تحنها . فيظفر به . وكان الملكُ الناصرُ قد احتاط لنفسه واعتزلَ المعركة . وَتَحَيَّرَ إلى فِدَةٍ . فرجَعَ إلى الشام - وصحبه نَوَافُ الرُّيَيدى ، وعلى السَّعْدَى . وكان من انهزام عساكره وتمزيق جيوشه . وَقَتَلَ أتابكُه ، ما تذكره في أخبار الملكِ المعز - جَرَّيًّا على القاعدة .

وكان الأتابكُ شمس الدين لؤلؤ قد أُسِرَ ، فأراد الملكُ المعزُّ إبقاءه ، وأشار عليه بذلك الأميرُ حسام الدين بن أبى على ، وقال : لا تَقْتُلْهُ ، فإنك تأخذ به الشام . فقال الأميرُ فارس الدين أَقْطَاى : هذا الذى يقول : إنه يأخذ مصرَ بمائتى قِنَاع ! فاضربوا عُنُقَهُ ! . وكان - رحمه الله تعالى - أَرْمَى الجِئْسَ ، صالحاً عابداً . يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ . وَقُتِلَ وقد نَافَ على ستين سنة .

ولما حَصَلَتْ هذه الوَقْعَةُ ، تَأَكَّدَتْ أسبابُ الوَحْشَةِ بين الملكين : الناصرِ والمُعزِّ ، وثارَتِ الفِتْنُ بينهما . وَتَجَرَّدَتِ الجيوشُ من كل من الطائفتين مُقَابِلَةَ الأخرى ، إلى أن قَدِمَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدين البادَرانى رسولُ الخليفة ، فأصلحَ بين الملكين . ووقَعَ الاتفاقُ على أن يأخذ الملكُ المعزُّ من الملكِ الناصرِ القُدْسَ وَغَزَّةَ . وجميعَ البلادِ الساحلية . فَسَلَّمَ ذلك . وحَلَفَ كُلُّ من الملكين لِلآخَرِ . ثم استعاد الملكُ الناصرُ ذلك من الملكِ المُعزِّ ، لَمَّا التحقَ بها الأمراءُ البَحْرِيَّةُ عند هربهم من الديارِ المصرية ، بعد مقتل الأميرِ فارس الدين أَقْطَاى - على ما نذكر ذلك - إن شاء الله تعالى . فلنذكرُ خلافاً ذلك من أخباره .

ذكر اتصال السلطان الملك الناصر

بأبنة السلطان علاء الدين كيقباز

وفي سنة اثنين وخمسين وسمائة ، وصلت الخاتون الكبرى ، ابنة السلطان علاء الدين كَيْقَبَازُ السَّلْجُقى ^(١) - صاحب الروم ^(٢) ، وأمها ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب - صُحْبَةَ الشريف عز الدين المرْتَضَى - وكان السلطان قد عَقَدَ نِكَاحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَرَفَّتْ إِلَيْهِ الْآنَ ^(٣) . ووصلت إلى دمشق ، واحتفل لها إحتفالاً عظيماً ، وتلقاها القضاة والأكابر ، وقَدَّمُوا لها التَّقَادِيمَ ^(٤) الكثيرة ، وتَجَمَّلَ الملكُ الناصرُ لِقُدُومِهَا تَجَمُّلاً ^(٥) ، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ .

وفي هذه السنة ، توفى الملك القاهر : نُصْرَةُ الدين بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - وهو عَمُّ والدِ الملك الناصر . وكانت وفاته بحلب - رحمه الله تعالى .

(١) هو علاء الدين كيقباز ، بن غياث الدين كبخيرو ، بن علاء الدين كيقباز .

(السلوك للمقرئى . ج ١ - ١ - ٢ - ٤٠٨)

ووفاته سنة ٦٥٥ هـ . فهو حفيد علاء الدين كيقباز ، الذى كان معاصراً للملك الكامل ، وسبقت أخباره منه فى المتن .

(٢) أى الدولة السلجوقية التى كانت ببلاد الروم (أى بآسيا الصغرى) .

(٣) كان الملك الناصر يوسف بن العزيز قد عَقِدَ لَهُ (فى سنة ٦٣٥) على ملكة خاتون أُنْتُ كبخيرو ، وهى بنت السلطان علاء الدين كيقباز (الذى كان معاصراً للملك الكامل) . وأم ملكة خاتون هذه هى بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، كان قد زوجها الملك المعظم عيسى بن العادل - صاحب دمشق - من السلطان كيقباز المذكور .

(أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر : ج ٣ - ص ١٦٦)

(٤) ج : تقديمه . وهى الهدية .

(٥) أى أقام الزينات والمظاهر ، التى تدل على بالغ الاحتراف والكرم .

وفي سنة أربع وخمسين ومائة :

فُتِحَت المدرسة الناصرية ، التي عَمَّرَهَا الملكُ الناصرُ داخلَ باب
الْفَرَادِيسِ ^(١) بِدِمَشْقَ ، وَذَكَرَ بِهَا الدرسُ بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ .

وَفِيهَا شَرَعَ الملكُ الناصرُ فِي عِمَارَةِ تَرْبَتِهِ وَرِبَاطِهِ ، غَرْبِيَّ قَاسِيُونَ .
وَفِيهَا وَصَلَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ الْبَادِرَائِيَّ ^(٢) رَسُولًا مِنْ جِهَةِ الْخَلِيفَةِ ،
إِلَى دِمَشْقَ . فَرُتِّبَ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائَةُ دِينَارٍ ، وَالْإِقَامَاتُ الْوَافِرَةُ . وَبُنِيَتْ لَهُ
المدرسة الْبَادِرَائِيَّةُ بِدِمَشْقَ - وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ الدَّارَ الْمَعْرُوقَةَ بِأَسَامِهِ .

وَفِيهَا - أَيْضًا - كَانَتْ وَفَاةُ الملكِ الْمُعِزِّ بِحِجْرِ الدِّينِ يَعْقُوبَ ، بْنِ الملكِ
الْعَادِلِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ . وَدُفِنَ بِتَرْبَةِ وَالِدِهِ بِالمدرسة الْعَادِلِيَّةِ
بِدِمَشْقَ ، وَحَضَرَ السُّلْطَانُ جَنَازَتَهُ وَغَلَقَ الْبَلَدَ . وَخَلَّفَ وَلَدَيْنِ وَهُمَا : شَهَابُ
الدِّينِ غَازِي الْمَعْرُوفُ بِالْأَسْوَدَ ، وَسَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ ، وَابْنَةُ - رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَفِيهَا كَانَتْ وَفَاةُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ ، الْعَالِمِ الْوَاعِظِ ، شَمْسِ الدِّينِ أَبِي
الْمُظَفَّرِ يَوْسُفَ بْنِ قَزْعَلَى : سَيِّطُ الشَّيْخِ جِهَالِ الدِّينِ أَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ .
كَانَ وَالِدُهُ قَزْعَلَى تَرْكِيًّا مِنْ عُمَّتَاءِ الْوَزِيرِ عَوْنِ الدِّينِ بْنِ هَيْبَةَ ^(٣) ، زَوْجِهِ
أَبُو الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ ابْنَتُهُ ، فَوُلِدَتْ شَمْسُ الدِّينِ هَذَا . فَتَنَسَّبَ إِلَى جَدِّهِ .
لَا إِلَى أَبِيهِ .

(١) باب من أبواب دمشق .

(٢) ذكرنا من قبل أن هذه نسبة إلى « باقرآباد » - بالدال - وهي قرية كبيرة بنواحي واسط بالعراق .

(٣) هو الوزير عون الدين بن هيبَةَ الشيباني . ولد بالعراق سنة ٤٩٧ هـ بقرية تعرف الآن بدور الوزير ، نسبة
إليه . دخل بغداد في صباه . واشتغل بالعلم وجالس الفقهاء وسمع الحديث ، وقرأ البحر واطلع على أيام
العرب . وقرأ الأدب ولازم الكتابة وتعلم صناعة الإنشاء . وفي سنة ٥٤٢ هـ تولى كتابة ديوان الزمام . ثم ترقى
إلى الوزارة سنة ٥٤٤ هـ . وذلك للخليفة المقتدى . ثم للاستنجد . وتوفي سنة ٥٦٠ هـ .
(وفيات الأعيان : ج ٥ - ٢٧٤)

وكانت وفاته بدمشق في ليلة الثلاثاء . حادى عشر ذى الحجة . بمترله بقاسيون . ودفن هناك . ومولده في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد . وشهد السلطان جنازته . وكان كريماً على الملوك الأيوبيين . تقدّم من أخباره ما يدلّ على ذلك . وله مصنفات منها : « مرآة الزّمان » - رحمه الله تعالى .

وفي سنة ست وخمسين وستمائة :

كانت وفاة الأمير سيف الدين : على بن عمر بن قزّل التّركماني . الباروقي . المصري المولد والنشأ ، الدّمشقي الوفاة . المعروف بالمُشيد^(١) . ودفن بقاسيون . ومولده في شوال سنة اثنين وستمائة . وكان فاضلاً أديباً . وله ديوان شعر مشهور - رحمه الله تعالى .

وفيهما توفي الشيخ محيي الدين : محمد بن علي بن محمد بن أحمد . الطالبي الحاتمي ، المعروف بابن العربي ، بدمشق - في ثاني جُادى الآخرة ، ودفن بقاسيون . ومولده في سابع عشر رمضان ، سنة ثمان عشرة وستمائة .

ذكر سيّالة أخبار الملك الناصر

ومراسلته هولاكو ، وغير ذلك من أحواله - إلى أن قُتل - رحمه الله قالوا : ولما اتّصلَ بالملك الناصر صلاح الدين ما ذكرناه . من أخبار هولاكو^(٢) ، واستيلائه على المملك ، وتقدّم جيوشه . ارتجاع لذلك وسقط

(١) ذكرنا من قبل أن وظيفة المشد معناها : مراقب حسابات الدواوين .

(٢) قائد التتر المشهور . وهو حفيد « جنكخان » مؤسس دولتهم . فهو هولاكو بن تولى بن جنكخان . وهو الذي زحف على فارس والعراق .

في يده . وكان قبل ذلك قد تفاخَّلَ عن مُراسلة هولاكو منذ وَصَلَ إلى العراق ، فاستدْرَكَ الفَارِطُ ، وَجَهَّزَ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ إِلَى خِدْمَتِهِ ، وَبَعَثَ مَعَهُ كِتَاباً إِلَى بَذْرِ الدِّينِ لَوْلُؤُ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ ، وَالتَّمَسُّ مِنْهُ أَنْ يُحْسِنَ السَّفَارَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هُولاكو ، وَيَعْتَذِرَ عَنْهُ . وَكُتِبَ عَلَاءُ الدِّينِ بْنُ يَعِيشَ - كَاتِبُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ - كِتَاباً إِلَى صَاحِبِ الْمَوْصِلِ ، يَذْكُرُ أَنَّهُ سَيَّرَ وَلَدَهُ إِلَى خِدْمَةِ هُولاكو ، وَاسْتَشْهَدَ فِيهِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ .:

قَالَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ : لَوْ اسْتَشْهَدْتَ بِيَّتِي أَبِي فِرَاسٍ كَانَ أَنْسَبَ .
فَقَالَ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : قَوْلُهُ :

فَدَى نَفْسَهُ بِابْنِهِ عَلَيْهِ كَتَفِهِ وَفِي الشَّدَةِ الصَّمَاءُ تَفَتَّى الذَّخَائِرُ
وَقَدْ يُقَطِّعُ الْعُضْوُ النَّفِيسُ لَعِيرَهُ وَيُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الْكَبِيرِ الْكِبَائِرُ

فَأَصْلَحَ الْكَاتِبُ الْكِتَابَ .

وَتَوَجَّهَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ بِالْهَدَايَا النَّفِيسَةِ وَالْثَخَفِ ، إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ زَيْنَ الدِّينِ الْحَافِظِيِّ وَالْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ الْجَاكِيِّ ، وَجَمَاعَةِ مِنَ الْحُجَّابِ - وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ .

فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى هُولاكو وَقَدَّمُوا التَّقَادِيمَ ، سَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأْخِرِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ عَنْ خِدْمَتِهِ . فَاعْتَذَرُوا أَنَّ الْفَرَنْجَ بِحَوَارِ بِلَادِهِ ، وَأَنَّهُ خَشِيَ إِنْ فَارَقَهَا أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَدُوَّهُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ سَيَّرَ وَلَدَهُ بَنُوبَ عَنْهُ . فَأَظْهَرَ هُولاكو قَبُولَ الْعُذْرِ - وَبَاطِنُهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ - وَأَعَادَهُمْ . وَكَانَ وَصُولُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ .

فَعَرَفَ الزَّيْنُ الحَافِظِي المَلِكَ النَّاصِرَ أَن هَولَاكو أَقْبَلَ عَلَيْهِم ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ . فَقَالَ بَعْضُ الأَمْرَاءِ ، الَّذِينَ كَانُوا فِي صَحْبَةِ المَلِكِ العَزِيزِ : لَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا الزَّيْنُ الحَافِظِي كَانَ يَتَرَدَّدُ إِلَى هَولَاكو وَيَجْتَمِعُ بِهِ سِرًّا ، وَأُطْمَعُهُ فِي البِلَادِ . وَكَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ .

(١)

وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ ، وَصَلَ الأَمْرَاءُ الشَّهْرَزُورِيَّةُ إِلَى الشَّامِ ، عِنْدَ انْهِزَامِهِمْ مِنْ هَولَاكو- وَكَانُوا نَحْوَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارَسَ . فَأَشَارَ الأَمْرَاءُ القَيْمُورِيَّةُ بِاسْتِخْدَامِهِمْ ، لِيَكْثُرَ بِهِمْ جَمْعُهُ وَيَسْتَظْهَرُ بِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِ . فَاسْتَحْدَثَهُمْ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، وَوَصَلَهُمْ بِالأَمْوَالِ ، وَهُمْ لَا يَزِيدَادُونَ إِلَّا طَلْبًا . ثُمَّ بَلَغَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَالُوا إِلَى المَلِكِ المُنْغِيثِ صَاحِبِ الكَرْكِ ، فَزَادَ فِي الإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُقَيِّدْ ذَلِكَ فِيهِمْ . ثُمَّ فَارَقُوهُ ، وَقَصَدُوا المَلِكَ المُنْغِيثَ وَاتَّصَلُوا بِهِ . فَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ البَحْرِيُّ والشَّهْرَزُورِيُّ ، فَقَوِيَتْ نَفْسُهُ وَطِمَعُ فِي أَخَذَ دِمَشْقَ ، وَكَاتِبَ جَاعَةً مِنَ الأَمْرَاءِ النَّاصِرِيَّةِ وَكَاتَبُوهُ .

فَاتَّصَلَ ذَلِكَ بِالمَلِكِ النَّاصِرِ ، فَأَنْعَمَ عَلَى أَمْرَائِهِ وَطَيَّبَ خَوَاطِرَهُمْ ، وَجَدَّدَ عَلَيْهِمُ الأَيْتَانَ . فَامْتَنَعَ جَاعَةً مِنَ الأَمْرَاءِ العَزِيزِيَّةِ - مَمَالِكُ والده - مِنْ الحِلْفِ ، فَزَادَهُمْ وَبَالَغَ فِي الإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ الْيَمِينَ .

(١) نسبة إلى شهرزور . وهي كورة واسعة في الجبال ، بين إربل وشمخان ، فيها مدن وقرى إحداهما - وهي مينة كبيرة - هي قصبتها . وأهل هذه النواحي أكراد .

(معجم البلدان : ج ٥ - ٣١٢)

فهؤلاء الأمراء لشهرزوريه الذين هجروا بلادهم وانتقلوا إلى الشام . هرباً من هولاكو- كانوا إذن من الأكراد .

ثم بلغه أن الملك المغيث خرج من الكرك لقصد دمشق . فخرج بعساكره في أوائل سنة سبع وخمسين ، ونزل ببركة زَبْرًا^(١) ، وخيَّم بها نحواً من ستة أشهر . ثم وقع الصلح بين الملكَيْن . وحصل الاتفاق على أن يسلم الملك المغيثُ إليه البحريَّة ، فسَلَّم إليه من تذكره منهم .

وعاد إلى دمشق . فلما استقر بها ، بلغه أن هولاًكو وصل إلى حرَّان ، ونازلها بعساكره . فاستشار الأمراء فيما يفعله . فأشاروا عليه أن يخرج بالعسكر الشامي إلى ظاهر دمشق ، وصمموا على قتال هولاًكو . فخرج بعسكره وخيموا بظاهر بَرْزَة^(٢) . فصار نجمُ الدين الحاجب والزَّيْنُ الحافظي - وجباةُ معها - يذكرون شدة عزم هولاًكو ، وَيُعْظَمُونَ أمره ، ويقولون : من الذي يلتقي مائتي ألف فارس ؟ ! فضَعَفَتْ نفسه عن ملاقاته .

ثم بلغه أن هولاًكو ملك قلعة حرَّان ، وأنه عزم على عبور الفرات إلى جهة الشام ، ومنازلة حلب . فازداد ضعفاً إلى ضعفه . فاجتمعت آراءُ الأمراء والعساكر أن يُسَيِّرُوا نساءهم وأولادهم إلى الديار المصرية . ويقيمون هم في خدمة الملك الناصر جرائدًا ، ففعلوا ذلك . وبعث الملك الناصر زوجته : ابنة السلطان علاء الدين كيْقَبَاز بن كيخُسرو السُلْجُقي صاحب الروم - وكان قد تزوج بها في سنة تسع وأربعين وستائة - إلى الديار المصرية . وبعث معها ولده وأمواله وذخائره . وكذلك فعل جميعُ أمرائه وأجناده ،

(١) زَبْرًا : قرية كبيرة من البلقاء ، ينزل عليها الحجاج ويقام لهم سوق . وفيها بركة عظيمة (وأصل اللفظ و المنة الكتاب المرفوع) .

(معجم البلدان - ج ١ - ٢٢٤)

(٢) في نسخة أخرى : سبى ذكرها مراراً

وصار الجند يتوجهون بنسائهم على أنهم يوصلونهم ويرجعون ، فمنهم من يعود ، ومنهم من لا يعود . فَثَقَلَتِ العساكر وتفرقت الجنود ، وضعفت النفوس . ولم يبق مع الملك الناصر إلا جماعة من أمرائه جرّائد^(١) .

ونازل هولاء مدينة حلب في المحرم ، سنة ثمان وخمسين وستائة . وفتحها عتوة . وسَفَكَ فيها من الدماء ما لم يسفك مثله . ببلاد العجم ! وأسر التتار من النساء والصبيان ما يزيد على مائة ألف .

ثم فتح قلعة حلب ، في حادى عشر ربيع الأول من السنة . وأخذ جميع ما فيها . وأسر أولاد الملك الناصر وأمهاتهم . وخرج إليه الملك المعظم ثوران شاه بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - وكان شيخاً كبيراً - فلم يتعرض هولاء إليه ، وأمنته على نفسه . ومات الملك المعظم بعد أيام يسيرة . واستمر هولاء بالوزير^(٢) المؤيد بن القفطى ، على حاله .

فورد الخبر على الملك الناصر بأخذ حلب ، وهو نازل على بَرْزَة . فاستشار الأمراء ، فأشاروا عليه أن يتأخر إلى غَزَة ، وأن يكاتب الملك المظفر قُطُز ويستدعيه بعساكر الديار المصرية ، ليجتمع الكل على لقاء هولاء ، ودفعه عن البلاد .

(١) أى فئات قليلة من الحَيَّالة . بغير عدة ثقيلة ح جريدة

(٢) هذا نصير مألوف في ذلك العصر ، أى أبقى الوزير في منصبه وأقره عليه

فعميل برأيهم . ورحلوا يوم الجمعة بعد الصلاة ، منتصف صفر ، سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . فانْقَضَتْ مملكةُ الملك الناصر في ذلك اليوم .

وكانت مدة ملكه بحلب ثلاثاً وعشرين سنة ، وسبعة أشهر ، ومدة ملكه منها بدمشق عشر سنين ، إلا خمسين يوماً . ونزل الملك الناصر بن معه على غزة ، وأقام بها .

ولما توجه الملك الناصر ، دخل الزَّيْنُ الحافظي^(١) إلى دمشق وجمَعَ أكابرَها ، واتفقوا على تسليم دمشق لثَّوَابِ هولاء ، وأن يحقنوا دماء أهلها . فسلمها فخر الدين المردَّعَاوي وابن صاحب أرزن والشريف على . وكان هؤلاء رسلَ هولاء إلى الملك الناصر . وكانوا عنده بظاهر دمشق : فلما دخلوا إليها وتسلموا قلعتها ، كتبوا بذلك إلى هولاء . فسير إليها المان التتري وعلاء الدين الكازي العجمي ، ثَّوَاباً ، وأمرهما هولاء أن لا يخرجوا عن إشارة الزَّيْنِ الحافظي . وأوصاهما بالإحسان إلى أهل دمشق .

ثم بلغ هولاء وفاة أخيه مَنكُوقَانَ^(٢) ، فعاد من حلب . كما قلعهناه في أخباره .

(١) اسمه ، سنباي بن علي بن عامر المقرَّباني ، المعروف بالزَّيْنِ الحافظي . كان أبوه خطيب عفر . من قرى دمشق . اشتغل بالطب حتى مهر فيه ، وخدم به أرسلان شاه بن العادل صاحب جعير . ثم انتقل إلى خدمة الناصر يوسف حلب . فصارت له عنده يد ورفعة ، وصار مكيناً في الدولة ، وكان يرسل عنه إلى هولاء ، فانتصل بالتتار وأطمعهم في البلاد ، وعاد فهُوِّلَ الأمر على الناصر حتى هرب ، فقام بأمر دمشق للتتار . وسرى مصيره فيها بعد ، في عهد السلطان قطز ، حيث سُبِقْتَل هو وأولاده .

(السلوك للمقريزي ج ١ - ق ٢ - ١٢٣)

(٢) كان هو ملك التتار . وهو ابن تولوي بن جنكوزخان . تُوِّج وأعلن خاتماً أعظم ، سنة ٦٤٩ هـ . في جمع رؤساء التتار . وفي ذلك المجمع قرَّ الرأي على إرسال حذائين حربيتين : إحداهما إلى الصين بقيادة قوبلاي ، والأخرى إلى بلاد فارس وما وراءها بقيادة هولاء . وكلاهما أُخِجَا لَمَنكُوقَانَ .

(السلوك - زيادة - ج ١ ق ٢ - ٣٨٣ - حاشية ٢)

وبعث كَتَبًا نُوَيْنَ^(١) في جيش كثيف إلى الشام فوصل كَتَبًا إلى دمشق ، وأقام بها أياماً ، ورحل عنها إلى مَرَج بَرَّغُوث^(٢) . ثم وصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو - وكان قد توجه إلى خدمته وهو بحلب - فعاد ، ويده مرسومة ، أن يكون نائب المملكة بدمشق وحلب ، وجميع البلاد الشامية .

فاجتمع بكتَّبًا في مَرَج بَرَّغُوث . فبعث إلى الزين الحافظي ونواب دمشق بالاتفاق مع الملك الأشرف ، على مصالح البلاد . ثم عَصَى بعد ذلك محمد بن قَرَمَجَاه ، وجمال الدين بن الصَّيرَفِي - نقيب قلعة دمشق - وأغلَقوا أبواب القلعة . فحصرها كَتَبًا ومن معه وقاتل قتالاً شديداً ، ثم تسلمها بالأمان . فكتب الزين الحافظي بذلك إلى هولاكو ، فعاد جوابه بقتل محمد ابن قَرَمَجَاه وجمال الدين بن الصَّيرَفِي . فقال كَتَبًا للزين الحافظي : أنت كَتَبْتَ إلى هولاكو بسِّيهم ، فاقْتُلهم أنت . فقتلها الزين الحافظي صَبْرًا ، بيده وسيفه ، بِمَرَج بَرَّغُوث .

وبعث كَتَبًا نُوَيْنَ جيشاً إلى نابلس ، وقدم عليهم كَشْلُوخان ، فعَصَى إليها ، وبها فخر الدين إبراهيم بن أبي ذكرى ، نائب السلطنة بها . فركب

(١) كتبا اسم القائد . أما نوين (وَيُصْبَغ بِكسر الواو ، أو فتحها - وهو لفظ أعجمي فارسي على كل حال ، ومعناه : مقدم ألف - فهو يقرن بأسماء القواد ، ويكثر وروده هكذا . ومرتبة صاحبه تقابل مرتبة نائب السلطنة أو الوزير .

(سلوك - ج ١ - ١ - ق ٢ - ٤٢٤)

(وصحح الأضنى ج ٦ - ص ٣٣)

(٢) على مسافة يوم من دمشق .

(سلوك ج ١ - ٤٢٥ - نقلا عن أبي شامة : الروضتين ٣٨٤ و ٤٩٥)

ومعه الأمير على بن الشجاع الأتتج ، وفخر الدين دزباس البصرى
وجاعة ، فصادقهم كشلوخان فى زبتون نابلس ، فقتلهم بأجمعهم .

قال : ولما اتصل بالملك الناصر ومن معه من الأمراء وصول كشلوخان
إلى نابلس وما فعله ، حملهم الخوف على دخول الرمل^(١) فبلغ الملك المظفر
دخولهم ، فترهم أن ذلك مكيدة لملك الديار المصرية . فكتب إلى الأمراء
الناصرية والشهزورية ، يعدهم بالإكرام والإحسان إن وصلوا إليه . ففارقوا
الملك الناصر ومضوا إلى المظفر ، أولاً فأولاً . ولم يبق مع الملك الناصر
إلا الملك الصالح نور الدين إسماعيل بن صاحب حمص ، والأمير ناصر
الدين القبرى ، وأخوه شهاب الدين ، وابن عمه شهاب الدين يوسف بن
حسام الدين . فوصلوا إلى قنطية^(٢) .

ثم خشى عاقبة دخوله إلى الديار المصرية ، فعطف من قنطية ، وسلك
البرية إلى الشوبك بهم . فوصلوا إليها ، ولم يبق لكل واحد منهم إلا الفرس
الذى تحته ، وكل منهم فى نفرين أو ثلاثة ، وقد نهبت خزائهم وأموالهم
وذخائرهم وبيوتات الملك الناصر .

ثم توجه الملك الناصر بمن معه إلى الكرك . وأرسل إليه الملك المغبث
ما يحتاج إليه من الخيل والأقمشة والبيوتات وغير ذلك ، وعرض عليه المقام
عنده ، والانفراد بالشوبك . وقصد مكافأته عن سالف إحسانه ، فإنه كان

(١) سبق تفسيره ، وبيننا أن هذا الاسم كان يطلق على المنطقة الرملية بين جلود الشام جنوباً ومصر . أى من
العريش إلى العباسية أو الصالحية .

(٢) أو قنطية : قرية فى الطريق بين مصر وجنوب الشام فى وسط الرمل غرب « القرام » بيوت أهلها من جريد
النخل ، وعندهم سمك كثير لقربهم من البحر .

قد أحسن إلى ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان ، لما توجه إليه إلى دمشق - على ما ذكره . فلم يُجِبْ الملكُ الناصرُ إلى ذلك ، ومضى إلى البلقاء وأقام بأطراف البلاد .

وسير حسين الكردي الطبردار إلى كُتَيْبَا نُورِين ، يلتمس أمانه . وقبل : بل حسين الكردي ، لما شعر بالملك الناصر ، توجه إلى كُتَيْبَا وأعلمه بمكانه . فركب كُتَيْبَا بنفسه في جيش كثيف إلى الملك الناصر وقَبَضَ عليه ، وعلى من معه . فاعْتَقَلَ الأمراءَ القَيْمُريةَ بدمشق . وكان الملك الظاهر - أخو الناصر - نازلاً على قلعة صَرْخَدَ بحربها ، بأمر هولاكو . فأمر كُتَيْبَا بطلبه ، وقَبَضَ عليه . وجاء إلى قلعة عَجَلُون وحاصرها - والملك الناصرُ معه - وقَدَّمَهُ إلى القلعة ، فأمر من بها أن يُسَلِّمُوهَا ، فسلموها بعد امتناع .

ثم جهز الملكُ الناصرُ وأخاه الملك الظاهر . والملكُ الصالح بن الملك الأشرف ، صاحب حمص ، إلى هولاكو - وصحبهم الملكُ العزيز فخر الدين عثمان ، بن الملك المُنْغِيث صاحب الكرك . فأخبرني المَوْكِي الملك العزيز المُشار إليه - مَدَّ الله في عمره - أنهم توجهوا جميعاً إلى هولاكو ، واجتمعوا به بِتُورِيْز^(١) . فأما الملكُ العزيز فأعاده بعد يومين أو ثلاثة ، فوصل إلى دمشق - على ما ذكره . وأما الملك الناصر وابنه الملك العزيز ، والملك الظاهر ، وابن صاحب حمص - فإن هولاكو أَخْرَجَهُمْ عنده .

(١) هي نفسها تبريز ، وهذا نطق شائع لها وعرف بالقوت تبريز لغوي . هي أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة حسنة ذات أسوار محكمة ، وفي وسطها عدة أنهار جارية . والبساتين محيطة بها . وكان بها كرسي بيت هولاكو من التتار .

قال : وبلغني أنه سأله عن أحوال الديار المصرية وعساكرها ، فهوّن أمرها عنده ، والترم له بفتحها ، وحَمَلَ أموالها وأموال الشام إليه . ولم يزل يتلطف إلى أن أمر بعوده .

فلما رجع من عنده ، لقيه من سَلِمَ من الجيش الذين كانوا مع كَثْبَغَا نُورِينَ ، لَمَّا كسَرهم الملكُ المظفر قُطْرُ . فَقَبَضُوا عليه وأعادوه معهم إلى هولاء . وقالوا له : ما كان على عسكرك أَضَرَّ من ممالكك هذا ، وممالك أبيه . وهم الذين قاتلونا وقتلوا كَثْبَغَا نُورِينَ ، وهزموا عساكرَك . فأمر بضرب عُنُقِهِ ، وعنق ولده الملك العزيز ، وأخيه الملك الظاهر ، وابن صاحب حمص - وذلك في سنة ثمان وخمسين وسمائة .

واجتمع الناس لعرائه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى ، سنة تسع وخمسين وسمائة . ومولده بقلعة حلب في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان ، سنة سبع وعشرين وسمائة .

وكان - رحمه الله تعالى - مليكاً حليماً كريماً ، لم يكن لأحد من الملوك قبله - فيما سمعنا - ما كان له من التَّجَمُّل . فإنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم ، أربعمائة رأس من الغنم الكِبار - خارجاً عن الخِراف الرُّضْع والأجْدِيَّة والدَّجَاج والحَمَام . وكان الغلمان يبيعون فَضَلَاتِ الطعام بظاهر قلعة دمشق ، بأجنس الأثمان ، حتى اسْتَفْتَى أهلُ دمشق في أيامه عن الطبخ في بيوتهم .

حتى حُكِيَ عن علاء الدين علي بن نصر الله ، قال : جاء السلطانُ إلى داري بَقْتَةَ ، ومعه جماعة من أصحابه . فددتُ له في الوقت سباطا ، فيه من

الأطعمة الفاخرة والدجاج المحشو بالسكر والحلويات شيئاً كثيراً . فعجب من ذلك ، وقال : في أى وقت تهيأ لك هذا كله ؟ فقلت : والله هذا كله من نعمتك وسياطك ، ما صنعتُ منه شيئاً ، وإنما اشتريته من عند باب القلعة .

وحكى مباشرة البيوت بدمشق أن نفقة مطابخه كانت في كل يوم تزيد على عشرين ألف درهم . وكان إذا مات أحد من أرباب الوظائف في دولته ، وله ولدٌ فيه أهلية ، فَوَصَّ ما كان بيده من المناصب لولده . فإن كان صغيراً استتاب عنه إلى أن يصلح . ومن مات من أرباب الرواتب والصدقات ، أقر ما كان باسمه باسم أولاده . رحمه الله تعالى .

وكان له شعر رقيق جيد . فمن شعره قوله ، يتشوق إلى حلب :

سَقَى حَلَبَ الشَّهَاءِ فِي كُلِّ لُزْبَةٍ ^(١) سَحَابَةٌ غَيْثٌ نَوَّهَهَا لَيْسَ يُقْلِعُ
فَتَلْكَ رُبُوعِي ، لَا الْعَقِيقُ وَلَا الْعَصَا وَتَلْكَ دِيَارِي ، لَا زُرُودٌ وَلَعَلَّمُ ^(٢)

إلا أنه كان ضعيف الرأى ، شَقَلَتْهُ الْمَلَأُذُ وَالشُّعْرُ وَالْعَزَلُ وتلحينُ الأقوال عن النظر في أمر دولته . قَالَ أَمْرُهُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ .

هذا ما كان من أمر الملك الناصر . على سبيل الاختصار .

وبقي بعد مقتله عند التتار صغار أولاده ، الذين أُسِرُوا من حلب ، زمناً طويلاً بعد أن هَلَكَ هَولَاكُو . ومات بعضهم هناك . وبقي منهم ولده الصغير

(١) هكذا في (ع) وفي النجوم الزاهرة . وفي القاموس : اللزبة : الشدة .

(٢) هذه كلها أسماء مواضع في جزيرة العرب ، ترد في الشعر الجاهلي ، أو القديم .

نجم الدين أيوب ، فحضر إلى الشام ، ثم إلى الديار المصرية ، ورُتّب له راتب من جهة الملوك - أَسَوةً أولاد الملوك الأيوبيين . وهو باقٍ إلى وقتنا هذا ، مقمٍ بالقاهرة المُعزّبة - حماها الله تعالى .

(١) (٢) (٣)
٢٧٧٢٨١٢٨٨

وأما الملك المغيث فتح الدين عمر
ابن السلطان الملك العادل ، بن السلطان
الملك الكامل ، بن السلطان الملك
العادل بن أيوب - صاحب الكرك
والشُوبك

فإنه لما قبض الأمراء على والده - كما قدّمنا ذكر ذلك - وملك عمّه الملك الصالح نجم الدين أيوب الديار المصرية ، مشى في خدمته مدة . ثم رأى منه نجابةً وثبلاً وشهامة ، فأمر باعتقاله في الدار القُطَيْبِيَّة (١) عند عمّه السلطان وعمّة والد الملك المغيث - وهي ابنة السلطان الملك العادل ، أخت الملك الكامل - رحمهم الله تعالى . فلم يزل عندها ، إلى أن مات الملك الصالح وملك ولده الملك المعظم تُورَانشاه . فأمر بإرساله إلى قلعة الشُوبك ، واعتقاله بها . وندب لذلك الأمير عز الدين الحلي ، والأمير سيف الدين بلبان التّجّاحي ، فتوجها به إلى الشُوبك ، واعتقلاه بها ، وعادا إلى الديار المصرية .

(١) نسبة إلى : قطب الدين أحمد بن الملك العادل ، وهو آخر الكامل .

فما كان بأسرع من أن قُتِلَ الملكُ المعظمُ ثورانشاه - كما ذكرنا - فلما اتصل خيرٌ مقتله بآبِنِ رَسُولٍ ، وشهاب الدين عُمَرُ بنِ صُغْلُوك - وكانا مُتَوَلَّيْنِ^(١) أمرَ الشُّوبُك - نَهَضَا وأَخْرَجَا الملكَ المغيثَ من الاعتقال ، ومَلَكَاَهُ وحَلَفَا لَهُ ، وحَلَفَا مِنْ عِنْدِهِمَا - وكانوا نحو عشرة - وحَلَفَاهُ بِالْوَفَاءِ لَهُمْ . فأرسل إليهما بدرُ الدين بدر الصَّوَابِي الخَادِم - النائبُ بقلعة الكرك - وأنكَرَ عليهما إقدامهما على هذا الأمرِ بغيرِ إِذْنِهِ . فأرسلَا إليه بِقَوْلَانِ : بَكَ فَعَلْنَا ذَلِكَ . فَأَعَادَ عليهما الجواب : إِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَأَنْقَلَاهُ إِلَى عِنْدِي

فَحَلَفَ لِلْمَلِكِ الْمُغِيثِ وَحَلَفَ الْمَلِكُ الْمُغِيثُ لَهُ . وَتَوَثَّقَ كُلُّ مَنِهَا مِنْ صَاحِبِهِ بِأَكِيدِ الْأَيْمَانِ . فَانْتَقَلَ الْمَلِكُ الْمُغِيثُ مِنَ الشُّوبُكِ إِلَى الْكَرْكِ - فِي سَنَةِ ثَمَنٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . وَتَسَلَّمَ مَا بَهَا مِنَ الْخَزَائِنِ ، الَّتِي بَقِيَتْ مِمَّا نَقَلَ إِلَيْهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ - بَعْدَ مَا أَخَذَهُ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ مِنْهَا . فَوَجَدَ بِهَا ثَمَنَ مِائَةِ أَلْفٍ وَتِسْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَيْنًا . وَاسْتَمَرَّ بِالْكَرْكِ وَالشُّوبُكِ . وَرَزَقَ بِهَا أَوْلَادَهُ .

وَرَأْسُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ - صَاحِبِ دِمَشْقَ وَحَلَبَ - وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَالِدَهُ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ : فَخَرِ الدِّينِ أَبَا الْمَظْفَرِ عُمَانَ ، بِرِسَالَةٍ . فَأَكْرَمَهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ وَأَبْرَهَ وَوَقَّرهَ ، وَأَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِهِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ . وَرَتَّبَ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَأَرْبَعَمِائَةَ جِرَايَةٍ وَأَرْبَعَمِائَةَ عَلِيقَةٍ ، رَغِيرَ ذَلِكَ ، وَنَقَّلَهُ فِي مُسْتَنْزَهَاتِ دِمَشْقَ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ نَحْوَ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ . ثُمَّ رَكَّبَهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ بِشِعَارِ السُّلْطَانَةِ ، وَأَعَادَهُ إِلَى أَبِيهِ . وَقَدْ عَامَلَهُ بِنَهَايَةِ الْبِرِّ وَغَايَةِ الْإِكْرَامِ .

وكان للملك المغيث أخباراً ، يأتي ذكرها في أثناء دولة الترك .

وبعث الملك المغيث ولده العزيز إلى هولاءكو ، بلباس له أماناً . وجهر معه شهاب الدين بن صعلوك والنقيب خزاعة - وهما أعيان أصحابه . فأخبرني الملك العزيز أنه اجتمع بهولاءكو بتوريز ، فأمره بالجلوس ، مع صغر سنه في ذلك الوقت . فنظرت إليه الحائكون - زوجة هولاءكو - وسألته بترجمان عن أمه ، وهل هي باقية أم لا ؟ فقال : هي باقية عند أبي . فقالت للترجمان : قال له : تُحبُّ أن أُرَدِّكَ إلى أبيك وأُمك ، أو تقيم عندي ؟^(١) قال : فأعدتُ عليها : أنه لا أمر لي في هذا ، وإنما أبي أرسلني إلى القان يسأله الأمان لنفسه ولعمى عنده ، وأنا تحت أوامره . فهَضَّتْ قائمةً وكَلَّمَتْ هولاءكو ، وشَفَعَتْ . فأشار إليها ، فقالت : قد أعطاك القان أماناً لأبيك ، ودُسْتُورا^(٢) بالعود ! .

قال : ففَضَرْتُ له جُوكَاً ، وَرَجَعْتُ مِنْ عِنْدِهِ . وَأَرْسَلَ مَعِيَ مِنَ التَّارِ من يوصلني إلى الكرك ، ويكون بها شيخه^(٣) . قال : فلما وصلتُ إلى دمشق نزلتُ بدار العقيقى ، ونزل التارُ بمدرسة العادلية . وكان كَتِّبًا نُوبِينَ قد توجه للقاء العساكر المصرية . فكانت الكسرة على التار - على ما نذكره .

قال : فانصل الخبرُ بنا ، فَحَصَّنَا بدار العقيقى^(٤) . فلما كان في نصف الليل رجع التارُ هاربين . فقصدوا أخذى معهم . فَنَافَعَ عَنِ مَنْ

(١) هو نفسه لفظ (الخان) .

(٢) أى إذن ، أو تصريحاً .

(٣) كان يراد بها في ذلك العصر : حامية المدينة .

(٤) الشريف العقيقى ، وهو أحد العلويين ، ثوى في القرن الرابع وتمر ذكره . قالدار حسنة إليه .

معى ، وأَعَجَلَهُم الهَرَبُ عن حصار الدار ، فتركوا . قال : ولما جاء الأمير جمال الدين المُحمَّدَى إلى دمشق - قبل وصول الملك المظفر قُطُزُ إليها - خرجتُ إليه وتلقَّيته ، وسلمتُ عليه . فسأل عني ، فأخبر أني ابن الملك المغيث ، فعوّقني إلى أن قدِمَ السلطانُ الملك المظفر قُطُزُ . فأمر بإرسالى إلى قلعة الجبل .

فَقِيلَ إليها . فكان بها مُعَوَّقًا في بُرْج ، عند الأمير سيف الدين بلبَّان النجَّاحى . إلى أن أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى أبيه الملك المغيث - على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، في أخباره .

ولم يزل الملكُ المغيثُ بالكرك والشُّوبك ، إلى أن استولى الملكُ الظاهرُ على الشُّوبك ، لأربعِ بقين من ذى الحجة ، سنة تسع وخمسين ، عندما جرَّد إليها الأمير بدر الدين الأبدُمَرى . وبقي بيد الملك المغيث الكركُ وأعمالها . ثم حصل الاتفاقُ بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرسُ والملكُ المغيث . وحلَّفَ السلطانُ الملك الظاهر له يميناً مُستَوفاةً ، وأشهد عليه بما تضمنه مَكْتُوبُ الحِلْفِ .

وقد شاهدتُ المَكْتُوبَ . وهو بخط القاضي فخر الدين : إبراهيم بن لقمان - صاحبِ ديوان الإنشاء . وما فيه من اسم السلطان بخط السلطان ، ومثاله : « بيبرس » .

ونسخةُ هذه اليمين - على ما شاهدته ونقلتُ منه :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

أَقُولُ وَأَنَا بِبَيْرُتْس . وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ ، وَتَا اللَّهُ وَتَا اللَّهُ وَتَا اللَّهُ ، وَبَا اللَّهُ وَبَا اللَّهُ
وَبَا اللَّهُ ، الْعَظِيمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الطَّالِبِ الْغَالِبِ الضَّارِ النَّافِعِ ، عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، الْقَائِمِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ،
وَالْمُجَازِي لَهَا بِمَا احْتَسَبَتْ . وَجَلَّالُ اللَّهِ وَعَظِيمُ اللَّهِ وَكَبِيرُ اللَّهِ ، وَسَائِرُ أَسْمَاءِ
اللَّهِ الْحَسَنِي وَصِفَاتِهِ الْعَالِيَا - إِنِّي مِنْ وَقْتِي هَذَا وَسَاعَتِي هَذِهِ ، وَمَا مَدَّ اللَّهُ فِي
عَمْرِي ، قَدْ أَخْلَصْتُ نِيَّتِي وَأَصْفَيْتُ سِرِّي ، وَأَجْمَلْتُ طَوْنِي ، فِي مَوَافَقَةِ
الْمَوْلَى : الْمَلِكِ الْمَغِيثِ فَتَحَ الدِّينَ عُمَرَ ، بَنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ
سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ ، بَنِ مُحَمَّدٍ ، بَنِ أَبِي بَكْرٍ بَنِ أَيُّوبَ ، وَمُصَافَاتِهِ
وَمَوَدَّتِهِ .

لَا أَضْمِرُ لَهُ سُوءًا وَلَا غَدْرًا ، وَلَا خَدِيعَةً وَلَا مَكْرًا لَا فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي
مَالِهِ ، وَلَا فِي أَوْلَادِهِ ، وَلَا فِي مَمْلَكِيَّتِهِ وَلَا فِي قَلْعَتِهِ ، وَلَا فِي بِلَادِهِ ، وَلَا فِي
أَمْرَانِهِ ، وَلَا فِي أَعْبَادِهِ ، وَلَا فِي غِلْمَانِهِ ، وَلَا فِي مَمَالِكِهِ ، وَلَا فِي أَرْزَامِهِ
وَلَا فِي عُرْبَانِهِ ، وَلَا فِي رَعِيَّتِهِ ، وَلَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ ، مِنْ قَلِيلٍ
وَكَثِيرٍ .

وإني والله لأعارضه ولا أشاققه ، ولا آمرُ من يعارضه في بلاده الجارية في مملكته ، وهي : قلعة الكرك المحروسة ، وربضها وسائر عملها ، والقُورُ المعروف بِقُورِ زُغَر^(١) - بكماله ، وحدُّ ذلك من القبلة الحسّا ، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة والمسيل ، ومن الشرق الثنيتين ، ومن الغرب السبخة المعروفة بأبي ضابط ، ومنتهى حد القُور المذكور من القبلة الكُثيب الرمل المعروف بالدبة ، ومن الشمال الماء النازل من الموجب إلى البحيرة .

وإني والله لأمر ولا أُشير ، ولا أكب ، ولا آذن بصريح ولا بكناية ، ولا بقَوْلٍ لأحد ، في التعرض لبلاده المذكورة ، ولا السعى فيها بفساد . وإني والله متى حضر المولى الملكُ المغبثُ فتح الدين عُمر المذكور إلى خدمتي ، عند حُلُولي بالشام المحروس ، لِمنازلة عدُوِّ يَطْرُقُ بلادى ، أو لعدو يَطْرُقُ بلاده ، لا أنعرض إليه بأذنية ، ولا أقصده بسوء في نفسه ولا في ماله ولا في بلاده ، ولا في أُمْرائه ولا في أجناده ، ولا في عُربانه ولا في ممالكه ، ولا في رعيته ، ولا فيمن يصلُ صُحْبَتَهُ من أصحابه .

(١) صَبَلْهَا يَأْقُوتُ بَرَزَنُ زُغَرُ ، وقال : « قرية بمشارف الشام . حدثني الثقة أن زغر هذه في طرف البحيرة المتنة (البحر الميت) في وادٍ هناك ، بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام . وهي من ناحية الحجاز .

(معجم البلدان : ج ٤ - ص ٣٩٣)

وذكر القلقشندي « صل زُغَر » من أعمال الكرك ، وقال : « وهي مدينة قديمة متصلة بالبادية ، سميت بِزُغَر بنت لوط عليه السلام (صبح الأعشى ج ٤ - ١٥٧) وتحدث عن « بحيرة زغر » فقال : « وتعرف ببحيرة سدوم وبحيرة لوط . وهي بحيرة متنة (يفصد بها البحر الميت) ليس بها سمك ، ولا يأوى إليها طير ، وفيها مصب نهر الأردن للمسي بالشرجة ، عند نهايته . وهي في آخر القُور من جهة الجنوب .

(صبح الأعشى : ج ٤ - ٨٣)

وإني والله لأطالبه ، ولأطالبُ أحداً من أمرائه وأجناده .
وأصحابه ومماليكه ولا من غلمانه ، ولا من رعيته ولا من عُربانه ، ولا أحداً
من سائر أصحابه ، بسببِ مُتَقَدِّمٍ إلى تاريخ هذه اليمين المباركة . ولا أُمَكِّنُ
أحداً من أمراء دولتي ، ولا من جُنْدِها ، ولا من سائر مماليكي ، وأصحابي
من الجماعة البحريّة وغيرهم ، من مُطالبته ولا مطالبة أحد من أمرائه وأجناده
ومماليكه ورعيته ، وسائر أصحابه ، أهل الكرك وغيرهم ، بسببِ مُتَقَدِّمٍ عن
تاريخ هذه اليمين المباركة - صامت كان أو غير صامت - من قُماشٍ وأثاث ،
وغير ذلك .

﴿ وإني والله ، لا أستخدمُ أحداً من أمراء المولى الملك المغيث : فتح
الدين عُمَرُ المذكور ، ولا من أجناده ولا من أجناد أمرائه ، ولا من مماليكه
ولا من مماليك أمرائه ، ولا من عُربانه ولا من غلمانه ، إلا من انفصل عنه
بُدْثُور . ومتى تَسَحَّبَ أحدٌ من أمرائه أو أجناده ، أو أجناد أمرائه أو
مماليكه ، أو مماليك أمرائه أو غلمانه أو عربيه ، أو غير ذلك من أصحابه
وفلاحى بلاده ، وحضر إلى بلادى أو إلى مملكة من ممالكى ، والتَمَسَ عَوْدَه
إليه - تَقَدَّمتُ بإعادته إليه ، بجَهْدِي وطاقتي .

وإني والله متى قصد بلادَ المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور
عَدُوٌّ - مسلماً كان أو كافراً - أَعَثَّه على دَفْعِهِ وزجره ورَدْعِهِ ، جَهْدِي
وطاقتي . وإني والله ، متى تعرض أحدٌ من عرب بلادى إلى بلاد المولى الملك
المغيث فتح الدين عمر المذكور ، أو إلى جهةٍ من جهات مملكته . أو إلى أحد
من رعيته أو أحد من سائر أصحابه ، أو سعى بفساد فيما يتعلق بمملكته .
وأطْلَعْتُ عليه - تَقَدَّمتُ بزجره وردعه عن ذلك ، وفعلتُ في أمره ما تقتضيه
السياسة .

وابنى والله - أئى للمولى الملك المغبث : فتح الدين عمر ، بن
السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن
أبى بكر بن أبوب - بهذه اليمين من أولها إلى آخرها ، ما دام وافيّاً باليمين
التي يُحلفُ بها نائبي ، لا أنقضُها ولا شيئاً منها ، ولا أستثنى فيها ولا فى شيء
منها ، ولا أستثنى فيها ولا فى شيء منها ، طلباً لتفويضها أو نقض شيء منها .
ومتى نقضتها أو نقضتها فيها أو فى شيء منها ، طلباً لتفويضها أو نقض شيء
منها ، فكل ما أملىكه من صامتٍ وناطق - صدقة على الفقراء والمساكين من
المسلمين . وكل مملوك أو أمة فى ملكي ، أو أملكها فيما بقى من عمرى ، حر
من أحرار المسلمين . وعلى أن أفك عشرة آلاف رقة مؤمنة من أيدي
الكفار ، إن خالفت هذه اليمين أو شيئاً منها .

وهذه اليمينُ بمنى ، وأنا بيّس . والنبة فيها بأسرها نيّة المولى الملك
المغبث فتح الدين عمر ، بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، بن
الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن أبى بكر ، بن أبوب ، نيّة مُستحلفي
له بها - أشهد الله علىّ بذلك ، وكفى به شهيداً . فمن نكث فإنما ينكث على
نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً .

وشهد على السلطان الملك الظاهر ، بهذه اليمين ، من تذكّرهم وهم :
الأتابك فارس الدين أقطاي ، والوش الشجيسى ، وفلاّون الأئفى ،
وعز الدين أزدمر^(١) ، وأبدمر الجلى ، وبيجوى الشنسى ، وبيك

(١) ق (ع) : وفلاّون مر .

انشرندار ، وأَيْتِكَ الْأَفْرَمَ ، وَكَاتَبُ الْيَمِينِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ لُقْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ . وَهِيَ مَوْزُونَةٌ فِي الثَّالِثِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْحَرَمِ ، سَنَةِ سِتِينَ وَسِتْمِائَةٍ . وَشَهِدَ عَلَى السُّلْطَانِ اثْنَانِ مِمَّنْ حَضَرَ مِنَ الْكَرَّكَ ، وَهُمَا : أُمَّجَدُ الْكَرَّكِيِّ - وَهُوَ كَاتَبُ الْمَلِكِ الْمَغِيثِ - وَكَانَ قَدْ أَمَرَهُ ، وَآخِرُهُ لَمْ أَحَقِّقْ اسْمَهُ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ .

وَبِآخِرِ رَسْمِ خَطِ الشُّهُودِ خَطُ الْمُسْتَحْلِفِ . وَصُورَتُهُ :

أَخْلَفْتُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْكَبِيرَ ، الْعَالِمَ الْمُجَاهِدَ ، الْمُرَاطِطَ الْمُؤَيَّدَ الْمَنْصُورَ ، الْمَلِكَ الظَّاهِرَ أَبَا الْفَتْحِ بَيْبَرْسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، الصَّالِحِيَّ ، أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - بِهَذِهِ الْيَمِينِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوحِ فِيهَا ، تَارِيخِ الثَّالِثِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْحَرَمِ ، سَنَةِ سِتِينَ وَسِتْمِائَةٍ - أَحْسَنَ اللَّهُ تَقْضِيَهَا . وَكَتَبَهُ خُزَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَلِيٍّ - حَامِدًا لِلَّهِ تَعَالَى وَمُصَلِّيًا .

وَجَهَزَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الظَّاهِرَ لِلْمَلِكِ الْمَغِيثِ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ فخر الدين عثمان - وَكَانَ مُعْتَقَلًا بِالْقَلْعَةِ مِنَ الْأَيَّامِ الْمُظْفَرِيَّةِ ، كَمَا قَدَمْنَا - فَأَطْلَقَهُ السُّلْطَانُ الْآنَ ، وَأَقْطَعَهُ ذِيَّانًا ^(١) بِمَنْشُورٍ ، ثُمَّ سَيَّرَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ صَنْجَقًا وَشِعَارَ السُّلْطَانَةِ . فَقَبِلَ الْمَلِكُ الْمَغِيثُ عَقِبَ الصَّنَجَقِ ، وَرَكِبَ بِشِعَارِ السُّلْطَانَةِ .

وَضَنَّ الْمَلِكُ الْمَغِيثُ أَنَّ الصَّلَاحَ قَدْ انْتَضَمَ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الْيَمِينِ . فَوَكَّلَ إِلَى ذَلِكَ . ثُمَّ جَهَّزَ وَالدَّهَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِينَ وَسِتْمِائَةٍ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ . فَوَجَدَهَا السُّلْطَانُ بِغَزَّةَ ، فَأَنْعَمَ عَلَيْهَا أَنْعَامًا كَبِيرًا ، وَعَلَى مِنْ مَعَهَا . وَأَجْرَى مَعَهَا الْحَدِيثَ فِي وَصُولِ الْمَلِكِ الْمَغِيثِ إِلَيْهِ ، لِيَتَنْظِمَ الصَّلَاحَ شِفَاهًا ، وَتَتَأَكَّدَ

(١) (بكسر أوله وسكون ثانيته) : بلد بالأردن مما يلي البلقاء .

أسبابه . وأعاد عليها العطاء ثانياً ، وجَهَّزَهَا إلى الكَرْك . وجَهَّزَ في خدمتها
الأمير شرف الدين الجاكى المَهْمَنْدَار^(١) ، لتجهيز الإقامات للملك
المغيث .

معين التاريخ
لأهل التاريخ

فاغترَّ الملكُ المغيثُ بذلك . واستَخْلَفَ ابْنَهُ الملكُ العزيزُ فخر الدين
بالكرك ، واستَخْلَفَ له من تَرْكِهِ بقلعة الكرك ، وترك عنده بقيةَ أولاده -
إخوة الملك العزيز- وكان له سبعة أولاد ذكور ، أسَّطَهُم الملكُ العزيزُ
فخر الدين عثمان . ووُلِدَ له بعد قبضه ابنان . وكان الملكُ العزيزُ ، يوم ذاك ،
صغيرَ السن ، فإن مولده - كما أخبرني به - في الأول من يوم الإثنين ثالث
شوال ، سنة اثنين وخمسين وستائة .

وفارق الملكُ المغيثُ الكرك ، وتوجه إلى السلطان الملك الظاهر ، وهو
بمِثْرَةَ الطُّور . فلما بلغ السلطانَ وصولُ الملك المغيث إلى بَيْسَانَ ، ركب إليه
وتلقاه . وساقاً جميعاً إلى مِثْرَةَ السلطان . فلما وصلَ الملكُ المغيثُ إلى باب
الدَّهْلِيزِ ، تَرَجَّلَ ودخل إلى الحَيْمَةِ . فأَدْخَلَ على خَرَّكَاه^(٢) ، وقَبِضَ عليه
وعلى مَنْ معه - وذلك في يوم السبت السابع والعشرين من جِهادى الأول ،
سنة إحدى وستين وستائة . وأظهر السلطانُ لِقْبُضِهِ سَبَباً ، نَذَرَهُ في أخبار
السلطان الملك الظاهر - إن شاء الله تعالى - تَقِيَّةً عليه بعد هذا .

(١) كانت وظيفة المهندار تلق الضيوف والإشراف على إجراءات الاحتفاء بهم .

(٢) لفظ فارسي معناه : الحيمة - كما ذكرنا من قبل .

ولَمَّا قَبِضَ عَلَيْهِ ، جَهَّزَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ - صُحْبَةَ الْأَمِيرِ شَمْسِ الدِّينِ أَقْسَنُورِ الْفَارِقَانِيِّ . وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ ، أُدْخِلَ الْبَرْجَ الَّذِي كَانَ بِهِ وَلَدُهُ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ فَخَرُ الدِّينِ عُمَانُ ، فَقَالَ لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ بَلْبَانِ الثَّجَاحِيِّ - مُتَوَلَّى قَلْعَةِ الْجَبَلِ - : فِي هَذَا الْبَرْجِ كَانَ وَلَدِي عُمَانُ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَلَمْ يَسْتَقِرَّ بِذَلِكَ الْبَرْجُ ، بَلْ نُقِلَ مِنْهُ فِي يَوْمِهِ ، وَأُدْخِلَ إِلَى قَاعَةٍ مِنْ قَاعَاتِ الدُّورِ السُّلْطَانِيَّةِ ، فَقُتِلَ مِنْ يَوْمِهِ . وَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ .

وَتَوَلَّى ذَلِكَ الْأَمِيرُ عَزِ الدِّينِ أَيْدَمَرُ الْحِلْيِ - نَائِبُ السُّلْطَانَةِ - بِالْفِيَةِ . وَاسْتَدِلَّ عَلَى قَتْلِهِ أَنَّ بَعْضَ الْخُدَّامِ حَكَّى ، فَقَالَ : لَمَّا أُدْخِلَ الْمَلِكُ الْمَغِيثُ إِلَى الْقَاعَةِ ، طُلِبَ لَهُ طَعَامٌ مِنَ الْآدَرِ^(١) السُّلْطَانِيَّةِ - قَالَ الْخَادِمُ : فَتَوَجَّهْتُ لِإِحْضَارِ الطَّعَامِ ، فَأَتَيْتُ بِهِ عَلَى رَأْسِ خَادِمٍ آخَرَ ، فَوَجَدْتُ الْأَمِيرَ عَزِ الدِّينَ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْقَاعَةِ ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ ! فَقُلْتُ : قَدْ حَضَرَ الطَّعَامُ . فَقَالَ : بَعْدَ أَنْ أَغْلَقْنَا الْبَابَ لَا نَفْتَحُهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ . فَرَجَعْتُ بِالطَّعَامِ . وَلَمْ يُفْتَحَ ذَلِكَ الْبَابُ ، إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ أَوْ نَحْوِهَا .

وَكَانَ مَوْلِدُ الْمَلِكِ الْمَغِيثِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بِمَثَرَةِ الْعَبَّاسَةِ^(٢) فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتَّمِائَةٍ .

(١) جَمْعُ «دَارٍ» هُوَ أَحَدُ جَمْعِيَّاتِهَا . كَمَا جَاءَ فِي الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ ، مَادَّةُ «دَارٍ» . وَيُظْهِرُ أَنَّ أَصْلَ الْجَمْعِ «آدُور» ثُمَّ حَصَلَ قَلْبُ «صَارَتْ» «آدُور» ثُمَّ «آدَر» .

(٢) سَبَقَ تَحْدِيدُ مَوْضِعِهَا ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَثَرَةٍ يَلْقَاهَا الْقَادِمُ إِلَى مِصْرَ مِنَ الشَّامِ ، إِلَى الشَّرْقِ مِنْ بَلْبِيسَ .

ولما قُبِضَ عليهم ، جهز الملكُ الظاهر ، إلى الكرك ، الأمير بدر الدين
 بَيْسَرى ، والأمير أَيْدَمَر الظاهرى ، وكتب إلى مَنْ بها يَعِدُهُم الإحسان . ثم
 توجه بنفسه إليها ، وتَسَلَّمَهَا على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فى أخباره .
 وَأَنْعَمَ على ولده : الملك العزيز فخر الدين عثمان بِإِمْرَةٍ مائة فارس . ورُئِبَ
 لإخوته وأهله الرواتب . ثم قُبِضَ عليه ، بعد ذلك ، واعتُقِلَ - على
 ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(٧)

١٧٨

وأما الملك المُوَحَّد تقي الدين عبد الله
 ابن الملك المعظم نُورُ أُنْشَاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ،
 ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن الملك العادل سيف الدين
 أبى بكر محمد بن أيوب - صاحب حصن كيفا ونصيبين وأعمالها

فإن والده الملك المعظم كان قد تركه بحصن كيفا ، عند قدومه إلى
 الديار المصرية ، وهو دون البلوغ . فاستمر بالحِصْن بعد مقتل والده ، ودَبَّرَ
 أَمْرَ دولته خادِمًا أبيه : اخنوخ الدين ياقوت ، وجمال الدين طُغْزُ . فلم تَزَلْ
 هذه المملكة بيده ، إلى أن استولى هولاكو على البلاد .

فلما قارب بلادَ الملك الموحد خرج إليه بأمان وتلقاه ، وقدم له أشياء مما كان عنده من الثَّحَفِ ونفائس الذخائر ، فأقرَّه على عمله . ولم يتعرض لحِصْنِ كَيْفَا ، ولا هَرَّاقَ به دما . وقرر عليه قَطِيعَةً في كل سنة أحد عشر ألف دينار ثمنها ^(١) ستة وستين ألف درهم . ثم خرجت نصيبين عنه . وذلك أن صاحب ماردِين : الملك المظفر ، بن الملك السعيد بن أرتُّق - ضَمِنَها من التار ، وأضافها إلى مملكته .

ثم نَقَلَ أَبَقَا بن هولاکو - في أول دولته - الملكَ المُوَحَّدَ إلى الأَرْدُودَا ^(٢) ، وأَخْلَى قلعة حِصْنِ كَيْفَا ، وخَرَّبَها .

وسببُ ذلك أن الملك الظاهر ركن الدين يببرس ، لما ملك الديار المصرية وما معها ، خَشِيَ عاقبة الملك الموحد ، وأنه من البيت الأيوبي ، ومُلِكُ الديار المصرية لأبيه وجده ، وجدُّ أبيه وجد جده . فأمر بمكاتبتِه ومكاتبة خادِمَتِه - عن جماعة من الأمراء الصالحية - يستدعون الملك المُوَحَّد إليهم ، لِيَمْلِكُوهُ مُلْكَ آبائه . ووصلت الكتبُ بذلك إليهم ، فإلت نفوسُ الخُدَّامِ إلى ذلك ورغبوا فيه ، ولم يَخْشَوْا عاقبة المَكَايِدِ .

(١) تبدو في (ع) كأنها : « عنها » ، ولكن المعنى لا يستقيم ، فرجعنا قراءتها « ثمنها » أى قيمة تحويل العملة . فيسكن أن يدفعوا بالدينار أو بالدرهم .

(٢) لفظ مغرول معناه المسكر . وقد استعمل في المراجع العربية أو الفارسية في هذا العصر ، للدلالة على مسكر أَيْلُخَان الدولة المغولية بفارس .

فَحَمَلَهُمْ حُبُّ ذَلِكَ عَلَى أَنْ أَجَابُوا الْأَمْرَاءَ عَنْ كَيْفِهِمْ : أَنَّهُمْ يَصْلُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمَلِكِ الْمَوْحِدِ . وَأَخَذَ الْقَصَادُ^(١) الْكُتُبَ وَرَجَعُوا ، فَظَفِيرَ بِهِمْ مُقَدِّمُ
التَّارِ . فَأَرْسَلَ الْكُتُبَ إِلَى أَبَتَا ، فَأَحْضَرَهُ ، وَأَحْضَرَ الْخَادِمَيْنِ ، وَقَتْلَهَا .
وَأَقْرَهُ بِالْأَرْدُوَا مَدَّةَ سَبْعِ سَنِينَ - هَذَا ، وَنَابَهُ مَقِيمٌ بِحِصْنٍ كَيْفَا . ثُمَّ أَطْلَقَهُ
وَأَعَادَهُ إِلَى الْحِصْنِ . فَكَانَ بِهِ إِلَى أَنْ تُوفِيَ . وَكَانَتْ وَفَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
ضَمِيَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، النِّصْفَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ ، سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ
وَسِتِّائَةٍ .

وَكَانَ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ الذَّكَوْرِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ ، وَهُمْ : الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ
أَبُو بَكْرٍ شَادِي ، وَالْكَبِيرُ ، وَعِلَاءُ الدِّينِ عَلَى الْكَبِيرِ ، وَمُثْلَطَايَ - وَإِنَّمَا سُمِّيَ
بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ وُلِدَ بِالْأَرْدُوَا^(٢) ، فَأَمَرَتْ قَوْلِي^(٣) خَثُونُ ، زَوْجَةُ هَوْلَاكُو ،
أَنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ . وَأَرْسَلَانُ ، وَيُوسُفُ ، وَزَكَرِيُّ ، وَعَنْثَانُ ، وَخَلِيلُ ، وَعَلَى
الْأَصْغَرِ ، وَإِبْرَاهِيمُ شَقِيقُهُ ، وَأَبُو بَكْرٍ الْأَصْغَرُ - وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ نَاصِرِ الدِّينِ
يُحْيَى ، بِنِ جَلَالِ الدِّينِ الْحَقِيقِيِّ ، أَحَدِ مُقَدِّمِي التَّارِ . وَنَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ ،
وَحَسَنُ . وَمَاتَ مِنْ أَوْلَادِهِ - قَبْلَ وَفَاتِهِ - الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ مُحَمَّدُ - مَاتَ قَبْلَ
وَالِدِهِ بِسَبْعَةِ أَيَّامٍ . وَاللَّمْسَنُ - وَهُوَ شَقِيقُ أَرْسَلَانَ .

وَلَمَّا مَاتَ الْمَلِكُ الْمَوْحِدُ ، مَلَكَ حِصْنُ كَيْفَا بَعْدَهُ وَلَدُهُ : الْمَلِكُ الْكَامِلُ
سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ شَادِي - بِتَقْرِيرِ التَّارِ . فَاسْتَمَرَ إِلَى شَهْرِ رَجَبٍ ، سَنَةِ تِسْعٍ
وَتِسْعِينَ وَسِتِّائَةٍ . ثُمَّ قَتَلَهُ قَاَزَانُ ، مَلِكُ التَّارِ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ إِخْوَتِهِ
شَكَّرُوهُ لَهُ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ قَتَلَ بَعْضَهُمْ .

(١) الرسل الموفدون .

(٢) معسكر المغول ، كما مر ذكره .

(٣) غير ظاهرة في (ع) .

وملك بعده الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر الأصغر ، مَلَكه قازان .
رِعايةً لحق أخواله . فملك أربعة أشهر ، وقُتِلَ بِمِثْرَلَةِ المِيدَانِ - بِقَرَبِ إِرْبِلِ -
قتله الأكراد ، هو وأخوه أرسلان - وكانا نازِلَيْنِ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ مع جماعة من
التتار ، كَبَسَهُمُ الأكراد الشَّهْرِيَّةَ ^(١) بها .

وملك بعده أخوه الملكُ المعظم ، حسام الدين خليل - أربعة أشهر -
فَعَسَفَ وظَلَمَ فَنازَعَهُ في المملَكة ابنُ أخيه الملكُ الصالح صلاح الدين
يوسف ، بن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر ، بن الملك الموحَّد ،
وشكاه إلى التتار ، فسُلِّمَ إليه عَمُّهُ الملكُ المعظم ، فَحَنَّقَهُ .

واستقر الملكُ الصالح هذا في المملَكة بِحِصْنِ كَيْفَا ، خمس سنين . ثم
نازعه (عَمُّهُ) ^(٢) حَسَنَ ، وتوجه إلى التتار فَمَلَكُوهُ الحِصْنَ . ولُقِّبَ الملكُ
الظاهر بدرَ الدين حسن ، وأرسلوا معه عسكرا . فَهَرَّبَ ابنُ أخيه أمامه .
وأقام بالحِصْنِ سنة .

ولحق الملكُ الصالح بالشيخ الشرف . بن الشيخ عَدِيِّ الهَكَارِيِّ ،
بِجَبَلِ هَكَارٍ ^(٣) ، وأقام سنة . ثم جمع جمعاً كثيراً من الأكراد . وعاد إلى
الحِصْنِ ، عند خلو البلاد من التتار ، وحاصر عَمُّهُ الملكُ الظاهر حسن ، مدة
أربعة أشهر . فوافقه أهلُ القلعة وسلموه إليه ، فَقتَلَهُ ، وعاد إلى مملكته .
وأرسل إلى التتار وأرضاهم ، فأَقْرَوْهُ . فهو إلى وقتنا هذا .

(١) أي الشهرذوبية . نسبة إلى شهرزور . سبق ذكرهم .

(٢) الزيادة من النسخة (ع) .

(٣) بلاد الهَكَارِيَّةُ فوق الموصل . وأهلها أكراد - كما جاء في ياقوت

أخبرني بذلك المؤلى الأمير علاء الدين على ، بن الملك الموحّد - وهو على الأصغر ، المقدّم الذكر - وهو يوم ذاك بالقاهرة المعزّية .

وكان قد فارق الحصن ، كما حصل من ابن أخيه هذا : من قتل إخوته أولاد الملك الموحّد . ووصل إلى الديار المصرية ، في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة ، واستقر بها . وأقطعه السلطان الملك الناصر إقطاعاً متميزاً ، بحلقيتها . وأخبرني أنه لم يبق من أولاد الملك الموحّد - لصلبه - سواه . وأن بقية من ذكرناهم أفاهم الموت والقتل .

وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة . (٧)

أما الملك الكامل ناصر الدين محمد
ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي
ابن الملك العادل : سيف الدين أبى بكر بن أيوب
صاحب ميّافارقين

فإنه لم يزل بها ، إلى أن ملك التار البلاد . فندب هولاءكو صرطق نوبين ، وقطعان نوبين^(١) لمحاصرته بميافارقين ، بطائفة كثيرة من التار . فحاصروه مدة ستين ، حتى قُلت الأقوات عندهم ، وأكلوا الكلاب والسناير والميتة . ففتحها التار بعد أن قُتلى من عنده من الجند من القتال - وذلك في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وأسّر الملك الكامل ، وتسعة نفر من مماليكه ، وأحضروا بين يدي هولاءكو ، فقتلوا ، إلا مملوكاً واحداً - كما تقدم في أخبار هولاءكو

(١) قائدان من قواد التار .

وكان الملك الكامل هذا - رحمه الله تعالى - مليكاً حازماً كريماً ، كثير
الزهد والورع . ولما قُتِل - رحمه الله - حمل التَّارُ رأسَه على رُمحٍ ، وطيفَ
به البلاد . ومَرُّوا به على حلب وحماه ، وأَتَوْا به إلى دمشق - في سابع عشر
جمادى الأولى من السنة - وطافوا به دمشق ، وأمام الرأس المَعَانِي والطُّبُول !
وعُلِّقَ رأسُه بباب الفَرَادِيس ، إلى أن دخل الملك المظفر قُطُرَ إلى دمشق - بعد
هزيمة التَّار - فَأَنْزَلَ الرأس ، ودُفِنَ بمشهد الحسين داخل باب الفراديس

فقال الشيخ شهاب الدين أبوشامة^(١) في ذلك ، من أبيات :

ابنُ غَزِي غَزَا وَجَاهَدَ قَوْمًا أَثْحَوْا^(٢) في العراق والمَشْرِقَيْنِ
طَاهِرًا عَالِيًا ، ومَاتَ شَهِيدًا بعد صَبْرٍ عليهم عَامِسِينَ
لم يَشْنُهُ إِذْ طِيفَ بِالرَّاسِ مِنْهُ وَلَهُ أَسْوَةٌ بِرَأْسِ الْحُسَيْنِ
ثُمَّ وَارَوْا بِمَشْهَدِ الرَّاسِ ذَاكَ الرَّأْسَ ، فَاسْتَعْجَبُوا مِنَ الْحَالَتَيْنِ

(١) في (ع) ، ابن أبي شامة ، وهو خطأ لأن القائل هو أبوشامة نفسه . كما ضُرح بذلك في كتابه ، الدليل
على الروصتين .

(٢) أي أكنذرو القتل

٨١٧

وأما الملك المنصور ناصر الدين محمد
ابن الملك المظفر تقي الدين محمود ، بن
الملك المنصور أبي عبد الله محمد ، بن الملك
المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب
صاحب حمّاه

فإنه كان قد ملك حمّاه بعد وفاة والده - في ثامن جمادى الأولى ، سنة
اثنين وأربعين وستائة . فاستمر في مُلك حمّاه ، وطالت مدته . وكان يتردد إلى
الديار المصرية في الأيام الظاهرية والمنصورية ، وهم يُعَظِّمُونَهُ . وهداياهم
وتَقَادِمُهُ تُصِلُ إلى الملوك . وهو يشهدُ معهم الحروب والوقائع ، بعسكر
حمّاه .

وما زال كذلك ، إلى أن تُوفى في شوال ، سنة ثلاث وثمانين وستائة .
ومولده في الساعة الخامسة من يوم الخميس ، لليلتين بقيتا من شهر ربيع
الأول ، سنة اثنين وثلاثين وستائة .

ولما تُوفى ، رَغِبَ السلطانُ الملكُ المنصورُ سيفُ الدين قلاوون في مُلكِ
حمّاه ولده : الملكَ المظفرَ تقي الدين محمود بن محمد . وكوُتِبَ من ديوان
الإنشاء بما كان يُكَاتَبُ به والده . وَحُمِلَتْ إليه وإلى أهله وإلى أهل بيته
الخلع والشاريف السلطانية . واستقر في ملك حمّاه إلى أن تُوفى في يوم
الخميس ، الحادى والعشرين من ذى القعدة ، سنة ثمان وتسعين وستائة ،

ودفن ليلة الجمعة . وكان مولده في الساعة العاشرة من ليلة الأحد ، خامس عشر المحرم ، سنة سبع وخمسين وستائة .

واستقرت المملكة الحَمَوِيَّة بعد وفاته في يد نوابِ ملوك مصر . وكان أول من وليها من النواب : الأمير شمس الدين قَرَأ سُنُقَر المَنصُورِي ، نُقِلَ من الصُّبِّيَّة إليها . ثم نُقِلَ منها إلى نيابة حلب ، في سنة تسع وتسعين وستائة ، بعد وَقْعَةِ قَارَازَان^(١) . وَفُوضَتْ نيابة السلطنة بِحَمَاهُ إلى الملك العادل زين الدين كُتُبَقَا المَنصُورِي - وكان قبل ذلك بِصَرَخَد - فلم يَزَلْ بها إلى أن مات ، في سنة اثنتين وسبعائة . فَوَلِيَهَا الأمير سيف الدين قَبْجَاق المَنصُورِي ، فكان بها إلى أول الدولة الناصرية الثانية . وَنُقِلَ منها ، في سنة تسع وسبعائة ، إلى نيابة المملكة الحلبية . وَفُوضَتْ نيابة السُّلْطَنَةِ بِحَمَاهُ للأمير سيف الدين أَسْتَدْمَر كُرْجِي^(٢)

فكان بها ، إلى أن فُوضَ السلطان - الملك الناصر - نيابة المملكة الحَمَوِيَّة إلى الأمير عماد الدين إسماعيل ، بن الملك الأفضل نور الدين علي ، ابن الملك المظفر محمود ، بن الملك المنصور محمد ، بن الملك المظفر تَقِيَّ الدين عُمَرَا ، بن شاهانشاه بن أيوب ، في سنة عشر وسبعائة

(١) هو إيلخان المغول في فارس ، ويقال له أيضاً : غازان .

(٢) ضبطه في « التيجوم الزاهرة » : ج ٨ - ص ١٥٧ هكذا : أَسْتَدْمَر كُرْجِي ، وقال : « هو أَسْتَدْمَر بن عبد الله الكرجي ، الأمير سيف الدين ، نائب طرابلس » .

فاستمر في نيابة السلطنة مدة ثم كُتِبَ بعد ذلك من ديوان الإنشاء بالمقام العالى المَلِكِي العِمَادِي ولم يَزَلْ كذلك ، إلى أن قَوَضَ السلطانُ الملك الناصر إليه سلطنة حمّاه ، ولقبه بالملك المُوَيْد . وَرَكِبَ بالقاهرة المحروسة بشعار السلطنة ، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم ، سنة عشرين وسبعمائة - على ما نذكره ذلك ، إن شاء الله تعالى ، في أخبار الدولة الناصرية . وهو باق إلى وقتنا هذا . وَيَصِلُ في كل سنة إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية بالتقاويم والتَّحْفِ ، وَيَحْصُلُ له الإنعام السلطاني ، والتشريف ، وغير ذلك .

وملوك حمّاه - وإن لُقِّبُوا بالقابِ الملوك ، وَخُوطِبُوا وَكُتِبُوا بما يُخَاطَبُ وَيُكَاتَبُ به الملوك - فلا تُعَدُّ أيامهم من جُمْلَةِ الدولة الأيوبية . لأنهم في الخِدمة السلطانية على رَسْمِ الثَّوَابِ . وإنما أوردنا ما ذكرناه من أخبارهم ، لِتَعْلَمَ .

(١) وأما الملك الأشرف مظفر الدين موسى

ابن الملك المنصور إبراهيم ، بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه
ابن الأمير ناصر الدين محمد ، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه
ابن شاذى ..

صاحب قلّ باشير والرّحبة

فقد ذكرنا أنه كان بيده حمص وتدمر والرّحبة^(١) ، إلى أن استولى
الملك الناصر - صاحب حلب - على حمص ، في سنة ست وأربعين
وسمائه ، وعوّضه عنها قلّ باشير^(٢) . فلم يزل بها إلى أن استولى هولاكو على
حلب - كما ذكرنا في سنة ثمان وخمسين وسمائه - فحضر إليه . فأكرمه
هولاكو ، وأعاد عليه حمص ، وقوّض إليه نيابة السلطنة بالشام والسواحل .

فلما هزم الملك المظفر سيف الدين قطز التتار على عين جالوت . ووَصَلَ
إلى دمشق - أقره على حمص والرحبة وتدمر . وأقر الملك الظاهر - بعده -
ذلك بيده ، إلى أن توفى في حادى عشر صفر ، سنة اثنين وستين وسمائه .

ولم يكن له عقب ، فاستقر ما كان بيده في يد نواب السلطنة ، إلى
وقتنا هذا . ولبعض من ذكرنا أخبارهم في هذا الوضع ، أخباراً ووقائع مع
الملوك ، يأتي ذكرها في أخبار ملوك الديار المصرية - على ما تَقَفُّ على ذلك ،
إن شاء الله تعالى ، في مواضعه . وإنما ذكرناهم في هذا الوضع . لتكون
أخبارهم مُجْتَمِعة ، على سبيل الاختصار .

(١) تقدم ذكر هذه الأماكن . تدمر : مدينة قديمة مشهورة في بركة الشام . والرحبة على شاطئ الفرات الغربي
جنوبى قرقيسيا (وهي رحبة مالك) .

(٢) سبق ذكره ، وهو قلعة وكورة شمالي حلب .

١١٠] إنتهاء الدولة الأيوبية [١١)

وكانت هذه الدولة الأيوبية بالديار المصرية - منذ وَلِيَ الملك المنصور
أسد الدين شيركوه وزارةَ العاضد لدين الله العبيدي ، وَلَقَّبَهُ بِالْمَلِكِ المنصور
أمير الجيوش ، في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، سنة أربع وستين وخمسمائة ،
إلى أَنْ مَلَكَ السُّلْطَانُ الملكُ الْمُعَزَّزُ الدينُ أَيْتُكُ الثُّرَكْمَانِي الصَالِحِي ، في
التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر . سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة - أربعاً
وثمانين سنة ، وأربعة أشهر ، واثني عشر يوماً - وإلى أَنْ استولى هولاكو على
الشام ، وَهَرَبَ الملكُ الناصرُ ، صاحب الشام وحلب ، في النصف من صفر
سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ثلاثاً وتسعين سنة ، وعشرة أشهر ، تقريباً .

هذا ما أمكن إيرادُه من أخبار هذه الدولة الأيوبية ، على سبيل
الاختصار . فَلْتَذَكَّرْ أخبارَ دولة الثُّرُك ، وهي فَرَعُ الدولة الأيوبية .

(١) هذا العنوان ليس في (ع) ، فوضعه للتوضيح .

١١٠
١١٠

ذكر أخبار دولة الترك^(١)

وابتداء أمر ملوكها ، وما ملكوه من الممالك والحصون
والأقاليم والثغور والأعمال ، وما فتحوه ،
وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء هذه الدولة بالديار المصرية . ثم انتشرت بالبلاد الشامية ،
ثم امتدت إلى الممالك الحلبية والفراتية . ثم استولت على الثغور والقلاع
والحصون الساحلية . واستنقذت حصون الدغوة من أيدى الإسماعيلية^(٢) .
وبلغت المملكة الرومية . ودانت لها الأقطار اليمنية والحجازية .

وانتمت إليها الطوائف القرمانية^(٣) . ورغب في مُسلمتها الملوك .
الجنكزخانية . ونفذت أوامرها واتصلت أحكامها ببلاد إفريقية وما يليها ،
والتكرور^(٤) وما يُدانيها . ودخلت في طاعتها وعقدت ذمتها من إقليم التوبة ، من
بلاد الدو^(٥) ، المجاور لثغر أسوان ، إلى بلاد الكرسي والغريان^(٦) ، وهو آخر
العمل بالقرب من مجرى نهر النيل . على ما نورد ذلك ، إن شاء الله تعالى ،
ونوضحه ونبينه ونشرحه .

(١) هي الدولة التي تُسمى الآن في كتب التاريخ «دولة المماليك» . ولكن الأول : «دولة الترك» هو الاسم
التاريخي الذي كانت تعرف به الدولة في عصرها - كما نقرأ في هذا المقام وفي المراجع الأخرى . والأولى تسمية
الدول بأسمائها التاريخية .

(٢) وهم الشيعة الباطنية .

(٣) من الطوائف التركية .

(٤) التكرور : بلاد تنسب إلى قبيل من العودان ، في أقصى جنوب المغرب .

(٥) (ياقوت : ج ٢ - ٢٩٩) وهي - الآن - في دولة «مال» .

(٥) فيها قلعة «الدو» بالقرب من أسوان . (انظر : سلوك - زيادة . ج ١ ق ٢ - ٦٢٢ حاشية ٦)

(٦) هكذا ضبطت هذه الأسماء بالفلم في (ع) . ويظهر أن المراد بها جنوب السودان .

ولتبدأ بذكر أخبارهم ، وسبب الاستيلاء عليهم .

ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم
وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم ، واتصافهم بملوك
الإسلام . ومن استكثر منهم ، وكثالي في اتباعهم
وقدّمهم على العساكر

بد ذكرنا في أخبار الدولة العباسية من اتصل منهم بالخلفاء ، وتقدم
على العساكر ، وعلا قدره وطار اسمه . وذكرنا أيضاً في أخبار الدولة
العباسية - في أيام المستنصر بالله - ما كان من أمرهم ، وقيامهم ، ومحاربتهم
ناصر الدولة بن حمدان - تارة ، ومعه أخرى .

ثم ذكرنا أن الملك الناصر - صلاح الدين يوسف بن أيوب - كان ممن
اهتم بتحصيلهم ، وأخوه الملك العادل ، ثم ابنه الملك الكامل . وكانوا إذ
ذاك لا يجلبهم التجار إلا خفية ، ولا يقدرّون على تحصيلهم إلا سرقة ، لأن
حياتهم كان موصّوفاً من التجار بيتهم ، أو التطرق إليهم .

وأما السبب الموجب للاستيلاء عليهم ، ويعيهم في الأمصار - فهو أنه
لما ظهر جنكيزخان التمرجي ، ملك التار ، واستولى على البلاد الشرقية

والشمالية ، وَثَّ عَسَاكِرَهُ فِي الْبِلَادِ ، فَانْتَهَوْا إِلَى بِلَادِ الْقَفْجَاقِ وَاللَّانِ (١) ،
وَأَوْقَعُوا بِهِمْ - عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْجَنْكِيْزِيَّةِ - فَبِيعَتْ
ذُرَارَى التُّرْكِ وَالْقَفْجَاقِ ، وَجَلَبَهَا التَّجَارُ إِلَى الْأَمْصَارِ .

ثُمَّ رَجَعَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّذِينَ نَدَبَهُمْ جَنْكِيْزْخَانُ إِلَيْهِمْ ، فِي سَنَةِ
سِتْ عَشْرَةٍ وَسِتِّائَةٍ - وَهُمْ التَّارُ الْمُعَرَّبَةُ (٢) - وَعَادُوا إِلَى مَلِكِهِمْ جَنْكِيْزْخَانِ .

وَاسْتَقَرَّتْ طَوَائِفُ الْأَتْرَاكِ بِأَمَاكِنِهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الشَّمَالِيَةِ . وَهُمْ أَصْحَابُ
عَمُودِ (٣) ، لَا يَسْكُنُونَ دَارًا ، وَلَا يَسْتَوِطِنُونَ جِدَارًا ، بَلْ يُصَيِّفُونَ فِي أَرْضٍ
وَيُسْتَوُونَ بِأُخْرَى . وَهُمْ قِبَائِلُ كَثِيرَةٌ لَمِنْ قِبَائِلِهِمْ مَا أَوْرَدَهُ الْأَمِيرُ رُكْنَ الدِّينِ
يَبِيْرَسُ ، الدَّوَادَارِيُّ الْمَنْصُورِيُّ ، نَائِبُ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ كَانَ - أَحْسَنَ اللَّهِ
عُقْبَاهُ ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَعَامَلَهُ بِالطَّافَةِ فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَجَلِ - فِي تَارِيخِهِ (٤) :
فَبَيْلَةُ طَقْقَصَبَا . وَتِيَا . وَبَرْجُ أُغْلَى . وَالْبَرْلَى ، وَقُنُقُرُ أُغْلَى . وَأَنْجُمُلَى .
وَدُرُوتَ . وَقَلَابَا أُغْلَى . وَجُرْتَانِ . وَقَرَا تُرْكُلَى . وَكُتْنِ .

قَالَ : وَلَمْ يَزَالُوا مُسْتَقَرِّينَ فِي مَوَاطِنِهِمْ ، قَاطِنِينَ بِأَمَاكِنِهِمْ ، إِلَى سَنَةِ
سِتْ وَعَشْرِينَ وَسِتِّائَةٍ . فَاتَّفَقَ أَنْ شَخْصًا مِنْ قَبِيلَةِ دُرُوتَ يُسَمَّى مَنُغُوشَ بْنِ

(١) الْقَفْجَاقُ : الْقَرَقَزُ . وَاللَّانُ : بِلَادٌ وَاسِعَةٌ فِي طَرَفِ أَرْمِينِيَّةِ ، قَرِبَ بَابِ الْأَبْوَابِ . وَهُمْ مُجَاوِرُونَ لِلْحَزَرِ .

(مَعْجَمُ الْبِلَادَانِ : ٧ - ٣١٦)

(٢) هُمُ الْفُرْقَةُ مِنَ التَّارِ الَّذِينَ نَدَبَهُمْ «جَنْكِيْزْخَانُ» لِلْسَّيْرِ إِلَى الْغَرْبِ ، أَيْ غَرْبِ خِرَاسَانَ (فَسَوَا الْمُعَرَّبَةِ
لِلذَلِكَ) لِمَطَارَدَةِ شَاهِ خَوَارِزْمِ . فَسَارُوا مَحَارِبِينَ مَدْمَرِينَ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بِلَادِ الْقَفْجَاقِ .

(٣) أَيْ أَصْحَابُ خِيَاءٍ يَنْصِبُونَهَا . فَهِيَ قَوْمٌ رُحَّلٌ .

(٤) الْمُسَمَّى : «زَيْدَةُ الْبِكْرَةِ» فِي تَارِيخِ الْمَجَرَّةِ . وَكَانَتْ وَفَاةُ يَبِيْرَسِ الدَّوَادَارِيِّ فِي عَامِ ٧٢٥ هـ .

كُنْ خَرَج مُتَصِيداً ، فَصَادَهُ شَخْصٌ مِنْ قَبِيلَةِ طَقْصَبَا اسْمُهُ آقُ كُجُكْ - وَكَانَ بَيْنَهُمَا مَنَافَسَةٌ قَدِيمَةٌ - فَأَخَذَهُ أَسِيرًا ، ثُمَّ قَتَلَهُ . وَأَبْطَأَ خَيْرُ مَثْقُوشٍ عَنْ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ ، فَأَرْسَلُوا شَخْصًا اسْمُهُ جَلَنْغَرٌ لِكَشْفِ خَبْرِهِ ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِقَتْلِهِ . فَجَمَعَ أَبُوهُ أَهْلَهُ وَقَبِيلَتَهُ وَسَاقَ إِلَى آقُ كُجُكْ . فَلَمَّا بَلَغَهُ مَسِيرَهُمْ نَحْوَهُ ، جَمَعَ أَهْلَ قَبِيلَتِهِ وَتَأَهَّبَ لِقَاتِلِهِمْ . فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا ، وَكَانَ الظَّفَرُ لِقَبِيلَةِ دُرُوتَ ، وَجَرَحَ آقُ كُجُكْ وَفَرَّقَ جَمْعَهُ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ أَخَاهُ أَنْصَرُ إِلَى دُوشِي خَانَ بْنِ جَنْكِرْخَانَ - وَكَانَ أَوُكْدَيَّ^(١) ، وَهُوَ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ بِكُرْسِيِّ جَنْكِرْخَانَ^(٢) ، قَدْ نَدَبَهُ إِلَى الْبِلَادِ الشَّمَالِيَةِ - مُسْتَصْرِخًا بِهِ ، وَشَكَا إِلَيْهِ مَا حَلَّ بِقَوْمِهِ مِنْ قَبِيلَةِ دُرُوتِ الْقَبْجَاقِيَّةِ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ إِنْ قَصَدَهُمْ لَمْ يَجِدْ دُونَهُمْ مَنْ يُمَانِعُ . فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي عَسَاكِرَ ، وَأَوْقَعَ بِهِمْ ، وَأَتَى عَلَى أَكْثَرِهِمْ قَتْلًا وَأَسْرًا وَسَبْيًا . فَاشْتَرَاهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ التَّجَارَ ، وَنَقَلُوهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمْصَارِ .

وَأَمَّا أَوَّلُ مَنْ اسْتَكْثَرَهُمْ وَتَقَالَى فِيهِمْ ، وَقَدَّمَهُمْ عَلَى الْعَسَاكِرِ ، فَهُوَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ بْنُ الْمَلِكِ الْكَامِلِ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْكَامِلِيَّةِ - فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّائَةٍ - أَنَّ الْمَلِكَ الْكَامِلَ اتَّصَلَ بِهِ أَنَّ ابْنَتَهُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ابْتَاعَ أَلْفَ مَمْلُوكٍ ، وَأَنَّهُ تَوَثَّبَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَتَقِيمَ عَلَيْهِ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .

(١) فِي (ك) : أَوُكْدَيَّةُ - وَفِي (ع) : أَوُكْدَيَّةُ - وَهُوَ : أَوُكْدَيَّ . بْنُ جَنْكِرْخَانَ . وَقَدْ يُنْقَلُ ، أَوْغَضَى .

(٢) أَيْ كَانَ هُوَ الْمَلِكُ الْعَامُّ عَلَى التَّنَارِ . خَلْفًا لْجَنْكِرْخَانَ .

فَلَمَّا أَفْضَتِ السُّلْطَنَةُ إِلَيْهِ ، اسْتَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَمْرَهُمْ وَقَدَّمَهُمْ عَلَى
 الْعَسَاكِرِ . فَكَانُوا فِي خِدْمَتِهِ ، إِلَى أَنْ مَاتَ . وَمَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ
 ثُورَانْشَاهُ ، فَعَامِلُهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَهُ . وَبِذَلِكَ لِسَانُهُ فِيهِمْ ، وَتَوَاعَدَهُمْ ، فَحَمَلَهُمْ
 ذَلِكَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَطَلَبَ الْمُلُوكُ لِنَفْسِهِمْ . وَكَانَ مَازَكَرْنَاهُ مِنْ إِقَامَةِ شَجَرِ
 الدُّرِّ ، وَخَلْعِهَا .

٥ ١. } فَلَمَّا ذُكِرَ مُلُوكَ دَوْلَةِ التُّرْكِ :

أَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْ مُلُوكِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ :

السلطان الملك المعز

عزالدين أيك التركمانى الصالحى

وليس بتركمانى ، وإنما هى نسبة إلى أولاد التركمانى ، لأنه كان عند أحدهم ، ثم ملكه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهو تركى الجنس .

ملك الديار المصرية ، فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وأربعين وستائة . وأقام معه فى السلطنة الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف ، بن الملك الكامل ، وأجلسه على كرسى السلطنة فى يوم الأربعاء - ثالث جمادى الأولى ، سنة ثمان وأربعين . وركب وشق المدينة فى يوم الخميس - وكان عمره نحو ست سنين .

وكانت المتأشير والتوقييع والمراسيم تخرج عن الملكين ، وليس للأشرف معه إلا مجرد التسمية ، والأمر للملك المعز . ولم يزل كذلك ، إلى أن قتل الأمير فارس الدين أقطاى فى سنة اثنين وخمسين - على ما نذكره . فاستقل حينئذ بالملك . وكان الملك الأشرف فى هذه المدة قد حُجِبَ عن الناس ، واسمه قائم دون شخصه .

ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام ، وانتصار المعز

وفي سنة ثمان وأربعين وستائة ، كانت الحربُ بين السلطان الملك المُعزِّ وبين الملك الناصر - صاحب الشام .

وسبب ذلك أن الملك الناصر ، لما استولى على دِمَشق في هذه السنة - كما قَدَّمْنَا في أخباره - أشار عليه أتابكُه - شمس الدين لؤلؤ - والأمراء القِيمَرِيَّة ، بقصد الديار المصرية . فسار من دِمَشق . واتصل خبره بالملك المعز ، فخرج إليه بعساكر الديار المصرية . والتقى على مَثَرَلَةِ الكُرَاع ، بالقرب من العُشْبِيِّ ^(١) .

واقْتَلَ العسْكَران ، في يوم الخميس ، العاشر من ذى القعدة من السنة .

فكانت الهزيمةُ على العسكر المِصْرِي . ووصلت طائفة من العسكر المِصْرِي إلى القاهرة . ومنهم من فرَّ إلى جهة الصعيد . وثَبَّتَ الملكُ المعز ، واختار من عسكره ثلاثمائة فارس ، وحمل بهم على صَتَّاجِقِ الملك الناصر ، طَمَعاً أن يكون يجهتها فيظفر به . وكان الملك الناصر تَحَيَّزاً إلى فِئَةٍ ، واعتزل المعركة خوفاً على نفسه ، واحتياطاً لها . فلما عاينَ حملةَ الملك المعز ، وشاهد إقدامَه ، انهزم ، ورجع إلى الشام - كما تقدم .

(١) سبق تحديد هذين الموضعين . وهما آخر الأرض الزراعية في شرق محافظة الشرقية . أول طريق إلى الشام .

وساقت الأمراء العزيرية - ممالك والده - بأطلابهم ^(١) إلى خدمة الملك المعز ، ودخلوا في طاعته ، وهم : الأمير جمال الدين أيدغدي العزيري ، والأمير شمس الدين أقش البرلي ، والأمير شمس الدين أقش الحسامي ، وأماهم . وكان سبب انصرافهم عن سلطانهم الملك الناصر أنه أضافهم ، يوم الحرب ، إلى طلب ^(٢) الأمير شمس الدين تولو - أتاكبه - فمّر ذلك عليهم ، وفارقوا خدمة الملك الناصر .

قال : واجتمع الأمراء القيصرية ، وغيرهم ، إلى شمس الدين تولو ، وهتّوه بالنصر على زعيمهم - وتفرقت جماعتهم في طلب المكاسب . فلم يبق معهم من ممالكهم إلا نفر قليل . فصادفهم الملك المعز بمن معه من عسكره ، فقاتلهم . فقتل شمس الدين تولو ، وجماعة من الأمراء القيصرية ، وهم : حسام الدين ، وصارم الدين ، القيصران ، وسعد الدين الحميدي ، ونور الدين الزراري ، وجماعة من أعيان ممالك الملك الناصر . وقتل أيضاً تاج الملوک ، بن الملك المعظم تورانشاه .

وأسير جماعة ، وهم : الملك الصالح بن العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب . ثم قتله الملك المعز في سنة تسع وأربعين ، ودفنه بالقرافة . وأسير أيضاً الملك المعظم تورانشاه ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخوه نصره الدين ، والملك الأشرف صاحب حمص ، وشهاب الدين بن حسام الدين القيصري ، وغيرهم .

(١) بفرقه و جنودهم . كما سبق شرحه .

(٢) كنية - كما تقدم .

وأما بقية الأمراء الناصرية ، فانهم ما علموا بشيء من ذلك . بل ساقوا خلف من انهزم من العسكر ، إلى أن وصلوا إلى العباسية ^(١) وخيّموا بها . ثم بلغهم الخبر فرحلوا بمكاسيهم وأنقالهم . قال : ولما انتصر الملك المعز ، وقتل من قتل ، وأسر من أسر ، ساق إلى العباسية ليلتحق بعساكره . فرأى دهليز الملك الناصر وعساكره قد خيم على العباسية ، فعرج عن طريقها . وسار على طريق العلاقية ^(٢) إلى بليس فلم يجد بها من العسكر أحداً . وبلغه أن منهم من دخل إلى القاهرة ، ومنهم من انهزم إلى الصعيد . فزل على بليس بمن كان معه ، إلى أن تحقق عوذ من سليم من العسكر الشامي . وعاد الملك المعز إلى قلعة الجبل ، مؤيداً منصوراً .

قال : ولما طلع إلى القلعة ، وجد جماعة من الأمراء المعتقلين بها ، لمّا بلغهم وصول المنهزمين من العسكر المصرى ، ظنوا أن الهزيمة تستمر ، فخطبوا للملك الناصر على منبر الجامع بالقلعة ، في يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة من السنة . فعظم ذلك على الملك المعز ، وشقّ الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يعقوب الصالحى ، وأمين الدولة وزير الملك الصالح ، على شراريف قلعة الجبل - وكانا من جملة المعتقلين بها - ومن أشار بالخطبة للملك الناصر . ثم أخرج جميع من دخل إلى القاهرة من العسكر الناصرية ، وأعادهم إلى دمشق على دواب - وكانوا ثلاثة آلاف نفس - ولم يركب أحداً منهم فرساً ، إلا نور الدين بن الشجاع الأكمع ، وأربعة من ممالك الملك الناصر .

(١) ذكرت غير مرة من قبل ، وهى شرق بليس .

(٢) بلدة دون بليس . فيها أسواق للعرب .

واستهلّت سنة تسع وأربعين وستائة :

في هذه السنة ، خرج الملك المعز بمساكر الديار المصرية ، لقصد الملك الناصر ، فنزل على أُمّ البَّارِد عند العباسية . واتصل ذلك بالملك الناصر ، فجهز العسكر الشامي إلى غزّة ، ليكون قبالة العسكر المصري . وأقام العسكران في منازلها ستين يوماً . ونزل الملك الناصر على غَمَمَا من القُور ، ونخيمَ عليها . وأقام بعسكره ستة أشهر .

وفيها في شعبان ، عُزل قاضي القضاة : عماد الدين أبو القاسم إبراهيم ابن هبة الله بن اسماعيل بن تَبَهَّان بن محمد ، الحَمَوِي ، المعروف بابن المُفَشِّيح - عن القضاء بمصر والوجه القبلي . وأضيف ذلك إلى قاضي القضاة : بدر الدين السُّجَّارِي . فاجتمع له الآن قضاء القضاة بالمدينتين ، والوجهين القبلي والبحري ، ولم يجتمعا له قبل ذلك .

وفيها ، قصد الأميرُ جَمَّاز بن شَيْحَة المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وقَبَضَ على أخيه عيسى ، وأقام بالمدينة .

وفيها ، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم بهاء الدين علي بن سَلَامَة بن المُسْلِم بن أحمد ، بن علي اللُّحَمِي البُصْرِي ، المعروف بابن الجُمَيْرِي .

وكان إماماً فاضلاً ، عالماً بمذهب الإمام الشافعي . وأَخَذَ الْعِلْمَ عن الشيخ شهاب الدين محمد الطُّوسِي ، وعن محمد بن يحيى ، وشرف الدين بن أبي عَصْرُون . وَتَفَقَّهَ بالشام ، وقرأ القرآن على جماعة منهم الشاطبي

والبطاحي . وسَمِعَ الحديثَ الكثير . ورواه . سمعَ شهادة^(١) بغداد .
والحافظ السُّلَمي بمصر . وأُجِيزَ بالقُتَيْبَا في سنة خمس وسبعين وخمسمائة . وهو
سَيِّطُ الفقيه أبي الفوارس الجُمَيْزِي .

وكانَ دَمِثَ الأخلاق . كريم النفس . قل أن يَنخُلَ إليه أحدٌ
إلا وأطعمه وكان يخالطُ الملوك ، ويُعظَّمونه . ولم يَزَلْ كذلك إلى أن حج في
سنة خمس وأربعين وخمسمائة . فأهدى له صاحبُ اليمن هدية بمكة .
قبلها . فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكانت وفاته بمصر في ليلة الخميس ، رابع عشر ذي الحجة . ودفن
يوم الخميس بالقرافة ، قريباً من روزبهان . ومولده يوم النحر سنة تسع
وخمسين وخمسمائة - رحمه الله تعالى .

وفيها توفي الفقيه الشيخ ، الرِّياضي . علَّم الدين قَيْصَرَ : بن أبي
القاسم بن عبد الغني بن مسافر ، الحنفي المصري ، المعروف بِنَعَّاسِيْف . كان
إماماً في علوم الرياضة ، وفي فنون كثيرة .

وكانت وفاته بدمشق ، في يوم الأحد ثالث عشر شهر رجب . ودفن
خارج باب شرفي ، ثم نقل إلى الباب الصغير . ومولده سنة أربع وسبعين

(١) من محرر السَّاء شهادة بنت أبي نصر أحمد . الديوبندية الأصل . لعداوية تولد وادوة كانت من
علاء . وكتب الخط الجيد . وسَمِعَ عليها حسن كثير . وشهر ذكرها وبعد صيتها كانت مائة سنة .

وخمسمائة . بأصفون من نعم مدينة قوص . من الصعيد الأعلى بالديار المصرية^(١) . وأصفون بلدة مشهورة هناك .

وفيها . توفى صاحب الوزير جمال الدين أبو الحسين يحيى . بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم . بن الحسين . بن مصروح .

من أهل صعيد مصر . ونشأ هناك . وأقام بمدينة قوص مدة . وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات . ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . في نيابته عن أبيه السلطان الملك الكامل بالديار المصرية . وانتقل في خدمته عند توجهه إلى بلاد الشرق ، في سنة تسع وعشرين وستمائة . ولم يزل هناك إلى أن ملك الملك الصالح الديار المصرية ، فوصل إلى خدمته . في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة . فرتبته ناظر الخزانة .

ثم نقله إلى دمشق ، لما ملكها ثانياً . من عمه الملك الصالح إسماعيل ، وجعله وزيراً وأميراً . واستمر إلى أن وصل السلطان الملك الصالح إلى دمشق في شعبان سنة ست وأربعين وستمائة . فخره عن الوزارة وسيره مع العسكر لحصار جنص . ثم عاد في خدمة السلطان إلى الديار المصرية ، وأقام معه بالمنصورة . وقد تغير عليه لأسباب اتصلت به عنه . ومع ذلك فلم يزل يلازم الخدمة . إلى أن مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة . فجاء إلى مصر ، وأقام بداره إلى أن مات .

(١) قرية . صعيد الأعلى على شاطئ . غرى النيل . تحت بني . وهي عن ثل عان مشرف .

وكان حسن الأخلاق . وله ديوان شعر . وكادت وفاته بمصر في ليلة الأربعاء ، مسهل شعبان ، سنة تسع وأربعين وستائة . ودفن بسفح المقطم . ومولده بمدينة سيوط من صعيد مصر ، في يوم الإثنين ثامن شهر رجب ، سنة اثنتين وتسعون وخمسمائة - رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة خمسين وستائة :

والاختلاف بين المليكين : الناصر - صاحب دمشق والشام - والمُعز صاحب الديار المصرية - على حاله ، والعساكر من الطائفتين مُجرّدة . كل طائفة مُعتدّة للأخرى . ولم يكن فيها من الأخبار ما نذكره .

واستهلت سنة إحدى وخمسين وستائة :

ذكر الصلح بين المليكين : المعز والناصر

قال : ولم تزل الفتنة بين المليكين : المعز والناصر قائمة ، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين الباذراني رسول الخليفة ، فسعى في الصلح بينهما . فوقع الاتفاق : على أن يأخذ الملك المعز من الملك الناصر القُدس وغزة ، وجميع البلاد الساحلية - إلى حدود نابلس . واستحلف الشيخ نجم الدين المليكين على ذلك . فتم الصلح بينهما وانتظم .

وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم صلاح الدين يوسف بن أيوب ،
والملك الأشرف صاحب حمص ، وأولاد الملك الصالح عماد الدين
إسماعيل ، وغيرهم . من الأمراء الذين كانوا قد أُسِرُوا في المُصَافَة ، الكائن
في سنة ثمان وأربعين وستائة ، وذلك في المحرم من هذه السنة .

وفي هذه السنة ، لثلاث خَلَوْنَ من شعبان ، قُتِلَ أبو سعد : الحسن بن
علي بن قَتَادَة - صاحب مكة - شَرَفَهَا الله تعالى .

واستهلَّت سنة الثنتين وخمسين وستائة :

ذكر خبر عربان الصعيد ، ونوجه الأمير
فارس الدين أقطاي إليهم وإبادتهم

كان من خبر العُرَبَان بالصعيد ، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين
أيوب وعساكره بقتال الفرنج بالمنصورة ، وحصلَ ما قدَّمنا ذِكرَه : من
وفاته ، ومقتل ولَدِه الملك المُعَظَّم ، واشتغال الملك المعز بحرب الملك
الناصر ، وتجرید الجيوش إلى جِهَتِه ، وعدم الالتفات إلى غير ذلك - تمكَّن
العُرَبَان بهذه الأسباب من البلاد ، وكثُر شرُّهم ، وزاد طغيانهم وبتغيهم .
وحصل لأهل البلاد منهم ، من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى
الحَرَمِ ، وأمثال ذلك ، ما لا حصل من الفرنج أكثر منه .

واجتمعوا على الشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب الجَعْفَرِي^(١) وأطاعوه ظاهراً ، وانقادوا له . إلا أنه لا يستطيع دفعهم عن كل ما يقصدونه من أذى . وأخذ أموالهم ، وكثرت جُموعهم معه ، حتى زادوا على اثني عشر ألف فارس ، وستين ألف راجل ، بالسلاح والعُدَد .

فلما تم الصلح بين المليكين ، وتفرغ وجهُ السلطان الملك المعز من جهة الشام ، صَرَفَ فِكْرَهُ إلى جهنهم ، وانتدب لحربهم الأمير فارس الدين أقطاي . واستشار الأمير عز الدين- أَيْتِك الأقرم الصالحى فى عِدَّة العسكر الذى يقوم بحربهم ، فأشار بانتخاب أئى فارس من العسكر ، والتزم أنه يُفَرِّقُ هذه العِدَّة جُموعهم ، ويبيدهم بها .

فانتخب الأمير فارس الدين هذه العِدَّة من العسكر ، وتوجه بهم - وَصَحْبَهُ الأمير عز الدين المذكور - وتوجه إلى جهة الصعيد ، وقصد القُرْبَان . وكانوا قد اجتمعوا بمكان يسمى الصَّلَا^(٢) بِمَنْشَاةِ إِيخِيم ، فى البر الغربى - وهى أرض وَسِيعَةٌ ، تَسَعُ عِدَّتَهُمْ . فساق الأمير فارس الدين ومن معه من العسكر ، من جهة الحاجز بالبر الغربى ، سَوَاقاً عَظِيفاً ، ما سَمِعَ الناسُ بِمِثْلِهِ ، وانتهى إليهم فى ثلاثِ عَلايق - وهذه المسافة لا يستطيع البريدُ أن يصل إليها فى مثال هذه المدة ، إلا إن أَجْهَدَ نَفْسَهُ .

(١) ينسب نسبته إلى جعفر بن أبى طالب . . وكان من الأشراف الأغنياء بالصعيد . ومقره مدينة ديروط أو دهروط . ولذلك تسمى : ديروط الشريف .

(انظر السلوك للمقرئى ج ١ - ص ٣٨٦ - ٨٧ والخطوط

للمقرئى : ج ١ - ٧١ والخطوط التوفيقية : ج ١١ - ص ٣ - ٦)

(٢) قرية بمصر بالصعيد الأعلى ، تتبع الآن مركز سوهاج .

وطلع عليهم في صبح اليوم الرابع ، ودَّعَمَهُمْ بِعُنَّةٍ بهذا المكان . فلما شَاهَدَ كَثْرَتَهُمْ ، كَادَ يَقِفُ عَنْ مِلَاقَاتِهِمْ ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْأَمِيرِ عِزَّ الدِّينِ ، وَقَالَ : لَقَدْ غَشَّيْتَنَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعِدَّةَ الَّتِي مَعَنَا لَا تَقُومُ بِهَذِهِ الْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ . فَهَوَّى نَفْسَهُ ، وَقَالَ : أَنَا أَعْرِفُ هَؤُلَاءَ ، وَهَذِهِ بِلَادُ وَلَايَتِي . وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ ، وَرَمَتْهُمْ الْعَسْكَرُ بِالشَّابِ ، فَمَا كَانَ السَّهْمُ يَقَعُ إِلَّا فِي أَحَدِهِمْ . فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ انْهَزَمُوا أَقْبَحَ هَزِيمَةٍ ، وَأَخَذَهُمُ السِّيفُ . وَتَفَرَّقَتْ تِلْكَ الْجُمُوعُ ، وَاخْتَفَوْا ، وَغَيَّرُوا لِبَاسَهُمْ . وَقُتِلَ مِنْهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ وَالطَّلَبِ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

وَلَمَّا عَايَنَ الشَّرِيفُ حِصْنَ الدِّينِ انْهَزَامَ أَصْحَابِهِ ، بَادَرَ بِالْهَزِيمَةِ . وَحَمَلَ مَعَهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَاسْتَصْحَبَ حَظِيَّةً لَهُ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ . ثُمَّ قَبِضَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ - عَلَى مَا نَذَرَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَعَادَ الْأَمِيرُ فَارِسَ الدِّينِ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِعَسْكَرِهِ ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الثُّرَيَّانِ ، مِنْ جَمَلَتِهِمْ : ابْنُ عَمِّ الشَّرِيفِ حِصْنَ الدِّينِ بْنِ ثَعْلَبٍ ، فَشَيَّقَ تَحْتَ قَلْعَةِ الْجَبَلِ . ثُمَّ قُتِلَ الْأَمِيرُ فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايَ ، فِي هَذِهِ السَّنَةِ .

ذَكَرَ خَيْرُ الْأَمِيرِ فَارِسَ الدِّينِ أَقْطَايَ ،

وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ قُتِلَ

كَانَ الْأَمِيرُ فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايَ ، الْجَمْدَارُ^(١) الصَّالِحِيُّ ، قَدْ اسْتَفْضَلَ أَمْرَهُ فِي الدَّوْلَةِ الْمُعَزَّيَّةِ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيِّ ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ .

(١) سبق تفسير هذا اللقب . وهو فارسي مركب من لفظين : جاما ، ومعنى الثياب ، ودار ومعناها صاحب . فهو صاحب الثياب ، أى المشرف على خزائن الملابس السلطانية وما يتعلق بها .

وانضم إليه الأمراء البحريّة واعتصم بهم . وتطاوّل ، إلى أن خطب ابنة الملك المظفر صاحب حمّاه . وكان الرسول في ذلك الصاحب فخر الدين محمد ، بن الصاحب بهاء الدين على - قبل وزارة والده - فأجيب إلى ذلك . وعقد النكاح ، وحملت إليه ، فوصلت إلى دمشق . وقُتِلَ ، قبل وصولها إليه . ولما تزوج بها زادت نفسه قوة ، وعظّمته الأمراء ، وخفّفُوا من جانب الملك المعز ، وألأن الملك المعز جانيه له ، ولهم .

واستمر الأمر على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستائة . فامتدت أطماعه إلى صلب نغر الإسكندرية ، إقطاعاً ، فلم يُمكن الملك المعز مخالفته ، لقوة شوكتيه . وتطاوّل البحريّة ، واشتطوا في طلب الإقطاعات والزيادات . واتصل بالملك المعز أنهم يدبّرون عليه ، وأنهم قد عزموا على الوثوب ، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط .

ولما كان في يوم الاثنين - حادى عشر شعبان ، من هذه السنة ، استدعاه السلطان على العادة ، وكمن له عِدَّة من مماليكه ، بقاعة الأعمدة . وقرر معهم أنه إذا عبّر إليه يقتالوه . فحضر في نفر يسير ، ثقةً منه واسترسالاً ، وأطراحاً بجانب السلطان ، وأنه لا يجسر أن يقدم عليه ، ولم يشعر به خوْشدهُ شيئته^(١) . فلما قُرب ، مُنِعَ مماليكهُ من الدخول معه ، ووُتِبَ عليه المالكُ المعزّيّة فقتلوه

(١) الخُشْدَاش : الرميل . وهذا اللقب كان شائع الاستعمال بين الممالك . فالمالِك الذين كانوا يتبعون سيداً واحداً كانت بينهم رابطة « الخُوشْدَاشِيّة » : أى الزمالة القديمة والخالق في التبعيّة . وهذا اللقب نجده مستعملاً حتى أواخر عصر الممالك .

وحكى عن عز الدين أيتك الفارسي - أحد مماليكه - في خبر مقتله ، قال : كان قد ركب إلى قلعة الجبل في يوم مقتله ، واجتمع بالسلطان ، وطلب منه أن يُثبِّعَ على بعض البحرية بمال . فاعتذر الملك المعز أن الخزائن قد خَلَّتْ من الأموال ، وقال له : تَوَجَّهْ بنا إلى الخزانة لنشاهدها ، ونتحقق حالتها . فتوجهوا جميعاً إلى الخزانة من جهة الدور . وإنما فعل المعز ذلك ، لأن الوصول إلى الخزانة من جهة الدور خرج^(١) المَسْلَك ، ويَمُرُّ المارُّ على بعض قاعات الحرِّم ، فلا يمكن استصحاب الكبير من الممالك . وكان الملك المعز قد كمن في عَطْفَةٍ من عطفات الدهاليز مملوكة الأمير سيف الدين قُطْرُ - ومعه عشرة من الممالك المُعَزَّيَّة ، من ذوى القوة والإقدام . فلما وصلوا إلى ذلك المكان ، تأخر السلطان : واسترسل الأمير فارس الدين على ما هو عليه ، وتقدم إلى المكان . فوثبوا عليه ، وقتلوه . قال : وأمر الملك المعز بفلق قلعة الجبل ، ففلقت .

وركبَ مماليكه وحاشيته - وكانوا نحو سبعمائة فارس - وجماعة من البحرية ، وقصَدُوا قلعة الجبل ، وظنوا أنه قد قبضَ عليه ، ليطلقوه . فلما صاروا تحت القلعة ، أمر السلطان بإلقاء رأسه إليهم ، من أعلى السور فعملوا

(١) المكان الجريح : الضيق والقاموس .

فَوَاتِ الْأَمْرِ فِيهِ ، فَتَفَرَّقُوا . وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ شَيْبَةً بِوَاقِعَةِ عَمْرُو بْنِ سَعِيدٍ الْأَشَدِّقِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ^(١) . وَتَفَرَّقَ شَمْلُ الْبَحْرِيَّةِ لِمَقْتَلِهِ ، وَانْتَشَرَ نِظَامُهُمْ . وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ مَا نَذَكِرُهُ .

وَلَمَّا قُتِلَ الْأَمِيرُ فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايَ ، وَهَرَبَ الْبَحْرِيَّةُ وَمَمَالِيكُهُ ، رَكِبَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمَعْرُ بِشِعَارِ السُّلْطَنَةِ بِالْقَاهِرَةِ . وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ، سَابِعِ عَشْرِينَ شَعْبَانَ الْمَذْكُورِ . وَجَهَّزَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ ، الَّذِي كَانَ قَدْ شَرَكَهُ مَعَهُ فِي الْمَلِكِ إِلَى دِمَشْقَ - فِي هَذَا الشَّهْرِ . وَاسْتَقَلَّ بِالسُّلْطَنَةِ . وَانْفَرَدَ بِالْأَمْرِ ، بَعْدَ مَقْتَلِ الْأَمِيرِ فَارِسِ الدِّينِ أَقْطَايَ .

وَمِنْ الْمُؤَرِّخِينَ مَنْ جَعَلَ هَذَا التَّارِيخَ ابْتِدَاءَ سُلْطَنَةِ الْمَلِكِ الْمَعْرُ ، وَجَعَلَهُ فِيهَا مَضَى أَتَابِكًا لِلْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مِظْفَرِ الدِّينِ مُوسَى . إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ مِنْذُ خَلَعَتْ شَجَرُ الدَّرِ نَفْسَهَا ، كَانَ لِلْمَلِكِ الْمَعْرُ ، مَعَ تَمَكُّنِ الْأَمِيرِ فَارِسِ الدِّينِ أَقْطَايَ مِنْ الدَّوْلَةِ وَتَحَكُّمِهِ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، أَقْطَعَ الْأَمِيرُ جَمَالَ الدِّينِ أَبْدُ غُدِي الْعَزِيزِي دِمْبَاطَ - زِيَادَةً عَلَى إِقْطَاعِهِ - وَكَانَ مُمْتَحَصِلُهَا يَوْمَئِذٍ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(١) فِي النُّسَخَةِ (ك) : مَعَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ . وَهَذَا خَطَأٌ - تَارِيخِيًّا . وَلَكِنْ فِي (ج) كُتِبَ التَّصْحِيحُ عَلَى الْهَامِشِ . وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ . فَوَاقِعَةُ عَمْرُو بْنِ سَعِيدٍ كَانَتْ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، لِأَنَّ يَبِي . وَهَذِهِ الْوَاقِعَةُ هِيَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ / (وَهُوَ أُمَوِي) حَاوَلَ أَنْ يَنْتَزِعَ الْخِلَافَةَ مِنْ عَبْدِ الْمُنْتِ . فَخُبِضَ عَلَيْهِ وَقُتِلَ فِي الْقَعْرِ .

وفيها ، عَزَل قاضي القضاة : بدر الدين السَّنْجَارِي ، عن تدريس المدرسة الصالحيية ، بالقاهرة المُعَرَّية . وفوض ذلك لشيخ الاسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام . وتوجه قاضي القضاة بدر الدين السَّنْجَارِي الى الحِجَّاز الشريف ، من جهة البحر ، وعاد في البر .

وفي هذه السنة ، وصلت الأخبار من مكة - شرفها الله تعالى - أن النار ظهرت من بعض جبال عَدَن ، وأن شررها يطير في الليل ويقع في البحر ، ويصعد منها دخانٌ عظيم في النهار . فظن الناس أنها النار التي أُخْبِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنها تظهر في آخر الزمان ، وهى من أَشْرَاطِ (١) الساعة . فتأب الناسُ ، وأقلعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد ، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات .

ذكر أخبار الأمراء البحرية ، وما اُتفق لهم

بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاي

قد رأينا أن نذكر أخبار الأمراء البحريَّة في هذا الموضع - متتابعة - من حين هَرَبهم ، ولا نقطعها بالسنين ، لتكون أخبارهم سِياقَةً يَتَلَو بعضها بعضاً .

كان من خبرهم ، أنه لما شاع الخبرُ بمقتل الأمير فارس الدين أقطاي ، واتصل ذلك بالأمراء خَوْشِدَاشِيَّة - وفيهم الأمير ركن الدين البُنْدُقدَارِي ،

والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر .
والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير بدر الدين بيسرى الشنسى .
والأمير سيف الدين سكر ، والأمير عز الدين أزدمر السيفى . والأمير سيف
الدين سنقر الرومى ، والأمير سيف الدين بلبان المستغربى . والأمير سيف
الدين برامق ، وغيرهم من الأمراء ، ومن انضم إليهم من خوشداسيهم -
خرجوا من القاهرة ليلا ، وأحرقوا باب القراطين ، وتوجهوا إلى الشام .
واعتقلَ السلطان - الملكُ المعزُ - من بقى منهم بالقاهرة .

وتوجه الذين خرجوا من القاهرة حتى نزلوا غزّة ، وكانوا السلطان
الملك الناصر صاحب الشام ، وسأله أن يأذن لهم فى الوصول إليه ، فأجابهم
إلى ذلك . ووصلوا إليه ، فأنعم عليهم بالأموال والخلع ، وأقطعهم
الإقطاعات . وأقاموا عنده يُحرّضونه على قصد الديار المصرية ، فما وثّق
بهم . وكان الملك المعز قد كتب إليه وخبّله منهم ، وأوهمه : فطلب الملكُ
الناصرُ من الملك المعز القدسَ وجميع البلاد الساحلية - التى كان قد أخذها
منه عند وقوع الصلح - بحُكم أنها كانت جاريةً فى إقطاع البحرية ، وأنهم
انتقلوا إلى مملكته ، واستقروا فى خدمته ، فأعادها الملك المعزُ إليه . فأمر
الملكُ الناصر كل من له إقطاع فى هذه البلاد على إقطاعه ، وكتبَ مَنَاشِيرَ
بذلك . وأقاموا فى خدمته إلى سنة خمس وخمسين وستائة .

ثم فارقوه ، لِمَا رآوه من ضعف رأيه ، وتوجهوا إلى نابلس . وقصدوا
الملكَ المُنَيْث صاحب الكرك ، فوصلوا إلى خدمته - فى عاشر شوال -
فقبلهم وأكرمهم فالتبسوا منه المساعدة على قصد الديار المصرية ، وأوهموه
أن الأمراء بالديار المصرية كانوا بهم ، وراسلواهم فى ذلك . فجمع الملك

المغيث من قدر عليه ، وسار بهم وسائر البحريّة - وذلك في سلطنة الملك المنصور نور الدين ، بن الملك المعز . فخرج إليهم الأمير سيف الدين قطز المعزّي بالعساكر المصرية ، والتفوا واقتتلوا - في يوم السبت الخامس والعشرين ، من ذى القعدة ، سنة خمس وخمسين وستائة . فانكسر الملك المغيث ، ومن معه من البحرية . واستولى العسكر المصرى على أنقلاهم . وقُتِل : الأمير عز الدين الرومى الصالحى ، وسيف الدين الكافورى ، وبدر الدين إيفان الأشرفى . وأسرَ الأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي .

ولما أسرَ الأمير سيف الدين قلاوون ، ضَمِنَه الأمير سيف الدين قيزان المعزّي أستاذ الدار السلطانية ، فانعرض إليه أحد . وأقام بالقاهرة برهة يسيرة . ثم تسحب واختفى بالحُسينيّة ، عند الأمير سيف الدين قطليجبا الرومى . وقصدَ اللحاق بخوشدانشيّه ، فرَوّده وجَهّزه ، فتوجه إلى الكرك .

ثم فارق البحريّة الملك المغيث ، وتوجهوا نحو القوّار^(١) . فصادفهم الأمراء الشهرزوريّة^(٢) ، عندما جَعلُوا من بلادِ الشرق . فاجتمع البحرية بهم ، وتزوج الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى - وهو الملك الظاهر - منهم . فبلغ الملك الناصر ذلك ، فجهز جيشاً لقتالهم ، فالتفوا بالقوّار ،

(١) أى نحو الأردن .

(٢) وهم الأمراء الأكراد الذين قدموا من بلاد شهرزور خوفاً من التتار ، كما سبق ذكر ذلك .

واقْتَلَوْا . فانهزم العسكرُ الناصري . فغَضِبَ الملكُ الناصرُ لذلك ، وخرج بنفسه إليهم . فعلموا عَجَزَهُمْ عن مقابلته ، فترجّعوا إلى الملك المغيث بالكَرْك ، وتوجه الشَّهْرُزُورِيَّةُ إلى الديار المصرية .

وَأَنفَقَ لِلأَمِيرِ رُكْنِ الدِّينِ البُنْدُقدَارِي مع الملك المغيث حكاية عجيبة . وهو أنه كان في يده نُتُوَةٌ في اللحم شبه خَرَزَةٍ ، فجلس في بعض الأيام بين يدي الملك المغيث - وقد أَتَى بَلَوُزٌ أخضر وعسل ، فجعل يَفْرِكُ اللُّوزَ على العسل - فنظر الملكُ المغيثُ إلى النُتُوَةِ الذي في يده ، فقال : ما هذا يا رُكْن ؟ قال : هذه خَرَزَةُ المُلْك ! فتغير وجهُ الملك المغيث ، وعلم جُرْأَتَهُ . وقصد قتله ، ثم تَرَكَه . أخبرني بذلك المَوْلَى شرف الدين أبو الروح ، عيسى بن الملك المغيث ، عن حضر هذه الواقعة وَسَمِعَ ذلك من لَفْظِهِمَا .

قال المؤرخ : ولما بلغ الملكُ الناصرُ عَوْدُ البحريةِ إلى خدمة الملك المغيث ، كتب إليه يطلب منه تسليمهم ، ويهدده إن لم يفعل . فدافع عنهم . فسار الملكُ الناصرُ بنفسه ، ونزل ببركة زَيْتَا^(١) ، وعزم منازلة الكرك - إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه .

وكان الأمير ركن الدين يبرس البُنْدُقدَارِي قد نُحِّلَ^(٢) من الملك المغيث ، للحكاية التي قدمناها . فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأمير بهاء الدين أمير أنحور ليلاً^(٣) ، يطلب منه الإذن في حضوره إلى خدمته ، ومفارقة

(١) تقدم ذكرها ، وهي في البلقاء .

(٢) أي توهّم أو تخوف .

(٣) وظيفة صاحب هذا اللقب أنه هو المتول شئون الإسطبلات السلطانية ، من الخيول والإبل ، وما يتعلق بذلك . و « أنحور » معناها : الملقف .

الملك المغيث ، وأن يستخلفه له ولجماعة معه أن لا يفدر بهم ، وأن يكون السفير في ذلك الأمير عماد الدين بن المهير . فأجاب الملك الناصر إلى ذلك . فبعث إليه الأمير ركن الدين الشيخ يحيى ، برسالة ، مضمونها : أن يحلف له ولعشرين من أصحابه ، وأن يقطعه خبزاً مائة فارس ، وشرط أن تكون قَصَبَةٌ نابُلس وجِين^(١) وزَرْعِين^(٢) مما يقطعه له . فأجاب إلى نابُلس لا غير ، وحَلَفَ له .

فَقَدِمَ الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر ، في العشر الأول من شهر رجب - وصُحِبَتْهُ الجماعة الذين حلف لهم ، وهم : الأمير بدر الدين بَيْسَرَى الشَّمْسِي ، والأمير سيف الدين أَتَامِش المَسْعُودِي ، والأمير علاء الدين طَبِيرَس الوزِيرِي ، وجمال الدين أَقْش الرُّومِي ، وسيف الدين بَلْبَانَ الدَّوَادَار ، وعلاء الدين كَشْتَعْدِي الشَّمْسِي ، وحسام الدين لاجين الدَّوَادَار ، المعروف بالدَرْفِيل ، وعلاء الدين أَيْدَغْمُش الحَكِيمِي ، وعلاء الدين كَشْتَعْدِي المَشْرُف ، وعز الدين أَيْبَك الشَّيْخ ، وركن الدين بَيْرَس خاص ترك الصغير ، وسيف الدين بَلْبَانَ المَهْرَانِي ، وعَلَم الدين سَتَجَر الأَسْعَدِي ، وعَلَم الدين سَتَجَر الهَمَامِي ، وشمس الدين أَبَاز النَاصِرِي ، وشمس الدين طُمَان ، وعز الدين أَيْبَك العَلَاثِي ، وحسام الدين لاجين

(١) بلدة بين نابلس ويسان ، من أرض الأردن .

(مجمع البلدان : ج ٣ - ١٩٥)

(٢) تقع بين قرى القولة والناصرية ، وهما بلدتان بفلسطين .

(النجوم الزاهرة : ج ٧ - ٩٧ - حاشية ٤)

الشُقَيْرِي ، وسيف الدين بَلْكَان الأَنْقَسِي ، وعلم الدين سلطان الألدُكْرِي -
فَأَكْرَمَهُمُ الْمَلِكُ النَّاصِرَ ، وَوَفَّى لَهُمْ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ،
وَأَقْطَعَهُمْ .

ثُمَّ أَمْسَكَ الْمَلِكُ الْمُنِيثَ مِنْ بَقِيَّ عِنْدَهُ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ ، وَسَيَّرَهُمْ إِلَى
الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَهُمْ : الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ مُنْقَرُ الْأَشْقَرِ ، وَالْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ
سُكْرُ ، وَالْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ بَرْلَيْقُ - فَأَرْسَلَهُمُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ إِلَى قَلْعَةِ حَلَبَ ،
وَأَعْتَقْلَهُمْ بِهَا . حَتَّى اسْتَوْلَى هَوْلَاكُو عَلَى حَلَبَ ، فَأَفْرَجَ عَنْهُمْ وَأَضَافَهُمْ إِلَى
عَسْكَرِهِ .

وَبَقِيَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ الْبُنْدُكْدَارِي ، وَالْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ قَلَاوُونُ ،
وغيرهما ، مِمَّنْ لَمْ يُنْسَكْ مِنْ شَوْشْدَانِيَّتَيْهَا ، فِي خِدْمَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، إِلَى
أَثْنَاءِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . فَهَارَقُوهُ ، لَمَّا مَلَكَ التَّارُ حَلَبَ ، وَعَلِمُوا
عَجْزَهُ عَنْ مَلَاقَاتِهِمْ ، فَهَارَقُوهُ وَتَوَجَّهُوا إِلَى غَزَّةَ .

وَكَانَ لِلْبَحْرِيَّةِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَحْوَالٌ يَطُولُ شَرْحُهَا ، حَتَّى أَعْرَظَهُمُ
- الْقُوَّةُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ . ثُمَّ اجْتَمَعُوا بَعْدَ مَفَارَقَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَتَوَجَّهُوا
إِلَى خِدْمَةِ الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ سَيْفِ الدِّينِ قُلْتُزُ ، وَشَهِدُوا مَعَهُ حَرْبَ التَّارِ - عَلَى
مَا نَذَرَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فِي مَوْضِعِهِ .

فَلْتَرْجِعْ إِلَى سِيَاقَةِ أَخْبَارِ الْمَلِكِ الْمَغْزِيِّ .

واستهلّت سنة ثلاث وخمسين وستائة :

ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيك الأقرم
وخروجه عن الطاعة . وتجريد المسكر إليه
وإلى من وافقه ، وانتفاض أمره

كان الأمير عز الدين أيك الأقرم الصالحى أقام فى البلاد ، بعد أن
مزّم الأمير فارس الدين أقطاى الصالحى العرب - كما تقدم - وتأخر هو
لتمهيد البلاد .

فلما قُتِل الأمير فارس الدين أقطاى ، تظاهر بالعصيان ، واستولى على
الأعمال القوصيّة - بمواقعة مُتَوَلِّبها الأمير ركن الدين الصيّمى . واستولى أيضا
على الأعمال الإخميميّة والأسبوطيّة ، وقطع الحُمُولَ عن بيت المال بقلعة
الجليل من هذه الأعمال ، واقتطع الأموال لنفسه . وواقه الشريفُ
حِصْنُ الدين بن ثعلب .

فَدَبَّ السلطانُ العسكرَ لذلك ، وقَدَّمَ عليها صاحبُ شرف الدين
هبة الله بن صاعد الفائزى . فتوجه إلى جهة الصعيد ، وظَفِرَ بالشريف
حِصْنُ الدين بن ثعلب . فأحضره إلى السلطان . فاعتقله بقلعة الجبل ، ثم
نقله إلى ثغر الإسكندرية ، واعتقله هناك . فلم يَزَلْ فى الاعتقال ، إلى أن
شَقَقَهُ السلطانُ الملكُ الظاهر ركن الدين - على ما ذكره .

وأما الأمير عز الدين الأفرم ، فإنه] ^(١) [

وأما الأمير ركن الدين الصيرمي - مُتَوَلَّى الأعمال القوصية - فإنه كان قد ظن أنه يَسْتَبْدُ بالأمر ، ويستولى على البلاد ويستمر له ذلك ، وتَحِيلَ ذلك بذهنه . فلما انتَقَضَ عليه هذا الأمر ، تَحِيلَ في الحرب ، وتوجه إلى دمشق . والتحق بخدمة السلطان الملك الناصر .

وكان وصوله إلى دمشق في جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة - بعد أن نُهِبَتْ أمواله ، وقُتِلَتْ رجاله . ولما وصل ، أُنْزِلَ بالمدرسة العَزِيزِيَّة ^(٢) على الشَّرَفِ الأعلى ، فقال للفقهاء : اعذُّروني ، فأنتم اخلوا إلى الجَوْسِقِ الذى على الميدان ، وما أَنتَقِلُ إليه إلا بطاليع . وأخْضَرَ المُنْجَمَ ، وأخذ له الطاليع ، وانتقل إلى الجَوْسِقِ . فاستقل الناس عَقْلَهُ ! فإنه وصل من التَّهَبِّ والهَرَبِ ، والشَّتَاتِ وقتل الرجال ، وهو يمسك بالطواليع وأقوال المُنْجَمِينَ .

(١) يياض بالنسختين : (ك) و (ع) نحو سطر

(٢) هكذا في (ك) ولكن في (ع) : العزبة . والأول هو الصواب .
فالمدرسة العزيزية - وقد سبق ذكرها - كانت من كبرى المدارس بدمشق .

وهي تنسب إلى العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين

واستهلّت سنة أربع وخمسين وستائة :

ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية

للقاضى : تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف

فى هذه السنة ، فوُضَّ السُلْطَانُ - الملك المعز - قضاء القضاة بمصر والوجه القبلى ، لقاضى القضاة : تاج الدين عبد الوهاب ، بن القاضى الأعزَّ خَلَفَ ، بن محمود بن بَدْر العَلَامَى ^(١) - وهو المعروف بابن بنت الأعز . وَكُتِبَ لَهُ تَقْلِيدُ شَرِيف مُعِزَّى ، تاريخه تاسع شهر رمضان . وكان ذلك جَارِياً ^(٢) فى ولاية قاضى القضاة : بدر الدين يوسف السُّنْجَارَى .

فاستقر القاضى بدر الدين - قاضى القضاة - بالقاهرة والوجه البحرى . ثم فُوضَ ذلك ، فى بقية هذا الشهر ، لقاضى القضاة تاج الدين - المشار إليه - بتقليد تاريخه لثمان بقين من شهر رمضان من السنة . فَكُمِّلَ لَهُ بهذه الولاية قضاء القضاة بالمدينتين ، والعَمَلَيْنِ القبلى والبحرى ، وسائر أعمال الديار المصرية . وعُزِّلَ قاضى القضاة : بدر الدين السُّنْجَارَى عن القضاء .

(١) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف ، بن محمود بن بدر السَلَامَى (نسبة إلى بنى سَلَامَةَ ، ومن بطن من كُتُم) المعروف بابن بنت الأعز . والأعز كان وزيراً للملك الكامل (وهو الأعز مقدم بن القاضى أبى السماعات أحمد بن شكر ، الذى تقدمت أخباره فى المتن) وكان عبد الوهاب ينسب إلى جده لأنه هذا والقاضى تاج الدين كان إماماً عالماً فاضلاً وصالحاً زهياً ولى المناصب الجليلة كسُطر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ، وقُدِّسَ بالنامى والصالحية . كان مولده فى سنة ٦١٤ هـ ، وتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

(النجوم الزاهرة : ج ٧ - ٢٢٢ وحسن المحاضرة : ج ١ - ١٧٤)

ووالده كان يُلقَّب « بالقاضى الأعز » أيضاً : خلف - كما سيَرِدُ فى المتن .

(٢) فى (ع) : « جار » .

وقد شاهدتُ تقليدَي قاضى القضاة تاج الدين . ونسخةُ التقليد الأول - بعد البسملة ، ومثال العلامة المعزية : -

« حَسْبِيَ اللَّهُ . الحمدُ لله مُقِيمٌ مَنَارِ الشريعةِ الهادية ، وناشرِ أعلامها . ورافعِ مَحَلِّها على الشرائعِ ومُعَلِّى مَقَامِها . وهادى الخَلِيقَةَ إلى اتباعِ أَقْصِيَّها وأَحْكَامِها . وناصرِ دينه بِأَسَافِها وانتِظامِها . ومُشيدِ أركانها بِصالحِ أَيْمَنِها وحُكُمِها ، وجاعِلهم أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِه فى نقضِ الأمورِ وإيرامِها . وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمد ، خاتمِ الرسل وإمامِها . ومنيرِ المِلَّةِ بعدِ إِبْطالِها . وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ، نجومِ سماءِ المعارفِ وبُذُورِ ثَمَامِها - صَلَاةٌ لا تَنْقُطُ مادَّةُ دوامِها ، ولا يَأْتِي الثَّقَاذُ على لِبَالِها وأَيامِها .

أما بعد . فَإِنَّا لِمَا قَوَّضَ اللهُ إِلَيْنَا مِنْ أُمُورِ بَرِّيَّتِهِ ، وَاسْتَحْفَظَنَا إِيَّاهُ مِنْ تَدْبِيرِ خَلِيقَتِهِ ، وَأَتَانَا بِقُدْرَتِهِ مِنَ الْيَدِ الْبَاسِطَةِ ، وَجَعَلَنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْدِ خَلْقِهِ الْوَاسِطَةَ ، وَمَتَحَّنَا مِنَ السُّلْطَانِ وَالتَّمَكُّينِ ، وَخَصَّنَا بِهِ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ - لا نَزَالَ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ فى تَقْضِيهِ وَتَقْضِيْبِهِ ، وَمِنْ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ فى تَنْهِيهِ وَتَرْتِيبِهِ ، وَمِنْ الرِّأْيِ الْأَصِيلِ فى خَبَبِهِ وَتَقْرِيبِهِ ^(١) ، عَالِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْأَلُ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، وَكُلَّ سَاعٍ عَمَّا سَعَاهُ ، وَيُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ رُجْعَاهُ ، وَيَجِدُ عَمَلَهُ مَكْتُوبًا مُسْطَرًّا ، وَتَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًّا - وَكَانَ أَوَّلَى الْأُمُورِ بِالْظَرْ ، وَأَحَقُّهَا أَنْ يُصَانَ صَفْوُهَا عَنِ الْكَدَرِ ،

(١) قال فى « القاموس » والعقب : غُربٌ من الغنم . والتقريبُ كذلك .

مَنْصِبُ الشريعة ، الذى هو مِلَاكُ الدين وقوامه ، وانتظامُ الإسلام
والشأنه ، والطريقُ الذى فَرَضَ الله اتباعها على خَلْقِهِ ، والسبيلُ الذى من فارقها
فقد خَلَعَ رِبْقَةَ^(١) الإسلام من عُنُقِهِ .

ارتدنا لهذا المنصب الشريف من برعاه وبصوته ، ونجى على يده
حياته ونحسبته . ونظرنا فمن يقع عليه سهم الاختيار ، ويظهر جوفه
الابتلاء والاختبار . فكان المجلس السامى القاضى الأجل ، الإمام الصدر ،
الفقيه الكبير العالم العامل الفاضل ، الأعز المرقص ، الورع الكامل
المجتبى ، الأشرف السعيد ، تاج الدين جلال الإسلام ، مفق الأنام ،
شمس الشريعة ، صدر العلماء ، قاضى القضاة ، سيد الحكام ، خالصة
أمير المؤمنين : عبد الوهاب بن القاضى الأجل ، الفقيه العالم الأعز ،
أبى القاسم خلف - أدام الله تأييده وتمكينه ، ورفعته وتمهيدته ، وقرن بالثبج
قُصُودَهُ - طَلَبَتْنَا المنشودة ، وإرادتنا المقصودة . لِمَا جمع الله فيه من الخلال
الفاخرة ، والديانة الجامعة لخير الدنيا والآخرة ، والعلم الذى أمسى به
للهداة علما ، وعلى أئمة وقته مُقَدِّمًا . وأصبح كل مانع إليه مُسَلِّمًا . وراح
بِقِدَاحِ الفضائل فاترا ، ولكنوز العلوم الشريفة حائرا . فهو فقيه مصره ، لا ،

(١) الرِّبْقُ : حبل فيه عدة عُرى ، يُشَدُّ به ، كل عروة : رِبْقَةٌ .

بل قبه عصره . وبَكَارُ^(١) زمانه علما وورعا ، وسَوَارُ^(٢) وقته تَقْمَصُ بالتقوى
وَتَدْرُعُ .

قَدَمًا خَيْرَ الله تعالى ، وَوَلِيَّاهُ قضاء القضاة وحكم الحكام ، بمصر
المحروسة ، وجميع الوجه القبلي : من البرئين الشرق والغرب ، إلى منتهى ثغر
عِيَذَاب^(٣) ، وما يجاوره - من حدود مملكتنا ، وبلاد دَعَوْتنا ، وجميع ما في
هذه الولاية من المدارس وأوقافها ، وكل ما كان في نظر القاضي الفقيه
شرف الدين بن عَيْن الدولة - رحمه الله - من ذلك ، وما اسْتَجَدَّ بعده ،
واستقر في نظر الحكام . وقَوْضًا إليه ذلك التفويض التام . وبَسْطًا يده في
الولاية والعزل . وحُكْمناه في العقد والحل . فَلْيَسْتَخِرِ الله في ثَقْلِهِ ما قُلْدَنَاهُ ،
وقبول ما قَوْضَنَاهُ إليه ورَدَدْنَاهُ . وَلْيَحْكُمْ بين الناس بما أَرَادَ الله . فَإِنْ قَبُولَ
ذلك يَجِبُ عليه وَجُوبًا ، لما يتحقق أن الله يُجْزِيهِ في أحكامه ، وَيُقْدِرُهُ في
أَيامه ، من حيطة الدين ومصالح المسلمين .

(١) يشير إلى القاضي بَكَارَ بن كَيْتَ . من كبار قضاة مصر ، تولى قضاءها سنة ٧٤٦ هـ من قبل المتوكل ، ثم
كان القاضي في أيام أحمد بن طولون وكانت له معه وقائع . وكان فاضلاً زهياً تقياً ورعاً .

توفي في السجن ، وذلك في سنة ٧٧٠ .

(وفيات الأعيان : ج ١ - ص ٢٥٧)

(٢) يقصد به «سوار بن عبد الله» ، القمزي الشيبسي . كان من كبار الفقهاء والمُحْكَمِينَ . وتولى القضاء ببغداد .
بالباب الشرق بالرصافة . شهد له العلماء بأنه كان ثقةً صالحاً . وسئل أحمد بن حنبل عنه ، فقال : ما
يلفتني عنه إلا خَيْرٌ . وكانت وفاته ببغداد في سنة ٢٤٥ هـ .

(تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي : ج ٩ - ص ٧١٠)

(٣) بلدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) ، هي مَرْسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد . وهي
تقع على الشاطئ المصري - تقابل جُذْه على شاطئ - الحجاز .

(معجم البلدان ج ٦ - ص ٢٤٦)

وإذا احتاج الحُكَّامُ وُلاةُ الأمور إلى وَصايا يُطال فيها وَيُطَنَّب ،
وَيُبَالِغ في توكيدها وَيُسَهِّب - وَجَدْنَاهُ غَنِيًّا عن ذلك ، بما سَأاه اللهُ له
وَيَسَّرَه ، وَخَلَقَه من كَماله وَقَدَّرَه . ومثله لَا يُوصَى ، وَلَا يُسْتَوْعَبُ له القولُ
وَلَا يُسْتَفْصَى . واللهُ تعالى يَرْقِيهِ إلى دَرَجَاتِ الكَرَامَةِ ، ويجعلُ فيها قَوْصَ
صَلَاحِ الحَاصَّةِ والعَامَّةِ

والاعتمادُ فيه على العَلَامَةِ الشريفة ، السلطانية الملكية الْمُعِزَّة - زاد
الله علاها وشرفها ، إن شاء الله عز وجل . كُتِبَ في التاسع من شهر
رمضان ، سنة أربع وخمسين وستائة . الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً . وحسبنا الله ونعم
الوكيل .

ونسخة التقليد الثاني :

« الحمد لله ، كافي المَزِيدَ لمن شَكَرَه ، ورافع الدرجات لمن أطاعه
فيما نهاه وأَمَرَه ، وهادى أُمَّةَ الحق إلى السبيل الذي يَسَّرَه ، وشرَّعه الذي
ارتضاه لدينه وتَحَيَّرَه . وجاعل العلماء ورثة أنبيائه ، فيما أباحه من الأحكام
وحَظَّرَه .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا لَا يُحْصَى عَدَدُهُ . وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَنْجَدُّ كُلُّ طَالِ
أَمَدِهِ . وَأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، شَهَادَةً تَسْتَفِيدُ
الإِمْتِنَانَ . وَيَشْهَدُ بالإخلاص فيها المَلَكَانِ - . وَأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، الذي اصطفاه وانتخبته . وفَرَضَ اتباعه على خلقه وأَوْجَبَه . وبعثه
رَسُولًا في الأُمَمِينَ . وأرسله رَحْمَةً للعالمين .

وَنَصَّبَ شَرِيعَتَهُ سَبِيلًا مُنْجِيًّا . وَطَرِيقًا إِلَى الرِّسْلِ مُؤَدِّيًّا . وَشَرَفَ رُكْبَتَهَا وَعَظَّمَهَا . وَأَعْلَى قَدْرَ مَنْ رَفَعَ ذِرْوَتَهَا وَتَسْتَمَهَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - مَا تَعَايَبَ شَمْسٌ وَقَمَرٌ . وَذُكِّرَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَّرَ وَجَرَى بِالْكَائِنَاتِ مَشِيئَةً وَقَدَّرَ .

وعلى الأنبياء ، الذين أَخْلَصَهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ، وجعلهم من الْمُضْطَلَّقِينَ الْأَخْيَارِ . وعلى آله أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . وَأَصْحَابِهِ الْمَاهِجِينَ وَالْأَنْصَارِ . صَلَاةٌ دَائِمَةٌ لِالِاسْتِمْرَارِ . بَاقِيَةٌ عَلَى تَعَايُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ . تَعَالَى - جَعَلَ شَرِيعَةً نَبِيَّهِ صِرَاطًا مُتَّبَعًا وَطَرِيقًا مَهَبًا ^(١) وَمَحَلًّا مُرْتَبِعًا . وَأَنْزَلَ بِتَعْظِيمِهَا قُرْآنًا ، وَجَعَلَهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قُرْآنًا . فَقَالَ مُحَاطِيًا لِنَبِيِّهِ - تَنْبِيهًا وَتَعْلِيمًا ، وَتَبْجِيلًا لِقُدْرَتِهِ وَتَعْظِيمًا : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِيَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيمًا . وَعَظَّمَ قَدْرَ الْعُلَمَاءِ فِي آيَاتِهِ الْمُحْكَمَاتِ ، وَكَلِمَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ .

فَتَعَيَّنَ بِذَلِكَ عَلَى وُلاَةِ الْأُمُورِ ، مِنَ الْأَجْنَادِ الْمَأَثُورِ ، أَنْ يَتَخَيَّرُوا لِهَذَا الْمَنْصِبِ الشَّرِيفِ ، مِنَ الْوَلَاةِ : مَنْ هُوَ أَجْلُهُمْ عِلْمًا . وَأَعْدَلُهُمْ حُكْمًا ، وَأَنْفَذُهُمْ فِي الْحَقِّ سَهْمًا . وَأَضْوَاهُمْ حَيًّا ، وَأَشْرَفُهُمْ نَفْسًا ، وَأَصْلَحُهُمْ يَوْمًا وَأَمْسًا . وَأَطَهَرُهُمْ وَأَوْزَعُهُمْ . وَأَجْدَاهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَأَنْفَعُهُمْ .

وَكَمَا قَدْ مَكَّنَّا كِبَايَةَ ^(٢) الْعُلَمَاءِ بِمَصْرِنَا ، فَعَجَمَتَا عِيدَانَهَا . وَاخْتَبَرْنَا أَعْيَانَهَا . فَوَجَدْنَا الْجَلِيسَ الْعَالِي : الْقَاضِيَ الْأَجَلَ ، الصِّدْرَ الْكَبِيرَ ، الْإِمَامَ

(١) واضعاً متبعاً .

(٢) الكِبَايَةُ : وعاء السهام .

العالم العامل الزاهد العابد ، الكامل الأوحد ، المُجْتَبَى المؤيد الأعز
 الأسعد ، تاج الدين جلال الإسلام ، ضياء الأنام ، بهاء الليلة ، شمس
 الشريعة سيد الحكام ، قُدْوَة العلماء : بَيِّن الملوكة والسلطين ، قاضى
 قضاء المسلمين ، خَالِصَة أمير المؤمنين : عبد الوهاب ، بن القاضى الفقيه ،
 الأجل الأعز ، أبى القاسم خَلَف - أدام الله تأييده وبَسَطَته ، وتمكينه
 ورفعته - قد زادت صفاته على هذه الصفات ، وأَوْفَتْ عليها أتمَّ المُوافاة .
 واختيرنا منه رجلاً ، لو عُرِضَتْ عليه الدنيا لم يُرِدْها . ولو صَوَّرَ نفسه لم
 يَرِدْها . وَوَقَعَ على سيادته إجماعُ الحاضرين والباديين ، والمسودين
 والسائدين . وشهدوا بها ، ونحن على ذلك من الشاهدين .

فَضَوْضًا إليه ما قَوَّضناه : من قضاء القضاة بمصر المَحْرُوسَة ،
 والأقاليم القليلة ، وما معها . والأوقاف والمدارس وما جمعها - الجارية في
 نظر الحكم العزيز . ثم تَجَدَّدَ لنا نَظَرٌ يعمُّ المسلمين شأنه ، ومُنْتَظَرٌ يَمُتُّهم
 بالمصالح إنسانه . وَعَلِمْنَا أن هذه الولاية بعضُ استحقاقه ، وأنها قليلة في
 جَنِّبِ نُصْحِهِ للمسلمين وإشفاقه . وأن صدره الرقيب لا يضيِّق بأمثالها
 ذُرْعًا ، ولا يعجز - بحمد الله - أن يرعى بها بَصَرًا مِنْ إِيالته وَسَمْعًا . إذ كَانَ قد
 أَحْيَى بها السُّنَّةَ السَّليمة ، وأظهر أسرار العدل الحَقِيَّة . وزاد الحقُّ بنظره
 وَضوحًا ، والمعروفُ دُنُوًّا والمُشْكِرُ نُزُوحًا - رَأَيْنَا أن نَجْمَعُ إليه قضاء القضاة
 بالقاهرة المعزية والوجه البحري ، وما كان يتولاه من قَبْلُه ، من أوقاف البلاد
 ومدارسها ، ورُبُطها ومَحَارِسِها ، ومَتَابِتِ العلوم ومَعَارِسِها .

وقد أَكْمَلْنَا له بذلك قَضَاءَ القضاة بجميع الديار المصرية : أَرْجَاءَ
 وَأَسْكَفًا ، وَمَدَائِنَ وَأَرْيَافًا ، وَأَوْسَاطًا وَأَطْرَافًا . وَجَعَلْنَاهُ الحَاكِمَ في أَقْصِيَّهَا ،

والتصرف في أعمالها ومُدانيها . وأقاصى بلادها وأدانيها . وأطلقنا يده في أحكامها ، وما يراه من تولية وعزله لحكامها . والنظر فيما كان الحكماء قبله يتولونه من الوقوف . وهو غنى أن يؤصى بنهى عن منكر أو أمر بمعروف . لما فيه من صفات الكمال ، وشرىف الخلال . ولم نستوف وصية في عهدنا إليه ولم نستقصيها ، واستغنيينا عن مبسوط الأموال بملخصها - تحقاً أنه صاحب قياس الشريعة ونصها .

فليحكم بما قوضناه إليه ، وبسطنا فيه يديه : من الجرح والتعديل ^(١) ، والإقرار والتبديل . والله يوفقه فيما تولاه قائلاً وفاعلاً ، ويُرشد له مراضيه مشولاً وسائلاً ، ويجعلُ الصلاح للكافة به شاملاً . ويقرن التقوى بلسانه وقلبه ، ويلبسُه من السعادة ملبساً لا تتخطى الخطوبُ إلى سلته . ويجعله داعياً إلى الله على بصيرة من ربه . إن شاء الله عز وجل .

« كُتِبَ لِثَمَانٍ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّائَةٍ . بِالْإِشَارَةِ الْعَالِيَةِ الصَّاحِيَةِ ، الْوَزِيرِيَّةِ الْمَوْلُويَّةِ الشَّرِيفَةِ ، ضَاعَفَ اللَّهُ عَلاَهَا . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَآلِهِ ، وَسَلَامٍ . حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

وكتبَ الوزيرُ صاحبُ شرف الدين الفايُزِي - على كلٍّ من هذين التقليدين ، تحت خط السلطان في بيت العلامة ، ما مثاله : « تمثيلُ الأمرِ العالى - أعلاه الله وشرقه » .

(١) أى الحكم بمدالة الأشخاص ، أو نفيها عنهم .

وقد نَقَلْتُ ذلك من التقليديين ، كما شاهدته . ولم يتعرض المَوْقِعَ فيها إلى ذكر جَامِكِيَّة^(١) ولا جَرَايَة . والله أعلم .

ولم تُطْلُ مدَّةُ هذه الولاية . فإنه صُرِفَ في السنة التي تليها ، سنة خمس وخمسين - في ثالث شهر ربيع الأول ، وقيل بعد ذلك بقليل . والله أعلم .

ذكر ما حدث بالمدينة النبوية

- على صاحبها أفضل الصلاة والسلام -

من الزلازل ، والنار التي ظهرت بظاهاها

وفي سنة أربع وخمسين وستائة ، وردت كُتُبٌ من المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - بنجر هذه الحادثة . من جملتها ، كتاب القاضي شمس الدين سَيَّان ، بن عبد الوهاب بن نُمَيْلَة الحُسَيْنِي - قاضي المدينة - وإلى بعض أصحابه بدمشق ، مضمونه :

« لما كانت ليلةُ الأربعاء . ثالث جمادى الآخرة - حدث بالمدينة في الثلثِ الأخير من الليل ، زلزلةٌ عظيمة ، أَشْفَقْنَا منها ، ودامت بَقِيَّةَ تلك الليلة . تُرْزَلُ كل يوم وليلة قَدَرُ عَشْرِ نَوْبَات . والله ، لقد زَلَزَلَتْ مرة ، ونحن حول حجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى اضطرب لها العِنْبَرُ ، وسمعنا منه صوتَ الحديد الذي فيه ! واضطربت قناديلُ الحَرَمِ الشريف ! ودامت

(١) الجامكية : المرتب

الزلزلة إلى يوم الجمعة ضُحىً ، ولها دَوَىٌ مثل دَوَى الرعد القاصف ! ثم طلع ، يومَ الجمعة ، في طريق الحرّة^(١) في رأس قريظة ، على طريق السَّوَارِقَةِ^(٢) بالمقاعد ، مسيرة من الصبح إلى الظهر - نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة ! وما ظَهَرَتْ لنا إلا ليلة السبت . وأشْفَقْنَا منها وَخِفْنَا خَوْفًا عَظِيمًا .

وطلَّعْتُ إلى الأمير وكَلَّمْتُهُ ، فقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى . فَأَعْتَقَ مَمَالِكَهُ ، وردَّ على جماعة أموالهم . فلما فَعَلَ هذا ، قلت له : اهبط الساعة معنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فَهَبَطَ ، وَبِئْنَا ليلة السبت ، والناسُ جميعاً والنسوان وأولادهم ، وما بقي أحد ، لا في النخيل ولا في المدينة - إلا عند النبي صلى الله عليه وسلم .

وَأَشْفَقْنَا منها ، وظهر لها لسانٌ - حتى رُؤِيت من مكة ، ومن الفلَاةِ جميعها . ثم سال منها نهرٌ من نار ، وَأَخَذَ في وادى أُحَيْلِينَ^(٣) ، وسَدَّ الطريقَ . ثم طَلَعَ إلى بَحْرَةِ الْحَاج ، وهو نهرٌ نارٍ يجرى - وفوقه جَمْرٌ تسير إلى أن قطعت الوادى - وادى الشَّظَاةِ^(٤) . وما عاد يَجِيءُ في الوادى سيلٌ قط ،

(١) موضع معروف في ظاهر المدينة المنورة ، أرض كالصخر المحروق ، كانت به موقعة الحرّة .

(٢) قرية ألى بكر بين مكة والمدينة ، وهي بحدية وكانت لبني سليم .

(مجمع البلدان : ج ٥ - ١٦٤)

(٣) مكانا ضَبَّطَهُ في «النجوم الزاهرة» : ج ٦ - ١٨ . وهو وادٍ قريب من المدينة .

(٤) وادٍ يأتي من شرق المدينة من أماكن بعيدة عنها ، حتى يصل إلى الحرّة .

(المصدر السابق ج ٧ - ١٧)

لأنها حرّة ، نجى قاصّتين وثلاثا علّوها . وتمت تسير ، إلى أن سدّت بعض طرق الحاج ، وبعض البحرة ، بحرّة الحاج . وجاء في الوادى إلينا منها قَبِيرٌ ^(١) وخِفْنَا أنه يَجِيئُنَا . واجتمع الناس ، ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة . فطُفِي قَبِيرُهَا الذى يَلِينَا ، بِقُدْرَةِ الله سبحانه .

وهى إلى الآن وما نَقَصَتْ ، إلّا تُرى مثل الجبال حجارة من نار . لها دَوَى ، ما يَدْعُنَا نَرْقُدُ ولا نَأْكُل ولا نشرب . وما أقدر أَصِفُ لك عِظَمَهَا ، وما فيها من الأهوال . وَأَبْصَرَهَا أَهْلُ التَّنْعِيمِ ^(٢) ، وَنَدَبُوا قَاضِيَهُم ابن أسعد . وجاء وَعَدَى إليها ، وما قدر يَصِفُهَا من عِظَمِهَا . قال : وكتبْتُ الكتاب ، يوم خامس رجب ، وهى على حالها ، والناس منها خائفون . والشمس والقمر ، من يوم طلعت ، ما يطلعان إلّا كاسِفَيْن . نسأل الله العافية .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : بَانَ عندنا بدمشق أثر الكُسُوف من ضَعْفِ نورها على الحيّطان . وكنا حَيَّارَى من ذلك ، لا ندرى ماهو ؟ إلى أن اتضح ، وجاء هذا الخبرُ عن هذه النار .

(١) دخان فيه نار ، ورائحة الشيء المحترق .

(٢) موضع بمكة في الحِلْ (خارج الحرم) وهو بين مكة وسَرْف ، على فرسخين من مكة - وقيل على أربعة - منه يُحْرَمُ المَكُونُ بِالْعَمْرَةِ .

وجاء كتاب آخر من بعض بنى القاشانى بالمدينة ، يذكر فيه خبر هذه الحادثة ، نحو ما تقدم ، ويقول :

« ومن قبل ذلك يومين ، سمع الناس صوتاً مثل صوت الرعد - ساعة بعد ساعة - وما فى السماء غيم ، حتى يُظَنّ أنه منه . ثم زُلْزِلَت الأرض فى يوم الأربعاء المذكور آنفاً ، فَرَجَعَتْ بنا رَجْفَةٌ لها صوت كدوى الرعد . ففرَّع الناسُ إلى المسجد ، وَضَعُوا بالاستغفار والصلاة . ودامت تُرْجَفُ بالناس ، ساعة بعد ساعة ، من ليلة الأربعاء إلى صبح يوم الجمعة . فارتجت الأرض رجّة قوية ، إلى أن اضطرب بنا المسجد ، وسُمِعَ لسقف المسجد صريرٌ عظيم ! وسكتت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة ، إلى قبل الظهر .

ثم ظهرت نارٌ من الحرة تنفجر من الأرض ، فارتاع الناس لها روعة عظيمة . ثم ظهر لها دُخانٌ عظيم فى السماء ، ينعد ، حتى بقى كالسحاب الأبيض ، يتصل إلى قبيل مغيب الشمس من يوم الجمعة . ثم ظهر للنار ألسنٌ تصعد إلى السماء حُمُر ، وعَظُمَتْ حتى غَطَّتْ حُمُرُ النار السماء كلها . وبقى الناس فى مثل ضوء القمر . وأيقن الناسُ بالهلاك والعذاب . وَذَكَرَ من تَوَبَّه الناس ، وفعل الأمير بالمدينة وعنته عماليكه ، ووضعهُ المَكُوس ، نحو ما تقدم .

قال : وبقيت النار تلتهب التهايباً ، وهى كالجبل العظيم ، ولها حِسْرٌ كالرعد . فدامت كذلك . فدامت كذلك أياماً . ثم سالت فى وادى أُحْيَلِينَ^(١) ، فتحدرت فى الوادى إلى الشَّطَاة ، حتى لحق سيلانها بالبحر

بَحْرَةَ الْحَاج ، والحجارةُ معها تتحدّر وتسير ، حتى كادت تقارب حَرَّةَ
الْقَرِيض . ثم سكنت ووقفت أياماً . ثم عاد يخرج من النار حجارةً أمامها
وخلفها ، حتى بنت جَبَلَيْنِ أمامها وخلفها ، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين
لسانُ لها أياماً . ثم انها عَظُمَتِ الْآن ، وسَآها إلى الْآن ، وهي تُقَدُّ كَأَعْظَم
ما يكون . ولها صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى صحوه في كل يوم . ولها
عجائب ما أقدر أصفها ، ولا أشرحها لك على الكمال . وإنما هذا منها
طَرَف . قال : وكتبْتُ هذا الكتاب ، ولها شهرٌ وهى في مكانها ، ما تقدم
ولا تأخر .

وقال بعضُ أهل المدينة في ذلك شِعْراً ، وهو :

يا كاشِفَ الضُّرِّ : صَفْحاً عَن جَرَائِمِنَا	لقد أحاطت بنا ياربُّ بأَسَاءِ
نَشْكُو إِلَيْكَ خُطُوباً لَا نُطِيقُهَا	حَمَلاً ، وَنَحْنُ بِهَا ، حقاً أَحِقَاءُ
زَلَزِلَ لَأَتَحْشَعُ الضُّمُّ الصُّلَابُهَا	وكيف يَقْوَى على الزلزالِ شَمَاءُ
أَقَامَ سَبْعاً يَرْجُ الْأَرْضَ ، فَانْصَدَعَتْ	عن مَنظَرٍ ، منه عَيْنُ الشَّمْسِ عَشَوَاءُ
بَحْرٌ مِنَ النَّارِ ، تَجْرِي فَوْقَهُ سُقْنُ	من الْهَضَابِ ، لها في الْأَرْضِ إِرْسَاءُ
كَأَنَّمَا فَوْقَهُ الْأَجْبَالُ ، طَافِيَةٌ	مَوْجٌ عَلَاهُ لَفْطُ الْهَيْجِ غُثَاءُ ^(١)
يُرَى لَهَا شَرَرٌ كَالْقَضِرِ طَائِشَةٍ	كَأَنَّهَا دَيْعَةٌ تَنْصَبُ هَطَلَاءُ
تَنْشَقُّ مِنْهَا قُلُوبُ الصَّخْرِ ، إِنْ زَفَرَتْ	رُغْباً ، وَبَرَعْدُ مِثْلِ السَّعْفِ رِضْوَاءُ
مِنْهَا تَكَاثَفَ فِي الْجَرِّ الدُّخَانُ إِلَى	أَنْ عَادَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ وَهِيَ دَهْمَاءُ

(١) الْغَاءُ (بشدِّد التاء المفتوحة أو بدون ذلك) الْهَالِكُ من ورق الشجر المخطط مع زَيْد السيل .

قد أثرت سقعة في البدر لفتحها قليلة التم بعد النور ليلاء
تحدث الثيرات السبع السنها بما يلقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاهما بالبروج ، إلى أن كاد يلقحها بالأرض إهواء
فيها آية^(١) من معجزات رسول الله يغفلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت منا الذنوب ، وساء القلب أسواء^(٢)

فاسمع وهب وتفضل وامنع واغف وجد
واصفح^(٣) ، فكل لفرط الجهل خطاء

قوم يونس لما آمنوا أمينوا كشف العذاب ، وعمم القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ، ولنا منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ماسلكت محجة في سبيل الله يضاء
فارحم وصل على المختار ، ما خطبت على علا مثير الأوراق ورقاء

ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي هذه السنة - في ليلة الجمعة أول شهر رمضان - احترق مسجد
المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

(١) بقية البيت كانت ناقصة من (ك) ، فأكمل من النسخة الثانية (ع) .

(٢) الأبيات التالية لا تبدو في مستوى الأبيات التي سبقت في القصيدة ، وربما تكون إضافة من ناظم آخر .

(٣) هذا الشطر مفقود من النسخة (ك) فأكمل البيت من (ع) .

ابتدأ حريقه من زاويته الغربية ، من الشمال . وكان سبب ذلك أن أحد القومة دخل إلى الخزانة ، ومعه نار ، فعَلِقَتْ في آلات ثم ، واتصلت بالسقف بسرعة ، ثم دَبَّتْ في السقوف ، فَأَخْرَجَتْ النَّاسَ عَنْ قِطْعِهَا . فما كان إلا ساعة ، حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ، [ووقعت ^(١) بعض أساطينه وذاب رصاصها - وذلك قبل أن نام الناس . واحترق سقف الحجرة الشريفة] .

قُلْتُ : وفي وقوع هذه النار مُعْجِزَةٌ لِنَبِيِّنَا - صلى الله عليه وسلم ، فإن الخلفاء والملوك بعده - صلى الله عليه وسلم - زادوا في عمارة المسجد بأنواع من العمارة ، وتفشّوا في النقوش والإثقان ، وهو - صلى الله عليه وسلم - كَرِهَ ذلك ، وقال - في مَرَضِهِ الَّذِي انْتَقَلَ فِيهِ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ : « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » . وقالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ولولا ذلك لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ - صلى الله عليه وسلم - فجاءت هذه النار ، فأكلت ما كَرِهَهُ صلى الله عليه وسلم .

(١) ما بين الحاصرتين - وهو سطر ونصف تقريباً - ساقط من النسخة (ك) ، فأكمل النقص من (ع) .

واستلّھت سنة خمس وخمسين وستائة :

ذكر مقتل السلطان الملك المعز
وشىء من أخباره ، ومقتل شجر الدر
الصالحية

كان مَقْتَلُهُ - رحمه الله تعالى - فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من
شهر ربيع الأول ، سنة خمس وخمسين وستائة .

وسبب ذلك أن شَجَرَ الدَّرِّ - سُرِّيَّةٌ ^(١) الملك الصالح زوجته - اتصل
بها أنه سِرٌّ يخطب ابنة صاحب الموصل . فتكرت لذلك . وكان هو أيضاً قد
تَغَيَّرَ عليها ، بسبب امتنانها عليه ، وأنها هى التى مَلَكَته الديار المصرية ،
وسلمت إليه الخزائن . وعزم المُعِزُّ على قتلها ، فلم يُخَفِّها ذلك . فبادرت
بالتدبير عليه ، وانفقت هى ومحسن الجوجرى الخادم ، ونصر العزيرى ، على
قتله .

فلما كان فى هذا التاريخ ، طلع الملك المُعِزُّ من الميدان إلى قلعة الجبل
عقيب اللعب بالكرة - فأمر بإصلاح الحَمَّام ، وعبر إليها . فدخل عليه محسن
الجوجرى ، وغلام له شديد القوة ، فقتلوه فى الحَمَّام !

(١) السُرِّيَّة : الأُتْمَةُ التى أسكنها صاحبها بيتاً .

وشاع الخبر بقتله ، في بُكْرَة نهار الأربعاء . فسُمِرَ محسن الجوجرى الخادم وغلّامه على باب قلعة الجبل . وأما نصر العريزي فإنه هرب إلى الشام . وأحضرت شجر الدر إلى أم نور الدين بن الملك المعز ، فما زالت تُضْرِبُهَا - هي وجواربها وخدمها - إلى أن ماتت . وألقيت من أعلى السور إلى الخنثى . وبقيت أياماً عُرْبَانَة مَلَقَاة في الخنثى . ثم حُمِلَتْ ودُفِنَتْ في تربتها المجاورة لمشهد السيدة نفيسة .

وكانت شجر الدر هذه سُرِّيَّةَ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهي والدة خليل ابنه . وكانت قد ملكت الديار المصرية ، وخطب لها وخرجت تواقعها ومتأثيرها ، بالأرزاق والمباشرات والإقطاعات - وقد تقدم ذكرُ شئ منها . ولما ملك السلطان الملك المعز وتزوجها ، ما زالت تخاطب بالسلطنة ، وتخرج تواقعها بالإطلاقات وإبطال الحوادث وكف المظالم ، فتنفذ كنفوذ التواقع السلطانية .

وقد شاهدتُ منها تواقعاً على ظهر قصة ، مترجمها على بن هاشم ، مضمونها : « يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقام العالى السلطانى الحائِثِوى ، عصمة الدين ، بَسَطَ الله ظِلَّهَا في مشارق الأرض ومغاربها - ويُنْهَى أن له خِدْمَةً على مولانا الشهيد - قَدَّسَ الله روحه - وله مَلِكٌ اقتناه في أيامه ، ولم يُسَقِّعْ عليه قَطُّ . وفي هذه الأيام التمسوه ، وسأل إجرأه على عادته ، من غير حادث .

وخرج التوقيع في ظهرها ، ومثالُ العلامة عليه : والدَةُ خليل الصالحة : « المرسوم ، بالأوامر العالية المولوية السلطانية - زادها الله شرفاً وعلواً - أن يُجرى الأمير الأجل الأخص الأجد الأعز : نور الدين مترجمها - أدام الله توفيقه - على عادته . ولا يُطلب بسبب تصقيع^(١) ولا غيره ، ولُبغف من ذلك - رعاية لحق خدمته على الدولة الشريفة ، ولِقَدَمِ هِجْرته وانقطاعه إلى الله تعالى . فَلْيَعْتَمَدْ ذلك بعد الخط الشريف أعلاه وثبوته - إن شاء الله تعالى . كُتِبَ في ثاني عشرين جادى الآخرة ، سنة ثلاث وخمسين وستائة - برسالة الطواشى شرف الدين محمّد الجَمَدَار - أَيْدَهُ الله تعالى . وَكُتِبَ عليه بالامثال . وَنُفِّذَ حُكْمُهُ وَعُمِلَ بِمَقْضَاهُ . وإِنَّمَا شرحنا هذا التوقيع ، لِيُعْلَمَ أن تَوَاقِعَهَا كانت جاريةً بلفظ السلطنة ، في الدولة الْمُعِزِّيَّة .

وكانت مدة سلطنة الملك المعز ست سنين وأحد عشر شهراً ، إلا أربعة أيام . وكان مَلِكاً حازماً شجاعاً ، مَثُوساً حَسَنَ التدبير - إلا أنه كان سَفَاكاً للدماء . قَتَلَ جماعةً من خَوْشِدَاشِيَّتِهِ بغير ذنب ، لِيُقِيمَ ناموسَ مُلْكِهِ . وَوَزَّرَ له الصاحبُ الأُسَعدُ : شرف الدين هبة الله بن صاعِدِ الفَائِزِي . وَتَمَكَّنَ منه تَمَكُّناً عَظِيماً . وَقَدَّمَهُ على العساكر وَصَرَّفَهُ في الأموال .

(١) نوع من الضرائب أحدث في ذلك العصر ، على البيوت والأشخاص . يذكر تارة بالعين وتارة بالصاد . سيأتي ذكره بعد قليل .

وكان الوزير المذكور من قِبَطِ مصر. خَدَمَ الْمَلِكَ الْفَائِزَ أَخَا الْمَلِكِ الْكَامِلِ كَاتِبًا ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَرَقَّى وَتَنَقَّلَ فِي الْمَرَاتِبِ ، إِلَى أَنْ وَزَرَ . وَتَحَوَّلَ فِي الدَّوْلَةِ وَابْتِغَاءَ الْمَالِكِ لِنَفْسِهِ . وَتَعَالَى فِي أَعْيَانِهِمْ ، فَكَانَ يَبْتَاعُ الْمَمْلُوكَ بِأَلْفِ دِينَارٍ عَيْنًا . وَاجْتَمَعَ لَهُ نَحْوُ مِنْ سَبْعِينَ مَمْلُوكًا ، يَرْكَبُونَ فِي خِدْمَتِهِ وَيَتَرَلُونَ . وَكَانَ يَقُولُ فِي وَزَارَتِهِ : كُنْتُ كَاتِبَ الْمَصَائِدِ بِقَنْطَرَةِ سُبُوطَ ، بِدِرْهَمٍ وَثَلَاثَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، ثُمَّ تَرَقَّيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ .

وكان ظالم النفس ، أحدث في وزارته حوادث كثيرة ومكوسا . واستناب القاضي زين الدين بن الزبير ، لفصيلته وكفايته ومعرفته باللغة التركية . وكان يحفظ له نظام المجلس .

ولما قُتِلَ الْمَلِكُ الْمُعِزُّ مَلَكَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ .

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور

نور الدين : على بن السلطان الملك المعز

وهو الثاني من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّائَةٍ . وَذَلِكَ بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ الْمُعِزِّيَّةِ - مَمَالِيكَ وَالِدِهِ - فَحَلَفُوا لَهُ ، وَاسْتَحْلَفُوا

جميع الصاكر . وجعلوا الأمير فارس الدين أقطاي ، المستعرب الصالحى -
 خوشداش^(١) والدیه - أتابکّه ، بحکم صفر سین الملك المنصور . ثم استقرت
 الأتابکية - بعد ذلك - للأمير سيف الدين قُطز ، المعزى - مملوك والده .
 ووزر له الصاحب شرف الدين الفائزى ، أياما قلائل ، ثم قُتل .
 وذلك أن الأمير سيف الدين قُطز عَزَلَهُ عن الوزارة ، وأمر بالحوطة على أمواله
 وأسابيه وذخائره . وكان مثيراً ، وله ودائع كثيرة ، فتنَبَّهت واستخرجت من
 كانت تحت يده . واعتُقِل ، فسأل أن يُعطى مالا ، فِدَاءً عن نفسه .

حُكِيَ عن الصاحب بهاء الدين السنجارى أنه قال : دخلت عليه في
 محبسه ، فسألنى أن أتحدث في إطلاقه - على أن يحبل في كل يوم ألف
 دينار . قال : فقلت له : كيف تقدر على هذا ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام
 ستة . وإلى انقضاء سنة يفرج الله ! ولما بَدَلَ هذا المال ، امتنعت والدَةُ الملك
 المنصور من ذلك ، ولم تُرضَ إلا بقتله . لأنها كانت مَجْفُورَةً من السلطان
 الملك المعز ، وكان قد أَخَذَ سَرَارِيَّ^(٢) وجعلهن عند الوزير شرف الدين ،
 فَنَقِمَتْ ذلك عليه ، وأمرت بقتله . فَقُتِلَ صَبْرًا .

(١) ذكرنا تفسير « خوشداش » من قبل ، وهو الزميل ، في الخدمة والتبعية ، في نظام المالك .

(٢) جوارى .

ذكر أخبار الوزراء ، ومن ولى وزارة الملك المنصور
إلى أن استقر فى الوزارة قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز

لما صُرفَ صاحب شرف الدين الفايضى ، فوُضت الوزارة بعده
للفقيه : نور الدين بن على بن رضوان القرافى مؤدب الملك المنصور هذا ،
وخلعَ عليه خلعُ الوزراء . فامتنع أن [يخطُ] بقلمه ، أو يكتب على توقيع أو
منشور ، واستمر كذلك عشرين يوماً ، واستعفى . فأرسل إليه قاضى القضاة
بدر الدين السنجارى ، يلتمس منه أن يتحدث له فى الوزارة ، ويَعِدُه أنه
لا يخرج عن أمره . فقال للسلطان ، ولوالدته - وكانت لا تحتجب عنه ،
فما قيل - للأتابك : أنا لا أصْلَحُ لهذا المنصب ، ولا أنفعُ ولا أنفع به .
وأشار بالقاضى بدر الدين .

فعند ذلك فوُضَ للفقيه نور الدين هذا نظَرُ الأحباس والأوقاف ،
والشافعى والخانقاه والتَّرب ، وغير ذلك من الأوقاف . فوُضت الوزارة
لقاضى القضاة : بدر الدين السنجارى ، فولَّيها ثلاثة أشهر وأياماً ، ثم
عُزل .

فوُضت الوزارة بعده لقاضى القضاة : تاج الدين عبد الوهاب ابن
بنت الأعز - وكان قد صُرفَ عن القضاء قبل ذلك ، وأعيد قاضى القضاء
بدر الدين . وكانت وزارته فى العاشر من شهر رمضان ، سنة خمس وخمسين
وسمائة .

وَنُسخَةُ التَّقْلِيدِ - عَلَى مَا نَقَلْتُهُ عَنْهُ - وَمِثَالُ الْعَلَامَةِ السُّلْطَانِيَّةِ بَعْدَ
الْبِسْمَلَةِ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ وَبِهِ تَوْفِيقِي . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْضَحَ بَعْدَ النُّمَى سَبِيلَ الرَّشَدِ .
وَتَدَارَكَ مِنَ الْمَجْدِ مَا أُخْلِقَ مِنْ أِبْرَارِهِ ^(١) الْجُدُّ . وَتَقَفَ ^(٢) قَنَاةَ الْمُلْكِ حَتَّى
لَا يُرَى فِيهَا عَوَجٌ وَلَا أَوْدٌ ^(٣) . وَاسْتَغْفَى فِي تَدْبِيرِ سُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ عَنْ وَزِيرٍ بِهِ
يَعْتَصِدُ .

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمٍ سَهَّلَتْ صَعْبًا . وَسَقَتْ عَلَى ظَمَأٍ بَارِدًا عَذْبًا . وَرَجَعَ
بِهَا مَا ضَاقَ مِنَ الْأُمُورِ وَاسِعًا رَحْبًا . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ،
الَّذِي أَضْحَى بِهِ مَعْهَدُ الْإِيمَانِ مَعْهُودًا . وَنِظَامُ الْمَكْرُمَاتِ مَنصُودًا . وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا سَعْيُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ مَحْمُودًا ، وَأَنْوَارُ مَنَافِقِهِمْ مُتَوَقَّدَةً
لَا تَعْرِفُ خُمُودًا .

وَبَعْدَ ، فَلَمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ ، الصَّاحِبُ الْأَجَلُ ، الصَّدْرُ الْكَبِيرُ ،
الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْوَزِيرُ الْكَامِلُ ، الْمُجْتَبَى الْمُخْتَارُ ، تَاجُ الدِّينِ ، نَبَاهُ
الْإِسْلَامِ ، مَجْدُ الْأَنْبَاءِ ، شَرَفُ الْوُزَرَاءِ زَيْنِ الْفَضْلَاءِ ، رَئِيسُ الْأَصْحَابِ ،
صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، مَفْتَى الْفِرَقِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : عَبْدُ الْوَهَّابِ

(١) الْأَنْبَاءُ أَوْ الْمَنَاطِفُ .

(٢) سَوَّى .

(٣) الْوَرْدُ .

ابن القاضي الأعز خُلف - أدام الله سعادته ، وقرن بالتأييد بدأه وإعادته -
 ممن سلكت به التجربة حزناً وسهلاً^(١) ، وراض جامع الأمور ناشئاً وكهلاً ،
 وثمت كلمات تفضيله بفضائله صدقاً وعدلاً ، وجددت له مساعيه الحميدة
 ملابس ثناء لا تبلى . وأجلى من أنكار معانيه بذوراً لا تعرف أوقلاً
 ولا كسوفاً ، واستل من آرائه شعلاً ، فلو طبعت لكنت سيفاً . وأتق نظام
 بلاغته ، فكانه نظام فريد . واستعيدت ألفاظه فأنخلقها العود على المستعيد .
 وحلى بذور مساعيه جيداً من الملك عاطلاً ، وعاد ربيع المكارم بمناقبه
 عامراً أهلاً .

رسم بالأمر العالى المؤلوى السلطاني ، الملكى المصورى الثورى -
 شرفه الله وأعلاه ، وأنقذه وأمضاه - أن يفوض إليه أمر الوزارة ، لِمَا عَلِمَ فِيهِ
 من السؤدد الذى اقتاد به صعب المكارم والمقاخر ، التى حاز منها ما لم
 يحزّه الأوائل ، وإن جاء فى الزمن الآخر . والفضائل التى فاز منها بقصص
 السبق ، والأحكام التى تحلى فيها بدراً الأناة والرفق . والسياسة التى سلك
 بها نهج السبيل إلى الحق . والمعالى التى أبدى فى كسبها ما أبداه ، من نغرو
 الضاحك ووجهه الطلق . والتزاهة التى أهلتها لأشرف المناصب ، وقضت له
 سلامة العواقب ، والصنایع التى غدت معارفه عند متأكدة النواب ،
 والمكارم التى لحت فى العلو ، فكانها تحاول أخذ ثار من الكواكب

(١) الحزن ضد السهل ، أى الأرض الصعبة .

ولقد أُنْعِمْنَا النظر في إرتيادِهِ . وانتَقَدَنَاهُ من بين الناس ، فلم نَأَلُ جُهْدًا في انتقاده . وخطِبَ لهذه الرُّبِيَّةِ الرِّفْعَةَ لما أوراه في المَكْرَمَاتِ من زِناده . وأَهْلَ لهذا المنصب الشريف الذى يَدْعُ الآباء والأبناء من حُسَّادِهِ .

فَلْيَقُولْ ما وَلَّيْنَاهُ من أمر الوزارة ، فهو لها من الأَكْفَاءِ . وما اصطفيناه إلا هو جَدِيرٌ بهذا الاصطفاء . وَلَمَّا لِهذه الرتبة يُتَخَيَّرُ الأَكَارِمُ من الرجال . وإذا تَنَاسَبَتِ الأشياءُ ، ظَهَرَ عليها نُضْرَةٌ وَجَمَالٌ . فَلْيَرْهَفْ لتدبيره عَزَمَهُ الماضى الضَّرَائِبِ . وَلْيَسْتَرْ بِمحاسن سَعْيِهِ ما يبدو له من المَعَايِبِ . وليهتم بأمر الأموال ، فإن الأَعْرَاضَ منها مُسْتَفَادَةٌ . وَلْيَوَلِّ من الأُمْتَاءِ من يستحق منا الحُسْنَى وزِيَادَةً .

وَلْيَنْعَمِ النَّظَرُ في عمارة البلاد . واستعمال العَدْلِ الذى به تُدْرَأُ أَرْزَاقُ العِيَادِ . وبنوره يَهْدَى إلى سبيل المَرِاشِدِ كُلِّ هَادٍ . وعنده يُوجَدُ تصديقُ ظُنُونِ الرُّوَادِ وَالْوُرَادِ . وَلْيَكُنْ لأحوال وُلاةِ الأمور مُتَفَقِّدًا ، وللنظر في أحوالهم مُجَدِّدًا . وَلْيَضْرِبْ عليهم بالأَرْضَادِ مَعْيِيًا وَمَشْهَدًا . وَلْيَضْفَعْ عن من لم يكن منهم لِلزَّلَّةِ مَتَّعِدًا . فما تَوَلَّى إِلَّا أن يكون الإحسانُ للناس شامِلًا ، والبرُّ إليهم متوَصِّلًا . وما تَخَسَّنَ السَّيْرُ إِلَّا إذا تَحَلَّتْ بالمناقب والمَفَاجِرِ . وتضمنت محاسِنُهَا بَطُونُ الأوراقِ وَصُدُورُ الدَّفَاقِرِ .

وَلْيَتَنَاوَلْ من الجَامِكِيَّةِ وَالْجِرَابَةِ ^(١) . لاستقبال المباشرة في الشهر ، من العَيْنِ مائةَ دينارٍ من الجَوَالَى ^(٢) بِالصَّرْفِ الحَاضِرِ . ومن العَلَّاتِ ، من

(١) الجامكية . مرتب ثابت والحراية عطاء من الطعام أو غيره . فوق المرتب .

(٢) ما يؤخذ من أهل الدعة . الحزى . جمع حرية . والجوالى في الأصل جمع جالبة ، ثم أطلقت على أهل الدعة ، ثم على ما ينحسب لهم .

الأهراء المباركة بمصر المحروسة ، خمسين إردبا قححا وشعيرا - ثلثين وثلث .
ومن الراتب - الشاهد به الديوان المعمور لمن تَقَدَّمَهُ - النصف .

وعَيَّنَ جهاتِ الراتب ، فقال : « الحُبْرُ من المَحَايِر ، واللحم مع
التَّوَابِلِ والخَضِرِ الْمُثَمَّنَةِ ، وما هو مُقَرَّرٌ على دار الوِكَاةِ مُشَاهَرَةً ، من
عَرَضَتِي الفاكهة بالقاهرة ومصر والرَّبَاع ، وغير ذلك . والعَلِيقُ المُقَرَّرُ على
الإِسْطِبْلَاتِ من الأهراء أيضا . وإن تَعَدَّرَ حُصُولُ الْعَلَّةِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرَهَا ،
والعَلِيقِ المذكور ، يُمْثَنُ بالسعر الحاضر ، وتكون جهته من جهة الجامكية .
فَلْيَسْتَعِنْ بهذا المُقَرَّرِ على كَلْفِ أوقاته . وَلْيُضَرِّفْهُ في وجوه تَفَقَّاتِهِ ، بعد
الْعَلَامَةِ الشريفة أعلاه ، وثبوته بحيث يَثْبُتَ مِثْلُهُ ، إن شاء الله تعالى .

وَكُتِبَ في العاشر من شهر رمضان المبارك ، سنة خمس وخمسين
وسمئة ، بالإشارة العالية المَوْلَوِيَّةِ الأَتَايَكِيَّةِ الفَارِسِيَّةِ - أدام الله عُلُوها .
الحمدُ لله وَحْدَهُ . وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله : وسلامه .

وَكُتِبَ هذا التقليد في وَرَقٍ بَعْدَ ادْيِ في قَطْعِ الرَّبْعِ . وعادة تقاليد
الوزراء - في وقتنا هذا - تُعْظَمُ أَرْبَابُهَا في الثُّعُوتِ والكَتَابَةِ ، أكثر من هذا .

وفي هذه السنة - وقيل في السنة الآتية - كانت الوَفَقَةُ بين العساكر
المصرية والملك المَغِيثِ والبحرية ، وانتصر العسكر المصري . وانهمز الملك
المَغِيثِ والبحرية . وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار البحرية . فلا فائدة في
إعادته .

وامتثلت سنة ست وخمسين وسبعمائة :

في هذه السنة ، كانت وفاة بهاء الدين أبو الفضل زهير ، بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن ، بن جعفر بن منصور بن عاصم المَهْلَبِي^(١) الكاتب .

كان من فضلاء عصره . وكان قد خَدَمَ الْمَلِكَ الصَّالِحَ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ ، لَمَّا كَانَ يَنْوِبُ عَنْ وَالِدِهِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ . وتوجه في خدمته إلى الشرق ، ولَاَزَمَهُ إِلَى أَنْ قُبِضَ عَلَى الْمَلِكِ الصَّالِحِ وَاعْتُقِلَ بِالكَرْكِ . فَأَقَامَ بِنَابُلُسَ مُحَافِظَةً لِمَخْدُومِهِ ، إِلَى أَنْ خَلَصَ ، فَعَادَ إِلَى خِدْمَتِهِ . وَخَضَرَ فِي صُحْبَتِهِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَأَطْلَعَ عَلَى سِرِّهِ .

وكانت وفاته قُبِيلَ الْمَغْرَبِ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ ، رَابِعَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ . وَدُفِنَ مِنَ الْغَدِ ، بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ ، بِثَرْبَتِهِ بِالْقَرَّافَةِ الصَّغْرَى ، بِالْقَرْبِ مِنْ تَرَبَةِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ . وَتَوَلَّدَهُ بِمَكَّةَ - شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى - فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ، خَامِسَ ذِي الْحِجَّةِ ، سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

وفيهما ، تُوفِّيَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ زَكِيُّ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَظِيمِ ، بَنُ عَبْدِ الْقَوَى بَنِ عَبْدِ اللَّهِ بَنِ سَلَامٍ ، بَنِ سَعْدِ بَنِ سَعِيدِ الْمُتَلَدِرِيِّ .

(١) لأنه ينسب إلى المَهْلَبِ بْنِ أَبِي سُفْرَةَ : القائد الكبير في عصر بني أمية .

وكانت وفاته بالقاهرة ، في يوم السبت ، أول الساعة العاشرة ، ثالث
أو رابع ذى القعدة ، سنة وخمسين وستمائة . وَصُلِّيَ عليه في يوم الأحد -
بعد الظهر - بالمدرسة الكاميلية بالقاهرة المُعَرَّية . ثُمَّ صُلِّيَ عليه تحت القلعة .
وَصُلِّيَ عليه عند قبره قبل العصر . ودفن بسفح المقطم . وكان مولده بفسطاط
مصر ، في غرة شعبان ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . وانتهت إليه رئاسة
الحديث في زمانه - رحمه الله تعالى .

وفيا ، توفي الشيخ الفقيه الإمام : أبو إسحاق إبراهيم ، بن يحيى بن
أبي المجد ، الأسوطى الشافعى .

وكانت وفاته بالقاهرة المُعَرَّية ، في عشية اليوم السابع من ذى
القعدة ، من هذه السنة ، ودُفِنَ بسفح المقطم . ومولده في سنة سبعين
 وخمسمائة - تقريباً . وكان أحدَ المشايخ المشهورين بمعرفة مذهب الشافعى .
وكان كثيرَ الإتيار مع الإفتار ، والإفضال مع الإقلال ، كريمَ الأخلاق .
رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة سبع وخمسين وستمائة :

في هذه السنة - ثانی عشر جمادى الآخرة - جُبِيَ التَّسْفِيعُ^(١)
بالقاهرة .

(١) هكذا في النسختين بالسین . وهى ضربة فُرضت ، كانت نجى على البيوت بعد إحصائها . وكان التسفيع
يطلق أولاً على الإحصاء . (دُفِرَتْ في السلوك بالصاد : التصفيع) .

(انظر سلوك - زيادة : ج ١ . ق ٢ - ص ٣٨٤ حاشية ٢)

ونرى أن الرسم الثانى أول ، لأنه وما يكون نسبة إلى التسفيع ، أى المكان .

وفيها ، فى شعبان - أمسك شخص يعرف بالكورانى ، فضرب ضرباً شديداً ، وحبس على يدع رؤيت منه وسُعت عنه . ثم جدّد إسلامه وتاب ، على يد شيخ الإسلام : عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وأُطلق من الحبس . وكان مقامه بالجبل الأحمر .

ذكر القبض على الملك المنصور ، وعلى أخيه قآن ، واعتقالهما

كان القبض على السلطان الملك المنصور ، بن السلطان الملك المُعزّ ، فى يوم الجمعة - السابع والعشرين من ذى القعدة - سنة سبع وخمسين وستائة .

وسبب ذلك أنه تشاغل باللهو واللعب ، والمُسابقة بالحمير القرّه ، بين يديه ، وأمثال ذلك . وكانت أمه تُدبّر المملكة تدبير النساء . فأطمعت الأمير سيف الدين قُطز المُعزّى نفسه بالملك . وافق خروج خُوشدآشيه إلى الصيد ، فانتز الفرصة ، وقبض على الملك المنصور ، وعلى أخيه قآن ، وعلى والدته . واعتقلهما فى برج السلسلة^(١) بكُردمياط ، ثم سَفَر إلى القسطنطينية فى الأيام الظاهرية الرُكنية . فكانت مدة سلطته سنتين ، وثمانية أشهر ، ويومين .

(١) وهو البرج الذى كان مقاماً فى وسط النيل شمال دمياط ، وه سلسلتان متصلتان بالبرلنج السفلى . تقدم ذكره فى الحروب الصليبية .

ذكر أخبار السلطان الملك المظفر
سيف الدين قطز المعزى . وهو الثالث من ملوك
دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الدِيَارَ الْمِصْرِيَّةَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ ، لِلْيَلْتَيْنِ بَقِيْنَا مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ،
سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ - بَعْدَ أَنْ قَبِضَ عَلَى الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، بِنِ مَوْلَاهُ
الْمَلِكِ الْمُعْزَى .

قَالَ : وَلَمَّا مَلَكَ ، حَضَرَ خَوْشَدَاشِيَّتُهُ مِنَ الصَّيْدِ ، وَتَنَكَّرُوا لَهُ ،
وَأَمْتَعَصُوا مِنْ مُلْكِهِ . فَقَبِضَ عَلَيْهِمْ وَاعْتَقَلَهُمْ ، وَأَعْجَلَهُمْ عَنِ التَّدْبِيرِ .
وَهُمْ : الْأَمِيرُ عِلْمُ الدِّينِ سَنَجَرُ الْقَتْمِي ، وَالْأَمِيرُ شَرْفُ الدِّينِ قِيَزَانَ^(١)
الْمُعْزَى ، وَعَزَ الدِّينُ أَيْتُكَ التَّجِيْبِي الصَّغِيرَ ، وَشَمْسُ الدِّينِ قَرَا سُنْقَرُ
الْمُعْزَى . وَاعْتَقَلَ أَيْضاً شَمْسُ الدِّينِ الدَّوْدُ : خَالَ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ بِنِ الْمُعْزَى ،
وَالطَّوَّاشِي حَسَامُ الدِّينِ بِلَالُ الْمُغِيْثِي اللَّالَاءُ .

وَأَسْتَحْلَفَ الْأَمْرَاءَ وَالْعَسَاكِرَ ، وَأَظْهَرَ الْحَزْمَ . وَاسْتَوَزَرَ الصَّاحِبَ زَيْنَ
الدِّينِ بِنِ الزُّبَيْرِ . وَعَزَلَ الْأَمِيرَ حَسَامَ الدِّينِ بِنِ بَازٍ عَنْ وَظِيفَةِ شَادِ الدَّوَاوِينِ .
وَوَلَّى الْأَمِيرَ نُورَ الدِّينِ بِنِ السَّيْدِيدِ . وَاسْتَمَرَّ بِالْأَمِيرِ فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايَ
الْمُسْتَعْرِبِ عَلَى الْأَتَابِكَةِ ، وَفُوضَ إِلَيْهِ أَمْرُ الْعَسَاكِرِ .

(١) هكذا في (ع) بالزاي ، ولكن الأسم ورد في بعض المراجع بالراء .

واحتفل بامر الجند ، واستعد للجهاد . وأرسل إلى الملك الناصر صاحب الشام ، وطلب منه الاتفاق واجتماع الكلمة . والمظاهرة على العدو ، وأن يكونا يدا واحدة على حرب التار . فحلف له على ذلك . ثم كان من أمر الملك الناصر ، واضطراب أمره ، وزوال ملكه ، واستيلاء التار على حلب ودمشق وغيرها - ما قدمناه .

وملك التار الشام بأمره . وجرد هولاكو كتبًا يُؤين في جيش كثيف ، اختاره من المُغل ، وبعثه إلى الشام . وكان من أمره ، وأمر جيوش الشام ، وتخللهم بلاد الشام ، ووصلهم إلى نابلس ، وقتل من قدمنا ذكره بها - ما شرحنا ذلك في أخبار الملك الناصر . فلا فائدة في إعادته .

وفي سنة سبع وخمسين وستائة .

توفي الأمير مُنيّف بن شبيحة ، صاحب المدينة النبوية . وقام بعده بالمدينة أخوه : جَمَاز بن شبيحة .

وفيها ، توفي الشيخ الفاضل الصدر الكبير فتح الدين أبو العباس : أحمد بن الشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان ، بن أبي الحَوَافِر - رئيس الأطباء بالديار المصرية .

وكانت وفاته في ليلة الخميس ، رابع عشر رمضان ، ودفن بالقراقة . وولى رئاسة الأطباء بعده ابنُ أخيه : الصدر شهاب الدين أحمد ، بن محي الدين رشيد بن جمال الدين عثمان ، بن أبي الحَوَافِر .

واستهلَّت سنة ثمان وخمسين وسبعمائة :

ذكر وصول البحرية والشهزورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر

في هذه السنة ، فارق الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى - ومن معه من الأمراء البحريّة - السلطان الملك الناصر صاحب الشام ، لِمَا رآوه من ضعف رأيه ، وتخاذله عن ملاقاته عدوه . وتوجهوا إلى غزّة . واجتمعوا هم والأمراء الشّهزوريّة .

وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس - المذكور - الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى السلطان الملك المظفر ، يستأذنه في الحضور إلى خدمته - هو ومن معه - ويلتمس إيمانه لهم . فأجاب الملك المظفر إلى ما طلب . فتوجه من غزّة بمن معه . وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم السبت ، الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول .

فركب الملك المظفر للقائهم ، وأنزل الأمير ركن الدين بدار الوزارة . وأقطعة قصبة قليوب ، لخاصّه . فأشار الأمير ركن الدين عليه بحرب التار . وقوى عزائمّه على ذلك .

ذكر خبر المصاف^(١) الكائن بين السلطان

الملك المظفر ومن معه من الجيوش الإسلامية ، وبين
جيش التار على عين جالوت^(٢) . وانهمز التار
وقتل مقدمهم كئبغا نون ، وما يتصل بذلك
من الأخبار

لما ملك التار المالك الشامية ، وزالت دولة الملك الناصر صلاح الدين
يوسف من الشام - كما قدمنا ذكر ذلك - راسل كئبغا نون ، مقدم جيش
التار ، السلطان الملك المظفر ، وأرسل إليه ، يطالبه ببذل الطاعة ، وتعبئة
الضيافة . فقتل الملك المظفر رسله ، إلا صبيًا واحدًا ، فإنه استبقاه ، وضمه
إلى جملة ممالكه .

واستعدَّ للجهاد ، وخرج بعساكر الديار المصرية ، ومن انضم إليه من
جيوش الشام - الذين فارقوا الملك الناصر - ومن حضر إليه من الأمراء
البحرية ، والأمراء الشهرزورية ، وغيرهم .

(١) أى : الموقعة الكبيرة ، أو الهامة .

(٢) عرف باقوت هذا المكان الذى حصلت فيه الموقعة التاريخية الحاسمة (وقد حلت بعد عهده) بقوله :
« عين الجالوت : » هى بلدة .. بين بيسان ونابلس ، من أعمال فلسطين .

(معجم البلدان : ج ٦ - ص ٢٥٤)

وقد ذكرنا من قبل أن بيسان هى قصبة القور (أى الأردن) ، ونابلس من فلسطين ، شمالى القدس . بين
الجالوت أو جالوت - كما هو الدافع - تقع إذن بين الأردن وفلسطين ، من جهة فلسطين .

وراسل الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، صاحب حمص - وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب - وقوض إليه نيابة السلطنة بالشام أجمع ، وحلب ، وغير ذلك ، والملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل - وكان قد أخذ من هولاكو فرماناً بالصبيبة وبأنثاس^(١) . وسألها المظافرة والمعاونة على حرب العدو ، وأن تكون الكلمة واحدة . فتوجه رسوله ، واجتمع بالملك السعيد . فسبه وسب من أرسله ، وقال : من هو الذى يوافق هذا الصبي ، أو يدخل فى طاعته أو ينضم إليه ؟! ونحو هذا من الكلام . فقارقه وتوجه إلى الملك الأشرف . فخلا الملك الأشرف بالرسول ، وقبّل الأرض بين يديه تعظيماً لمُرسله . وأجلسه مكانه على مرتبته وجلس بين يديه ، وسمع رسالته . وقال له : قبّل الأرض بين يدي مولانا السلطان الملك المظفر ، وأبلغه عنى أننى فى طاعته وموافقته ، وامتنال أمره . والحمد لله الذى أقامه لتُصرِّق هذا الدين . ووعد أنه ، إن حضر المُصاف مع التار ، انهزم بهم ، إلى غير ذلك . وأعطى الرسول ذهباً جيّداً ، واعتذر إليه .

فعاد الرسول ، وأبلغ الملك المظفر عن كل من المكيين ما قال له . فعامل كلا منهما ، عند ظفّره ، بما نذّره .

(١) قلعتان بالقرب من دمشق . مر ذكرهما

قال : وجمع السلطانُ الملكُ المظفرُ الأمراءَ بالصالحية^(١) ، واستشارهم : أين يكون لقاء العدو؟ فأشاروا أن يكون بالصالحية . وصمّموا على ذلك . فوافقهم على رأيهم ظاهراً . وركب في صبيحة ليلة المشورة من مثيلة الصالحية . وحرك الكوسات^(٢) . ودخل الرَّمْلَ . فأنجرت العساكرُ خلفه ، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه . وسار بعساكره وجموعه ، حتى انتهى إلى عَيْنِ جَالُوتَ - من أرضِ كَنْعَانَ^(٣) ، بالقرب من بَيْسَانَ ، مدينة غَوْرِ الشام .

وأقبل كَتَبَعًا نُورِينَ بجيوش التتار ، ومن انضم إليه . والتقوا واقتتلوا - وذلك في يوم الجمعة ، الخامس والعشرين من شهر رمضان ، سنة ثمان وخمسين وستائة . وثبتَ الملكُ المظفرُ أحسنَ ثَبَاتٍ . حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال : كنتُ خلف السلطان الملك المظفرَ ، لما التحم القتال . ووقعت الضدّةُ الأولى ، فاضطر جناحُ عسكر السلطان ، وتعتع طَرْفُ منه . فلما رأى الملكُ المظفرُ ذلك ، رمى خُوْدَته عن رأسه ، وصاح : وإسلاماه ! وحَمَلَ ، فأعطاه الله تعالى النصر . وكانت الدائرةُ على التتار ، وأخذهم السيف والإسار . وقُتِلَ كَتَبَعًا نُورِينَ ، فِيمَنْ قُتِلَ . وانهزم مَنْ سَلِمَ من التتار ، لا يَلْكُونُ على شيء . وكان الأميرُ ركن الدين بِيَتْرَسُ البندقداري من شهد هذه الوقعة ، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً .

(١) بلدة معروفة بمصر ، في طرف محافظة الشرقية من الشرق .

(٢) الصُّنُجُ التي تُدَقُّ ، إِيذَانًا بِمسير ركب السلطان - كما تقدم .

(٣) فلسطين .

وكان ممن أُسِرَ من التتار ، في هذه الواقعة : كَتَبْنَا المَنْصُورِي - وهو يومئذ شاب - وهو الذى مَلَكَ الديار المصرية - بعد ذلك - في سنة أربع وتسعين وستائة ، ولُقِبَ بالعدل . ووقع في ذلك حكاية غريبة ، نذكرها - ان شاء الله تعالى - عند ذكرنا لسلطنة الملك العادل كَتَبْنَا .

قال : ولما تمت الهزيمة على التتار ، جاء الملكُ السعيد - بن الملك العزيز - إلى السلطان الملك المظفر ، مُسْتَأْمِنًا . وكان شَهِدَ الواقعة مع التتار . فترَجَّلَ عن فرسه ، وتقدم إلى السلطان لِيُقَبِّلَ يَدَهُ . ففصره برجله على قَمِيهِ ، فَأَذْمَاه . وجاء أحدُ سلاح دارية^(١) السلطان ، ففصر عُنُقَهُ ! وفَعَلَ ذلك به ، مؤاخِذَةً له على جوابه ، الذى ذكره لرسول السلطان .

ذكر سير السلطان الملك المظفر إلى دمشق
ووصوله إليها ، وملكه الممالك الشامية ، وما قرره
من ترتيب الملوك والنواب ، وغير ذلك
مما اتفق بدمشق

قال المؤرخ : ولما تم النصر ، تقدم السلطان الملك المظفر ، طالباً جهة دمشق . واتصل [الخبر] بالزين الحافظى ونواب التتار بدمشق ، ومن كان قد وصل - صحبة الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث ، صاحب

(١) السلاح دار هو المتولى شئون أسلحة السلطان . دار بمعنى صاحب - كما تقدم ، غير مرة .

الكَرْك - من جهة هولاء من توريز^(١) ، ليكون شِخْنَةً^(٢) بِالكَرْك ، وكانوا بدمشق . فخرجوا هاربين إلى هولاء .

وكان النصارى بدمشق ، في أيام التار ، قد استطالوا على المسلمين ، ومدوا أيديهم ، وبَسَطُوا أَسْتِهِمْ فِيهِمْ . فلما اتصل خبرُ النصر بالمسلمين ، ثار جماعة من العوام ، وحرقوا كنيسة مريم ، وخرّبوا بعضها . فأقاموا كذلك من يوم الجمعة إلى يوم الثلاثاء . إلى أن وصل الأمير جمال الدين أَقْشَ الْمُحَمَّدي ، بكتاب السلطان الملك المظفر ، ودخل دمشق . ونزل دار السعادة ، وَسَكَنَ النَّاسَ وَطَنَهُمْ .

ثم وصل السلطان في يوم الأربعاء ، سَلَخَ شهر رمضان . ونزل على الجَسُورَةِ^(٣) ، وَخَيَّمَ بِهَا . وَعَبَدَ عِيدَ الْقِطْرِ ، ثم دخل إلى دمشق ، في ثاني شوال ، وَمَلَكَ الْبِلَادَ .

ورُتِبَ النَّوَابَ في الممالك الشامية : ففُوضَ نيابة دِمَشْق إلى الأمير - عَلَمِ الدِّينِ سَنَجَرِ الْحَلَبِيِّ - الصَّالِحِيِّ . وجعل معه الأميرَ فخر الدين : أبا الهَيْجَا بن خُشْتَرِينَ . وأقر الملك الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته ، بِحِمَصَ والرَّحْبَةِ وَتَدْمُرَ . وبعث الملك المظفر بن الملك الرحيم - بدر الدين

(١) هي نفسها «توريز» ، ولكنها ابقيناها على رسمها كما هي في (ع) ، لأن هذه لغة فيها .

(٢) الشِخْنَةُ : الحامية التي تُترك في المدينة لحفظها - كما كان في اصطلاح ذلك العصر .

(٣) موضع بظاهر دمشق .

لؤلؤ - إلى حلب نائباً بها ، ونعنه بالملك السعيد - لمشاركة الثغث . وأقر الملك
النصور بن الملك للمظفر على مملكته بحماه . وأقطع البلاد الشامية والحلبية .
وأصلح ما اضطرب من الأمور . وعاد لقصد الديار المصرية ، فقتل - قبل
وصوله إليها .

ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز ، ونبذة من أخباره

كان مقتله - رحمه الله تعالى - في يوم السبت ، الخامس عشر من ذى
القعدة ، سنة ثمان وخمسين وستائة - وقيل في سابع عشر الشهر .

وذلك أنه لما قرّر أمور الشام ، ورتب الملوك والنواب والممالك ، عاد من
دمشق لقصد الديار المصرية ، في سادس عشر شوال . فلما وصل إلى مَثَرَلَةِ
القَصِير من منازل الرُّمْل^(١) ، ركب إلى الصيد . وكان الأمير بدر الدين أنص^ر
الأصفهاني ، وجماعة معه ، نظافروا هم والأمير ركن الدين بيبرس
البندقداري ، على اغتياله . فقصدوه - وهو في الصيد - وقتلوه غيلة !

(١) ذكرها أن الرمل كان يُقصد به المنطقة التي تقع بين فلسطين ومصر . وفيها طريق الشام . والقَصِير - المقصود
هنا - هو : بلد بمصر بطريق الرمل ، بينه وبين الصالحية مرحلة . وموضع اليوم قرية الجعافرة إحدى قرى
مركز فاقوس بمحافظة الشرقية .

وحكى في كيفية قتله : أنه كان قد تغير خاطره على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما تقدم الأمراء إليه ، سأله الأمير بدر الدين أنص^١ الرضا عن الأمير ركن الدين . فقال : قد رضى عنه . فترجل الأمير ركن الدين ليُقبَلَ يده . فلما تناوها قبضَ عليها ، وجذبه عن سرجه ، وبذره أولئك الأمراء بالضرب ، فقتلوه - رحمه الله تعالى .

ويقال : إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله [هم] : الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى - خوشدأشه^(١) - والأمير بدر الدين بكتوت الجوكان^(٢) دار^(٣) المعزى ، والأمير سيف الدين بيغان الركنى ، والأمير سيف الدين بلبان الهارونى ، ومن ذكرنا .

وكان الملك الظاهر يدعى أنه هو الذى قتله بيده . وقال جماعة : إنه لم يباشر قتله ، وإنما كان يدعى ذلك ، افتحاراً . وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قبضَ على يده ، ضربه الأمير بدر الدين بكتوت الجوكان دار على عاتقه بالسيف ، فأبأنه . وألقاه الأمير بدر الدين أنص عن فرسه . ثم رماه الأمير سيف الدين بهادر المعزى بسهم ، أتى على روحه - رحمه الله تعالى . فكانه المعنى بقول الشاعر :

وما كان إلا السيف ، لاقى ضريبة^(٣) فقطعه ، ثم انثنى فتقطعا

(١) زميله في الخيمة والشاة - كما سبق ذكره .

(٢) معنى هذا اللقب : حامل أو صاحب «جوكان» السلطان (أى الصولجان) أثناء لعبة الصراجة .

(القلقشندي : ج ٥ - ص ٤٥٨)

وهذه هى اللعبة أو الرياضة التى تعرف اليوم باسم «البولو» .

(٣) أى مماثله ونظيره : سبأ مثله .

وكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا ، وسبعة عشر يوماً .

وأما غير ذلك من أحواله - رحمه الله تعالى - : فقد حكى أنه كان من أولاد الملوك الخوارزمية . وأنه محمود بن ممدود ، ابن أخت السلطان خوارزم شاه . وإنما أُبيع ، لما استولى التتار على البلاد ، وملكوا مُلك الخوارزمية . وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان ، وكان هو ممن أُسر وأُبيع . وقد كان هو يُصرِّح بذلك - فيما حكى عنه - ويستكتم من يحكيه له .

وقد نقل الشيخ شمس الدين : محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم ابن عبدالعزيز ، بن أبي الفوارس الجزي ، ثم الدمشقي - في تاريخه : « حوادث الزمان وأنبائه » أن والده أخبره أن الحاج على الفراش أخبره ، قال :

« لما كان قُطز في رِقْ ابن الرِّيم ^(١) بدمشق - وكان سكنه بالقصاعين ^(٢) - غضب عليه في بعض الأيام فلطم وجهه ، ولعنه ولعن والدته وجده . قال : فبكى قُطز بكاء شديداً ، وجعل يتحجب طولَ نهاره ، وامتنع من الأكل . وركب أستاذَه بعد صلاة الظهر إلى الخدمة ، فقال لى : استرضيه وأطعمه ، واغثه على بكائه .

(١) رجل من دمشق .

(٢) درب بدمشق ، إزاء سوق الفسار (الذي يعرف اليوم باسم سوق مدحت باشا) .

(النجوم الزاهرة : ج ٧ - ص ٨٥)

(حاشية ٢)

قال القَراش : فجثتُ إليه وجعلتُ ألومه على بكائه من لكمة واحدة ، فكيف لو ضُربتُ ألفَ عصاة أو دُبوس ، أو جُرِحتَ بسيف ؟ ! فقال : والله ما بُكائي وغيظي من أجل لكمة ، وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدى . قلت له : ومن أبوك وجدك وأمك ؟ فقال : والله أبي خير من أبيه ، وأمي خير من أمه ، وجدى خير من جده . قلت له : أنت مملوك تركى ، كافر بن كافرين .

فقال : والله ، ما أنا إلا مسلمٌ ، ابن مسلمين : أنا محمود بن ممدود ، ابن أخت خُوَارِزْم شاه ، من أولاد الملوك . قال : فسكتُ عنه وطأيتُهُ . وَثَقُلْتُ به الأحوالُ ، إلى أن مَلَكَ الديار المصرية والشام . ولما ملك دمشق أحسن إلى الحاج على القراش المذكور ، وأعطاه خمسمائة دينار ، ورتب له راتباً جيّداً .

قال الشيخ شمس الدين : وقد حَكَى لى ولوالدى ، هذه الحكاية عنه . هذا معنى كلامه وَلَفَظُهُ .

ومما يُؤيِّدُ هذه الحكايةَ أيضاً - ويشهد لها - ما حكاه الشيخُ شمس الدين - المذكور - عن والده ، قال : حَكَى لى الحاج أبو بكر بن الدَّرَنِيهِم الإِسْعَرْدِي ، والحاج زكى الدين إبراهيم الجَزَرِي - المعروف بالجُبَيْلِي ، أستاذ الفارس أَقْطَاى - قالوا :

كنا عند الأمير سيف الدين قُطُرْ فى أول دولة أستاذَه : الملك المَعِزْ ، وقد حَضَرَ عنده مُتَجَمُّ ورد من بلاد المغرب - وهو موصوف بالحِذْق فى علم الرَّمْل والفَلَك . فأمر قُطُرْ أَكْثَرَ مَنْ عنده من حاشيته بالانصراف ، فانصرفوا .

وَهَمَمْنَا بِالْقِيَامِ ، فَأَمَرْنَا بِالْجُلُوسِ ، فَجَلَسْنَا . وَمَا تَرَكَ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ يَتَقُّ بِهِ مِنْ خَوَاصِّهِ . وَقَالَ لِلْمُنَجِّمِ : اضْرِبِ الرَّمْلَ . فَفَعَلَ . وَحَدَّثَهُ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، مِمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ .

وَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ لَهُ : اضْرِبِ وَانْظُرْ مِنْ يَمِينِكَ بَعْدَ أَسْتَاذِي ، وَمِنْ يَسَارِ التَّارِ ؟ فَضَرَبَ ، وَحَسِبَ حِسَاباً طَوِيلاً ، وَبَنَى يَفْكراً وَيَعُدُّ أَصَابِعَهُ . وَقَالَ : قَدْ طَلَعَ مَعِيَ خَمْسُ حُرُوفٍ بِغَيْرِ نَقْطٍ ، وَأَبُوهُ أَيْضاً خَمْسُ حُرُوفٍ بِغَيْرِ نَقْطٍ . وَأَنْتَ اسْمُكَ ثَلَاثُ حُرُوفٍ ، وَابْنُ السُّلْطَانِ كَذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ : لِمَ لَا تَقُولُ : مُحَمَّدٌ بْنُ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ الْمُنَجِّمُ : لَا يَقَعُ غَيْرُ هَذَا الْاسْمِ . قَالَ قَطْرٌ : أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ مُحَمَّدٍ . وَأَنَا أَكْثَرُ التَّارِ ، وَأَتَعَدُّ بِأَرْخَالِي خَوَازِمَ شَاهٍ . ثُمَّ اسْتَكْتَمْنَا هَذَا الْأَمْرَ . وَأَنِمَّ عَلَى الْمُنَجِّمِ بِثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَصَرَفَهُ .

وَحُكِيَ عَنِ الْمُؤَلَّى لِلْمَرْحُومِ تَاجِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَثِيرِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مَا مَعْنَاهُ :

أَنَّ الْمَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ يَوْسُفَ صَاحِبَ الشَّامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لَمَّا كَانَ عَلَى بَرْزَةِ^(١) ، فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ - وَصَلَ إِلَيْهِ قُصَادُ^(٢) مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، بَكْتَبٍ ، تَتَضَمَّنُ أَنَّ قَطْرًا قَدْ تَسَلَّطَ وَمَلَكَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَقَبِضَ عَلَى الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَسْتَاذِهِ الْمَلِكِ الْمُعْزِ . قَالَ الْقَاضِي تَاجُ الدِّينِ : فَطَلَبَنِي السُّلْطَانُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ .

(١) قرية كبيرة في غوطة دمشق . سبق ذكرها ، غير مرة .

(٢) جمع قاصد ، وهو الرسول .

فقال لى : نَحْذُ هذه الكتب ، وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القَيْمَرى ، والأمير جمال الدين بن يَمُور ، وأَوْفَقَ كلاً منهما عليها . قال : فأخفتها وتخرجت من عنده . فلما بعدتُ عن الدَهْلِيز ، لقيني حسام الدين البركة خانى^(١) ، فسلم على ، وقال ، جاءكم بَرِيدٌ أو قُصَادٌ من الديار المصرية فَوَرَّيْتُ^(٢) ، وقلتُ : ما عندى عِلْمٌ بشيء من هذا . قال : قُطِرَ يتسلطن ، ويملك الديار المصرية ، ويكسر التار . قال القاضى تاج الدين : فعجبت من كلامه ، وقلت له : إيش هذا القول ؟ من أين لك هذا ؟

قال : والله ، هذا قُطِرُ هو خُوشْدَاشى^(٣) . كنت أنا وإياه عند الهَيَجَاوى من أمراء مصر ، ونحن صبيان وكان عليه قَمَلٌ كثير ، فكنت أُسَرِّحُ رأسه - على أننى كلما أخذتُ عنه قلة ، آخذ منه قَلَساً أو صَفْعَةً . فلما كان بعضُ الأيام أخذتُ عنه قَلاً كثيراً . وشرعت أصفعه ، ثم قلت فى غُضُونِ ذلك : والله ما أَشهى إلا أن الله يرزقنى إمرةَ خمسين فارساً ، فقال لى : طَيِّبَ قلبك ، أنا أعطيك إمرةَ خمسين فارساً . فصفعته . وقلت : وَاللَّك^(٤) ، أنت تعطينى إمرة ؟ ! قال نعم ! فصفعته ! فقال لى : وَاللَّك ، إيش يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس . أنا والله ، أُعْطِيكَ . قلت : وَاللَّك ، كيف تُعْطِينى ؟ .

(١) نسبة إلى «بركة خان» الذى كان مقدم أى رئيس الخوارزمية .

(٢) أى تبيتُ بعبارة مبهمة فيها تورية .

(٣) زميل فى التناؤ والخدمة - كما تقدم .

(٤) يبدو أنها صيغة من «وبلك» مثل «وبلك» وقد سمعنا .

قال : أَمْلِكُ الدِيَارَ المِصْرِيَّةَ : قلت : تَمْلِكُ الدِيَارَ المِصْرِيَّةَ ؟
قال : نعم ، رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام ، وقال لي : أَنْتَ
تَمْلِكُ الدِيَارَ المِصْرِيَّةَ ، وتَكْثِرُ التَّارَ . وقولُ النبي صلى الله عليه وسلم لا شك
فيه . فسَكَتَ . وكنت أعرف منه الصَّدَقَ في حديثه وَعَدَمَ الكَذِبَ .

وَتَنَقَّلْتُ به الأحوال ، وارتفع شأنه . إلى أن صار هو المحتكم في
الدولة . وما أشك أنه يملك الديار المصرية - مستقبلاً - ويكسر التار -
كم أخبره النبي صلى الله عليه وسلم - في المنام .

قال القاضي تاج الدين : فلما قال لي هذا القول ، قلت له : والله قد
وَرَدَتِ الأخبارُ أنه تَسْلُطَنَ في الديار المصرية . قال لي : والله ، وهو يَكْثِرُ
التار . فما مضى إلا مدةٌ يسيرة ، حتى خرج وكسر التار .

قال المولى تاج الدين - رحمه الله - فرأيت الأمير حسام الدين البركة
خاني ، الحاكِمَ لي - بعد ذلك - بالديار المصرية ، بعد كَسْرَةِ التار . فسَلَّمَ
علي وقال لي : تَذَكَّرُ ما قلتُ في الوقتِ الْفُلَانِي ؟ قلت : نعم . قال : والله ،
حَالَمًا عاد الملك الناصر ^(١) من قَطِيًّا ^(٢) ، ودخلتُ أنا إلى الديار المصرية ،
أعطاني إِمْرَةً خمسين فارساً ، كما قال - رحمه الله - لا زَايِدَ على ذلك .
وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ قطبُ الدين البُونِينِي ^(٣) في تاريخه ،
وقال أيضاً :

(١) يقصد : السلطان مُطَرُ .

(٢) ذُكِرَتْ من قبل ، وهي موقع بين العريش والقرقا على ساحل البحر ، في الطريق من الشام إلى مصر .

(٣) نسبة إلى « بونين » وهي قرية من قرى بعلبك . ووفاته سنة ٧٢٦ هـ .

وتاريخه هو : « الذيل على مرآة الزمان » .

وَحَكَى لى الأمير عز الدين بن أبى الهيثج ما معناه : أن الأمير سيف الدين بُلُفَاق حدثه ، أن الأمير بدر الدين بَكْتُوتُ الأتابكى حَكَى له ، قال :

كنتُ أنا والملك المظفر قُطْرُ ، والملك الظاهر ركن الدين بَيْرَسَ - رحمهم الله تعالى - فى حال الصِّبَا ، كثيراً ما نكون مجتمعين فى ركوبنا وغير ذلك . فاتفق أن رأيتنا مُتَّجِماً فى بعض الطرق بالديار المصرية . فقال له الملك المظفر : أَبْصِرْ نَجْمِي . فضرب بالرمل وحَسَبَ ، وقال له : أنت تملكُ هذه البلاد ، وتكسر التتار ! فشرعنا نَهْزَأُ به . ثم قال له الملك الظاهر : فَأَبْصِرْ نَجْمِي . فضرب بالرمل وحَسَبَ ، وقال : وأنت تملك الديار المصرية وغيرها . فتزايد استهزأونا به ! ثم قالالى : لا بد أن يُبْصِرَ نَجْمُكَ . فقلت له أَبْصِرْ لى . فضرب وحَسَبَ ، وقال لى : وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس ، يعطيك هذا - وأشار إلى الملك الظاهر . فاتفق أن الأمر وَقَعَ كما قال . وهذا من عجيب الاتفاق .

قال الشيخ قطب الدين اليونى - نَفَعَ الله به - :

وكان السلطانُ الملكُ الْمُظْفَرُ بَطْلاً شجاعاً ، ولم يكن يُوصَفُ بِشُحٍّ ولا كَرَمٍ ، بل كان متوسطاً . وهو أول من أجزأ على التتار ، وكَسَرَهُمْ ، بعد خَوَارَزْم شاه ، كَسَرَةً عظيمة ، جَبَرَ بها الإسلام .

قال : وما حُكِيَ لى عنه : أنه قُتِلَ في يوم المُصَافِ^(١) جَوَادُهُ بِعَيْنِ
جَالُوتَ ، ولم يُصَادِفْ في تلك الساعة أَحَدٌ من أُوشَاقِيَّتِهِ^(٢) ، الذين معهم
جَنَائِثُهُ ، فَبَقِيَ رَاجِلًا . وَرَأَاهُ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ الشُّجْعَانِ ، فَنَزَلَ عَنْ حِصَانِهِ
وَقَدَّمَهُ لَهُ لِيَرْكَبَهُ . فَاِمْتَنَعَ ، وَقَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ : مَا كُنْتُ لِأَخْذِ حِصَانِكَ فِي
هَذَا الْوَقْتِ ، وَأَمْنُ الْمُسْلِمِينَ الْإِنْتِفَاعُ بِكَ ، وَأَعْرَضْتُ لِلْقَتْلِ . وَحَلَفَ عَلَيْهِ
أَنْ يَرْكَبَ فَرَسَهُ . فَاِمْتَنَعَ أَمْرَهُ ، وَرَكِبَ . وَوَفَّاهُ الْأَوْشَاقِيَّةُ بِالْجَنَائِبِ^(٣) ،
فَرَكِبَ جَنِيْبًا .

فَلَامَهُ بَعْضُ خَوَاصِّهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : لَوْ صَادَفَكَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -
بَعْضُ الْمَقْتُلِ ، وَأَنْتَ عَلَى الْأَرْضِ رَاجِلًا ، كُنْتَ رُحْتَ ، وَرَاحَ الْإِسْلَامُ !
فَقَالَ : - أَمَا أَنَا فَكُنْتُ أَرْوَحُ إِلَى الْجَنَّةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَمَّا الْإِسْلَامُ ،
فَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُضَيِّعَهُ . فَقَدْ مَاتَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ ، وَقُتِلَ وَلَدُهُ الْمَلِكُ
الْمُعَظَّمُ ، وَالْأَمِيرُ فَخْرُ الدِّينِ بْنِ الشَّيْخِ - مُقَدِّمُ الْعَسَاكِرِ - وَنَصَرَ اللَّهُ
الْإِسْلَامَ ، بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ نَصْرِهِ - يُشِيرُ إِلَى نَوْبَةِ الْمَنْصُورَةِ^(٤) .

(١) أى الموقعة .

(٢) جمع «أوشاق» - ويُقال أيضاً «أوشاق» - وهو الذى يتولى ركوب الخيل للسير والرياضة .

(صح الأصبهاني : ج ٥ - ص ١٥٤)

(٣) الجَنِيْبُ هو الحصان الذى يؤخذ مع الفارس ، احتياطاً ، ليستبدل به فرسه عند الحاجة .

(٤) أى الموقعة التى حدثت بالمنصورة .

قال : ولما قَدِمَ إلى دمشق بعد الكثرة ^(١) ، أُجترى الناسَ كافةً ، على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصرية ، في روايتهم ومقرراتهم وإطلاقاتهم . ولم يتعرض إلى مالو أحد ، ولا إلى ملكيه .

ثم تَوَجَّهَ ^(٢) ، بعد تقرير قواعد الشام . فزقه الله الشهادة ، فقُتِلَ مظلوماً . رحمه الله تعالى .

مَعِينُ التَّارِيخِ لأهل التَّارِيخِ

(١) أي هزيمة التتر على أيدي جيش مصر .

(٢) أي إلى مصر .

٤٧٧ ٤٧١ ٤٧٩ ٤١٨ ٤١٤ ٤١٠ ٤٠٦ ٤٠٢ ٣٩٨ ٣٩٤ ٣٩٠ ٣٨٦ ٣٨٢ ٣٧٨ ٣٧٤ ٣٧٠ ٣٦٦ ٣٦٢ ٣٥٨ ٣٥٤ ٣٥٠ ٣٤٦ ٣٤٢ ٣٣٨ ٣٣٤ ٣٣٠ ٣٢٦ ٣٢٢ ٣١٨ ٣١٤ ٣١٠ ٣٠٦ ٣٠٢ ٢٩٨ ٢٩٤ ٢٩٠ ٢٨٦ ٢٨٢ ٢٧٨ ٢٧٤ ٢٧٠ ٢٦٦ ٢٦٢ ٢٥٨ ٢٥٤ ٢٥٠ ٢٤٦ ٢٤٢ ٢٣٨ ٢٣٤ ٢٣٠ ٢٢٦ ٢٢٢ ٢١٨ ٢١٤ ٢١٠ ٢٠٦ ٢٠٢ ١٩٨ ١٩٤ ١٩٠ ١٨٦ ١٨٢ ١٧٨ ١٧٤ ١٧٠ ١٦٦ ١٦٢ ١٥٨ ١٥٤ ١٥٠ ١٤٦ ١٤٢ ١٣٨ ١٣٤ ١٣٠ ١٢٦ ١٢٢ ١١٨ ١١٤ ١١٠ ١٠٦ ١٠٢ ٩٨ ٩٤ ٩٠ ٨٦ ٨٢ ٨٠ ٧٦ ٧٢ ٧٠ ٦٦ ٦٢ ٦٠ ٥٦ ٥٢ ٥٠ ٤٦ ٤٢ ٤٠ ٣٦ ٣٢ ٣٠ ٢٦ ٢٢ ٢٠ ١٦ ١٢ ١٠ ٦ ٢ ٠

انتهى الجزء التاسع والعشرون
من كتاب « نهاية الأرب » للنويرى
الحمد لله

فهرس موضوعات

الجزء التاسع والعشرون

من كتاب نهاية الأرب

في فنون الأدب للنويرى

الصفحة

٥	تمهيد
٩	ذكر أخبار السلطان الملك العادل سيف الدين أنى بكر بن أيوب ، وسلطته
١٢	ذكر الغلاء الكائن بالديار المصرية فى الدولة العادلية وهو الغلاء المشهور
١٣	ذكر وفاة القاضي الفاضل وشئ من أخباره
١٩	ذكر الحلف الواقع بين الأمراء الصلاحية والسلطان الملك العادل
٢٦	ذكر اتفاق الملوك الأيوبية وما استجر لكل منهم من الممالك
٢٨	ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية وغيرها
٣٢	ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون
٣٢	ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن وقيام أخيه نجم الدين أيوب
٣٦	ذكر حصار ماردین وما حصل من الاتفاق
٤٠	ذكر قصد العادل بلاد الفرنج
٤١	ذكر انتقال السلطنة من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل
٤١	ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخلع للملك العادل وأولاده ووزيره

الصفحة

- ٤٣ ذكر استيلاء الملك الأوحى بن السلطان الملك العادل على خلّاط
- ٤٩ ذكر حصار الملك العادل مينجار ورجوعه عنها وأخذ نصيبين والخابور
- ٥٣ ذكر بناء القبة على هريج الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - وعارة السوق ..
- ذكر عزل الصاحب صلى الدين عبد الله بن على بن شكر وولاية الصاحب الأعز بن شكر
- ٥٥ ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعطاله والاستيلاء على قلاعه
- ٥٩ ذكر وفاة الملك الأوحى صاحب خلّاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها
- ٦٢ ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل ورجعه
- ٦٣ ذكر استيلاء الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن
- ٦٥ ذكر القبض على الصاحب الأعز
- ٧١ ذكر مصادرة الصاحب صلى الدين بن شكر وتغلبه من الديار المصرية
- ٧٦ ذكر مسير السلطان إلى الشام
- ٧٨ ذكر قصد الفرنج جيزين وقتلهم
- ٨٠ ذكر تخريب حصن الطور
- ٨١ ذكر وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر : محمد بن أيوب وشئ من أخباره
- ٨٢ ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل وما اسطر لهم من الممالك والإقطاع ...
- ٨٤ ذكر أخبار السلطان الملك الكامل ناصر الدين بن السلطان الملك العادل سيف الدين ، أبى بكر محمد بن أيوب
- ٨٧ ذكر نزول الفرنج على ثغر ديباط
- ٨٧ ذكر حوادث وقعت فى مدة حصار ثغر ديباط
- ٨٨ ذكر وصول الملك العظيم عيسى - صاحب دمشق - وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه
- ٩٠ ذكر وصول الصاحب صلى الدين بن شكر ووزارته
- ٩٢ ذكر خراب القدس
- ٩٣ ذكر استيلاء الفرنج على ديباط
- ٩٤ ذكر عود الملك العظيم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده
- ٩٥ ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب وإيقافها أملاكها ، وتفرقة أموالها ، وما فعله الملك

الصفحة

- ٩٦ المعظم مع قاضى الشام : بسبب ذلك
 ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانزاع الفرنج واستعادة نجر
 ١١٣ دمياط . وتقرير الهدنة
 ١١٨ ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام
 ١٢١ ذكر توجه الملك المسعود بن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز . وما عتمده
 ١٢٥ ذكر ملك الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل مكة
 ذكر عصيان الملك المظفر شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف وقتاله .
 ١٢٦ وانتصار الملك الأشرف
 ١٢٨ ذكر وصول الملك المسعود من اليمن
 ١٣١ ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس بالديار المصرية
 ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل ، وطلب الصلح بينهم
 ١٣٥ والاتفاق
 ١٣٩ ذكر هدم مدينة تَنْبُيس
 ١٤٠ ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه المعظم
 ذكر وفاة الملك المعظم عيسى : وشي من أخباره وسيرته ، وقيام ولده الملك الناصر
 ١٤٣ داود
 ١٤٩ ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج
 ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحصارها ، وأخذها من ابن أخيه : الملك الناصر
 ١٥٣ داود : واستقرار الملك الناصر بالكرك وما معها
 ١٥٥ ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف
 ١٥٦ ذكر أخذ مدينة حمّاه وتسليمها للملك المظفر
 ١٥٧ ذكر وفاة الملك المسعود ، صاحب اليمن
 ١٦٢ ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك
 ١٧٠ ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمد وحصن كيفا
 ١٧٣ ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد ، وعوده هو ورسول الخليفة بالتقليد
 ١٩٠ ذكر ركوب الملك العادل بشعار السلطنة
 ١٩٨ ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم

الصفحة

- ٢٠٧ ذكر إنشاء جامع التوبة بالعقبة بدمشق
- ٢١٦ ذكر وقوع الوحشة بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف
- ٢١٧ ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر
- ذكر وفاة الملك الأشرف وشئ من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل بإخراجه
- ٢١٨ من الملك
- ذكر ملك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل - بن الملك العادل - دمشق . ووصول
- ٢٢٣ الملك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها
- ٢٢٧ ذكر وفاة السلطان الملك الكامل
- ٢٢٨ ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل في هذه السنة
- ٢٣٠ ذكر ما وقع بين الملكين : الناصر والجلو ، وهرب الناصر إلى الكرك
- ٢٣٢ ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ببلاد الشرق في هذه السنة
- ٢٣٤ ذكر أخبار السلطان الملك العادل
- ٢٣٦ ذكر ما وقع في هذه السنة من الحوادث - خلاف ما تقدم -
- ٢٣٨ ذكر القبض على صاحب صق الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله
- ٢٣٩ ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب
- ٢٤٣ ذكر أخبار الملك الجواد ، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق
- ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل ، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم
- ٢٤٩ الدين أيوب بدمشق
- ٢٥٠ ذكر وصول الملك الناصر داود - صاحب الكرك - إلى السلطان الملك العادل
- ٢٥٢ ذكر عود السلطان الملك العادل من بليس إلى قلعة الجبل
- ٢٥٣ ذكر قتال الفرنج وفتح القدس
- ٢٥٤ ذكر وفاة الملك المجاهد صاحب حمص
- ٢٥٥ ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالأنشأريف
- ٢٥٦ ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخلفه
- ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل -
- ٢٥٧ وما كان من أمره بعد وفاة أبيه إلى أن ملك الديار المصرية
- ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين

الصفحة

- ٢٦٠ أنى بكر محمد بن أيوب - على دمشق
- ٢٦٣ ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكرك
- ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك ، وما كان من أمره إلى أن ملك الديار
- ٢٦٥ المصرية
- ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من
- ٢٦٧ ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية
- ٢٦٨ ذكر عود الملك الناصر داود إلى الكرك
- ٢٧١ ذكر عدة حوادث وقعت في سنة سبع وثلاثين وسبائة خلافا لما تقدمناه
- ذكر سير الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق منها لقصد الديار المصرية ، وقتاله
- ٢٧٧ الملك الناصر صاحب الكرك وعوده إلى دمشق
- ذكر تسليم صفد وغيرها للفرنج وما فعله الشيخ عز الدين بن عبد السلام - بسبب
- ٢٧٨ ذلك - وما اتفق له مع الملك الصالح
- ذكر صرف القاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبل ،
- ٢٨٢ وتطويف ذلك للقاضي القضاة بدر الدين السنجارى
- ٢٨٢ ذكر وفاة القاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة ، وشئ من أخباره
- ذكر وصول شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام - إلى الديار المصرية ، وما اتفق له
- بعد عروجه من الشام إلى أن وصل ، وتطويف القضاء بمصر والخطابة بها - وغير
- ٢٩٤ ذلك - إليه ، وما فعله ، وعزله نفسه
- ذكر الاتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين : نجم الدين أيوب صاحب مصر ،
- ٣٠٢ وعاد الدين إسماعيل صاحب دمشق
- ذكر الواجهة الكائنة بين عسكر مصر - ومن معه من الخوارزمية - وبين عسكر الشام -
- ٣٠٥ ومن تابعهم من الفرنج - وانهمام الفرنج وعسكر الشام ، على غزه
- ٣٠٨ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه وملك ولده المنصور
- ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق وأخذها من عمه الملك الصالح
- ٣١٠ إسماعيل ، وعود الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها
- ٣١٤ ذكر وفاة الأمير صاحب معين الدين
- ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق ، وما حصل بها من الغلاء

الصفحة

- ٣١٤ بسبب الحصار
ذكر وقعة الحوارزمية وقتل مقدمهم ، واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعاليها ،
٣١٩ وصرخه
ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك ، وخروج
٣٢٢ الملك الصالح إسماعيل عنها
٣٢٣ ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حمص ، ولقيام ولده الملك الأشرف
ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام وما استولى عليه في هذه
٣٢٣ السفرة ، وما قرره ، وعمره
٣٢٧ ذكر القبض على الأمير عز الدين أيك المعظمى ، ووفاته
ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق وما
٣٢٨ اعتمده
٣٢٩ ذكر وفاة الملك المنصور شهاب الدين غازى ولده الملك الكامل
٣٣٤ ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط
٣٣٥ ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكرك وبلادها
٣٣٦ ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب
٣٣٨ ذكر خبر الأمير فخر الدين أبى الفضل يوسف بن الشيخ - وقتله
ذكر أخبار السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه وهو التاسع من ملوك الدولة
٣٤٠ الأيوبية بالديار المصرية
٣٥٤ ذكر عدة حوادث كانت في سنة سبع وأربعين وستائة ، غير ما تقدم
٣٥٥ ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم ريدافرنس
٣٥٩ ذكر مقتل السلطان الملك المعظم
٣٦٢ ذكر ملك شجر الدر : والده خليل ، سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب
٣٦٣ ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدافرنس
٣٦٣ ذكر خلع شجر الدر نفسها من الملك وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية
٣٦٤ الأيوبيون في غير الديار المصرية
٣٦٦ ذكر استيلاء الملك الناصر على دمشق
ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببلاد . وما جهزه

الصفحة

- ٣٧٠ صحبته من الهدايا والتقديم وما أورده الرسول في الديوان العزيز من كلامه
- ٣٧٧ الحرب بين الملك الناصر والملك المعز
- ٣٧٩ ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابة السلطان علاء الدين كيقباد
- ٣٨١ ذكر سبابة أخبار الملك الناصر ومراسلته هولاءكو . وغير ذلك من أحواله
- ٤١٤ ذكر أخبار دولة الترك
- ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم . واتصالهم بملوك
- ٤١٥ الاسلام . وما استكثر منهم . وتعالى في اتباعهم وقدمهم على العساكر
- ٤١٩ السلطان الملك المعز عز الدين أيلك التركمانى الصالحى
- ٤٢٠ ذكر الحرب الكاثنة بين الملك الناصر والملك الناصر صاحب الشام . وانتصار المعز
- ٤٢٦ ذكر الصلح بين الملكين : المعز والناصر
- ٤٢٧ ذكر خبر عربان الصعيد . ورحلة الأمير فارس الدين أقطاى إليهم وإبادتهم
- ٤٢٩ ذكر خبر الأمير فارس الدين أقطاى . وما كان من أمره إلى أن قتل
- ٤٣٣ ذكر أخبار الأمراء البحرية . وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى
- ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيلك الأتقم وخروجه عن الطاعة . وتجريد العسكر إليه وإلى
- ٤٣٩ من وافقه . وانتقاض أمره
- ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضى : تاج الدين عبد الوهاب بن
- ٤٤١ القاضى الأعز خلت
- ٤٤٩ ذكر ما حدث بالمدينة النبوية من الزلازل . والنار التى ظهرت بظاهرها
- ٤٥٤ ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية
- ٤٥٦ ذكر مقتل السلطان الملك المعز وشي من أخباره . ومقتل شجر الدر الصالحية
- ذكر أخبار السلطان الملك المنصور نور الدين : على بن السلطان الملك المعز وهو الثانى
- ٤٥٩ من ملوك دولة الترك بالديار المصرية
- ٤٦١ ذكر أخبار الوزراء ، ومن ولى وزارة الملك المنصور
- ٤٦٨ ذكر القبض على الملك المنصور . وأخيه ذآن . واعتقالهما
- ذكر أخبار السلطان الملك المظفر سيف الدين قطر المعزى وهو الثالث من ملوك دولة
- ٤٦٩ الترك بالديار المصرية

الصفحة

- ٤٧١ ذكر وصول البحرية والشهر زورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر
 ذكر خبر المصاف الكائن بين السلطان الملك المظفر ومن معه من الحيوثن الإسلامية .
 وبين جيش التار على عين جالوت . وانهازم التار وقتل مقدمهم كتيغانوين .
 وما يتصل بذلك من الأخبار ٤٧٢
 ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها . وملكه الممالك الشامية .
 وما قرره من ترتيب الملوك والنواب . وغير ذلك مما اتفق بدمشق ٤٧٥
 ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز . ونبذة من أخباره ٤٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٠/١٩٩٢

ISBN 977-01-2946-1